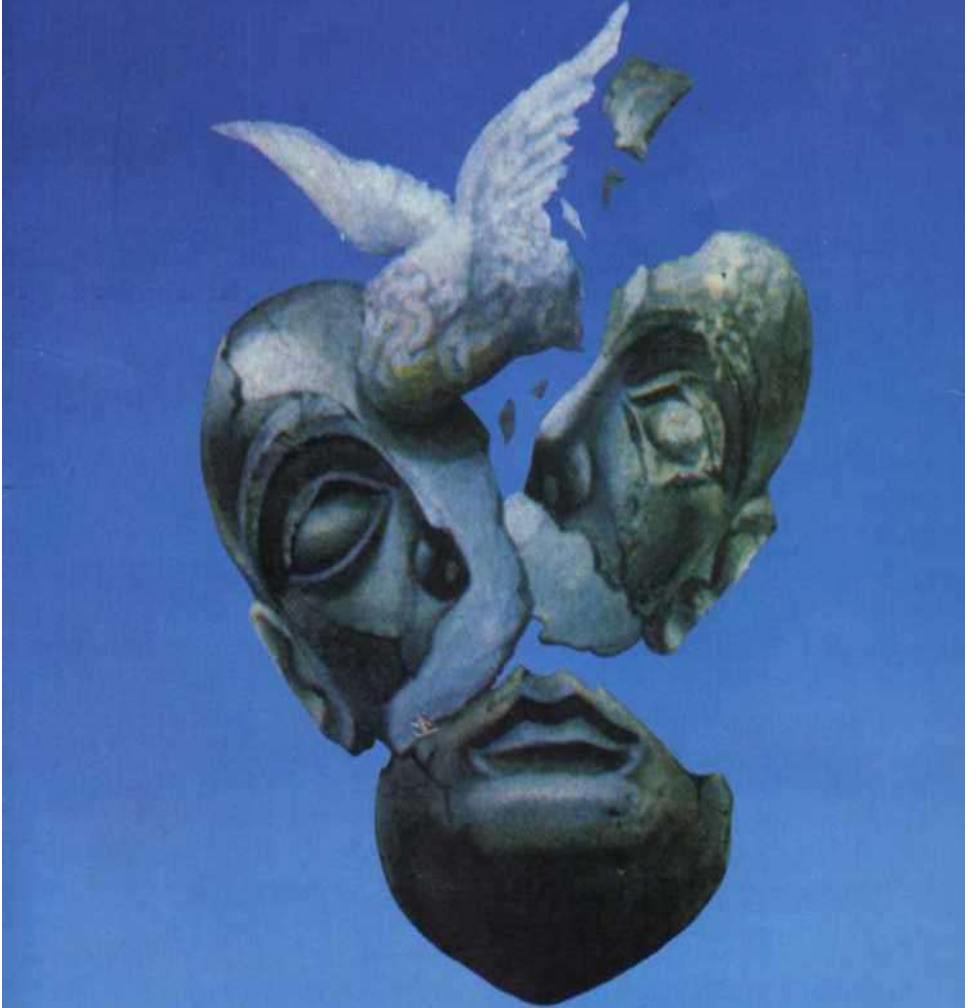


مغامرة العقل الأول

وراءه في الأسطورة، سوريا، أرضه الرافدية - فراسخ النور

نسخة منازة من إعداد سالم الدليمي



مغامرة العقل الأول

وراسة في الأسطورة، سورابا، أرضي الرافدين



فرايس السوراب

عشرون عاماً على "المغامرة"

تقديم للطبعة الحادية عشر

إن تنفذ طبعة كتاب ما من الأسواق خلال بضعة شهور أمر معتاد في عالم الكتب، وأن يُعاد طبعه بعد ذلك مرتين أو أكثر خلال عدة سنوات أمر معتاد أيضاً. أما أن يعيش الكتاب عشرين سنة وتتداول الأجيال عشرين من طبعاته خلال هذه المدة، فأمر نادر الحدوث، وهذا الأمر النادر قد وقع لكتاب (مغامرة العقل الأولى) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٦، وتخرج من المطبعة الآن طبعته الحادية عشر ونحن في عام ١٩٩٦. بعد كل إصدار جديد كنت أقول لنفسني هو الآخر، ثم أفاجأ بالناشر بعد عام أو عامين يطاب الإذن لطبعة أخرى، فتحل النسخ الجديدة محل النسخ النافذة في واجهات المكتبات، ويرفض الكتاب أن يترجل عن مكانه بين مئات الكتب التي تصعد وتهبط رفوف الباعة

من الطبيعي أن يشعر المؤلف بالرضى عن نجاح كتابه، ولكن الرضى قد تحول عندي بعد مدة إلى عجب وحيرة. فلقد قيل عقب صدوره، إن (مغامرة العقل الأولى) قد سد فراغاً في المكتبة العربية، وهذا سبب نجاحه. ولكن لماذا بقي حياً كل هذه السنين رغم موجة الكتب المؤلفة والمترجمة التي استثارها صدوره؟ وما هي الحاجة الي بقي الكتاب يسدّها حتى الآن؟ أصدقكم القول لست أدري، وإن كان لدي بعض التخمينات.

بعد العجب والحيرة، حل عندي في الآونة الأخيرة نوع من الحسد والغيرة، صرت أغار من ذلك الشاب الذي إبتدأ الإعداد (للمغامرة) وهو دون الثلاثين، عندما كان يتسكع مدهوشاً بين

رفوف وفهارس المكتبات الكبرى في بريطانيا وأمريكا، من مكتبة المتحف البريطاني إلى مكتبة المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو، ويُسجل أفكاره المبدئية في مقاهي ساحة البيكاديلي بلندن، وعلى أرصفة وحشائش حدائق واشنطن العاصمة. كان يتصل بمن إستطاع من المؤلفين الذين قرأهم وأحبهم، ولا يتردد في طرق باب شخصيات علمية لا نقل مكانة عن أرنولد توينبي الذي استقبله في داره بلندن. واستمع إليه بتواضع جم وأجاب عن كل ما سأل. وفي الوقت نفسه كان يختلط بالطلبة المتمردين في شوارع واشنطن وحول البيت الابيض والكايتول وضاف البوتاماك، وهم آخر موجة من موجات ثورة الشباب التي انطلقت من باريس عام ١٩٦٨، وبقيت أصدائها تتردد على الجانب الآخر من الأطلسي حتى مطلع السبعينيات بتأثير حرب الفيبينام. كان يحاورهم ويشاركهم المسيرات الصاخبة التي تندد بالحرب وتدعو لإيقافها، ويستمع إلى أحلامهم عن تغيير الحال وإحلال قيم جديدة في المجتمعات الغربية، لهذا، فقد جاء كتابه مزيجاً من غضب الشارع ومن صمت المكتبات، من رائحة العرق ورائحة الورق. ربما لهذا أحبه الشباب أكثر من غيرهم، وربما لهذا بقيت الحاجة إليه قائمة بعد عشرين سنة من ظهوره. ولكن لماذا الغيرة؟ لأن الكتاب كان نتاج مغامرتي المعرفية في بواكيرها الأولى، وهي المغامرة التي تعقدت في مؤلفاتي التالية وإتسعت، ومعها تعقدت واتسعت ساحة السؤال. ومع ذلك فقد بقي كتاب (المغامرة) في مقدمة إخوته، أشبه بالإبن الأصغر المشاكس الذي يرفض المزاحمة. ربما لأن البعض لم يعد يتبين عندي ذلك المزيج الذي أحبه من الثورة والتأمل، أو لأن الثورة عندي لم تعد في وضوح التأمل، رغم أن موقفي من ضرورة الكتابة لم يتغير، فأنا أؤمن بأن الكتابة لا لزوم لها إن لم تنطلق من النقد المستمر لما نعرفه ونركن إليه، ومن المفارقة الدائمة للمألوف في مغامرة غير هيّابة نحو المجهول، تدجّن فينا الخوف من غير المألوف. وكما سيرى القارئ في مقدمة الطبعة السابعة للكتاب، قد كسب (مغامرة العقل الأولى) المواجهة الحاسمة بيني وبينه، عندما أقبلت عليه في محاولة لإجراء بعض التعديلات وتقديم بعض الإضافات، ثم تراجع - وكسب قارئ الكتاب الذي أرادته كما هو خلال عشرين سنة.

فيإلى القارئ أهدي هذه الطبعة الحادية عشر وما يليها مع كل محبة وشكر وعرفان.

فراس السوّاح



مخاطبة

تقديم الطبعة السابعة

إنه إحساس غريب وجميل، ذاك الذي ينتاب المؤلف بعد أن يتصفح كتابه وقد خرج غضاً طرياً من رحم المطبعة الباردة الصلب. إن كل كلمة من كلمات الكتاب وفكرة من أفكاره التي صارعها المؤلف وصارعته وشذبتها وشذبتة خلال ليالي الأرق الطويلة، ينتهي له بنفس القدر الذي تنتهي لنفسها وعالمها وحياتها ومنطقها الخاص.

فالكتاب، كالوليد الجديد الذي ينتهي لأبويه بقدر ما يتمتع بذات منفصلة حقيقية، وجسد مستقل، وحياة تنبض من نفسها ولنفسها. وكلما مرت الأيام ازداد الانفصال ترسخاً والاستقلال توضحاً وتمكناً. وكل عودة لتصفح الكتاب تؤكد للمؤلف هذه الحقيقة التي ليست بحال من الأحوال وهماً أو إسقاطاً. فبعد أن تتداول الأيدي الكتاب وتستطلع العقول، يشتد عوده ويشب عن الطوق شاقاً لنفسه طريقه الخاص، أخذاً مكانه في ثقافة المجتمع وضمائر من قرأه وناقشه وحاجه، فقبل به أم ببعضه أو عارضه فحرّض فيه مواقف مغايرة وأفكاراً جديدة، مخالفة. وعقب سنوات، إذا أقبل المؤلف على كتابه بعد طول انقطاع، لم يجد فيه أثراً لذلك الطفل الأثير المدلل. بل ذلك الكائن المكتفي الممتنع عن التغيير والتبدل، الذي يحاوره محاورّة الند للند.

هذا بالضبط ما حدث لي وأنا أقدم (مغامرة العقل الأولى) لطبعة سابعة.



لقد هممتُ به في محاولة لتعديل هنا وإضافة هناك، ولكنه أبى وتمنّع، وواجهني بمنطق داخلي متماسك، وبناء متراس لا تستطيع انتزاع حجر منه أو إضافة آخر، دون أن تحدث شرخاً يهدد استقراره. فأثرت التراجع وإعطاءه الحق في حياة مستقلة يقرر القراء انفسهم مدى تجاوبها مع حياتهم ومسار تفكيرهم في دورة تداول سابعة.

أمر واحد فقط أود التعقيب عليه لأن البعض اعتبره المحور الأساسي في الكتاب وما هو بذلك. فبسبب المواقف المسبقة التي يبحث أصحابها عن سند لاعتقادهم ودعم: كرسوا (مغامرة العقل الأولى) باعتباره كتاباً في نقد الفكر الديني عموماً، وكان هذا أبعد ما يكون عن أهدافي في الكتاب. لقد قلت في حوار مع إحدى المجلات العربية ما نصه: "لقد كان هني دوماً البحث عن وحدة التجربة الروحية للإنسان عبر التاريخ، بصرف النظر عن مصدر الخبرة الدينية، وهل هي من أصل ما ورائي أم نتاج تجربة إنسانية وكدح روحي". ففي موقفي بعض من تسأول أحد المتصوّفة الذي كان يناجي ربه قائلاً: (من منا اقتحم الصومعة على صاحبه؟) أي هل إن خبرة الإنسان الدينية هي حصيلة لافصاح القدرة الإلهية عن مقاصدها، أم هي كدح من الإنسان لتلمس مقاصد القدرة الإلهية؟. إن الإجابة عن هذا السؤال هي تجربة فردية محضة يعانها كلٌّ في معزله، ولا أسمح لنفسي بالتفكّل عليها بإعطاء إجابة ناجزة قد تعفي البعض من حرية الأرق لتضعهم في قيد طمأنينة مستعارة. ومن ناحية أخرى فإن نوع الإجابة لا يؤثر، في اعتقادي، على جوهر التجربة الدينية وعمقها ونتائجها لدى كل فرد. إن لقاء الإلهي بالإنساني قائم عبر تاريخ الإنسان الروحي، وذلك بصرف النظر عن (من اقتحم الصومعة على صاحبه).

إن الديانات السماوية الباقية اليوم، هي نتاج لإبانة القدرة الإلهية من مقاصدها. ولكن، هل نُسِم بالزيف كل تجربة دينية لثقافة كدحت في التعرف على مقاصد القدرة الإلهية دون عون من وحي؟ إن أكثر الملتزمين بحرفية النصوص المقدسة لا يقدر على الإجابة بنعم مطمئنة عن هذا السؤال. ولمزيد من الإيضاح، أستنجد في هذا المجال بصديقي وصديق كل من قرأه، الكاتب اليوناني (كزانتراكس) الذي أورد في مذكراته المشهد النابض الذي أنقله فيما يلي عن ترجمة الزميل ممدوح عدوان:

"توقفنا بين خرائب القصر القديم قرب عمود مربع من الجص المصقول على قمته العلامة المقدسة منقوشة: الفأس ذات الحدين. ضم الأب كفيه وحتى ركبتيه لحظة ثم حرك شفتيه وكأنه يصلي. استغربت وسألته: ماذا - اتصلي؟. فقال: (طبعاً يا صديقي الشاب كل شعب وكل عصر يمنحه الله قناعه الخاص به. ولكن وراء الاقنعة كلها في كل عصر وفي كل عرق يبقى الله هو ذاته، الله الدائم الذي لا يتغير، إن لدينا الصليب شارة مقدسة لنا وأجدادك الاقدمون في كريت كانت لهم الفأس ذات الحدين. لكنني أنجى جانباً هذه الرموز الفانية وأتسوس الله وراء الصليب ووراء الفأس ذات الحدين. أتسوسه وأنحي له إحتراماً).

دمشق ١/١/١٩٨٨

فأنت

عندما كنا صغاراً، كان أستاذ الجغرافيا يحدثنا عن نظرية لابلاس في نشأة الكون وتشكل العوالم من الكتل السديمية الأولى وتحولاتها. وكنا في جدال دائم حولها وخصام. قال البعض إنها هراء يتعارض والكتب المقدسة التي تقول بخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقال آخرون إننا في عصر لا نستطيع فيه غض الطرف عن الحقائق والمكتشفات العلمية، بحجة التمسك بأهداب الدين. وأذكر أنني مضيت إلى أبي يوماً أسأله كيف خلق الله العالم في ستة أيام، والعلم يقرر أن الكون قد تشكل ببطء عبر مليارات السنين؟ وكان حديثاً طويلاً استمر إلى ساعة متأخرة من تلك الليلة الشتائية.

فتح القرآن الكريم وقرأ لي بضع آيات أذكر منها:

«يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ» (١).

(تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) (٢)

ثم قال: ما طول اليوم الواحد من تلك الأيام الستة التي خلق فيها الله الكون؟

(١) سورة السجدة ٣٢ الآية ٥

(٢) سورة المعارج ٧٠ الآية ٤

أكان ألف سنة مما نعد، أم خمسين ألف أم عدداً آخر من السنين لا يعرفه إلا الله؟. في اليوم التالي مضيت إلى المدرسة بأراء جديدة أحاول من خلالها تقريب وجهات النظر المتعارضة.

مرت الأيام، وعرفنا أن نظرية لابلاس لم تعد صالحة لتفسير النشأة الأولى وإن نظريات أخرى قد حلت محلها. ولأمر ما يتعلق بتلك النقاشات القديمة، بقي اهتمامي قائماً بتتبع أخبار الاكتشافات والفرضيات العلمية، المتعلقة ببدايات تشكّل المادة والعوالم والحياة، والغايات التي تسعى إليها الجمادات والحيوات. ولعل هذا الاهتمام هو الذي قادني إلى عالم الأسطورة، حيث وجدت البحث في البدايات والغايات، همماً أساسياً من همومها. وتذكرت نظرية لابلاس والمجادلات القديمة وتساءلت: نظرية كبيرة أخذت مكانها في ساحة العلم رداً ثم دُحِضت. فما الفرق بينها وبين الأسطورة؟. أليست أساطير التكوين بدورها، نظريات قامت للتفسير والتعليل؟ أليست محاولة من العقل، في نشأته، للتصدي للأسئلة الكبيرة المطروحة عليه؟. لقد جهد الإنسان دوماً في كشف حقيقة العالم والحياة والبدايات، وشغلته الغايات والنهايات. وكان وسيلته إلى ذلك مرتبطة بالمرحلة التاريخية لتطوره نفسياً وعقلياً. إعتقد في البداية (٣) إن العالم بكل مظاهره المتنوعة يخضع لترايبطات وقوانين وقواعد معينة، وإعتقد أن معرفته بتلك الترايبطات وقواعدها، تساعده في السيطرة على الطبيعة المحيطة به واخضاعها لرغباته ومصالحه. فهو يستطيع مثلاً استجلاب الأمطار- عن طريق ممارسات سحرية معينة، تدفع الطبيعة مجبرة للإستجابة، كما يستطيع شفاء الأمراض، والقضاء على الأعداء، ودفع الكوارث الطبيعية بنفس الطريقة. وقد تجمعت لديه عبر القرون، مجموعة من القواعد الذهبية التي تؤلف، في مجموعها، سفيراً متكاملماً للسحر . ولم يكن الإنسان في ممارساته تلك، يستعين بأية قوى خارقة أو إلهية من أي نوع، لايमानه المطلق بأن تتابع الأحداث يخضع لقانون معين، هو جزء أصيل من الطبيعة ذاتها، لا خارجاً عنها ولا متعالياً عليها.

3- Sir Barnes Frazer. Thr Golden Bough, Mcmillan. Newyork, 1971 Chapter IV

على أن الإنسان، بعد تاريخ طويل مليء بالمرارة والألم والفسل في السيطرة على محيطه بعلمه الزائف ذاك (السحر) إتجه إلى الدين (٤). فإذا كان العالم قد تمرد حتى الآن على الإنسان، مثبتاً عدم خضوعه لتلك الترابطات المفترضة، فلا بد إذن من وجود قوى خارقة تقف وراء المظاهر المتبدية لهذا العالم، قوى إلهية، مفارقة له، فعالة فيه. ولا بد أن يكون الكون تدياً مادياً لتلك الطاقات الإلهية ومظهراً لفعاليتها وقواها المستمرة. وبذلك إبتدأت مرحلة جديدة تتميز بالتقرب لتلك القوى وإجتذاب عطفها، ومحاولاً تفهم رغائها وآلية فعلها وشروطه. فظهر الدين وتطور بشقيه: الشق الأول إعتقادي يستخدم الأسطورة أداة للمعرفة والكشف والفهم.

والثاني طقسي، يستهدف إستراضاء الآلهة والتعبّد لها. فالأسطورة، والحالة هذه، هي التفكير في القوى البدئية الفاعلة، الغائبة وراء هذا المظهر المتبدّي للعالم؛ تبعية عملها وتأثيرها، وترابطها مع عالمنا وحياتنا. أنها أسلوب في المعرفة والكشف، والتوصل للحقائق، ووضع نظام مفهوم ومعقول للوجود، يقنع به الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعال فيه. إنها الإطار الأسبق والأداة الأقدم للتفكير الإنساني المبدع، الخلاق، الذي قادنا على طول الجادة الشاقة. التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمنجزات التي تفخر بها حضارتنا القائمة.

إلا أن الفكر الإنساني في وثبته الدائمة لا يقف عند إطار، ولا يهدأ في مستقر ويطمئن إليه، أو يركن لمعرفة يظنها مطلقة لا يأتيها الباطل. فهو في حركة دائبة تتجاوز أبداً ما وصلت إليه. فتهاوت الأسطورة تحت مطارق الفلسفة، وتجرع سقراط السم جزاء إجترائه على آلهة اليونان. ومن بعده تابع افلاطون وارسطو المهمة. وتعاونت، مع الفلسفة، الديانتان المسيحية والإسلامية، فتبنت المسيحية بضع أساطير أساسية، كوّنت منها هيكلها. كأسطورة هبوط الإله من السماء وموته وبعثه، بعد ذلك، وصعوده إلى السماء. وهدمت ما تبقى من صرح الأساطير القديمة، أما الإسلام قد أثبت بعض ما أورده الأساطير، وقدمه في صيغة مختلفة تماماً، مرجعاً إياه إلى أصله السماوي القديم، قبل تحريف الكلام عن واقعه، بسبب التقادم أو سوء الطوية. ثم أدى تبلور المناهج العلمية مع مطلع العصور الحديثة إلى الازدراء الكامل للأسطورة وانزالها إلى مرتبة الحكاية المسلية، لما

(٤) المرجع السابق. الفصل الرابع.

تحتويه من عناصر غيبية تتنافى والتفكير العلمي السليم. كما ادعى العلم في بعض مراحلها،
القضاء على الفلسفة والدين معاً.

إلا أن القرن التاسع عشر، في أوروبا، قد جلب معه ثورة فنية وجمالية.
أعدت للأسطورة رونقها وبهاءها كشكل فني تعبيرى من أشكال الفلكلور والأدب الشعبي، بعد أن
أراد أصحاب عصر الاستنارة في القرن الثامن عشر محوها. ولم تكن إعادة الاعتبار هذه إلا
مرحلة أولى، فما لبث الرومانتيكيون أن مشوا خطوات أبعد في النظر إلى الأسطورة، فاعتبروها
أصلاً للفن والدين والتاريخ، وصارت لهم منهلاً تراً، وملهماً، ثم إتجهت إليها العلوم الانسانية،
تبحث خلف الشكل الظاهر للأسطورة عن رمز كامن ومعانٍ عميقة تُعين على فهم الإنسان
وسلوكه وحياته الروحية والنفسية وآليات تفكيره وعواطفه وبواقعه. فقدمت لمختبرات علوم
الاجتماع والنفس والانثروبولوجيا مادة قيمة لا تقدر بثمن، وغدت. منهلاً للعلوم بعد أن لاقت
من العلوم ما لاقت من تجاهل. وإلى جانب هذا وذاك ظهر فرع جديد من فروع المعرفة، يُعنى
بدراسة وتفسير الأساطير، دُعي بالميثولوجيا (MYTHO LOGY) والشق الأول من الكلمة (MYTHO)
مأخوذ عن الكلمة اليونانية (MUTHO) التي تعني حكاية تقليدية عن الالهة والأبطال^(٥). أما الشق
الثاني (LOGY) فيعني (علم) وإستخدم هذه الكلمة الأخيرة بكثرة في العصر الحديث للدلالة على
العلوم المختلفة، كأن نقول سوسولوجيا أو بيولوجيا. كما تعني الميثولوجيا أيضاً مجموعة
الأساطير الخاصة بشعب من الشعوب^(٦)، كأن نقول الميثولوجيا السورية أو الميثولوجيا
الأغريقية. هذا وقد إهتمت الميثولوجيا الحديثة بتعريف الأسطورة ودراسة بواعث نشوئها
وتفسيرها ودراسة وظائفها النفسية والفكرية والاجتماعية. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر إلى
يومنا هذا، ظهرت، وتظهر، مدارس شتى تهدف إلى تقديم نظريات شاملة متكاملة في تفسير
الأسطورة وبيان دلالاتها وبواعثها ووظيفتها إلا أن معظم هذه المدارس قد وقعت في أحادية
النظرة، اذ حاولت إعطاء نظريات جامعة مانعة. اعتقدت أنها قد أحاطت بالأسطورة وأوقعتها في
شبكة التفسير الشامل الجامع. وسأقوم فيما يلي بإستعراض مجتزأ، غير جامع، لأهم تلك
المدارس والاتجاهات.

5- Pelican Book, 1977 P 22.G.s Kirk. Myth

(٦) المرجع السابق ص ٢١.

الأسطورة باعتبارها فناً أدبياً وحكمة:

ينظر هذا الإتجاه، لما ترويه الأسطورة على أنه تراكم لنتاج الفكر الإنساني المبدع في مجال الادب^(٧). فالأمثال الصغيرة التي يرويها حكيم القوم، سوف تُروى مرّات ومرّات. ولن يقاوم الراوي رغبته الملحة والمشروعة في الاضافة اليها من عناصر جديدة نابعة من خياله الخاص ومن ظروف إجتماعية مستجدة، تحيط الراوي الجديد. وعندما تأخذ القصة شكلها المكتمل، تكون قد عبّرت عن طابع فني وفكري وأدبي لشعب من الشعوب. إلا أن هذا الشكل الفني لا ينفصل عن مضمونه الذي ينحو في غالب الأحيان لأن يكون تأملياً، يقدم للمجتمع نظريات في السلوك والأخلاق والتوجيه الاجتماعي.

الأسطورة وظواهر الطبيعة:

يُرجع هذا الإتجاه كل الأساطير إلى منبع طبيعي يتصل بعناصر الطبيعة^(٨). فكثير من الأساطير كان باعته القمر، ذلك الجرم السماوي المنير، الذي أثار دوماً خيال البشر، باطواره وتبدل أشكاله والسماء معتمة التي يسبح فيها وكثير من الأساطير قد تركز حول الشمس، ذلك الجرم المشع، مصدر الحياة والنماء والدفء. وجزء آخر سحرته السماء السامية، مثار التأمل والتفكير العميق. وآخر أهابته ظواهر الطقس المخلفة كالصواعق والرعود والبروق. وحتى الأساطير التي لا تتصل من قريب أو بعيد بظواهر الطبيعة، قد وجدت تفسيراً طبيعياً لها، لدى هذه المدرسة، بعد التمحيص والبحث عن أصولها وجذورها وطريقة تطورها وتغيرها.

الأسطورة والايثولوجيا:

الايثولوجيا (AETIOLOGY)، هي دراسة الأسباب. وقد وجدت الأسطورة

7- Philip Freund, Myths of Creation, W.H. Allen, London 1964

8- G. S. Kirk, Greek Myths. Pelican Book, 1977 p43

لتقديم الاسباب الكامنة وراء كثير من الظواهر التي يراها الإنسان في العالم الواقعي^(٩). تقول أسطورة فليبينية مثلاً أن تنوع ألوان العروق البشرية راجع إلى ساعة الخلق، عندما وضع الإله الخالق حفنة من طين في الفرن لصنع الإنسان. ففي المرة الأولى أخرج الأله الطين قبل نضجه فكان الإنسان الابيض وفي المرة الثانية تأخر في إخراجه فاحترق، فكان الإنسان الأسود، وفي الثالثة أخذ الطين كفايته من الشي فخرج الإنسان الفيليبيني البرونزي وتقول الأسطورة الإغريقية، إن هرقل قد أرضعته الآلهة هيرا في صغره، ولقوته العظيمة شعرت هيرا بألم في ثديها من شدة الأمتصاص دفعها إلى سحب ثديها من فم الصغير بقوة فإنبثق اللبن في السماء مكوناً المجرة المعروفة بدرب اللبن.

الأسطورة باعتبارها تاريخاً:

ليست الأسطورة، وفق هذا الإتجاه، نتاج الخيال المجرد، بل ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية، وعبرها، انتقلت. البنا تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة^(١٠). وهي تعو في اصولها إلى أزمان سحيقة سابقة للتاريخ المكتوب. فقبل أن يتعلم الإنسان الكتابة، كانت ذاكرته على قدر كبير من النشاط والحيوية، وقد استخدمها لنقل الأحداث بأمانة عبر الأجيال^(١١). ويتقدم أصحاب هذه المدرسة بأمثلة متعددة تدعم وجهة نظرهم هذه، منها أساطير الطوفان أو الدمار الشامل بالنار السماوية أو الأعاصير. فثمولية هذه الأساطير وتكرارها لدى معظم الشعوب، دلالة على تجارب وخبرات عاناها الجنس البشري في مطلع حياته.

الأسطورة والطقس:

أسس هذا الإتجاه، رائد الانثروبولوجيا الحديثة السير جيمس فريزر. ورغم النقد الذي يوجهه إليه علماء الانثروبولوجيا المعاصرون، بعد مرور ثمانين عاماً

9- ibid P 35.

10- Philip Freund, Myths of Creation, w. H. Allen, London 1964

11-G.S. Kirk, Greek Myths, Pelican Book, 1977 p29

تقريباً على ظهور كتابه الفريد: (الغصن الذهبي)، فإن تأثير ذلك العبقري، مازال ماثلاً، وآراءه مازالت تلقى الاحترام لدى الكثيرين.

يقول فريزر، ومن تأثر به من اصحاب هذا الإتجاه^(١٢)، بأن الأسطورة إستمدت من الطقوس. فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين، وفقدان الاتصال مع الاجيال التي أسسته، يبدو الطقس خالياً من المعنى ومن السبب والغاية، وتخلق الحاجة لاعطاء تفسير له وتبرير. وهنا تأتي الأسطورة لاعطاء تبرير لطقس مبدل قديم، لا يريد أصحابه نبذه أو التخلي عنه. أن قيام اتباع ديانة ديونيسوس، مثلاً، شرب دم ثور حي بعد تمزيقه، وأكل لحمه نيئاً، بعد ذلك، هو طقس قديم أتت أسطورة موت ديونيسوس على يد التيتان مفسرة له ومحافضة على حرارته ودفعه. فديونيوس يحاول الهرب من التيتان، أعداء أبيه زيوس، ولكن عبثاً يغير أشكاله وهم يتبعونه، إلى أن يقبضوا عليه في هيئة الثور فينهالون عليه تمزيقاً ويلتهمونه حياً ويشربون دمه.

الأسطورة والذرائعية:

أسس هذا الإتجاه، عالم الانثروبولوجيا الشهير مالينوفسكي الذي قضى شطراً من حياته في دراسة تجريبية مع قبائل التروبرياندي في غرب المحيط الهادي ابان الحرب العالمية الثانية والذي يعد من اشهر ناقدتي جيمس فريزر واصحاب المدرسة النفسية أيضاً كفرويد ، يقول مالينوفسكي أن الأسطورة لم تظهر استجابة لدافع المعرفة والبحث، ولا علاقة لها بالطقس أو البواعث النفسية الكامنة بل هي تنتهي للعالم الواقعي وتهدف إلى تحقيق نهاية عملية في تروى لترسيخ عادات قبلية معينة أو لتدعيم سيطرة ما أو أسرة أو نظام اجتماعي وما إلى ذلك. فهي والحالة هذه عملية في منشئها وغايتها^(١٣).

(١٢) هذه النظرية مشروحة في ثنايا كتاب فريزر. المرجع رقم ٣.

(١٣) هذه النظرية مشروحة في كتاب مالينوفسكي :

Malinowski. Magic, Science, and Religion; Garden City, Newyork. 1954

وبعض تلامذته م ان أطلق عليها اسم النظرية الوظيفية. راجع بهذا الخصوص :

A.R Radcliffe- Brown. The Andaman Islanders, Cambridge. 1922

الأسطورة والكبت - فرويد :

في كتابه "تفسير الأحلام" اجتذبت الأسطورة فرويد، كما اخذت الكثير من إتباعه فيما بعد. وفي كتابه ذلك، الذي نُشر لأول مرة عام ١٩٠٥^(١٤) - يرى فرويد تشابهاً في آلية العمل بين الحلم والاسطورة، وتشابه الرموز لكليهما، فهما نتاج العمليات النفسية اللاشعورية. ففي الأسطورة، كما في الحلم، نجد الأحداث تقع حرة خارج قيود وحدود الزمان والمكان. فالبطل في الأسطورة، كما هي حال صاحب الحلم، يخضع لتحولات سحرية ويقرم بأفعال خارقة، هي انعكاس لرغبات وأمانٍ مكبوتة، تنطلق من عقالها، بعيداً عن رقابة العقل الواعي الذي يمارس دور الحارس على بوابة اللاشعور. فالأسطورة والحالة هذه ملأى بالرموز، التي إن فُسِّرَت، زدتنا بفهم عميق لنفس الإنسان الخافية ورغباته المكبوتة. وتفسير فرويد في هذا المجال للأسطورة أوديب أشهر من إن يُبَحَث هنا.

وفي كتابه (التوتم والتالبو)^(١٥)، يبدو فرويد مقتنعاً تماماً، أنه في فترة مبكرة من تاريخ الانسانية، قد وقعت أحداث الدرام الأوديبية بشكل حقيقي، عندما تعاون الأولاد على قتل أبهم في القبيل الابتدائي، في صراع كان دافعه الحصول على زوجات الأب، وعندما تم لهم ذلك، انتابهم إحساس الندم والاثم، فحرموا على أنفسهم زوجات الأب، وكان ذلك أول قانون وُضِع للبشر. ولكن تلك التجربة البدئية، قد تركت بصمتها على ضمير الجنس البشري، وهي الأساس وراء احساس البشر المتوارث بخطيئة ما. كما أنها الأساس الكامن وراء مجموعة الأساطير التي تُروى عن تضحية الإله الإبن. وكأنما يقدم البشر كفارة رمزية عن خطيئتهم الأولى نحو الأب^(١٦). لقد فتح فرويد باباً واسعاً لم يُغلق بعد أمام التفسير النفسي للأسطورة، وتابع الرحلة بعده تلامذته وناقده من أمثال يونغ ورنك وفروم وغيرهم.

(١٤) سمجموند فرويد، تفسير الاحلام: مكتبة التحليل النفسي، القاهرة.

15- Sigmund Freud, Totem and Taboo, The Basic Writings, Modern Library, N.Y. 1938

راجع أيضاً ترجمة بوعلى ياسين - دار الحوار، اللاذقية، سورية ١٩٨٥ .

(١٦) سمجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت.

الأسطورة والنماذج البدئية - يونغ:

كان يونغ من أكثر تلامذة فرويد اهتماماً بالأسطورة، وتعمقاً في دراسها وتعوياً على أهميتها وعمقها وبعده دلالاتها. وفي رأيه، أن كل المحاولات التي بُذلت لتفسير الأسطورة، لم تُساهم في فهمها، بل على العكس لقد زادت في الابتعاد عن جوهرها، وزادت من حيرتنا نحوها. وهو يقتفي أثر فرويد في النظر للأسطورة كنتاج للاشعر، ولكنه يفترق عنه جذرياً عندما يقرر أن اللاشعور الذي تنتج عنه الأسطورة هو اللاشعور الجمعي للبشر وهو يناهض نظرية فريد القائلة بأن الأسطورة والحلم، انما يشقان عن مكنونات العناصر المكبوبة في لا شعور الفرد، وانها نوع من التعويض عن رغبات لم يقيض لها أرضاء حقيقي. فالصور والخيالات المتبدية في الحلم والأسطورة لم تكن في وعي الفرد الشخصي في يوم من الايام. ولذا فإنها لم تُكبت، والأصح أن نقول أنها قد عاشت في اللاشعور الجمعي، ولكن انبثاقها كان من خلال الفرد. فنحن عندما نتنقّس، لا نستطيع تفسير هذا التنقّس فردياً. ولذا، يمكن القول بأننا ممتلكون من قبل هذه الصور والخيالات أكثر من كوننا مالكين لها. ونحن كلما تعمقنا نحو طبقات النفس السفلى، كلما غادرنا عالم الفرد الشخصي تدريجياً واقترنا من الأرضية الانسانية المشتركة لبني البشر، إلى أن نصل إلى قاع النفس لا نجد هناك سوى العالم بكل بساطة، مجرداً من أي طابع شخصي فردي، تماماً كما هو الأمر عندما نحلل المواد المكونة للجسد الإنساني، حيث تعود مادة الكربون الموجودة في الجسم، إلى الكربون الطبيعي الذي تُشكّل منه جميع الاجسام. فمن خلال رموز الأسطورة، نجد أن العالم يتكلم، وكلما ازداد الرمز عمقاً، كلما كان أقرب للعالمية والشمول الانساني^(١٧).

اللغة المنسية - أريك فروم:

أريك فروم (ERICH FROMM) آخر عمالقة مدرسة التحليل النفسي - قدم لنا

(١٧) افكار يونغ بهذا الخصوص مشروحة بشكل سلس وواضح في كتاب:

C.G. Jung, Man and his Symbols, New York. 1964

راجع أيضاً ترجمة عبد الكريم ناصيف - دار منارات، عمان ١٩٨٧.

في كتابه اللغة المنسية (THE FORGOTTEN LANGUAGE) ^(١٨) دراسة عميقة للأسطورة، منطلقاً أيضاً من فكرة فرويد عن العلاقة بين الأسطورة والحلم، مع مخالفته في النظر للأسطورة والحلم على أنهما نتاج العالم اللاعقلاني. فالعقل في حالة الحلم إنما يعمل ويفكر، ولكن بطريقة أخرى ولغة أخرى. فعندما ندخل ملكوت النوم نتحرر من عبء العمل ومشاكل الحياة اليومية وقلق الصحو، وندلف إلى عالمنا الداخلي بعيداً عن قواعد الواقع فتغدو ال (أنا) بؤرة تفكيرنا. فإذا كان الصحو دعوة للعمل والفعل، فإن النوم دعوة لتأمل من نوع خاص يستخدم لغة خاصة هي لغة الرمز. النوم انفلات من هم التحكم بعالم المادة وتفرغ للذات، يجعلنا أكثر شفافية وحساسية، فتغدو معرفتنا بأنفسنا أكثر وضوحاً وصدقاً وحكمة. فحالة السبات هي القطب الثاني لوجودنا في مقابل حالة اليقظة - وليست كما زمنياً معطلاً، يعطينا الراحة لبدء يوم جديد. ولغة الرمز، هي اللغة التي تنطق عن الخبرات والمشاعر والأفكار الباطنة، كما تنطق لغتنا المحكية عن خبرات الواقع مع فارق هام، يكمن في شمولية لغة الرمز وعالميتها، وتجاوزها لفوارق الزمن والثقافة والجنس والأسطورة، كما الحلم، تكمن أهميتها في تقديمها حكايا تشرح بلغة الرمز، حشداً من الأفكار الدينية والفلسفية والاخلاقية. وما علينا إلا أن نفهم مفردات تلك اللغة، لينفتح أمامنا عالم مليء بمعارف غنية ثرة.

الأسطورة - مغامرة العنق الأولي :

بعد هذا الاستعراض السريع، نود أن بصح رؤيتنا الخاصة للأسطورة، والتي تشكل أرضية هذا الكتاب، في عجالة بلا إطالة. فهدفنا دراسة الأسطورة لا التنظير لها. عندما إنتصب الإنسان على قائمتين ورفع رأسه إلى السماء ورأى نجومها وحركة كواكبها، وأدار رأسه فيما حوله فرأى الأرض وتضارسها ونباتها وحيوانها. أرعبته الصواعق، وخلبت لبه الرعود والبروق. داهمته الأعاصير والزلازل والبراكين ولاحقته الضواري. رأى الموت وعاین الحياة. حيرته الأحلام ولم يميزها تماماً عن

18- Erich Fromm. The Forgotten Language Holt, Rinhart and Winston, New York -1951

الواقع. الغار في الخارج وأخرى في داخله. غموض يحيط به أينما توجه وكيفما أسند رأسه للنوم. تعلم استخدام اليدين وصنع الأدوات، وفي لحظات الامن وزوال الخوف، كان لدى العقل مئس للتأمل في ذلك كله. لماذا نعيش؟ ولماذا نموت؟ لماذا خُلِق الكون وكيف؟ من أين تأتي الأمراض؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة طرحت نفسها عليه، كما تطرح نفسها على طفل العصر الحديث. كان العقل صفحة بيضاء لم يُنقَش عليها شيء، عضلة لم تألف الحركة خاج نطاق الغريزة، وبعد حدود رد الفعل. ومن أداته المتواضعة هذه، كان عليه أن يبدأ مغامرة كبرى مع الكون، وقفزة أولى نحو المعرفة، فكانت الأسطورة. وعندما يئس الإنسان تماماً من السحر، كانت الأسطورة كل شيء له. كانت تأملاته وحكمته، منطقته وأسلوبه في المعرفة، أداته الأسبق، في التفسير والتعليل، أدبه وشعره وفنه، شرعته وعُرفه وقانونه، انعكاساً خارجياً لحقائقه النفسية الداخلية. فالأسطورة نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف الغوامض التي يطرحها محيطه، والأحاجي التي يتحداها بها التنظيم الكوني المحكم الذي يتحرك ضمنه. إنها إيجاد النظام حيث لا نظام، وطرح الجواب على ملحاح السؤال، ورسم لوحة متكاملة للوجود، لنجد مكاننا فيه ودورنا في إيقاعات الطبيعة. أنها الاداة التي تزودنا بمرشد ودليل في الحياة، ومعيار أخلاقي في السلوك، أنها مجمع الحياة الفكرية والروحية للانسان القديم.

والأسطورة حكاية، حكاية مقدسة، يلعب أدوارها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدسة، أنها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لُجّة العماء، ووطدت نظام كل شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر. فهي معتقد راسخ، الكفر به فقدان الفرد لكل القيم التي تشده إلى جماعته وثقافته، وفقدان المعنى في هذه الحياة.

والأسطورة، حكاية مقدسة تقليدية. بمعنى أنها تنتقل من جيل إلى جيل، بالرواية الشفهية. مما يجعلها ذاكرة الجماعة، التي تحفظ قيمها وعاداتها وطقوسها وحكمتها، وتنقلها للأجيال المتعاقبة، وتكسيها القوة المسيطرة على النفوس. فهي الاداة الأقوى في التثقيف والتطبيع والقناة التي تُرسخ من خلالها ثقافة ما وجودها واستمرارها عبر الاجيال وحتى في فترات شيوع الكتابة، لم تفقد الأسطورة الشفهية

قوتها وتأثيرها. ذلك أن الألواح الفخارية، كانت محفوظة في المعابد وفي مكتبات الملوك. ولا تلعب إلا دور الحافظ للأسطورة من التحريف بالتناقل. وبقي السمع هو الوسيلة الرئيسية في تداولها. وفي أكثر من مناسبة دورية، كانت الأساطير تُتلى أو تُنشَد في الإحتفالات الدينية العامة، من ذلك مثلاً، أعياد رأس السنة في بابل، حيث كانت تُتلى وتُمثَّل أسطورة التكوين البابلية. وأعياد الربيع حيث كانت تُتلى وتُمثَّل عذابات الإله تموز.

والأسطورة نص أدبي، وُضِع في أبهى حُلَّة فنية ممكنة، وأقوى صيغة مؤثره في النفوس، وهذا مما زاد في سطوتها وتأثيرها. وكان على الأدب والشعر، أن ينتظرا فترة طويلة، قبل أن ينفصلا عن الأسطورة. لقد وضعت معظم الأساطير السورية والسومرية والبابلية في أجمل شكل شعري ممكن. وقام هوميروس بصياغة معظم أساطير عصره المتداولة، شعراً في الأوديسة والإلياذة. وإلى جانب الشعر والأدب، خلقت الأسطورة فنوناً أخرى كالمرسح، الذي ابتدأ عهده بتمثيل الأساطير الرئيسية في الأعياد الدينية. كما دفعت فنوناً أخرى كالغناء والموسيقى وغيرهما. هذا ويمتزج تعبير الأسطورة في أذهان الكثيرين بتعبير «الخرافة» و (الحكاية الشعبية) رغم البعد الشاسع بين هذه النتاجات الفكرية الثلاثة. فالخرافة حكاية بطولية ملأى بالمبالغات والخوارق. إلا أن أبطالها الرسميين هم من البشر أو الجن، ولا دور للآلهة فيها. ففي حديث نوي^(١٩) عن عائشة قالت «حدّث رسول الله (ص) نساءه ذات ليلة حديثاً، فقالت امرأة، يارسول الله كأن الحديث حديث خرافة، فقال: أتدرون ما خرافة؟ إن خرافة كان رجلاً من عُذرة أسرته الجن في الجاهلية فمكث فيهن دهرأ طويلاً ثم رده إلى الأنس، فكان يُحدّث الناس بما رأى من الأعاجيب فقال الناس؛ حديث خرافة. وبصرف النظر عن صحة هذا الحديث المنسوب إلى الرسول فإن النص يُظهر لنا معنى الخرافة عند العرب. بينما يُثبت لنا القرآن الكريم علاقة كلمة (الأسطورة) في اللغة العربية بالتصورات الدينية والاعتقادية: « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » (٢٠).

وفي هذه الآية إشارة إلى قول أعداء النبي أن ما يأتي به محمد في القرآن هو أساطير الأقسام السابقة تُملَى عليه وهو بدوره يستكتها.

(١٩) مُسند ابن حنبل، المطبعة الميمنية، مصر ١٣١٣ ج٢ ص ٢٨١.

(٢٠) سورة الفرقان الآية (٢٠) سورة الفرقان الآية ٥.

أما الحكاية الشعبية، فإنها، كالخرافة لا تحمل طابع القداسة، ولا يلعب الآلهة أدوارها. كما أنها لا تتطرق، كما هو شأن الأسطورة، إلى موضوعات الحياة الكبرى، وقضايا الإنسان المصيرية، بل تقف عند حدود الحياة اليومية والأمور الدنيوية العادية، وذلك كمكر النساء ومكائد زوجات الرجل الواحد، وقسوة زوجة الأب على الطفلة المسكينة التي تدخل العناية الإلهية لإنقاذها، وما إلى ذلك من موضوعات. هذا وقد تتداخل الحدود بين الخرافة والحكاية الشعبية أما الأسطورة فتبقى نسيجاً متميزاً. ورغم أن كلاً من الخرافة والحكاية الشعبية والحكم والأمثال الشعبية قد تلعب دوراً ثقافياً شبيهاً بدور الأسطورة إلا أنها لا تمتلك قوة التأييد الذاتي التي تمتلكها الأسطورة، والناعبة من قداستها وطابعها الاعتقادي والايماثي ومنشأها وقالها الفني .. نالتها . ولا اريد في هذه العجالة، أن اتقدم برؤية احادية. لأننا أو من يتمدد المتويات لفهم الأسطورة ، فقد تحتوي بعض أساطير الخلق على عناصر نفسانية كثيرة، وقد تحتوي بعض الأساطير الأخلاقية على عناصر تاريخية كأسطورة الطوفان البابلية، وأسطورة جلجامش . كما اننا نلّمح تأثيراً كبيراً لنمط الإنتاج الاقتصادي على مضمون وصياغة الأسطورة. وسنقوم في حينه، بإبراز هذه المستويات كما تتبدى لنا، مع التركيز على المستوى الأهم في رأينا، لفهم الأسطورة كمغامرة فكرية جريئة لانسان العصور القديمة، تهدف إلى كشف الحقائق وفتح آفاق المعرفة.

*** **

وبعد. هذا كتاب في أسطورة الشرق القديم، هدفنا من وراءه التعريف بالأسطورة في سوريا القديمة وبلاد الرافدين. وقد بذلت غاية الجهد في الحصول على النصوص الكاملة لأهم الأساطير المعروفة وتقديمها اعتماداً على أكثر من نص وأكثر من ترجمة. وحاولت أن تكون ترجمتي أمينة دون تدخل أو تزويق. مع عدم الإخلال بالشكل الفني الرائع لتلك النصوص. وهي معادلة صعبة، نجحت فيها أحياناً وأخفقت أحياناً أخرى . ولم يكن جهدي في الشرح والتفسير والتقديم منصباً على كل أسطورة، بمعزل عن الأخرى، بل حاولت رسم صورة متكاملة عن الموضوع، بحيث تأخذ كل أسطورة مكانها في تلك الصورة، وتستمد تفسيرها من البنية الإجمالية للعمل، وكأن منهجي في تقديم الأساطير يعتمد على جمعها في

مجموعات وفق موضوعاتها لا وفق تسلسل زمني أو توزيع جغرافي، لاعتقادي بأنّ تفسير أسطورة ما يبدو عصبياً إذا لم يُنظر إليها من خلال منظور شامل، يجمعها مع غيرها من الأساطير التي تعالج نفس الموضوع. وهو منهج جديد في دراسة أساطير المنطقة على ما وصل إليه علمنا. كما قمت من خلال أسفار الكتاب، بمقارنة شاملة مع كتاب التوراة العبرانية، فيما يتعلّق بالنصوص الأسطورية الواردة فيه، لإظهار مدى اعتماد الثقافة اليهودية على الثقافة السورية والبابلية في صياغة أهم مرجع ديني وثقافي لدى الشعب اليهودي. كما أظهرنا علاقة الأساطير السورية والبابلية بأساطير الشعوب المجاورة كالمصريين والأغريق، وتتبعنا، كلما أمكن ذلك، الأصول الشرقية للأساطير الأغريقية.

أما لماذا اقتصر بحثي على سورية وبلاد الرافدين دون بقية ثقافات الشرق القديم، فذلك راجع لأسباب ثلاثة: الأول هو الوحدة الثقافية القائمة في هذا الجزء من المنطقة، هذه الوحدة التي تعطي لأي بحث يدور حولهما طابع الانسجام والتكامل.

والثاني راجع لاتساع الموضوع وتشعبه، مما لا يسمح بدراسة وافية لميثولوجيا الشرق القديم في كتاب واحد ومن قبل مؤلف واحد.

أما السبب الثالث فشخصي جداً، يرجع إلى ميل خاص إلى آداب هذه المنطقة، وولع بتاريخها وتراثها. وقد حاولت ألا يكون توجيهي، في هذا الكتاب، إلى زمرة معينة من القراء، بل إلى زُمر متعددة. فالقارئ العادي سيجد فيه موضوعاً جديداً على الكتابات العربية الحديثة، لأنه أول كتاب يعالج موضوع الأسطورة على هذا المستوى من الإحاطة، وسجد القارئ المطلّع كثيراً من المعلومات الجديدة والتفسيرات الجديدة. كما سيجد المهتمون بالديانات المقارنة عدداً لا بأس به من النقاط القابلة للدراسة والمناقشة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بدارس الآداب والديانة اليهودية. أمّا بالنسبة للمتخصصين، فأمل أن يفتح النظرات والأفكار الجديدة التي أطرحها في ثنايا هذا الكتاب، مجالاً لحوارات مُجدية.

* في مواضع كثيرة من هذا الكتاب استعملت كلمة (بابل) أو (بابلي) للدلالة على بلاد الرافدين إجمالاً.

ملحوظات لدراسة النص

-إن جميع النصوص الواردة في هذا الكتاب مترجمة عن الانكليزية. ولقد جاءت النصوص العربية التي أثبتناها هنا، نتاج تحقيق طويل، ومقارنة دقيقة بين ترجمات انكليزية مختلفة للنص الواحد. وقد حاولت، قدر الإمكان، ألا أتصرف بالترجمة إلا في مواضع قليلة استدعتها الضرورة، مع الإشارة إلى مثل هذا التصرف عند حدوثه.

كما حاولت الإبقاء على الطابع الأدبي لتلك النصوص الشعرية، دون الإخلال بالمعاني والمرامي الأصلية. أما عند وقوع التعارض بين الصياغة الأدبية والترجمة الأمينة، فقد إلتمنا الأمانة العلمية على حساب القيم الجمالية. كما بذلت جهداً في إعطاء الأسماء نطقاً سامياً، قد يختلف أحياناً مع ما تعودنا قراءته في الترجمات الحرفية عن اللغات الأوروبية. فالإله (مردوك) هو في الواقع (مردوخ)، والآلهة (تيامات)، كما تنقلها لنا بعض الترجمات، هي (تعامة)، و(اداد) هو(حدد).....

- [القوس المنكسر في النصوص، دلالة على وجود نقص في الشعر، ناشيء عن كسور أو تشوهات في اللوح الفخاري. فإذا احتوى القوس على كلمات [القوس المنكسر] فمعنى ذلك وجود تشوه غير تام في السطر، وأن ما تبقى من حروف ومقاطع يكفي لاستعادة الكلام الأصلي أو ما شابهه. أما إذا احتوى القوس على نقاط [.....] فمعنى ذلك أن التشوه تام. وفي هذه الحالة لم نسمح لأنفسنا بإملاء الفراغات الحاصلة.

- () القوس العادي، هو إضافة مني، أو من المترجم الأصلي -على السطر- لغرض توضيح المعنى، ولا وجود للكلمات المحصورة في هذا القوس، في النص الأصلي. ولقد أبقيت مثل هذه الإضافات، في حدها الأدنى المطلوب، وغالباً ما لجأت إليها لضرورات جمالية.

سفر البراءة

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
عَلَى الْمَاءِ »

قرآن كريم - هود ٧

« فِي الْبَدءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ حَرْبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعَمْرِ ظُلْمَةٌ،
وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. »

التوراة - تكوين ١

« في تلك الأزمان الأولى. لم يكن سوى المياه)»

أسطورة بابلية

لقد كانت مسألة بدء العالم والحياة والإنسان، من أولى المسائل التي ألحّت على العقل البشري، والتي تصدّى لمعاجتها منذ فجر طفولته. فلا نكاد نجد شعباً من الشعوب إلا ولديه أسطورة أو مجموعة أساطير في الخلق والتكوين وأصول الأشياء. نزولاً إلى العصر الحديث، حيث احتلت هذه المسألة الجانب الأكبر من ميثافيزيقيا جميع الفلسفات، وشغلت حيزاً هاماً في العلوم الحديثة، فحلّت النظريات العلمية محل الأسطورة، ومحل التأمل الفلسفي المجرد. تنتهي أساطير التكوين في المنطقة إلى زمرة أساطير الميلاد المائي. فالحالة السابقة لبدء الكون في أساطيرنا التكوينية، هي حالة من العماء المائي، ساكن، لا متميز، لا متشكّل، في زمن سرمدى متماثل، لا ينتابه تغيير ولا تبديل كأنه عدم. وفي لحظة معينة، هي هزة ودمار، يلها بناء جديد، ينبثق الكون من لُجّة العماء، ويبدأ النظام من قلب الفوضى، ويتحد الشكل من صميم الهيولي. لحظة يقرر فيها الآلهة خلق العالم، ووضع أسس الكون والحياة. فيبدأ الزمن الذي نعرفه الآن، وتتخذ الأشياء شكلها الذي نراه اليوم. ولكن ساعة الخلق، هي ساعة صراع كوني شامل. فالقوى الإلهية الخالقة، هي قوى نشطة، دينامية، فعالة، وليس الكون والحياة والإنسان، إلا تعبيراً عن طاقاتها الحركية وفعاليتها الخالقة. ولكنها لا تستطيع تحقيق مرادها بغير التمرّد

والثورة على آلهه العماء والسكون والغوضى واللاتشكّل التي تقف قد هذا الشرخ في جدار الزمن الساكن. ولهذا لن يتأتى ظهور العالم إلا بإراقة الدماء، وانتصار آلهة ودمار أخرى، ولن تتوطد أسس الكون إلا على اشلاء الضحايا المغلوبة.

وفعل الخلق الأول لا يعطي الوجود دفعة واحدة، ينطلق بعدها في مساره إلى الأبد، بل لابد من تكرار دوري لفعل الخلق الأول في كل عام من اعوامنا الأرضية - ففي كل سنة يُخلق العالم من جديد، ويجري تجديده ليعود نضراً كما كان، لحظة خروجه طرياً من يد الخالق لأول مرة. وهذا التكرار الأبدي للخلق يجري بمعونة البشر ومشاركتهم فيه، عن طريق الطقوس التي من شأنها شد أزر الآلهة ومعاضدتها ضد قوى العدمية التي تتصدى لحركة الكون بغية إستعادته إلى حالته الكونية. وهنا تنكشّف لنا المعاني السرية، والعميقة الدلالة، للاحتفالات الدينية في رأس السنة، والتي بدأت في بابل وما زالت قائمة إلى يومنا هذا.

في بابل وغيرها من مدن الشرق الأدنى القديم، كانت احتفالات رأس السنة تشغل حيزاً من اهتمامات البشر الدينية. وخلال بضعة أيام كان الناس يتفرغون لمجموعة من الطقوس تتركز حول إعادة تمثيل فعل الخلق الأول، والتكرار الدرامي للصراع البدئي الذي انتج الاكوان، والتوحد مع الزمن المقدس الذي أعطى العالم دفعته الأولى، واستحضاره مرة أخرى وعيشه والذوبان فيه، في حالة من الانقطاع الكلي عن الزمن الدنيوي المعتاد فكانت تجري تلاوة لإسطورة التكوين على الملأ، ثم يجري تمثيلها درامياً بواسطة مجموعة من الممثلين يتخذون أدوار الآلهة المتصارعة، أما بقية العباد فكانت تمارس الصلوات والابتهالات، فتعطي من إيمانها دفعا للآلهة وسندا. وهكذا نجد أن دور الإنسان في هذه الحياة ليس دوراً سلبياً، بل ايجابي فعال يساهم في استمرار الوجود وسير الأكوان، ومساندة الآلهة في تكرار فعل الخلق الأول وإنتاج زمن جديد وعالم جديد.. كما أن الإنسان عن طريق المشاركة الرمزية في إفناء العالم وإعادة تجديده، يتوحد رمزياً في فعل الخلق الكلي الهائل ويتجدد هو نفسه أيضاً، ويشعر أنه قد تطهر ودفن خطاياهم مع العالم الذي إنقضى دون رجعة، فكانت أيام رأس السنة مناسبة للتطهر والتكفير والتوبة.

* وعن هذه الاحتفالات التي أسفلت إلى الإغريق نشأ المسرح الإغريقي غالباً.

وتدعم بعض الدراسات اللغوية هذه النظرة الأسطورية. فكلمة (عالم) أو كلمة (سنة) هي نفسها في بعض اللغات، كما هو شأن هنود أمريكا الشمالية الذين يقولون مر عالم في معرض قولهم مرت سنة. فالسنة هي عالم يتكرر مرة أخرى ويولد من جديد. وفي فارس كان الملك يقف في عيد النيروز، وهو رأس السنة الفارسية، ويعلن للملأ من قومه: هذا يوم جديد من شهر جديد من سنة جديدة. وإن ما يلي من الوقت يجب تجديده^(١).

وعن أسطورة الأصل الأساسية تتفرع مجموعة من أساطير الأصول الثانوية التي تحكي بدايات الأشياء التي تلعب دوراً أساسياً في حياة الإنسان، كالزراعة وأدواتها والكتابة والسدود والقنوات وما إلى ذلك. أن معظم ما يستعمله الإنسان ويفيد منه لحياته وحضارته، أن هو إلا نتاج نموذج بدئي مقدس صنعته الآلهة بيدها أو أوحى به. لأن معظم ما يقوم به الإنسان ويمارسه في حياته، ما هو إلا تقليد أولي قام به الآلهة، سواء في المأكل أو الملبس أو الجنس، أو العمل. ورد في أحد النصوص الدينية القديمة: هذا ما قام به الآلهة، وهذا ما سيقوم به الإنسان، وعلى هذا، تغدو ميثولوجيا الأصول، أداة كشف ومعرفة وتعليل، من جهة، ومن جهة أخرى تثبيتاً للنماذج البدئية لمعظم النشاطات الهامة في حياة الإنسان والمجتمع.

1- Mercea Eliade. the Sacred and the Profane, Harvest Book, New York

راجع أيضاً ترجمة نهاد خياطة، المقدس والديني، دار العربي، دمشق ١٩٨٧.

١ / الفكرية (السومرية)

إزدهرت الثقافة السومرية في الجزء الأسفل من حوض دجلة والفرات وحول الشواطئ العليا للخليج العربي، منذ مطلع الألف الرابع قبل الميلاد. ورغم مرور فترة لا بأس بها على إكتشاف الحضارة السومرية. فإن أصول الشعب السومري مازالت قضية يكتنفها الغموض. على أن أكثر النظريات قوة اليوم، هي النظرية التي تقول بقدوم السومريين من أواسط آسيا. ولقد أثبتت الدراسات اليوم أن أرض سومر لم تكن خالية من السكان قبل قدوم السومريين، بل كانت مسكونة بأقوام ساميين، ذوي لغة وثقافة سامية، لا نعرف عنها الكثير، ولا نعرف ماذا اعطت للغزاة الآسويين. ولكن الشيء الأكيد، هو أن الثقافة السومرية، قد نضجت من احتكاك هذين الشعبين وتفاعلهما مع بعضهما البعض في تلك الحقبة المبكرة من تاريخ الإنسانية. ولقد كان للثقافة السومرية تأثير كبير على ثقافة الشرق الأدنى القديم. فهي التي أعطت المنطقة الخط المسماري الذي عدا واسطة الكتابة لدى جميع شعوب المنطقة. وهي التي طورت منذ الأزمنة السحيقة، مبادئ دينية وروحية، ظلت سائدة فترة طويلة من الزمن، حتى وصل تأثيراتها إلى الثقافة الإغريقية في الفترات المتأخرة جداً. وهي التي وضعت أولى الملاحم الشعرية، وأولى التراتيل الدينية

والقصائد الدينية، وأولى التشريعات والقوانين والتنظيمات المدنية والسياسية.

وباختصار : فالتاريخ يبدأ من سومر .

لم تصلنا عن السومريين أسطورة متكاملة في الخلق والتكوين بأصول الأشياء، وإن كان العلماء لا يستبعدون العثور على مثل هذه الأسطورة، سواء في الألواح الفخارية المبعثرة في معظم متاحف العالم، أو في باطن أرض سومر حيث ما زلنا نتوقّع مزيداً من الكشف عن التاريخ المظلم. إلا أن النصوص المتفرقة التي تم العثور عليها، والمتعلقة بأمور الخلق والتكوين، تكاد تعطي صورة واضحة عن أفكار السومريين بهذا الشأن ونظرتهم إليه. وإن دراسة متعمقة لتلك النصوص وربطها ببعضها في سلسلة منطقية، لتدلنا على أن الأسطورة ليست بالسنذاجة التي تبدو عليها في نظر القارئ العادي. وإن الرموز الأسطورية التي إستخدمها الإنسان القديم ليست إلا وسيلة إيصال وقالب تعبير. إنها لغة متميزة، تحاول من خلال مفرداتها وتعابيرها ومصطلحاتها إيصال حقائق معينة، وهي منهج له من المشروعية ما لبقية المناهج التي ابتكرها فكر الإنسان، لاحقاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار، العملية التطورية البطيئة والصاعدة، التي سار بها عقل الإنسان منذ فجر التاريخ.

لم تكن أفكار السومريين عن الخلق والتكوين، أفكاراً بدائية، بل أفكار ناضجة بالدرجة التي تتيحها معارف تلك الفترة من بداية حضارة الإنسان. فلقد أثبت السومريون مقدرة فائقة على الملاحظة الذكية والربط، واستخلاص النتائج المنطقية من المقدمات المنطقية والحقائق والوقائع المشاهدة. وإن دراسة النصوص الأسطورية المتفرقة تعطينا التسلسل الأسطوري التالي لعملية خلق العالم والاكوان..

١- في البدء كانت الإلهة (نمو) ولا أحد معها. وهي المياه الأولى التي إنبثق عنها كل شيء.

٢ - أنجبت الإلهة نمو ولداً وبناتاً الأول (أن) إله السماء المذكر، والثانية «كي» آلهة الأرض المؤنثة وكانا ملتصقين مع بعضها. وغير منفصلين من أمهما نمو .

٣- ثم أن (أن) تزوج (كي) فأنجبا بكرهما (انليل) إله الهواء الذي كان بينها في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

٤ - انليل الإله الشاب النشيط، لم يطق ذلك السجن، فقام بقوته الخارقة

بإبعاد أبيه أن من أمه كي. رفع الأول فصار سماء، وبسط الثانية فصارت أرضاً،
ومضى يرتع بينهما.

٥ - ولكن انليل كان يعيش في ظلام دامس. فأنجب انليل ابنه (نانا) إله القمر،
فيبدد الظلام في المساء وينير الأرض،

٦ - (نانا) إله القمر أنجب بعد ذلك (أوتو) إله الشمس الذي بزّه في الضياء.

٧- بعد أن أُبعِدَت السماء عن الأرض، وصدر ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافئ، قام
انليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى .

والآن إذا جردنا هذه السلسلة الأسطورية من رموزها ومفرداتها الميثولوجية، وترجمناها إلى لغتنا
العلمية الحديثة، لظهر لنا منطقها المتماسك، والملاحظات العلمية التي قادت إليها:

١ - في البدء لم يكن موجوداً سوى المياه التي صدر عنها كل شيء وكل حياة.

٢ - في وسط هذه الحياة الأولى ظهرت جزيرة يابسة على هيئة جبل قبته هي الماء، وقاعدته هي
الأرض ومن لقاء القبة بالقاعدة ظهر الهواء، العنصر المادي الثالث بعد المياه والتراب.

٣- من الصفات الأساسية لهذا العنصر الجديد، التمدد. ويتمدد هذه المادة الغازية، تباعدت
السماء عن الأرض.

٤- لم يكن القمر السابح في الهواء إلا نتاجاً للهواء وإبناً له، وربما كان من نفس العنصر أيضاً،
أما الشمس فهي الإبن الذي فاق أباه القمر قوة، وخلقه على عرش السماء فيما بعد.

٥ - بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض، وغمرت أشعة الشمس الدافئة وجه البسيطة، تهيأت
الشروط اللازمة للحياة، فظهرت النباتات والحيوان وتم خلق الإنسان.

تتطابق هذه النظرات في بعض جوانبها مع النظريات العلمية الحديثة.

فولادة القمر من الهواء لا تبعد كثيراً عن النظريات القائلة بتشكّل الأجرام السماوية من السحب
الغازية. أما صدور الأشياء عن المياه الأولى فلا يبتعد عن الإكتشافات العلمية الحديثة المتعلقة

بنشأة الحياة وتطورها ابتداءً من البحر. وأريد هنا أن ألفت النظر إلى نقطة هامة لفهم الفكر
الأسطوري وتطوره. فالفكر القديم إبتدأ مادياً

حسيماً، وبعيداً عن التجريد. وفكرة القوة المبدعة المنفصلة عن الكون الفاعلة فيه عن بعد، لم تكن موجودة في ذهن خالق الأسطورة. فعمليات الخلق ليست فعلاً صادراً عن الآلهة، منفصلاً عنها، بمقدار ما كانت تديماً لحركتها وتفاعلها مع بعضها، ففي البدء كانت المياه الأولى، أزلية غير مخلوقة ولا منبجسة عن العدم.

وجبل السماء والأرض لم يُخلق بفعل قوة خارجية مجردة متعالية، بل جاء نتيجة إخصاب ذاتي للأُم الأولى التي ولدته من رحمها، كما تلد أمهات البشر والحيوان، وكما يتكاثر النبات. وكذلك الأمر بالنسبة للقمر والأرض وغيرها. والآن لنأتي إلى استعراض أهم النصوص التي وصلت إلينا، والتي تُلقي الضوء على أفكار السومريين في موضع البدء والتكوين .

فصل السماء عن الأرض:

في مطلع أسطورة تحكي عن خلق الإنسان، نعثر على إشارة لجبل السماء والأرض في جبل السماء والأرض أنجب (آن) وأتباعه الأنانوكي^(١).

وهذا الجبل لم يكن أزلياً، بل مخلوقاً. فمن لوح آخر، مخصص لتعداد أسماء الأنانوكي، آلهة سومر، نعرف أن الآلهة (نمو) وهي المياه البدئية، قد انجبت السما، والأرض، اللتين انفصلتا عن بعضهما. ويُشير مطلع أسطورة أخرى عرضاً إلى هذا الانفصال، فيقول:

بعد أن أبعدت السماء عن الأرض

وفصلت الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان

وأخذ (آن) السماء

وإنفرد (انليل) بالأرض

أخذ الإله (كور) . الآلهة (أريشكيجال) غنيمة^(٢).

1- S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. . Newyork. 1961

2- ibid

والإله كور في الميثولوجيا السومرية، هو رب العالم الأسفل، عالم الموتى الذي تمضي إليه الأرواح. أما أربشكيجال فقد كانت آلهة أرضية تزوجها كور بعد أن إختطفها إلى عالمه الأسفل لتغدو آلهة ذلك العالم، وسيدته المطلقة؛ تماماً كالإلهة بيرسفوني في الميثولوجيا الأغريقية، التي إختطفها إله العالم السفلي هاديس، من أمها آلهة الخصب ديمتر، فصارت ربة للعالم الأسفل وزوجة لسيد عالم الموتى. ومما يثبت الرابطة بين الأسطورتين، أن أسم (كور) الذي بقي في اللغة السومرية دلالة على العالم الأسفل حتى الفترات المتأخرة، وزوال ذكرى الإله القديم وأسطورته، هو أيضاً أسم ربة العالم الأسفل الإغريقية؛ التي تُشير إليها الأساطير أحياناً بأسم بيرسفوني وأحياناً أخرى بأسم (كور).

وفي مطلع أسطورة ثالثة نعرف مزيداً من المعلومات عن فصل السماء عن الأرض، والإله الذي قام بتلك العملية الجبارة:

أن الإله الذي أخرج كل شيء نافع
الإله الذي لأمبَدَل لكلماته

انليل الذي أنبت الحب والمرعى
أبعد السماء عن الأرض

وأبعد الأرض عن السماء^(٣).

ثبتت لنا هذه الأساطير السومرية، تقاليد بقيت سائدة في الفكر الأسطوري لحضارات المنطقة والحضارات الأخرى المجاوره ففكرة الميلاد المائي تكرر فيما بعد في الأساطير البابلية التي تحكي عن ولادة الكون من المياه الأولى (تعامة) المقابلة لـ «نمو» السومرية^(٤) وفي الأسطورة السورية نجد (يم) المياه الأولى، وقد أنتصر عليه الإله بعل وشرع بعد أنتصاره بتنظيم العالم^(٥). وفي الأسطورة المصرية كان رع أول إله يخرج من المياه الأولى، وهو الذي أنجب فيما بعد بقية الالهة^(٦). وفي الأسطورة الإغريقية نجد (اوقيانوس) هو المياه الأولى، والإله البدئي الذي نشأ

3- Ibid

(٤) راجع فصل التكوين البابلي فيما يأتي، نص الاينوماإيليش

(٥) راجع فصل التكوين الكنعاني فيما يأتي، نص بعل ويم

6- J,Viaua, Egyptian Mythology. Larosse Encyclopedia of Mirthology. London.1977 p11

عنه الكون^(٨). وفي التوراة العبرانية أيضاً نجد المياه الأولى وروح الرب فوقها قبل التكوين « وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعُمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. التكوين: ١. كما أثبت لنا القرآن الكريم وهو نهاية الوحي الذي إبتدأ بسيدنا آدم وجود المياه البدئية إذ قال (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) وقال (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)^(٨).

وكذلك الأمر فيما يتعلق بفكرة لقاح السماء والأرض المتحدتين، والفصل بينهما فيما بعد. ففي الأسطورة المصرية نجد (جيب) إله الأرض المذكر، و(نوت) آلهة السماء المؤنثة في حالة إتحاد^(٩). وقد تزوجا بعضهما سراً دون إذن من الإله رع. فلما علم كبير الآلهة بذلك أرسل إله الهواء (شو) الذي أبعدهما عن بعض عنوة. ومنذ ذلك الوقت والإله شو يطأ بقدميه جيب الصريع، ويرفع بذراعيه القويتين السماء نوت. وفي الأسطورة الإغريقية نجد (جيا) الأرض، الأم الأولى، التي كانت أول إله يخرج من العماء البدئي، تلد نظيرها أورانوس إله السماء الذي يغطيها من كل الجوانب، وتتحد به لتلد بقية الآلهة^(١٠)، ثم يتم التفريق بينهما عنوة. وفي الأسطورة البابلية يقوم الإله مردوخ بشطر جسد الآلهة تعامة، المياه الأولى إلى نصفين، فيرفع الأول سماء، ويبسط الثاني أرضاً^(١١) وفي الأسطورة التوراتية، يقوم إله العبرانيين يهوه، أيضاً، بفصل المياه الأولى إلى شطرين، رفع الأولى إلى السماء وبسط الثاني الذي تجمّع ماؤه في جانب، وبرزت منه اليابسة في جانب آخر^(١٢). أخيراً، أثبت لنا القرآن الكريم واقعة فصل السماء عن الأرض بقوله: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا)^(١٣).

وقد قام المؤلفون العرب فيما بعد بتفصل نظرية الميلاذ وفصل السماء عن

7- F. Guirands. Greek Mythology. Hamlyn. London. 1963 p. 63

(٨) سورة هود الآية ٦، سورة الأنبياء الآية ٣٠.

9- New tarousse Encyclopedia or Mythology. Hamlyn. London. 1977 p14-15

10- ibid p87.150

(١١) راجع فصل التكوين البابلي، فيما يلي، نص الانبيوما إيليش .

(١٢) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الأول. (١٣) سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

الأرض، مستخدمين نفس الأفكار الأسطورية القديمة. فنقرأ في كتاب عرائس المجالس، لابي إسحق الثعلبي المتوفي سنة ثم ٤٢٧ هجرية^(١٤): "لما أراد الله تعالى أن يخلق السموات والأرض، خلق جوهرة خضراء حجمها اضعاف طباق السموات والأرض ثم نظر إليها نظرة هيبه فصارت ماء. ثم نظر إلى الماء فعلى وارتفع منه دخان وزبد وبخار.. وخلق الله من ذلك الدخان السماء. ومن ذلك الزبد الأرض. كما نقرأ للطبري المتوفي سنة ٣١٠ هـ في كتاب تاريخ الرسل والملوك^(١٥) . أن الله تعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء. فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء، فسماه عليه فسماه سماء، ثم أبيض الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتمها فجعلها سبع أرضين". كما يحدثنا الشيخ الأكبر معي الدين بن عربي في الجزء الأول من الفتوحات المكية عن خلق العالم فيقول^(١٦): «فخلق الماء سبحانه، برده جامدة كالجوهرة في الاستدارة والبياض وأودع فيها بالقوة ذات الأجسام وذوات الأعراض. ثم خلق العرش واستوى عليه اسم الرحمن... فنظر بعين الجلال إلى تلك الجوهرة فذابت حياة، وتحللت أجزاءها فسالت الماء، وكان عرشه على ذلك الماء قبل وجود الأرض والسماء... وليس في الوجود إذك، لا حقائق المستوى عليه، والمستوي، والاسواء. فأرسل النفس فتموج الماء وأزبد... وترك زيده بالساحل الذي أنتجه... فأنشأ سبحانه في ذلك الزبد الأرض... ثم أنشأ الدخان من نار إحتكاك الأرض عند فتحها، ففتق فيه السموات العلى»

وفي أساطير كثير من الشعوب البدائية المعاصرة لنا نجد تكراراً للأسطورة فصل السماء عن الأرض. ففي نيوزيلاندة وتاهيتي وجزر كوك، يروي السكان الأسطورة التالية^(١٧): بعد أن إتحدت السماء بالأرض أنجبتا عدداً من الآلهة الصغار الذي كانوا يعيشون في ضيق وظلمة لشدة إلتصاق السماء بالأرض، فقررروا التمرد على هذا الوضع بزعامة الإله الجريء (تاني) الذي رفع السماء بقوة ذراعيه حتى إسقرت مكانها، ثم قال لتبقى السماء بعيدة عنا، أما الأرض، فلتبقى قريبة هنا أما رؤوماً.

(١٤) أبي إسحق الثعالبي؛ عرائس المجالس، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ص ١٢

(١٥) تاريخ الطبري، دار سويدان، بيروت ١٩٦٧، الجزء الأول ص ٥٢

(١٦) معي الدين بن عربي، الفتوحات المكية، السفر الأول، القاهرة ١٩٧٢ صفحة ٤٩

ولعل النظريات العلمية الحديثة في نشأة الكون لا تبتعد كثيراً عن هذه الافكار عندما تفترض أن انفجاراً بدنياً قد حدث في الأزمنة السحيقة، نشأ عنه تبعثر الاجرام في الفراغ وابتعادها عن نقطة الانفجار. فالأرض والحالة هذه كوكب قد انفصل عن مكان ما هناك في السماء. ولقد قامت مدرسة التحليل النفسي بتفسير نظرية الميلاد المائي على أنها انعكاس لذكرى كامنة في لا شعور الإنسان عن حالة الجنين في رحم الأم، حيث كان محاطاً بالماء من جميع الجهات، وانبثاقه، من ثم، عن ذلك الوسط إلى العالم الجاف الخارجي. كما أن المدرسة تستخدم أساطير فصل السماء عن الأرض، لتوكيد وجهة نظرها في سيطرة عقدة أوديب، التي تشغل حيزاً كبيراً من نظرية سيجموند فرويد، فالرغبة المكبوتة في لا شعور الطفل، والمتعلقة بإبعاد الأب والاستئثار بالأم، تجد متنفساً لها في عالم الأسطورة، حيث يقوم البطل بإبعاد السماء والبقاء في الأرض. يُضاف إلى ذلك أن بعض الأساطير لا تكتفي بالإبعاد، بل يتعداه، في قيام الإبن بفعل عنيف ضد الوظيفة الجنسية للأب، تلك الوظيفة إلى تعطيه إمتيازاً عند الأم. فالإله كرونوس في الأسطورة الأغريقية^(١٨) يقوم بتحريض من أمه بإخفاء أبيه اورانوس إله السماء، ورمي أعضائه التناسلية في البحر. ومن لقاء مياه اورانوس المخصبة بمياه المحيط، تولد افروديت من زيد البحر، وتضع قدمها على اليابسة عند شواطئ، قبرص.

تنظيم الكون:

بعد أن فصل انليل بين السماء والأرض، واعطاها شكلهما الذي نعرفه اليوم، انصرف إلى خلق بقية عناصر الكون. وهنا أيضاً، يأتي الخلق نتيجة الحركة المادية والفعالية الحياتية للآلهة، لا نتيجة الكلمة الخالقة والأمر الالهي. فظهور القمر والشمس إلى الوجود، وبعض الآلهة الأخرى، يأتي نتيجة الفعالية الجنسية للإله انليل الذي ضاجع الآلهة لنليل فولدت له القمر والقمر بدوره أنجب الشمس بفعل جنسي آخر. تحدثنا أسطورة سومرية عن سلسلة الخلق هذه في نص شعري

جميل مؤلّف من مائة وأثنين وخمسين سطرًا، معظمها في حالة سليمة تسمح بقراءة واضحة للألواح الموزعة عليها. (١٩) :

تبدأ الأسطورة بمقدمة وصفية لمدينة نيبور التي وُجِدَت قبل ظهور الإنسان، وكانت تسكنها الآلهة:

أنظر (إلى نيبور) عماد السماء والأرض (هي) [.....]

أنظر إلى نيبور المدينة [.....]

ترى أسوارها العالية، مدينة [.....]

ترى نهرها الرقراق ايد سالا

ترى رصيفها كاركورانا، حيث ترسو السفن

ترى بولا نبعها الصافي ترى ادنو نبردو، جدولها العذب

هناك انليل فتاها الغض ... هناك ننليل فتاها الشابة

هناك نبار شيكونو سيدتها العجوز

بعد هذه المقدمة، تبدأ القصة، فنجد سيدة نيبور العجوز وهي تحدث إبنتها ننليل في كيفية إستماله الإله انليل:

في تلك الايام قامت الأم بارشاد ابنتها،

قامت نبار شيكونو بنصح ابنتها:

عند النهر الصافي يا فتاتي، عند النهر الصافي أغتسلي.

وعلى ضفة نهر الننبردو، أي ننليل، تمشي

ذو العينين البراقتين، السي ذو العينين البراقتين،

الجبل العظيم، انليل الأب، ذو العينين البراقتين سيراك

الراعي، سيد المصائر، ذو العينين البراقتين سيراك

حيث [.....] وحيث يقبلك.

نفذت ننليل مشورة أمها. وأبصرها انليل فحاول غوايتها، ولكنها تمتعت.

فتحايل عليها وحملها بمعونة وزيره نسكو إلى قارب، وهناك اغتصبها وتركها حبلى

بالإله القمر. إلا أن الآلهة تغضب لفعلة انليل. ويقرر المجمع نفيه إلى العالم الأسفل. يرضخ انليل لمشيئة الآلهة ويبدأ رحلته نحو العالم الاسفل. ولكن ننليل التي تمكّن منها حب الإله الشاب تلحق به وتُدرّكه عند بوابة الجحيم. ولكن انليل يطلب من حارس البوابة، ولسبب لا ندرية تضيل ننليل، ويتخذ هو نفسه هيئة الحارس ويقبع في إنتظارها. وعندما تصل وتسأله عن حبيبها، يجيبها وهو في هيئة الحارس مضللاً، ثم يجامعها ويتركها حبلى بنرجال إله العالم الأسفل: انليل [.....] غادر المدينة.

نوننا منير غادر المدينة

انطلق انليل، والفتاة اقتفت أثره

انطلق نوننا منير والفتاة إقتفت أثره

قال انليل لحارس البوابة

يا حارس البوابة يا صاحب القفل

يا رجل المزلاج يا صاحب القفل المقدّس

ننليل الملكة آتية

ننليل الملكة آتية

فإن توجهت لك بالسؤال عني لا تكشف لها عن مكان وجودي.

إقتربت ننليل من حارس البوابة قائلة :

يا حارس البوابة، يا صاحب القفل

يا رجل المزلاج، يا صاحب القفل المقدّس.

انليل مليكك أين مضى؟

فأجابها انليل عن حارس البوابة:

لقد أمرني انليل سيد كل البلاد،

يلي ذلك أربعة أسطر تحتوي مضمون الأمر إلا أن معناها غامض ثم الحوار التالي:

- أن انليل، حقاً، مليكك، ولكني أيضاً مليكتك

- إذا كنتي حقاً مليكتي، فدعيني ألمس [.....]

- أن ماء مليكك في داخلي (نانا) * إنه في داخلي
- ليذهب ماء مليكي إلى السماء، ليذهب (نانا) إلى السماء
- وأتركي مائي يمضي في الأرض.
انليل في هيئة حارس البوابة اضطلع فقبّلها وجامعها
وسكب في داخلها ماء (ميسلاميتا)
مشى انليل و نليل اقتفت أثره
نونا مشى والفتاة إقتفت إثره
قال انليل لصاحب نهر العالم الأسفل:
ياصاحب نهر العالم الأسفل
ننيل الملكة آتية ... ننيل الملكة آتية
فإن توجهت لك بالسؤال عني
لا تكشف لها مكان وجودي
إقتربت نليل من صاحب النهر قائلة :
ياصاحب نهر العالم الأسفل،
انليل مليكك، اين مضي؟
فأجابها انليل عن صاحب النهر:
لقد أمرني انليل . سد كل البلاد.
يتكرر ثانياً المضمون غير المفهوم للأمر، ثم يليه الحوار التالي، بين انليل في هيئة صاحب النهر،
والفتاة نليل :

- أن انليل حبا مليكك، ولكني أيضاً مليكتك
- إذا كنت حقاً مليكتي، فدعيني المس.....
- أن ماء مليكك في داخلي، الماء الملتمع في جوفي
ماء نانا الملتمع في جوفي
- ليذهب ماء مليكك إلى السماء، واتركي مائي يمضي في الأرض

* نانا القمر

انليل في هيئة ملاح النهر اضطجع

فقبلها وجامعها

وسكب في جوفها ماء ننازو*

وتتابع الأسطورة على نفس المنوال، فتصف مولد . إله ثالث من الإله السفلى هو الإله

(اليجيبيل) وهنا يتخذ انليل هيئة ملاح العالم الأسفل الذي ينقل بقاربه .

وتنتهي الأسطورة بترتيلة حمد لانليل :

انليل هو السيد والملك

انليل لا مبدل لكلماته

الحمد لأمتنا نفليل

الحمد لأبينا انليل

وبالجدير بالذكر أن الأساطير اليونانية اللاحقة قد نسخت بعد ألفي سنة،

حرفياً وصف العالم الأسفل السومري ، فنجد بوابات العالم الأسفل، ونهره، ملامحه وملكه،

ومليكته.

ولعل بما يلفت النظر في هذه الأسطورة، ظهور القمر للوحد . قبل الشمس، وكونه فيما بعد أباً

للشمس. ويرجع ذلك، في إعتقادي، إلى اسبقية عبادة القمر على عبادة الشمس في المجتمعات

البدائية السابقة لظهور الحضارات، مجتمعات الثقافة التي قدست القمر واعتبرته رمزاً للأم

الكبرى آلهة المجتمع الأموي، وقدمته على الشمس التي كانت رمزاً للذكر، والتي قدمتها

المجتمعات الأبوية بعد ذلك باعتبارها رمزاً للإله الذكر، إله السماء الأعلى. ومن ناحية أخرى فإن

فكرة الإله الإبن الذي يتفوق على أبيه، ويأخذ سلطاته، هي فكرة شائعة في ميثولوجيا المنطقة

وميثولوجيا الشعوب الأخرى. فانليل نفسه قد صار الإله الأول في مجمع آلهة سومر، ومردوخ

فيما بعد تفوق على أبيه، وصار سيد آلهة بابل. وعند الكنعانيين، نجد الإله الأكبر (ايل) وقد

تخلى عن مكانه للإله (بعل) . الذي تفوق على أبيه (داجون). وفي المعتقد المسيحي، نجد الإله

الإبن وقد غدا أكثر أهمية لخلاص الإنسان من الإله الأب.

* من آلهة العالم الأسفل.

(انكي) ينظم العالم:

لم يكن الخلق مهمة تولاهما إله واحد في سومر. فها هو الإله انكي، يتابع ما بدأ. انليل، ويضع اللمسات الأخيرين على صورة الكورن، فتخرج حية نضرة. وانكي هو إله الماء العذب عند السومريين وإله الحكمة أيضاً. ومن غير إله الماء العذب يستطيع أن يبعث الحياة في كون جامد لا حركة فيه!، ومن غير إله الحكمة يستطيع أن يدفع الحياة نحو غايتها، ويحدد أغراضها ومرامها؟ حول هذا لموضوع وصلتنا أسطورة سومرية، تتحدث عن نشاط الإله انكي الخاص بتنظيم العالم، وتسيير اسباب الحياة والحضارة. ولكن الجزء الأول من النص، وهو الجزء الأساسي، مشوّه بشكل لا نستطيع معه تعيين معنى واضح. وعندما يصبح اللوح الفخاري قابلاً للقراءة، نلتقي بالاله انكي وقد وصل في تطوافه الكوني إلى بلاد سومر، فيتوقف هناك، ويُعيّن لتلك البلاد مصائرهما(٢٠):

سومر، يا أعظم بلدان العالم
أيها المغمور بالغور الدائم، والشرع المطاعة
أقدارك عظيمة لا تتبدل
وقلبك واسع عميق، لا يُسبّر له غور
و[.....] كالسماء، لا يمكن مسها
الملك الذي تنجبه، مزين أبداً بحلي دائمة.
السيد الذي تنجبه، على رأسه تاج لا يميل
سيدك، سيد معظّم، يجلس مع (آن) في العرش السماوي
مليكك، هو الجبل العظيم، الأب انليل.
وكمثل [.....] هو الأب لكل البلاد.
أما الانانوكي، الآلهة العظيمة،
ففي وسطك قد أقامت مساكنها
وفي غاباتك الواسعة تتناول طعامها
سومر، لتضاعف أسطبلاتك وتتكاثر أبقارك.

(٢٠) نفس المرجع.

لتتضاعف زرائبك، وبالآلاف فلتتكاثر أغنامك

لتكن [.....] باقية

ألا فلترتفع [.....] الراسخة يدها في السماء

ألا فليقرر الأنانوكي، في وسطك، المصائر.

بعد ذلك يمضي إلى مدينة أور وكانت عاصمة سومر، في ذلك الوقت المبكر من تاريخه. فيقرر لها مصائرها:

إلى أور أتى

انكي، سيد الأعماق، أتى، يقرر مصائرها:

أيتها المدينة الموفورة، يامدينة الماء الثر، والثيران القوية

يا مصدر رزق البلاد، أيتها الخضراء، يا متباعدة الركبتين أبدأ*.

يا غابة الظل الوارف[.....]

أقدارك الكاملة، هو الذي قدرها

انليل، الجبل العظيم، قد نطق أسمك المقدس

انليل، الجبل العظيم، قد نطق أسمك المقدس في الافاق

أيتها المدينة التي رسم مصائرها انكي

أي أور، أيها الهيكل المقدس، لترفعي هامتك نحو السماء

ثم يذهب انكي إلى بلاد ملوخوا فيباركها أيضاً وإلى دجلة والفرات يملأهما بماء نقي ويخلق فيهما

السماك، وعلى شاطئيهما ينثر القصب، ثم يوكل بهما الإله انبيلولو. ثم يلتفت إلى البحر يُنظّم

شؤونه ويوكل به آلهة اسمها سيرارا**، ثم إلى الرياح فيستلم قيادها ويوكلها إلى الإله اشكور،

صاحب القفل الفضي، الذي ينظّم من خلاله الأمطار، ثم إلى شؤون الزراعة، وما يتصل بها من

أدوات، حيث يخلق النير والمحراث، ويوكل الإله انكمدو بالقنوات والسواقي. وفي المدن يهتم

بالعمران يقيم للأجر إلهاً خاصاً، ويحفر الأساسات ويُنشئ الجدران، ويعين الإله

* لم يُشر مترجم النص السيد كريم بشيء، إلى تعبير متباعدة الركبتين. وأعتقد أن في التعبير إشارة لخصب ال أرض

فقديماً كانت المماثلة قائمة أبدأً بين خصب المرأة وخصب ال أرض. وفي بعض الأعمال الفنية التي وصلتنا من تلك

الفترة نجد آلهة الخصب عشتار وقد جلست على ال أرض عارية، مباعداً ساقها، وعضو التناسل بارز بكل تفاصيله

** ويذكرنا أسمها بالسيرين الأغريقيات، حوريات البحر، الوارد ذكرهن في ملاحم هوميروس

خُدَّاماً للإشراف على أعمال البناء. ثم يملأ السهول بالاعشاب والمراعي وينثر بها القطعان، ويُعيّن
لأمورها الإله سوموقان. ثم الحظائر يملؤها بالمنتجات الحيوانية، ويُعيّن عليها الإله الراعي
دومرزي -

والى هنا ينتهي النص المفهوم، حيث يعود اللوح التشوّه مرة أخرى.

خلق الإنسان

بعد أن أخذ الكون شكله، وأستقرت السماء في موضعها، وكذلك الأرض.

بعد أن انتظمت دورة النهار والليل، وحركة الفصول. بعد أن أخرجت الأرض زرعها وشجرها،
تفجرت ينابيعها. بعد أن ظهرت الحيوانات بأنواعها وامتألت البحار بأسمائها. بعد ذلك صار
المسرح مهيناً لظهور الإنسان .

والأسطورة السومرية المتعلقة بخلق الإنسان، هي أول أسطورة خطتها يد الإنسان عن هذا
الموضوع. وعلى منوالها جرت أساطير المنطقة، والمناطق المجاورة، التي استمدت منها عناصرها
الأساسية، وخصوصاً فكرة تكوين الإنسان من طين، وفكرة تصوير الإنسان على صورة الآلهة .
أما لماذا خلق الإنسان؟ فإن الأسطورة السومرية لا تردد في الإجابة على هذا السؤال ولا توارب.
فالإنسان خُلِقَ عبداً للآلهة، يقدم لها طعامها وشرابها ويزرع أرضها ويرعى قطعانها، خُلِقَ الإنسان
لحمل عبء العمل ورفعته عن كاهل الآلهة. فمنذ البدء كان الآلهة يقومون بكل الأعمال التي
تقيم أودهم وتحفظ حياتهم. ولكنهم تعبوا من ذلك فراحوا يشتكون لانكي الحكيم، ليجد لهم
مخرجاً. ولكنه، وهو المضطجع بعيداً في الأغوار المائية، لم يسمع شكاتهم. فمضوا إلى أمه الإلهة
(نمو) المياه البدئية التي أنجبت الجيل الأول من الآلهة، لتكون واسطتهم إليه، فمضت إليه
قائلة^(٢١):

أَيُّ بَيْتِي إِهْضُ مِنْ مَضْجَعِكَ، إِهْضُ مِنْ [.....]

وأصنع أمراً حكيماً

أجعل للآلهة خدماً، يصنعون [لهم معاشهم]

(٢١) نفس المرجع

فتأمل انكي ملياً في الأمر، لم دعا الصنّاع الألهيين المهرة وقال لأمه نمو:
أن الكائنات التي أرتأيت خلقها، ستظهر للوجود
ولسوف نُعلّق عليها سورة الآلهة*.

امزجي حفنة طين، من فوق مياه الأعماق
وبيقوم الصنّاع الألهيون المهرّة بتكثيف الطين (وعجنه)

ثم كوّني أنت له أعضاءه

وستعمل معك ننماخ** يداً بيد

وتقف إلى جانبك، عند التكوين، ربات الولادة

ولسوف تقدّرين للمولود الجديد، يا أماه، مصيره

وتعلق ننماخ عليه صور الآلهة

[.....] في هيئة الإنسان[.....]

بعد ذلك يتشوّه اللوح الفخاري، حامل النص. ثم نجد أنفسنا، بعد وضوح الكتابة، مع انكي

يحتفل بإنجازها المبدع في وليمة يدعو إليها الآلهة. وفي أسطورة سومرية أخرى تحكي خلق الماشية
والحبوب، نجد رواية أخرى لقصة خلق الإنسان^(٢٢)

كالبشر، عندما خلّقوا أول مرة .

لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز

لا ولم يعرفوا لبس الثياب

بل أكلوا النباتات بأفواههم وشربوا الماء من الينابيع والجداول.

في تلك الأيام، وفي حجرة الخلق

في (دلكوچ) بيت الآلهة، خلق (لهار) و(اشنان)***

* إذا اتبعنا ترجمة كريم، تكون ترجمة هذين البيتين على الوجه التالي :

أن المخلوقات التي نطقت بأسمها مجودة فعَلّقي عليها صورة الآلهة وقد إرتأيت التغيير في الترجمة العربية لاستقامة

معنى هذين البيتين مع السياق العام للنص. ** ننماخ هي الأرض الأم في الأسطورة السومرية.

*** لهار إله الماشية، واشنان آلهة الحبوب نفس المرجع. (٢٢)

ومما أنتج لها رواشنان
أكل الأنوناكي ولم يكتفوا
ومن حظائرها المقدسة شربوا اللبن
شربوا ولكنهم لم يرتووا
لذا ومن أجل العناية بطيبات حظائرها
تم خلق الإنسان

تسربت العناصر الرئيسية لهذه الأسطورة، إلى معظم أساطير الشعوب المجاورة. ففي الأساطير البابلية اللاحقة يتم خلق الإنسان من الطين، ويفرض عليه حمل عبء العمل. وفي سفر التكوين العبراني، نجد إله اليهود يهوه، يقوم بخلق الإنسان من طين، بعد انتهائه من خلق العالم، ويجعله على شاكلته؛ (وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً) (٢٣). ورغم أن الهدف الذي يقدمه النص التوراتي لخلق الإنسان، هو السيطرة "وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشِبْهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ» (٢٤) إلا أنه يعود ويفرض عليه عبء العمل، تماماً كالنص السومري: "وَقَالَ لِآدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ أَمْرَاتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةُ الأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالْتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. يِعْرِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْزًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ". (٢٥). وفي الأساطير المصرية نجد تردداً لنفس الفكرة. وكذلك الأمر في الأساطير الإغريقية (٢٦)، التي تعزو لبروميثيوس خلق الإنسان. فقد قام هذا الأخير بخلق الإنسان من تراب وماء، وعندما أستوى الإنسان قائماً، نفخت الآلهة أئينا فيه الروح. ثم راح بروميثيوس بعد ذلك يزود الإنسان بالوسائل التي تعينه على البقاء والاستمرار، فسرق له النار الإلهية من السماء، ضد رغبة كبير الآلهة زيوس، وأفشى له سرها وكيفية توليدها واستخدامها، فنال بذلك غضب زيوس وعقابه.

(٢٣) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثاني. (٢٤) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الأول.

(٢٥) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الثالث.

فإذا تركنا أساطير الشعوب المتحضرة، نجد أن فكرة الخلق من طين ترد في أساطير الشعوب البدئية. تقول أسطورة أفريقية^(٢٧): أن الإله الخالق قد أخذ حفنة من طين شكّلها على هيئة إنسان، ثم تركها في بركة مليئة بماء البحر مدة سبعة أيام. وفي اليوم الثامن رفعها فكانت بشراً سويّاً. وفي أسطورة من الفلبين^(٢٨)، يقوم الإله الخالق بجبل حفنة من طين على هيئة إنسان، ويضعها في الفرن، ولكنه يسهو عنها فتسود . وهذا هو أصل الإنسان الأسود. ثم يضع أخرى ويخرجها قبل أوانها . فهذا هو أصل الإنسان الأبيض. وفي المرة الثالثة يأخذ الطين كفايته من النار فيخرج الإنسان الفلبيني، ذو اللون البرونزي. وفي أسطورة هندية أمريكية نجد أيضاً التكوين الطيني ونفخة الحياة التي تهب الشكل الجامد روحه وحركته.

هذا ولا يزودنا العلم الحديث بنظرية أو حقيقة، تثبت علاقة جسم الإنسان بتراب الأرض، ولكنه يقول لنا أن العناصر المكونة لجسم الإنسان هي نفس العناصر الموجودة في التراب . وأخيراً يثبت القرآن الكريم خلق الإنسان من تراب في أكثر من موضع؛

(خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿٢٧﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿٢٨﴾. (قَالَ مَا مَنَّكَ عَلَىٰ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) (٣٠).

استراحة الخالق:

بعد الإنهاء من عناء الخلق، يخلد انكي للراحة والسكينة، ويشعر في بناء بيت له في الأعماق المائية. وتحدثنا أسطورة سومرية عن بناء بيت الرب، الذي يبدو هنا إلهاً للأعماق بشكل عام، أكثر منه إلهاً للمياه العذبة الباطنية، فالأسطورة ترسم انكي في صورة تذكرنا بالإله بوسيدون إله البحار عند الإغريق، أو نبتون عند الرومان. تقول الأسطورة (٣١):

27-ibid

28-ibid

(٢٩) سورة الرحمن الآية ١٣ و١٤ . (٣٠) سورة الأعراف الآية ١١

31- S. N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row, 1961

بعد أن تفرقت مياه التكوين
وعمت البركة أقطار السماء
وغطى الزرع والعشب وجه الأرض.
انكي، إله الغمر، انكي، الملك
انكي، الرب الذي يقرر المصائر
بني بيته من فضة ولازورد .
فضة، ولازورد كأنها النور الخاطف
حيث إستقر هناك في الأعماق

وبعد أن إنتهى من بناء بيته، كان لابد له، ككل الألهة العظام، من مدينة أيضاً، فرفع من أعماق
البحر مدينة أريدو*، وغطاها شجراً وخضرة ونباتاً، وملاً مياهها سمكاً. ثم قرر السفر إلى أبيه
انليل ليحصل على بركته. فارتفع من الأعماق المائية في مشهد مهيب مروع:
عندما ارتفع انكي، ارتفعت معه كل الأسماك

واضطرب الغمر واصطخب
زال عن البحر وجه المرح
وساد الرعب في الأعماق،
واستبد الهلع بالأنهار العالية

ورفعت ربح الجنوب الفرات على مدٍ من الامواج

وعندما يصل انكي في مركبته إلى نيبور مدينة انليل، يُقيم مأدبة للألهة،
يقدم لهم فيها الطعام والخمر. وفي نهايتها يقف انليل فيئثني على ما فعله انكي من بناء للبيت
ويمنحه بركاته ورضاه . ويبدو أن بناء البيت للألهة، هو أمر ضروري بعد ارتفاع شأنه وعلو
مقامه. وبعد البيت يأتي بناء مدينة للإله أيضاً. فهذا مردوخ إله بابل، يبني له الآلهة بيتاً يناطح
برجه المدرج عنان السماء، بعد انتهائه من فعل الخلق. وحول الهيكل المقدس يبني الآلهة ايضاً
مدينة بال ، وها هو بعل، إله سورية، يُطاب ببناء بيت له بعد أن تغلب على المياه الأولى ممثلة
بالإله «يم» وعلى قوى الشر والقحط .

* ويعتبرها علماء الآثار من أقدم مدن سومر. وما زال معظمها مطموراً تحت ال أرض.

الممثلة بالإله موت فيكون له ما أراد. ويقلده في ذلك إله اليهود الذي يطاب ببناء بيت له بعد أن تعب من التجوال في خيمة بني إسرائيل.

نقرأ في سفر صمويل الثاني من العهد القديم ٧ : ٣ (وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ كَانَ كَلَامُ الرَّبِّ إِلَى نَاتَّانَ قَائِلاً: إِذْهَبْ وَقُلْ لِعَبْدِي دَاوُدَ: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: أَأَنْتَ تَبْنِي لِي بَيْتًا لِسُكُنَائِي؟ لِأَنِّي لَمْ أَسْكُنْ فِي بَيْتٍ مُنذُ يَوْمٍ أَصْعَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ إِلَى هَذَا الْيَوْمِ، بَلْ كُنْتُ أَسِيرُ فِي خَيْمَةٍ وَفِي مَسْكَنِ). وهكذا نغادر التكوين السومري بعد أن وضعت لنا تلك الأساطير القليلة، الناقصة، والمبعثرة، الإطار العام لتصوير أسطوري سيستمر ويتطور وينضج في بقية أساطير المنطقة. كما وسنلتقي مع من تعرفنا عليهم من الآلهة، في أماكن أخرى لشعوب أخرى. ف (آن) إله السماء السومري سيغدو (أنو) إله السماء البابلي، وايل إله السماء السوري، و (انكي) إله الماء العذب سيغدو (إيا) إله الماء العذب البابلي. ونماذج الأم - الأرض، ستظهر بأسمها نفسه أو بأسم فنخرساج أو بأسم ننتو أو مامي. و (نمو) المياه الأولى سنجدها في شخصية (تعامة) المياه الأولى عند البابليين و (يم) عند الفينيقيين (الكنعانيين). وسنلتقي أيضاً بأريشكيجال آلهة العالم الأسفل وقد حافظت على أسمها ووظائفها.

لقد استولت الحضارة السومرية على الفاتحين ثقافياً، بعد أن دانت لهم عسكرياً.

٢ / التكوين البابلي

أقام الأكاديون الساميون إلى جانب جيرانهم السومريين رداً طويلاً، وما لبثوا أن استوعبهم، وديسوا سلطتهم السياسي والثقافي على بلاد الرافدين، في إمبراطورية بلغت أوجها في عهد الملك الكبير حمورابي. وإذا كان السومريون قد وضعوا بذرة الثقافة في وادي الرافدين، فإن الأكاديين هم الذين استنبطوها لتُعطى أكلها، وتهب العالم حضاره تُعد، إلى جانب الحضارة السورية والمصرية، من أقدم وأهم الحضارات الإنسانية. ولم يكن تعاقب الشعوب السامية الأخرى على الهيمنة السياسية في وادي الرافدين (كالكلدانيين، والآشوريين) إلا تنوعاً على أرضية واحدة مشتركة. وأقوم في هذا الكتاب بالإشارة للثقافة الرافدية بأسم الثقافة البابلية، دون أن يعني ذلك تخصيصاً، أو تحديداً معيناً.

تتوضع أفكار البابليين في الخلق ولتكوين، بشكلها الأكمل، في ملحمة التكوين البابلية المعروفة بأسم (الانيموما ايليش) وتعتبر هذه الملحمة، إلى جانب ملحمة جلجامش، من أقدم وأجمل الملاحم في العالم القديم. فتاريخ كتابتها يعود إلى مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. أي قبل ألف وخمسة سنة تقريباً من كتابة إلياذة هوميروس، وتدوين أسفار التوراة العبرانية. وقد لقيت كثيراً من الإهتمام والدراسة، من قبل علماء. المسماريات والأنثروبولوجيا والميثولوجيا والجيولوجيا.

فإلى جانب الشكل الشعري الجميل الذي صيغت فيه الملحمة، والذي يعطينا نموذجاً لأدب إنساني متطور، لأنها تقدم لنا وثيقة هامة من معتقدات البابليين، ونشأة آلهتهم ووظائفها وعلاقاتها. كما أنها تقدم لدارس الديانات المقارنة، مادة غنية، بسبب المشابهات الواضحة مع الإصحاحين الأول والثاني من كتاب التوراة.

وجدت الملحمة موزعة على سبعة ألواح فخارية، أثناء الحفريات التي كشفت عن قصر الملك آشور بانبيال، ومكتبته التي أحتوت على مئات الألواح في ثنى الموضوعات الأدبية والدينية والقانونية وما إليها. وقد جرى الكشف عن ألواح الملحمة تباعاً، منذ نهاية القرن الماضي وحتى نهاية الربع الأول من القرن الحالي، حيث اكتملت وصارت واضحة وميسرة للترجمة والدراسة. واسم الملحمة مأخوذ، كما هي عادة السومريين والبابليين، من الكلمات الافتتاحية للنص. فاينوما إيليش، تعني: عندما في الأعلى. فعندما في الأعلى لم يكن هناك سماء، وفي الأسفل لم يكن هناك أرض. لم يكن في الوجود سوى المياه الأولى ممثلة في ثلاثة آلهة: (أبسو) و(تعامه) و(ممو). فأبسو هو الماء العذب، وتعامه زوجته كانت الماء المالح، أما ممو، فيعتقد البعض بأنه الأمواج المتلاطمة الناشئة عن المياه الأولى، ولكني أؤيد الرأي القائل بأنه الضباب الممنتشر فوق تلك المياه والناشئ عنها. هذه الكتابة المائية الأولى كانت تملأ الكون وهي العماء الأول الذي انبثقت منه فيما بعد بقية الآلهة والموجودات، وكانت آلهتها الثلاثة تعيش في حالة سرمدية من السكون والصمت المطلق، ممتزجة ببعضها البعض في حالة هيولية. لا تمايز فيها ولا تشكّل. ثم أخذت هذه الآلهة بالتناسل فولدت لابسو وتعامه إلهان جديدان هما (لخمو) و(لخامو) وهذان بدورهما أنجبا (أنشار) و(كيشار) اللذين فاقا أبويهما قوةً ومَنَعَةً. وبعد سنوات مديدة ولد لأنشار وكيشار ابن أسمياه (أنو) وهو الذي صار فيما بعد إلهاً للسماء. وأنو بدوره أنجب انكي أو إيا، وهو إله الحكمة والفطنة، والذي غدا فيما بعد إله المياه العذبة الباطنية. ولقد بلغ إيا حداً من القوة والهيبة، جعله يسود حتى على آبائه.

وهكذا امتلأت أعماق الآلهة تعامه بالآلهة الجديدة، المليئة بالشباب والحيوية، والتي كانت في فعالية دائمة وحركة دائية، مما غير الحالة السابقة وأحدث وضعاً جديداً. لم تألفه آلهة السكون البدئية، التي عكّرت صفوها الحركة، وأقلقت سكونها الأزلي. حاولت الآلهة البدئية السيطرة على الموقف واستيعاب

نشاط الآلهة الجديدة ولكن عبثاً، الأمر الذي دفعها إلى اللجوء للعنف. فقام أبسو بوضع خطة لإبادة النسل الجديد والعودة للنوم مرة أخرى. وبأشر بتنفيذ خطته، رغم معارضة تعامة التي مازالت تكن بعض عواطف الأمومة.

لدى سماعهم بمخططات أبسو، خاف الآلهة الشباب واضطربوا ، ولم يخلصهم من حيرتهم سوى أشدهم وأعقلهم، الإله إيا، الذي ضرب حلقة سحرية حول رفاقه، تحميمهم من بطش آبائهم، ثم مع تعويذة سحرية ألقاها على أبسو الذي راح في سبات عميق. وفيما هو نائم، قام إيا بنزع العمامة الملكية عن رأس أبسو، ووضعها على رأسه رمزاً لسلطانه الجديد. و نزع عن أبسو أيضاً اللقب الإلهي واسبغه على نفسه، ثم ذبحه وبني فوقه مسكناً لنفسه. كما انقضَّ على ممو (الضباب المنتشر فوق المياه الأولى) المعاضد لأبسو فسحقه وخرم أنفه بحبل يجره وراءه أينما ذهب. ومنذ ذلك الوقت صار إيا إليها للماء العذب يدفع به إلى سطح الأرض بمقدار، ويتحكم به بمقدار، وهو الذي يعطي الأنهاء والجداول والبحيرات ماءها العذب. وهو الذي يفجر الأرض عيوناً من مسكنه الباطني. ومنذ ذلك الوقت أيضاً، يشاهد ممو فوق مياه الانهار والبحيرات لأن إيا قد ربطه بحبل فهو موثوق به إلى الأبد.

بعد هذه الاحداث الجسم، ولد الإله مردوخ أعظم آلهة بابل، الذي أنقذهم مرة أخرى من بطش الآلهة القديمة، ورفع نفسه سيداً للمجمع المقدس. وكيف لا وهو ابن إيا (انكي) الذي فاق أباه قوةً وحكمةً وبتشاً. وكما كان الإنقاذ الأول على يد الأب انكي، كذلك كان الإنقاذ الثاني على يد الإبن الشاب مردوخ. فتعامه التي تركت زوجها أسبو لمصيره المحزن دون أن تهرع لمساعدته وهو يُدبِّح على يد الآلهة الصغيرة تجد نفسها الآن مقتنعة بضرورة السير على نفس الطريق لأن الآلهة الصغيرة لم تفسير مسلكها، بل زاداها انتصارها ثقة وتصميماً على أسلوبها في الحياة. وهنا اجتمعت الآلهة القديمة إلى تعامة وحرضتها على حرب أولئك المتمردين على التقاليد الكونية فوافقت وشرعت بتجهيز جيش عرم قوامه أحد عشر نوعاً من الكائنات الغريبة التي أنجبها خصيصاً لساعة الصدام، أفاعٍ وزواحف وتنانين هائلة وحشرات عملاقة، جعلت عليها الإله (كينغو)، قائداً، بعد أن اختارته زوجاً لها، وعلقت على صدره ألواح الأقدار. علم الفريق الآخر بما تخطط له تعامة وصحبها فاجتمعوا خائفين قلقين،

وأرسلوا الإله إيا الذي انقذهم في المرة الأولى، عسى ينقذهم في المرة الثانية. لكن إيا عاد مذعوراً مما رأى، فأرسلوا أنو الذي مضى وعاد في حالة هلع شديد. أُسْقِطَ في يد الجميع وأطرقوا حائرين كلٌّ يفكر في مصيره الأسود الغريب. وهنا خطر لكبيرهم إنشار خاطر جعل أساريه تتهلل إذ تذكر مردوخ، الفتى القوي العتي، فأرسل في طلبه حالاً. وعندما مثل بين يديه وعلم سبب دعوته، أعلن عن أستعداده للقاء تعامة وجيشها بشرط الموافقة على اعطائه إمتيازات وسلطات إستثنائية. فكان له ما أراد. وجلسوا جميعاً حول مائدة الشراب وقد إطمأنت قلوبهم لقيادة الإله الشاب.

أعطى الآلهة، مردوخ قوة تقرير المصائر، بدلاً من أنشار. وأعطوه قوه الكلمة الخالقة. ولكي يمنحوا قوة كلمته الخالقة، أتوا بثوب وضعوه في وسطهم وطلبوا من مردوخ أن يأمر بفناء الثوب، فزال الثوب بكلمة أمرة من مردوخ، ثم عاد إلى الوجود بكلمة أخرى. هنا تأكد الآلهة من أن مردوخ إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. فأقاموا له عرشاً يليق بإلوهيته، وأعلوه سيداً عليهم جميعاً، ثم أسلموه الطريق إلى تعامة. وقبل أن يمضي صنع لنفسه قوساً وجعبة وسهاماً وهرادة، كما صنع شبكه هائلة، أمر الرياح الأربعة أن تمسكها من أطرافها. ملأ جسمه باللهب الحارق، أرسل البرق أمامه، يشق له الطريق. دفع أمامه الأعاصير العاتية وأطلق طوفان المياه. وانقض طائراً بعربته الإلهية وهي العاصفة الرهيبه التي لا تُصد، منطلقاً نحو تعامة، والآلهة تتدافع من حوله تشهد مشهداً عجيباً.

عندما التقى الجمعان، طلب مردوخ قتالاً منفرداً مع تعامة، فوافقت عليه، ودخل الاثنان حالة في صراع مميت. وبعد فاصل قصير نشر مردوخ شبكته ورماها فوق تعامة محمولة على الرياح، وعندما فتحت فمها لإلتهامه دفع في بطنها الرياح الشيطانية الصاخبة فانتفخت وامتنع عليها الحراك. وهنا أطلق الرب من سهامه واحداً تغلغل في حشاها وشطر قلبها. وعندما تهاوت على الأرض أجهز على حياتها، ثم إلتفت إلى زوجها وقائد جيشها كينغو فرماه في الأصفاد، وسلبه ألواح الاقدار وعلّقها على صدره. وهنا تمزّق جيش تعامة شر تمزيق، وفر معظمه يطلب نجاةً لنفسه، ولكن مردوخ طاردهم، فقتل من قتل، وأسر من أسر.

بعد هذا الإنتصار المؤزر على قوة السكون والسلب والفوضى، إلتفت مردوخ إلى بناء الكون وتنظيمه وإخراجه من حالة الهبولية الاولى إلى حالة النظام

والترتيب، حالة الحركة والفعالية و... الحضارة. عاد مردوخ إلى جثة تعامة يتأملها، ثم امسك بها وشقها نصفين . رفع النصف الأول فصار سماء وسوّى النصف الثاني فصار أرضاً. ثم التفت بعد ذلك إلى باقي عمليات الخلق. فخلق النجوم محطات راحة للآلهة. وصنع الشمس والقمر وحدد لهما مساريهما. ثم خلق الإنسان من دماء الإله السجين كنفغو، حيث قتله، وأفرج من بقية الأسرى بعد أن إترفوا بأن المحرّض الأول هو كنفغو، كما خلق الحيوان والنبات. ونظم الآلهة في فريقين، جعل الفريق الأول في السماء وهم الأنوناكي، والثاني جعله في الأرض وما تحتها وهم الأيجيجي*..

بعد الانتهاء من عملية الخلق، يجتمع الإله مردوخ بجميع الآلهة ويحفلون بتتويجه سيداً للكون. بنوا مدينة هي بابل؛ ورفعوا له في وسطها معبداً تناطح ذروته السحاب هو معبد الازاجيلا. وفي الاحتفال المهيّب أعلنوا أسماء مردوخ الخمسين.

هذه هي الخطوط العريضة للملحمة البابلية الكبيرة، عرضتها في عُجالة لا تُغني عن النص الشعري الكامل الذي يعتبر مع ملحمة جلجامش أجمل نصين من نصوص الأدب السامي، ومن أجمل نتاجات الأدب القديم. وسأقدم في ما يلي ترجمة كاملة لألواح الملحمة السبعة . اعتمدت ترجمتي بشكل أسامي على نص السيد اليكندر هيديل Alexander Heidel الصادر في كتابه⁽¹⁾ The Babylonian Genesis ونص السيد سبيسر. E A. Speiser المنشورة في كتاب⁽²⁾ Ancient, Near Eastern Texts وفي بعض المواضع على نص غريسون⁽³⁾ A. K Gryson وإسرشدت بترجمة كينج؛ L.w. King وترجمة سلانجدون Slangdon فجاء النص العربي معبراً عن أهم الاتجاهات القائمة في ترجمة هذا النص العظيم**..

* ولكن النصوص القديمة لا تلتزم دوماً هاتين التسميتين. فالإيجيجي والآنوناكي غالباً ما تستعملان تبادلياً للدلالة على جميع الآلهة.

1- Alexander Heidel. The Babylonian Genesis, Phoenix Books, Chicago, 1970

2 - James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts. Princeton, Newjersey. 1969.

3 - ibid.

**في حال ملاحظة القارئ المتخصص لجمال أو كلمات غير واردة في نص هيديل، أرجو منه التحوّل إلى نفس الموضوع في نص سبيسر .

اللائنو ما ريليس

اللوحي الأول

عندما في الأعلى لم يكن هناك سماء،
وفي الأسفل لم يكن هناك أرض.
لم يكن (من الآلهة) سوى أسو أبوهم،
وممو، وتعامة التي حملت بهم جميعاً.
يمزجون أمواهم معاً.
قبل أن تظهر المراعي وتتشكل سبخات القصب
قبل أن يظهر للوجود الآلهة الآخرون
قبل أن تُمنح لهم أسماؤهم، وتُرسَم أقدارهم .
في ذلك الزمن خلق الآلهة (الثلاثة) في أعماقهم
(لخمو) و(لخامو) و(لخمو ولخامو) ويشبا عن الطريق
جاء إلى الوجود (أنشار) و(كيشار) وفاقاهما قامَةً وطولاً
عاشا الأيام المديدة، يضيفانها للسنين الطويلة
ثم أنجبا (أنو) وريثهما، وفخر آبائه.
نعم كان أنو بكر أنشار، وكان صنواً له.
ثم أنجب أنو ابنه (نوديمود)* على شاكلته
فصار نوديمود سيد آبائه
كان واسع الإدراك، حكيماً وعظيماً في قوته
أعظم من جده أنشار (وأكثر قوة وعتياً)
ولم يكن له بين أخوته ند (ولا منافس) وتجمّع الصحب المؤلّهون.

* نوديمود هو إيا، أو انكي إلهة الفطنة والذكاء والماء العذب.

أزَعَجُوا بِحَرَكَاتِهِمْ تَعَامَةً
نعم، لقد هزوا جوف تعامة.
يروحون جيئةً وذهاباً في مسكنهم المقدس
لم يقدر أبسو على إسكات صرخهم
وتعاماة كانت ساكتة حيال [أفعالهم]
رغم ألمها من سلوكهم
[ورغم] رفضها لطريقتهم
ثم أن أبسو، سلف الآلهة العظام،
دعا أمينه ممو.. قائلاً له: أي ممو، يا أميني الذي يفرح به قلبي **
دعنا [نذهب] إلى تعامة ... فمضيا ومثلاً أمامها
تشااوروا في أمر أبنائهم الآلهة (الشابة)
وفتح أبسو فمه، قائلاً لتعاماة بصوت مرتفع
(لقد غدا سلوكهم مؤملاً لي
في النهار لا أستطيع راحة، وفي الليل لا يحلولي رقاد
لأدمرنهم، وأضع حداً لفعالهم،
فيخيم الصمت ونخلد بعدها للنوم)
فلما سمعت تعامة منه ذلك،
ثار غضبها وصاحت بزوجها،
صرخت وثار هياجها
كتمت الشر في فؤادها وقالت:
لماذا ندمر مَنْ وهبناهم، نحن، الحياة؟
أن سلوكهم لمؤلم حقاً، ولكن دعونا نتصرف بلين (وروية)
ثم نطق ممو ناصحاً أبسو
[.....] وفي غير صالح الآلهة جاءت نصيحة ممو

** في ترجمة هيدل: يا وزير

* أي بطن تعامة

نعم يا والدي دمرهم دمر فوضاهم.
لتستريح نهارك، وترقد ليلك)
فلما سمع آسو ذلك، استضاء وجهه
للخطط الشريرة التي يضمها لأولاده الآلهة
ثم قام إليه ممومعاً
وجلس في حضنه وقبله .
ولكن ما دار في مجلسهم من خطط
قد وصل سمعه إلى أبناءهم الآلهة
الذين اضطربوا لما سمعوا
جلسوا صامتين. وسكنوا(حائرين)
(غير أن) ذا الفهم العميق وصاحب الفطة والحكمة
أيا، العليم بكل شيء، قد نفذ ببصيرته إلى خطط (المتآمرين)
فابتكر ضدها دائرة سحرية (حامية) ضربها حول رفاقه
وبتأن، نطق ترتيلته المقدسة المسيطرة (على النفوس)
رتلها محيطاً بها سطح الماء *
فجلب إليه النوم العميق
نام آسو وراح في سباته بلا حراك ... تاركاً أمينه مموم بلا حول
وهنا قام أيا بحل نطاق آسو ونضا عنه تاجه
وجلا عنه عظمته (وهيبته) وأسبغها على نفسه
وبذلك أخضعه، ثم عمد إلى ذبحه
وسجن مموم وأغلق دونه الأبواب
وفوق آسو أقام إيا مسكنه
وعاد إلى مموم فخرم أنفه بحبل يمسك به .
وبعد أن قهر إيا أعداءه وأخضعهم
علا أمره على خصومه جميعاً

* آسو

وبسلام ودعه ركن إلى مسكنه
دعا مسكنه لأبسو وجعله مقدساً
فيه بنى غرفة، مقاماً لنفسه
وسكن هناك مع زوجته (دومكينا) بكل أهبة وعظمة
وفي غرفة الأقدار تلك، غرفة المصائر
أحكم الحكماء، أحكم الآلهة، الرب، قد وُلد
في ابسو المقدس، مردوخ قد وُلد
إيا، كان له أباً
ودامكينا، التي حملت به، أمماً
أرضعته حليب الآلهة
وأسبغت عليه الجلالة والهيبة
تغلب الألباب قمته، تلمع كالبرق عيناه
يخطو بعمفوان ورجولة إنه زعيم منذ البداية
عندما رآه إيا أبوه فرح وأمتلأ قلبه بهجةً وحبوراً
رفع شأنه بين الآلهة وزاد قدره عليهم
فكان أرفعهم مقاماً وأسبقهم في كل شيء
بفن بديع تشكّلت أعضاؤه
لا تدركه الأفهام، ولا يُحيط به خيال
أربعة كانت أذانه، أربعة كانت عيونه
تتوهج النيران كلما تحركت شفثاه
اتسعت أذانه الأربعة.
كما اتسعت عيونه فأحاط بكل شيء
كان الأعلى بين الآلهة، ما لهيئته نظير
هائلة أعضاؤه، سامقة قامته
عظموه؛ بجلوه*.

* سطر مترجم بتصرف، لخلاف النصوص التي بين يدي بشأنه.

الإبن الشمس. وشمس السماوات *

مَثَل نوره كنور عشرة آلهة معاً، جباراً عتياً
أسبغت عليه الجلالة النورانية المهيبة.
(ثم) خلق أنو الرياح الأربعة وانشأها
أسلم امرها لسيد الرهط **

(مردوخ) الذي احدث الأمواج فاضطربت لها تعامة
قلقة صارت، تحوم على غير هدى
والآلهة (الكبيرة) نسيت الراحة، في خضمّ العواصف
أضمرّوا الشر في سرائرهم، وجاؤا إلى أمهم تعامة قائلين:
(عندما قتلوا زوجك أبسو
لبثت هادئة دون أن تمدّي له يداً
وعندما خلق (أنو) الرياح الأربعة
اضطربت أعماقك وغابت عنا الراحة
تذكّرني أبسوزوجك
تذكري ممّو المقهور وأندبي وحدتك
لم تعودى أماً لنا، تهيمين على غير هدى
حرمتنا عطفك وحنانك
[.....] عيوننا ثقيلة
[.....] دعونا ننام دون إزعاج
[.....] وأجعلهم نهباً للرياح)
فلما سمعت تعامة القول سُرّت به :
[.....] دعونا نخلق وحوشاً ***

[.....] وفي الوسط (من جمعها) يسير الآلهة

* راجع سبيسر السطر ١٠٢ ** راجع سبيسر السطر ١٠٥ والسطر ١٠٦ الذي أحدثه زيادة على نص هيديل

*** السطر مترجم عن سبيسر، أما هيديل فقد نقله على الشكل التالي: [.....] دعونا نخلق عاصفة

دعونا نعلن الحرب على الآلهة (الشابفة) دعونا [.....]

ثم أحتشد الجميع وساروا إلى جانبها

غاضبين يحيكون الخطط بدأب ليل نهار.

يتهاون للحرب في هياج وثوران

عقدوا مجلساً وخططوا للصراع.

الأم (هابور) * خالقة الأشياء جميعاً

أتت بأسلحة لا تُقاوم، أفاعٍ هائلة

حادة أسنانها، مريعة أنيابها

ملئت أجسادها بدل الدم، سمّاً

(أتت) بتنانين ضارية تبعث الهلع

توجتها بهالة من الرعب والبسها جلاله الآلهة

يموت الناظر إليها فرقاً،

حتى إذا أنتصبت لم تخنع ولم تدبر.

خلقت الأفعى الخبيثة والتنين وأبا الهول **

الأسد الجبار والكلب المسعور والرجل العقرب

عفاريت العاصفة والذبابة العملاقة والبيسون

كلها مزودة بأسلحة لا ترد، غير هيّابة ولا ناكصة

ناندة كانت أحكام تعامة، لا يقاومها أحد

أحد عشر نوعاً من الوحوش أظهرت للوجود

ومن الجيل الأول للآلهة الغاضبة، في مجلسها

أختارت (كينغو) وجعلته علياً وعظيماً

وضعته أمام جيشها قائداً فيشهر السلاح للمعركة ويبدأ الصراع

إنه الأمر الأعلى للمعركة.

أسلمته الأمانة؛ وجلته في المجتمع قائلة:

* هابور هي تعامة ** راجع سبيسر السطر ١٠٤

(لقد قرأتُ عليك تعويذني، وجعلتك عظيماً في مجلس الآلهة واسلمتُ ألى يدك قياد الآلهة جميعاً

فلتكن عظيماً، يا زوجي الفذ

وليعلُ أسمك فوق جميع آلهة الأتوناكي).

ثم أسلّمتُ إليه ألواح القدر، وزيّنتُ بها صدره قائلة :

(وسيكون أمرك نافذاً وكلماتك ماضية)

وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا قاما بتقرير مصائر الآلهة:

(ستكون لكلماتك فعل الاخضاع وشتدل (كلمتك) الأسلحة القاهرة) **

- اللوح الأول من عندما في الأعالي نسخ من الأصل وجرت مقارنته

- بيد نابور بلاطو-

(حاشية رقم ٢)

- اللوح الأول من عندما في الأعالي

- نسخة من بابل نُقلت عن الأصل وتمت مقارنتها

- بيد نابور ماشيتك ابن [.....]

_____ اللوح الثاني _____

بعد أن أعدت تعامة عدتها

تهيأت لبدء الصراع مع ذريتها من الآلهة

أعدت كل شيء إنتقاماً لأبسو ولكن إستعداداتها وصلت لايا

فلما أحاط بالمسألة علماً

أفعدهُ الخوف وجلس في حزن عميق.

وبعد أن قلبَ الأمر وسكنتُ ثأثرته

* راجع سبيسر السطر ١٦٠_١٦١ للخلاف الكبير مع هيدل

مضى إلى جده أنشأ
فلما صار في حضرة جده أنشأ
أفضى إليه بكل ما تخطط له تعامة :
(أي أبته، أن تعامة التي حملت بنا، تكرهنا
أنها مهتاجة غضبي ولد عقدت إجتماعاً
فقصدها جميع الآلهة
حتى من خلقهم أنت، إنضموا أيها
كلهم غضاب، وبلا راحة يتأمرون، في الليل وفي النهار
تحضروا للقتال وكلهم سخطٌ وهياج
عقدوا إجتماعاً ووضعوا خطط المعركة
والأم هابور، خالقة الأشياء جميعاً
أنت بأسلحة لا تُقاوم. أفاع هائلة
حادة أسنانها، مريضة أنيابها
ملئت أجسامها بدل الدماء سماً
أنت بتنانين ضارية، تبعث الهلع
توجهها بهالة من الرعب والبسمة جلال الآلهة
يموت الناظر لها فرقاً
حتى إذا إنتصبت، لم تخنع، ولم تُدير.
خلقت الأفعى الخبيثة، والتنين، وابا الهول
الأسد الجبار والكلب المسعور والرجل العقرب
عفاريت العاصفة، والذباب العملاقة والبيسون
كلها مزودة بأسلحة لا تُرد، غير هَيَّابَة ولا ناكصة
نافذة كانت أحكام تعامة، لا يقاومها أحد
أحد عشر نوعاً من الوحوش، أظهرت للوجود
ومن الجيل الأول، للآلهة الغضبي في مجلسها
إختارت كينغو وجعلته علياً وعظيماً وضعته أمام جيشها قائداً

فيُشهر السلاح في المعركة. ويبدأ الصراع
إنه الأمر الأعلى للمعركة
أسلمته الأمانة، واجلسته في المجمع قائلة :
لقد قرأت عليك تعويذتي، وجعلتُك عظيماً في مجلس الآلهة
وأسلمتُ إليك قيادة الآلهة جميعاً
فلتكن علياً عظيماً يازوجي الفذ
وليعلُ أسمك فوق جميع آلهة الأنوناكي
ثم أسلمتُ إليه الواح الأقدار وزينت صدره قائلة :
سيكون أمرُك نافذاً وكلمتك ماضية.
وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا
قاما بتقرير مصير الآلهة .. سيكون لكلمتك قوة الاخضاع
وستدل (كلمتك) الأسلحة القاهرة).
فلما سمع أنشأ ذلك وعرف بثوران تعامة
ضرب فخذه وعضَّ عَشَّ شفثيه
كان حزنه عظيماً وإضطرابه بالغاً
[.....] كتم تأوهاتة
ونادى إيا قائلاً : قم يا بُني وتأهب للقتال
والأسلحة التي صنعتها، ستحملها الآن أنت يا من ذبحت أبسو [.....]
قم الآن وإقضي على كينغو الذي يتقدم جمعها
(قم ياسيد) الحكمة.
فأجابه نود يمود، مستشار الآلهة.
(ثلاثة أسطر مشوهة، إلّا أننا نستدل من السياق العام على أن إيا قد المعاذير عن عدم
إستطاعته تنفيذ المهمة).
صرخ أنشأ بغیظ عظیم وتوجه بالنداء إلى إنه أنو:
(يا أول أبنائي، أيها البطل الرائع

ياذا القدرة الفائقة والأنقضاض الجريء
أمضي الآن وقِف أمام تعامة
فإن لم تصخِ لكلماتك سمعاً.
فُهِ لها بكلماتي علَّها تُخمد (من ثورتها)،
فلما سع أنو كلام أبيه... قام مُلتمساً طريقه إلى تعامة
وعندما أقترَب منها وعرف كل ما تدبره
أدرك عجزه من مجاهبتها وعاد من حيث أتى
مضى في رعب إلى أبيه أنشأ
ولفظ أمامه ماتمته في سره لما رأى تعامة:
إن ذراعِي لا تكفيان لاختضاعها)
فسقط على أنشأ سكون عميق وأطرق إلى الأرض ثم هز رأسه،
فتراقصت خصلات شعره
وكل الأنوناي قد تجمَّعوا بالمكان
أطبَّقوا أفواههم وجلسوا صامتين، فما من إله يمضي لقتالها،
ويأمن العودة سالماً من لقاءها
ثم نهض أنشأ أبو الالهة بعظمة وجلال
يُفضي بما تجيش به نفسه للأنونوي:
(أن من سننقم لنا، هو صاحب العزم المتين
الجريء في ساحة الوغى، إنه مردوخ الشجاع).
فقام أيا بإستدعاء مردوخ إلى غرفته الخاصة
وأسدى إليه النصح، مفضياً إليه بخططه:
(أي مردوخ تَفكَّر فيما أقول لك، وأنصت لأبيك
ياولدي الذي يفرح به قلبي .
إمضي إلى حضرة أنشأ في عدة الحرب الكاملة

* في النص الأصلي (إن ذراعِي لا تكفيان لاختضاعك) لأن أنو يكرر وهو في حالة ذهول ما تمت به عندما بهره ما رأى من
إسعدادات تعامة - راجع سبيسر سطر ٨٥ ،

قف أمامه منتصباً بينما تكلمه، فتهدأ خواطره)
سُرَّ الرب مردوخ بكلام والده
مضى إلى أنشار وانتصب أمامه
فامتلاً قلب انشار بهجة لرؤيته
قام إليه وقبله وقد تلاشى منه الخوف
فبادره مردوخ: أي أنشار لا تصمت، بل إفتح فمك
سأمضي قُدماً وأحقق ما يصبو إليه فؤادك
نعم أنشار لا تصمت إفتح فمك
أي الرجال قد أشهر سلاحه ضدك
أم تُراها تعامة، وهي أنثى، قد فعلت ذلك؟
أبي، أيها الإله الخالق، لئسعد ولتبتَّهج.
فقريباً سوف تطأ عنق تعامة.
نعم يا أبي أيها الإله الخالق.
فقريباً سوف تطأ عنق تعامة.
(فقال أنشار): (أي بُني، يا صاحب الحكمة الواسعة
أسكيت تعامة بتعويذتك المقدسة
إلتمس طريقك إليها، على عربة العامفة السريعة
..... ردها على أعقابها).
سُعد الرب بكلام أبيه
طرب فؤاده وِلتفت إليه قائلاً:
(يارب الآلهة وسيد مصائهم.
إذا كان لي أن أنتقم لكم حقاً
فاقهر تعامة: وأحفظ حياتكم
فإنني أطب إجتماعاً يُعلن فيه إقتداري.
وعندما تلتقون، جديلين في قاعة الإجتماع
إجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر، بدلاً عنك

وليبقَ ما أخلق قائماً لا يزول
وما أنطق به من أوامر، ماضياً لا يحول
حاشية رقم ١

- اللوح الثاني من عندما في الأعالي (نُسخ وفقاً.....
..... نُسخة من آشور
-

حاشية رقم ٢
- إسنُسخ عن الأصل وجرت مقارنته. لوح أبور آحي أدينا
- ابن آتير - بل ابن كاهن الإله ماشي

اللوحة الثالث

فتح انشمار فمه متحدناً إلى وزيره كاك:

(كاكا ياوزيري الذي يفرح به قلبي

سأرسلك إلى لخموم ولخامو

فأنت واسع الإدراك مُجيد الحديث

إدعُ آبائي الآلهة للحضور إليّ

وليأت معهم جميع الآلهة

فيجلس الجميع إلى مادبتي وتحدث

سنأكل خبزاً ونشرب خمراً

وإلى مردوخ المتقم فليسلموا مقاديرهم

أي كاك، إنطلق وأمثل أمامهم.... إنقل لهم ما أنا مُحدثك به :

(انشمار إنكم قد أرسلني إليكم

أوكلني أن أنقل إليكم مشينة قلبه

فتعامه التي حملت بنا تكرهنا

أنها مهتاجة غضبي، وقد عقدت إجتماعاً

فقصدها جميع الآلهة

حتى من خلقتموهم أنتم، إنضموا إليها
كلهم غضاب، وبلا راحة يتأمرون في الليل والنهار
تحضّروا للقتال في سخطٍ وهياج
والأم هابور خالقة الأشياء جميعاً
أنت باسِلحة لا تُقاوم - أفاعٍ هائلة
حاددة أسنانها مُربعة أنيابها
ملئت أجسامها بدل الدماء سماً
أنت بتنانين ضارية، تبعث الهلع
توجتها بهالة من الرعب والبسّتها جلال الآلهة
يموت الناظر إليها فرقاً
حتى إذا إنتصبت، لم تخنع، ولم تُدبر.
خلقت الأفعى الخبيثة، والتنين، وابا الهول
الأسد الجبّار والكلب المسعور والرجل العقرب
عفاريت العاصفة، والذباب العملاقة والبيسون
كلها مزوّدة بأسلحة لا تُرد، غير هيّابة ولا ناكصة
نافذة كانت أحكام تعامة، لا يقاومها أحد
أحد عشر نوعاً من الوحوش، أظهرت للوجود
ومن الجيل الأول، للآلهة الغضبي في مجلسها
إختارت كينغو وجعلته علياً وعظيماً... وضعته أمام جيشها قائداً
فيشهر السلاح في المعركة. ويبدأ الصراع
إنه الأمر الأعلى للمعركة
أسلمته الأمانة، واجلسته في المجمع قائلة :
لقد قرأت عليك تعويذتي، وجعلتُك عظيماً في مجلس الآلهة
وأسلمتُ إليك قيادة الآلهة جميعاً
فلتكن علياً عظيماً يازوجي الفذ
وليغلُ أسمك فوق جميع آلهة الاتونوكي

ثم أسلمت إليه الواح الأقدار وزينت صدره قائلة :
سيكون أمرك نافذاً وكلمتك ماضية.

وبعد أن جرى تنصيب كينغو وتسليمه السلطة العليا
قاما بتقرير مصير الآلهة .

سيكون لكلمتك قوة الاخضاع

وستذل (كلمتك) الأسلحة القاهرة).

أرسلت اليها أنوفلم يقدر على مواجهتها

وأيضاً نوديمود خاف وانقلب على عقبه

ثم تقد مردوخ، ابنكم مردوخ، أحكم الآلهة

حقزه فؤاده (الجرىء) للقاء تعامة

ففتح فمه وقال لي :

(إذا كان لي أن أنتقم لكم حقاً فأقهر تعامة وأحفظ حياتكم

فأني أطلب اجتماعاً يُعلن فيه إقتداري

وعندما تلتقون جذلين، في قاعة الاجتماع

إجعلوا لكلمتي قوة تقرير المصائر، بدلاً عنك

وليبقَ ما أخلق، قائماً لا يزول

وما أنطلق به من أوامر، ماضياً لا يحوذل)

فهلّموا إلي وسلموا إليه مقاديركم

فيذهب للقاء عدوكم العتيد.

إنطلقَ كاكالا يلوى على شيء

وأمام جديه لخممو ولخامو مثل وقال لهم :

أنشار إبنكم قد أرسلني اليكم

أوكلني أن أنقل لكم مشيئة قلبه

(تكرار لنفس المقطع السابق الذي يصف إستعدادات تعامة، وذلك السطر ٧٣ إلى السطر ١٢٤).

فلما سمع لخممو ولخامو ذلك، صرخا بصوت عالٍ

وكل الایجیجی بکوا بحرقه:
(ما الذي ألجأها لمثل هذا القرار
أن سلوكها مستعصي على أفهامنا)
ثم جمعوا بعضهم وإنطلقوا
كل الآلهة التي تقرر المصائر (إنطلقت)
والتأم الشمل في حضرة انشار فإمتلأت قاعة الإجتماعات
قبلوا بعضهم بعضاً حين تلاقوا
وجلسوا للمأدبة يتحاورون
أكلوا خبزاً وشربوا خمراً
فبدد.الفرح مخاوفهم
وانتشت أجسامهم بالشراب القوي
زال الهم من قلوبهم وسمت أرواحهم
ولمردوخ المنتصر أسلموا المصير.

اللوحة الرابع

اقاموا له منصبة عرش ربانية
واتخذ مكانه قبالة آبائه لتلقي السيادة
(أنت الأعظم شأناً بين الآلهة الكبرى
لا يُدانیک أحد، وامرك من أمر أنو
ومن الان فأمرک نافذ لا يُرد
أنت المُعز وأنت المذل حين تشاء
كلمتك العليا وقولك لا يخب
ما من إله يُقارب حدودك
مساكن الآلهة تستصرخ الحماية.*

* تصرف بسيط في ترجمة هذا السطر والذي يليه .

فزيّتها بحضورك، تجد في كل مكان ركناً لك
مردوخ أنت. المنتقم لنا
لك منحنا السيادة على العالمين
وعندما تتصدّر المجلس، كلمتك هي العليا
لتكن أسلحتك ماضية ولتفتك بأعدائنا
أيها الرب أحفظ حياة من وضع عليك إتكاله
وأهدر حياة من مشى في ركاب الشر)
ثم أتوا بثوب فوضوه في وسطهم وقالوا ل بكرهم مردوخ:
سلطانك أيها الرب هو الأقوى بين الآلهة
ليُفَنَ الثوب بكلمة من فمك
وليرجع سيرته الأولى بكلمة أخرى)
فأمر بفناء الثوب، فزال ... ثم أمر به فعاد ثانية كما كان
فلما رأى أبأوه الآلهة، قوة كلمته (الخالقة)
إبتهجوا وأعطوه ولاءهم: مردوخ ملكاً
منحوه الصولجان والعرش والرداء الملكي
وأعطوه سلاحاً ماضياً يقضي على الأعداء قائلين:
(إمضِ وأسلبِ تعامة الحياة
ولتحمل الريح دماءها للأماكن القصيّة)
بعد أن إنتهى الأئمة من منح (بل) كل السلطات
أسلموه الطريق، طريق النجاح
صنع قوساً وأعلنه سلاحاً له
جعل للسهم رؤوساً مسنونة وشدّ لقوسه وترأ
رفع الهراوة، أمسكها بيمينه
وربط القوس والجعبة إلى جنبه
ثم أرسل البرق أمامه
وملأ جسمه بالشعلة اللاهبة

صنع شبكة يوقع بها تعامة
وصرد الريح تمسك بأطرافها لتحتوي تعامة
ريح الجنوب، وريح الشمال وريح الشرق وريح الغرب
خلق الامهيلو: الرياح الشيطانية، وخلق الإعصار والعاصفة
الرياح الرباعية، والرياح السباعية، والزوايع، والرياح الداھمة
ثم أفلت الرياح السبع الذي خلق
ليعصف بها أعماق تعامة، فهبت من خلفه ومشت أثره .
أطلق الفيضان المطر، سلاحه الهائل
ثم إعتلى مركبة لا تُقهر، مركبة العاصفة الرهيبة
شد لجرها طاقم من أربعة لا تقهر
(هم) المدمر، والعتي، والساحق، والطيار
أسنانها حادة وفي أنيابها السم ... تمرّست بالدمار سريعة لا تُجارى
وضع عن يمينه الباطش، المجلي في الزلزال . *
وعن يساره (الفاثك) الذي يؤجج الحماس
أما هو فقد إكتسى بدرع مهيب من الزرد
واعتمر بهالة تشيع الرعب والذعر
والان، إتخذ طريقه لا يلوى على شيء
ميمماً وجهه شطر تعامة الهائجة.
حمل ين شفتيه طاسماً من عجينة حمراء
وفي يده ترياقاً من الأعشاب يحفظه من السموم
وقد حقت به الآلهة، حقت به الآلهة
وقد تدافعت حوله الآلهة، تدافع أبأؤه الآلهة
ولما إقترب من تعامة، دنا ليسر غورها
ويكشف خبيثة زوجها كنفو
رماه بنظرة نافذة فاضطربت أحواله

* من أجل هذا السطر والذي يليه، راجع سبيسر، السطران ٥٥ - ٥٦

شُلَّتْ مِنْهُ الْإِرَادَةُ وَتَعَثَّرَتْ أفعالُه
أما أتباعه الآلهة، ممن مشى معه
فقد زاغت أبصارهم لمراى البطل الجبار
وأطلقت تعامة زئيرها عالياً دون أن تدير رقبتهما*.
والثورة اللاهبة قد ارتسمت على شفيتها:
(ومن أنت حتى تكسب جمع الآلهة**
فهبطوا إلى منزلتك وساروا معك)
فرفع مردوخ سلاحه الرهيب فيضان المطر ولتعامة الهائجة توجه قائلاً:
(كفى ما رأينا من تعجرفك وتكبرك***
لقد شحنت البغضاء قلبك فحرصت على القتال
وأوقعت بين الآباء والأبناء
فندسيت حُب مَنْ أنجبت.
أعليت كنفو وجعلتِه زوجاً لك
وأعطيته منزلة أنو، دون حق.
ضد أنشار، ملك الآلهة، وجهت شر أفعالك
ولآبائي الآلهة كشفت سوء طويتك.
فلتتركي الآن حشدك يتجهز بكل ما عنك من سلاح
ولتتقدمي إليّ وحيدة، في معركة ثنائية).
فلما سمت تعامة منه ذلك القول
إنتابها السُّعار وضاع منها الرُّشد
في إهتياج أطلقت صراخها عالياً
وحتى الأعماق إنتفضت ساقاها معاً
ثلت تعويذة ووجهتها مراراً وتكراراً (ضد مردوخ)

* أي أنها بقيت ثابتة الجنان . . . ** مزجت في هذين السطرين بين ترجمات ثلاث

*** إبتداءً من منا السطر ولغاية نهاية حديث مردوخ، راجع سبيلسر.

بينما آلهة المعركة تشخذ أسلحتها
ثم تقدّما من بعضهما، تعامة ومردوخ أحكم الآلهة
إشتبكا في قتال فردي، وإلتحما في عراق (مميت)
نشر الرب شبكته واحتواها في داخلها
وفي وجهها أفلت الرياح الشيطانية التي تهب وراءه
وعندما فتحت فمها لإبتلاعه
دفع في فمها الرياح الشيطانية، فلم تقدر على إطباقاً
وفإمتلاً جوفها بالرياح الصاخبة فبطنها منتفخ، وفمها فاغر على إتساعه.
ثم أطلق الرب من سهامه واحداً مزّق أعماقها
تغلغل في الحشا وشطر منها القلب
فلما تهاوت أمامه أجهز على حياتها
طرح جثتها أرضاً وإعتلى عليها .
وبعد أن قضت تعامة على يد مردوخ
تفرق ربعها وتشتت شمل جيشها
إرتعدت فرائص الجمع وولوا أديبارهم
كل يوذُ النجاة بروحه
وما من سبيل، فهم محاصرون من كل جانب
ضيق عليهم (مردوخ) وحطّم أسلحتهم
في شبكته وقعوا وفي الشرك إستقرّوا
تكاكأوا في الزوايا وعلا نحيبهم
فصبّ عليهم جام غضبه وهم محتبسون.
أما المخلوقات الأحدي عشرة التي خلقتها وألبستها الجلالة
وحشد العفاريت التي مشت إلى جانبها
فقد رماها جميعاً في الأصفاد، وربط أيديهم بعضهم ببعض
وداسهم بقدميه، رغم كل مقاومة
أما كينغو الذي وُضع رئيساً عليهم

فقد كبّله وسلّمه إلى إله الموت (سجينا) *
جرّده من ألواح الأقدار التي حازها دون حق
فمهرها بخاتمه وزين بها صدره
وبعد أن عزز إنتصاره على أعدائه
وسيطر على عدوه المتكبر العنيد
بسط سلطان أنشار على أعدائه وعزز نصره
وحقق آمال نوديمود. إنه مردوخ الشجاع
شدد الحراسة على الآلهة الحبيسة ثم عاد إلى تعامة المقهورة
وقف على جزئها الخلفي
وميراوته العتية فصل رأسها
وقطع شرايين دماغها .
التي بعثرها ريح الشمال إلى الأماكن الجهولة
فلما شهد أبأوه ذلك طربوا له وإبتهجوا
وقدّموا له نفائس الهدايا عربون ولاء
ثم تكأ الرب يتفحص جثتها المسجاة
ليصنع من جسدها أشياء رائعة :
شقها نصفين فإنفتحت كما الصدفّة
رفع نصفها الأول وشكّل منه السماء سقفاً
ووضع تحته العوارض وأقام الحرس
أمرهم بحراسة مائه فلا يتسرب **
ثم جال أنحاء السماء فحِصاً أرجاءها
إستقام في مقابل ال(أبسو) مسكن نوديمود
قاس الرب أبعاد الأبسو
وأقام لنفسه نظيراً له ، بناءً هائلاً أسماه عيشارا

* راجع سيسير . ** من الواضح أن نصفها الآخر بقي في مكانه مشكلاً ماء المحيطات .

جاعلاً إياه كالمظلة فوق الأبسو* .

ثم أعطى لآتو وانليل وإيا مساكهم
(حاشيه)

١٤٦ أسطراً ولما تكتمل الأنيوما ايليش بعد . . البقية تأتي

كتبت ووفقاً للوح الذي فسد

نابور بيلشو وابن نعيد - مردوخ ابن حدر- كتبه لراحة نفسه

ولدوام بيته ومملكته . كتب في معبد إيزيدا

اللوحة الخامسة

خلق محطات لكبار الآلهة (يشترحون بها)***

أوجد لكل، مثيلاً من النجوم

حدد السنة وقسم المناخات

ولكل من الأثني عشر شهراً أوجد ثلاثة أبراج

وبعد أن حدد بالأبراج أيام السنة خلق كوكب المشتري ليضع الحدود****.

فلا يتعدى نطاق، في السماء مكانه ولا يقصر عنه

وعلى جانبه خلق محطتي انليل وإيا*****

* بعد أن تجمعت مياه الجزء الأسفل من تعامة مُشكلةً المحيطات، صار الجزء الأسفل المقابل لسلماء، في الكون عبارة

عن مياه المحيطات المجاورة لمسكن إيا (نود يمود) الذي بناه كما رأينا، فوق الأبسو (المياه العذبة). وهنا يقوم مردوخ

ببناء ال أرض فوق مسكن إيا. وبذلك تكتمل صورة البسيطة التي تتألف من بحار ومياه جوفية وقشرة أرضية.

** مسكن انو هو السماء، وانليل سطح الأرض، بإعتباره الهواء. وإيا الماء العذب، في باطن الأرض.

*** والمحطات هنا هي النجوم

**** إعتقد البابليون أن كوكب المشتري يقع في الوسط بين النطاق السماوي الشمالي العائد لأنليل والجنوبي العائد

لأيا ***** القسم الشمالي والقسم الجنوبي من حزام المجرة

فتح، بوابتين في كلا الجانبين.

دعمهما بأقفال قوية على اليمين وعلى الشمال

وفي المنتصف تماماً ثُبَّتْ خط السميت

ثم أخرج القمر فسطع نوره، وأوكله بالليل

وجعله حُلِيَّةً لَهُ وَزِينَةً؛ وَلِيُعَيِّنَ الْأَيَّامَ:

«أن إطلع كل شهر دون إنقطاع مزيناً بتاج

وفي أول الشهر عندما تشرق على كل البقاع

ستظهر بقرتين يُعَيِّنَانِ ستة أيام

وفي اليوم السابع يكتمل نصف تاجك

وفي المنتصف من كل شهر شتغدو بديراً في كبد السماء

وعندما تدرك الشمس في قاعدة السماء

أنقص من ضوءك التام وإبدأ بإنقاص تاجك كما إكتمل

وفي فترة إختفائك ستسير في درب مقارب لدرب الشمس**

وفي التاسع والعشرين، ستقف في مقابل الشمس مرة أخرى،

إلى هنا وينتهي الجزء الواضح من اللوح الخامس وفقاً للنص الذي كان بين

أيدي علماء المسماريات إلى وقت قريب ولكن إكتشافات جديدة في موقع مدينة آشور، قدمت لنا

لوحاً إعتبره البعض تنمة للوح الخامس. وأنا بدوري أقدمه هنا بإعتباره كذلك، مترجماً عن نص

جريدسون Gryson المنشور في : Ancient Near Eastern Texts ...

لقد عيّنت لك شارة، فإتبع دريها

.... تقرب وأصدر حكمتك....

* فتحة في الشرق وفتحة في الغرب وهما اللتان تمر منهما الشمس في الشروق والغروب. . . الدرب الذي تسير عليه

الشمس في باطن الأرض لئلا لتشرق من جديد. ولكنني أعتقد أن محتويات هذا اللوح لا تُشكل تنمة لنفس النخسة

التي قدمتها للقارئ هنا. بل أرجح أنها تنمة لنسخة أخرى ضاعت ألواحها إلا واحداً. ويدعم وجهة نظري هذه تكرار

اللوحة لبعض الأحداث التي تم سردها في مواضع سابقة.

(من ذلك واحد وعشرون سطرًا مشوهة بشكل لا يسمح بترجمتها - يبدأ النص بالوضوح ابتداءً من السطر الخامس والاربعين.
بعد أن أوكل بالأيام شمش (إله الشمس)
وفصل بين تخوم النهار وتخوم الليل
أخذ من لعباب تعامة وخلق منها مردوخ [.....]
خلق منها الغيوم وحملها بالمطر والزهرير
دفع الرياح وأنزل المطر
وخلق من لعبابها أيضاً ضباباً
ثم عمد إلى رأسها فصنع منه تلالاً
وفجّر في أعماقها مياهاً
فإتدفع من عينها نهراً دجلة والفرات
ومن فتحتي أنفها.. [.....]
وعند تديها رفع الجبال السامقة
وفجّر منها عيوناً، وأحيا آباراً
لوى ذيلها وثبّته في الأعالي
[.....] فإنفتح شقّاها شق ثبّته في الأرض
فغطّاها جميعاً وشق رسخ أرضاً
[.....] في وسطها أسال مجرىً عظيماً)
ثم نزع عنها شبكته تماماً
وقد تحوّلت إلى سماء وأرض
رسخت بينهما الحدود [.....]
وبعد أن أحكم شريعته وأرسى طقوسه
أوجد المعابد وأسلمها لايا
أما ألواح الأقدار التي غنمها من كينغو
لقد أعطاها، هدية أولى، لأنو
ثم ساق أمامه الآلهة المقهورة

ودفعها مغلولة، إلى حضرة أباه
أما المخاوقات الأحدى عشر التي صنعتها تعامة
والتي حطم مردوخ أسلحتها وربط أيديها ببعض
فقد جمدها ونصبها تماثيل عند فوهة الآبسو (قائلاً):
(ليبق ما حدث لهم حياً لأيمعى ولا يُنسى)
سُرّ الآلهة بما رأوا سروراً عظيماً
لخمو ولخامو وكل أبناءه معهم
عبروا إليه، وانشارالملك وقف مرحباً
أما آنو وانليل وايا فقد قاموا بتقديم الهدايا
وأمه دومكينا أيضاً خصته بهدية سرت فؤاده
وأرسلت تقدمات أضاءت لها قسماات وجهه
(فعهد) إلى (أوسعي) الذي حمل هداياها
عهد إليه بسدانة الآبسو وخدمة الهياكل
ولما أكتمل جميع الأيجي ركعوا أمامه وقبل كل من الأنوناكي قدميه
فقد إجتمعوا لتقدم فروض الإحترام
إنحوا جميعاً وأعلنوا: مردوخ ملكاً
وبعد أن متّع أبأؤه أنظارهم برؤيته
(يلي ذلك ستة عشر سطرا غير قابلة للترجمة بسبب تشوّه اللوح؛ وتصف هذه
الأسطر جلوس مردوخ على العرش بكامل عدته. وعندما يبدأ النص بالوضوح نجد
أمه وأباه يتوجهان بالحديث إلى الآلهة).
ايا ودومكينا[.....].
فتحا فمهما متحدثين إلى الابيجي، الآلهة الكبرى
(فيما مضى، لم يكن مردوخ سوى إبناً محبوباً
ولكنه الآن ملك عليكم، فنادوه بإسمه
ثم أعلنوا بصوت واحد:
(سيكون إسمه لوجال ديميرانيك، به آمنوا).

وبعد أن وهباه السيادة والسلطان

توجهها بالحديث إليه :

(أنت من يحيي حمانا منذ الآن

(ومنذ الآن) سنصدع بما تأمر به)

ففتح مردوخ فمه

ليقول كلمة لأبائه الآلهة

(فوق العيشارة التي بنيت

سأهد مكاناً صالحاً للبناء *

هناك أبنى بيتاً لي وهيكلًا **

به قدس الأقداس رمز جلالتي

وعندما تصعدون من الأيسو للإجتماع

سيكون مفتوحاً لإستقبالكم وبه تبيتون

أوتهبطون من السماء للإجتماع

سيكون مفتوحاً لإستقبالكم وبه تبيتون

سأدعوا إسمه بابل، أي بيت الآلهة الكبرى

وسينض لبنائه، أمهر البتائين)

فلما إنتهى أبأؤه من سماع كلمته

توجهوا ل بكرهم مردوخ بالسؤال :

فوق كل ما صنعت يدالك لمن ستوكل سلطانك؟

فوق الأرض التي أبدعتها يدالك لمن ستوكل حكمك؟

وبابل التي منحت لها أسماً مجيداً

وجعلتها مقراً لنا أبد الدهر

* دمجت الأسطر ١١٩-١٢٠-١٢١ في سطرين مع بعض الحذف، لكي لا أقع في التناقض، ففي نهاية اللوح الرابع وقفت

إلى جانب هيديل، من دون سبيسر وجريسون في تفسير العيشارة على أنها الأرض. ** دمجت السطرين ١٢٢-١٢٣.

[.....] فيجلبوا لنا طعام يومنا *

[.....]

هناك...بعملمهم[.....]

إبتهج مردوخ لما سمع

أجاب سؤال الآلهة.

أشرق وجه قاتل تعامة

وفتح فمه لحديثٍ مقدّس؛

[.....]

[.....] سيوكل إليكم)

فرقع الآلهة أمامه وقالوا،

قالوا للإله لوجال ديميرانيكاً:

(فيما مضى لم يكن الرب سوى ابناً محبوباً

ولكنه الآن مليكنا فنادوه بإسمه

لقد أعطتنا تميّمته المقدسة الحياة

إنه رب الصولجان المقدس

إيا، المتمرس بكل حرفة ومهارة

سيضع المخططات، وسنكون له عمّال بناء

(حاشية)

اللوح الخامس من (عندما في الأعالي)،

قصر آشور بانيبال، ملك العالم، وملك آشور

* رغم عدم قيام جريسون باقتراح أي جمل لإملاء الفراغات في هذا الجزء الأخير من اللوح فإن من الواضح أن

الحديث هنا يدور حول البشر الذين ستخلفهم الإله على الأرض ليديروا شؤونها نيابة عنه، ويقدموا للآلهة طعامهم

كما رأينا في النص السومري السابق. فإذا إقرحنا جملة تملأ الفراغ في هذا السطر يغدو على الشكل التالي:

[ألن تستخلفوا فيما أحداً فيجلب لنا طعام يومنا.

** هذه الحاشية تعود إلى اللوح الخامس الأصلي لا إلى الجزء الملحق الأخير.

(اللوح السادس)

فلما إنتهى مردوخ من سماع حديث الآلهة
حَقَّزَه قلبه لخلق مبدع
فأَسْرَّ لِإِيَا بما يعتمل في نفسه
وأطلعه على ما عقد عليه العزم:
(سأخلق دماءً وعظاماً
منها سأشكّل (لالو) وسيكون إسمه الإنسان
نعم، سوف أخلق لالو الإنسان
وسنفرض عليه خدمة الآلهة، فيخلدون للراحة
ثم أعمد إلى تنظيم أمور الآلهة
كلهم عظيم، ولكني سأجعلهم في فريقين)
فتوجه إليه بكلمة ... مقدماً رأيه في ذلك الموضوع:
(ليقوموا بتسليم أحدهم
فيُقْتَل، ومنه تُصنَع الإنسان
ليجتمع كبار الآلهة هنا
وليُسَلِّم إلينا الإله المذنب، لراحة الباقين)
فقام مردوخ بدعوة الآلهة الكبرى
موجِّهاً لهم بود ورحمة، مُصِديراً توجيهاته
فأعطى الآلهة له أذناً صاغية قال المليك لهم كلمة:
(لقد صدق حقاً ما وعدناكم به *
والآن أريد منكم قول الحق، وقسمي لكم ضمان
من الذي خلق النزاع؟
من دفع تعامة للثورة، وأعد للقتال؟

* نهاية تعامة.

سَلّموا لي من خلق النزاع
فيلقى جزاءه، وتخلدون للراحة)
فأجاب الأيجيجي، الآلهة الكبار،
أجابوا سيدهم مردوخ، ملك السماء والأرض:
(أنه كينغو، الذي خلق النزاع
ودفع تعامة للثورة، واعد للقتال)
ثم قيده ووضعوه أمام إيا
انزلوا به العقاب فقطعوا شرايين دمائه
ومن دمائه جرى خلق البشر
ففرض (إيا) عليهم العمل وحرر الآلهة
بعد أن قام إيا الحكيم بخلق البشر
وفرض عليهم العمل وحرر الآلهة
ذلك الفعل الذي يسمو عن الإفهام
والذي نفذه وفقاً لخطط مردوخ المبدعة،
قام مردوخ، ملك الآلهة، بتقسيم
جميع الأنوناكي، فجزء في الأعلى وجزء في الأسفل
وأوكلهم لأنو ليحرصوا على طاعته.
وضع في الماء ثلاثمائة لحراستها.... وثلاثمئة أخرى في الأرض.
وبعد أن أنهى بكل تنظيم
وقسّم لكل من آلهة السماء والأرض نصيبه
فتح الأنانوكي فمهم..... وقالوا لسيدهم مردوخ:
(والآن أيها الرب، يامن خلّصتنا من العمل المفروض
ما الذي يليق بك عربون إمتنان؟
سنبني لك هيكلًا مقدسًا
مكانًا به نركن مساءً لنستريح
هناك سنشيد لك منصةً وعرشًا

وكلما أتينا المكان، نلجأ إليه لنستريح)
فلما سمع مردوخ ذلك إنفرجت أمساير وجهه كما النهار:
((كذا فلتكن بابل كما اشتهيتموها
لنشرع بتجهيز الحجارة، ولتدع بالهكل))
أعمل الأنوناكي معاولهم
فأتهوا الطوب اللازم في مدى سنة
ومع حلول السنة الثانية
رفعوا الايزاجيلا* الذي وصلت أساساته الآبسو
وبعد أن أنهوا برجه المدرج
بنوا في الداخل مسكنا لمردوخ وانليل وإيا
ثم جلس مردوخ أمامهم في جلال
ومن الأسفل ثخصوا بأبصارهم لقرون البرج الرائعة**
وبعد الإنتهاء من الايزاجيلا
قام الأنوناكي ببناء مقامات لهم... ثم إلتأم جمع الآلهة
والتقوا في حرم مردوخ السامي الذي بنوا
فأجلس آباءه الآلهة إلى مأدبة:
(وهذه بابل مكان سكنناكم المفضل
فإصدحوا وأمرحوا في أرجائها)
ولما إستقر الآلهة الكبار إلى المائدة
أخذوا يعبون الجعة وهم يأكلون.... وبعد أن مرحوا وطربوا
أقاموا الطقوس في الايزاجيلا المهيب
وأرسوا أسس العبادات
ثم توزعوا فيما بينهم السماوات والأرضين

* معبد مردوخ ذو البرج العالي المدرج

** قرون من المعدن توضع في قمة أبراج المعابد، هي بقية من العبادات القمرية القديمة

إتخذ الآلهة الخمسون الكبار أماكنهم
ثم قام آلهة المصائر، السبعة، بوضع ثلاثمائة إله في السماء
ورفع أنليل القوس سلاح مردوخ، ووضعه أمام الجمع
والشبكة التي صنعها كانت محط أنظار آبائه
ولمّا إنتهوا من تأمل القوس ودقة صنعه
أثنوا على فعله ثناءً حميداً
ثم رفعه آنو وتحديث إلى مجمع الآلهة
قائلاً وهو يقبل القوس هذا[.....]
ثم أسبغ عليه الأسماء التالية :
العود الهائل، اسمه الأول، والدقيق، اسمه الثاني
أما اسمه الثالث فهو القوس - النجم، يشع في السماء (يلي ذلك إثنا عشر سطرأً في كل منها نص
يججب المعنى)

وليبسط رعايته على البشر أجمعين
فيلهج بإسمه لسانهم ويذكرون نعمته عليهم أبدأً
ويقدّمون القرابين لأبائه فيقيمون أودهم ويرعون هياكلهم
ويصنعون لهم محرقات القرابين،
يتنسّمون رائحتها، ولتكن تعويذاتهم [.....].
وكما فعل في السماء، لتكن كذلك مشيئته على الأرض
فيعلم البشر كيف يخشونه
ويكون حاضراً في قلوبهم أبدأً
ويحفظون أبدأً حدود إلههم، وآلهتهم
ويرعون أمره في الإنصباغ له
ويبقون على تقدماتهم لإلههم وآلهتهم
ويذكرون إلههم دوماً ولا ينسونه
ثم فلينتشروا في الأرض ويزينوها يوتاً لهم
وليقفوا بخشوع أمام إلهنا.

تعالوا نعلن أسماءه الخمسين ... ولتبقى دروبه وفعاله مشعشة أبداً
مردوخ، هو أسم مولده الذي دعا به جده أنو
واهب المرعى وموارد الماء، ماليء العنابر بالمؤن
مَن بسلاحه الرهيب، طوفان المطر، قد هزم الأعداء
مَن أنجد آباءه الآلهة وقت محتهم ... حقاً إنه الساطع، ابن الشمس
وفي ألق ضائه فليرتع الآلهة على الدوام.
على البشر ممن خلق [.....]
قد فرض خدمة الآلهة الذين حررهم
فليكن في كلماته الخلق والفناء والسلوان والرحمة
وليرفع الجميع أبصارهم إليه
ماروكا، هو الإله الحق، خالق كل شيء
ممن أفرح قلوب الأنوناكي وطمان خواطهم
ماروتوكا، هو الملجأ والملاذ، سند العباد
وهو الذي يُسبح الناس بحمده [.....]
باراشاكوشو، المكين القابض زمام الأمور
كبير القلب هو، عطوف رحيم*
لوجال ديميرانىكا، هو الاسم الذي دعوناه في مجمعنا
أمره سابق على أمر آبائه
حقاً أنه رب الآلهة أجمعين، في السماء وفي الأرضين
ملك يخشاه من في السموات ومَن في الأرض
ناريلوجالدي ميرانىكا؛ أطلقنا عليه. شملت عنايته كل الآلهة
وهو الذي في زمن الشدة، مكن لنا في السماء والأرض
وخصص للأيجيى والأنوناكي، محطات راحة
وهو الذي لذكره، يرتجف الآلهة في مساكنهم
أسار لوجي، الأسم الذي دعا به جده أنو

راجع سييسر

حقاً، أنه نور الآلهة. وأنه الأمير الجليل .
هو الروح الحارس للآلهة والأرض
في صراع مهيب أنقذ ديارنا يوم الشدّة
وأسار لوجي أسميناه نامتيلاكو، الذي يُحيي الموتى
وهو الذي إسترد الآلهة البائدة، وكأنما خلقهم من جديد
الرب الذي بتعويذته المقدسة، قد بعث الآلهة الميتة،
القاهر فوق الخصوم الماكزين. فلنلهج بذكر شجاعته.
وأسار لوجي، أسميناه، ثالثاً، نامشوب
الإله الوضّاء، يُنبر لنا دروبنا
وهكذا أعلن كل من أنشار ولخمو ولخامو ثلاثة من أسمائه ولأبنائهم الآلهة قالوا:
(((لقد أعلن كل منا ثلاثة من أسمائه
وكما فعلنا، فليفعل كلكم، ولتعلنوا أسماء.))
فإبتهج الآلهة وصُدعوا بما أمروا
تشاوروا في قاعة المجلس قائلين:
(((الإبن العلي الذي إنتقم لنا ... سندنا وحافظنا، تعالوا نُمجّد أسمه))
ثم قعدوا لمجلسهم يعلنون اسماءه
وكلهم يذكر أسماء. في المكان المقدّس

(اللوحة السابع)

اسارو، واهب الأرض الخصبة، وماليء عنابر القمح،
مُنبت الحبوب والبقول، ومحيي الأعشاب
اسار اليمنوننا، الجليل نور آبائه
الذي يوجه قرارات أنو وانليل وإيا،
وحده القائم بأوهم، الذي وقف لهم مساكنهم،
الذي أفاضت حربته صيداً وفيراً.

توتو، بطل خلاصهم ونجاتهم هو،
فليطهر هياكلهم ويتركهم ينعمون،
ويجعل لهم تعاويز، تطمئن بها نفوسهم،
فاذا اضطربوا أنزل سكينة عليهم،
حقاً إنه المجد بين الآلهة،
لا يُدانيه منهم أحد ولا يُقرن به.
وتوتو هو زيوكينا به يحيا كل الآلهة،
الذي جعل لهم سماءً وضياءً،
مالك مصائرهم وسيد مسالكهم،
حي أبداً في قلوب عبادِه، لا ينسون نعمته عليهم،
وتوتو هو ثالثاً زيكو، رب القداسة
إله النسمة الخالقة، سميع مستجيب الدعوات،
هو المعطي دون حساب، الذي حقق رغباتنا وأفاض،
الذي تنسّمنا أنفاسه أيام البلوى،
ليلهج بذكرِه الجميع وليسبحوا بحمده،
توتو، ليُعظّم أسمك، وليكن رابعاً أجاكو،
رب التميمة المقدّسة، الذي بعث الموتى،
والذي راف بالالهة المقهورة،
أزاح عن أعدائه من الآلهة، عبء العمل المفروض،
فخلق الإنسان لهم محرراً، هو الرحيم الذي يهب الحياة،
كلماته باقية لا تُنسى عند البشر الذين كونتهم يداه.
وتوتو هو خامساً توكو الذي تُردد الشفاه تميمته،
تميمته المقدّسة التي إقتلعت الأشرار.
شازو، المطلّع على أفئدة الآلهة،
وعالم الأسرار، لا يهرب من بطشه الأشرار،

أسس مجمع الآلهة وأفرح قلوبهم،
وبسط حمايته وأخضع العُصاة،
أقام العدل ووضع حداً للغو الكلام،
أحقَّ الحق، وأزهق الباطل.
شازو، فليمجّد أسمك ثانياً على أنه زيسى، الذي اخرس المتمردين
وآمن آباءهم من خوف شل اجسامهم.
وشازو، هو ثالثاً سوحريم، أفتى بسلاحه كل الخصوم،
أحبط خططهم، وجعلهما نهباً للرياح
وقضى على من تصدّى له من الأعداء،
فيمجده الآلهة في مجلسهم*
وشازو هو رابعاً صاحكوريم، خلق آباءه من جديد، وجعل لهم مكانه،
إستأصل شأفة الأعداء، وقطع دابريهم،
حطم تدايريهم ولم يُبق منهم على أحد،
فلتغنَّ بإسمه كل البلاد.
وشازو؛ هو خامساً زاحيم، رب كل شيء
الذي محق الأعداء جميعاً، والذي يُجزي بالخير ويُجزي بالشر،
أعاد الآلهة السابقة إلى مساكنها
فليبقَ أسمه على مر الأزمان
وسادساً فليعبد شازو في كل مكان على أنه زاحجوريم
قاهر جميع الأعداء في ساح الوغى
اينبيلولو، واهب الخيرات هو الجليل الذي أعطى لكلِّ إسمه
نظّم المرعى وموارد الماء
فجّر الأرض عيوناً، وأجرى المياه أنهاراً
لِيُمجّد ثانياً على أنه ايبادون، الذي يروى الحقول

* راجع سييسر

حاكم السماء والأرض؛ موّرع الزرع والكلأ
الذي نظّم السدود والقنوات، ورسم خطوط المحراث
ولِيُمتدح ثالثاً على أنه جوكال، حاكم مزارع الآلهة
رب الغلال الوفيرة والمحاصيل الكثيرة
واهب الثروة الذي أغنى المساكن ... مانح الذرة، ومُنبت الشعير.
وايلولو يتولى أمور الخزن..... واينبيلولو هو حيجال يتولى أمور الخزن
يُسقي الأرض يصيب من السماء فُتُنبت العشب
زيرسير، الذي أقام جبلاً فوق تعامة
والذي بسلاحه قد فلق جسدها
الراعي الأمين وحامي الديار

.....

الذي عبر البحر الغاضب بأبائه
وكجسرٍ، مرَّ إلى ساح المعركة
زيرسير، ليكن أسمك ثانياً ملخ
البحرُ مجاله والموج مطيةً له
غيل، الذي يُكدّس القمح أكواماً
خالق الذرة والشعير، واهب البذور للأرض
غليما، خالق الأشياء الباقية
يحفظ تماسك العائلة، مصدر كل أمر حَسِن
اغليما، الذي مزق تاج [.....]
الذي سخر السحاب فوق المياه، ورفع السموات
زلوم، الذي حدد[.....]
مُقَسّم الأرزاق، الذي يسهر على [.....]

وزلوم ثانياً مومو؛ خالق السماء والأرض ومُجري السحاب
الذي طهر ابسما والأرض لا يُدانیه في قوته أحد بين الآلهة

جيشنوموناب، خالق البشر أجمعين، وصانع أقاليم الأرض الأربعة
مَحَقَّ أتباع تعامة، وصنع من أجسادهم البشر.
لوجالا دبور، حطم صنيع تعامة وفل سلاحها؛
الذي رفع أساساته الراسخة من خلف ومن قدام.
باجليوننا، له الصدارة في كل البلاد لا حد لقوّته،
العليّ بين أخوانه الآلهة، وسيدهم جميعاً.
لوجال دورماخ، رباط الآلهة، الملك، سيد الدورماخ
ذو المقام الأعلى في منزل السلطان، الظاهر على الآلهة.
ارانونا، مشير إيا، وباعث آبائه الآلهة،
لا يُدانیه في الصفات الملوكية إله، مهما علا،
دومودوكو، الذي جدد مسكنه المقدس في الدوكو؛
دوموددكو، الذي لا يقطع انليل برأي دون مشورته.
لوجالانا، العظيم الرفعة بين الآلهة،
الرب الذي له قوة أنو، الذي فاق انشار.
لوجالوجا، الذي إجتاحهم جميعاً في الميدان.
مالك الحكمة كلها، واسع الفهم عميقه
اركينغو، الذي سحق كينغو في المعركة،
رقيب الآلهة، موجههم؛ واضح أسس المملكة .
كينما، قائد جميع الآلهة، مُسدي النصح والمشورة،
لذكره يرتعش الآلهة فرقاً، ولإسمه وقع العاصفة.
ايزيسكور، ألا فلتبوا مكاناً عالياً في بيت العبادة،
ألا فليتقدم الآلهة بالهدايا أمامه، ... ومنه فليأخذ كُلُّ مهامه وصلاحياته،
وبدونه لا يقدر أحد على الخلق المبدع،
سكان الأقاليم الاربعة من صنع يديه،
ولا إله غيره يعرف يومهم الموعد.

* راجع سيسر

جيرو، باني ال[.....] للسلح،

خلق في صراعه مع تعامة الأشياء البديعة، ... واسع الفهم مُلتمع الفكر،

خافي السريرة، لا يستطيع الآلهة مجتمعين سَبَر أغواره

آدو، سيكون أسمه، يُغطي مساحة السماء،

تمزق السحاب رعوده، وتعطي للناس الحياة.

اشارو، الذي يأخذ بيد آلهة الأقدار،

وسعت عنايته الناس والآلهة أجمعين.

نييرو، القيم على مسالك السموات والأرض،

فكل ضال عن طريقه، من أعلى ومن أسفل، يأتي إليه .

فنييرو هو النجم الساطع في السماء

إتخذ مكانه في نقطة الانقلاب المناخي، فأرفعوا نحوه أبصاركم

وهو الذي يقطع عرض البحر دون توقف

أسمه نييرو الذي يشغل مكان المركز

ألا فليحفظ مسارات النجوم في السماء

ألا فليبرع جميع الآلهة كما تُرعى الشياه

ألا فليخضع تعامة وينكد عيشها ويختصر حياتها

ألا فلتترد على أعقابها، ألا فلتنسحب إلى الأبد

وبما أنه خالق المكان، وصانع الأرض الراسخة

لقد دعاه الأب انليل بسيد الأرضين

وكل الأسماء التي دعاه بها الأيجي

سمعها إيا وابتهجت بها نفسه

ثم قال : هو الذي عظم أسماءه آباؤه

سيكون نضيراً لي وسيكون أسمه إيا

فيغدو قيماً على حقوقي جميعاً

ويغدو سيداً لقضائي وأخيراً بالأسم (خمسين) الآلهة العظام

دعوه، لأن أسماءه خمسون، فجعلوه العظيم

يقف الدارس حائراً أمام هذا النص الذي اعتبره شخصياً أعظم نص أسطوري أنتجه الإنسان القديم. والحيرة تأتي من غنى النص وفيضه بالرموز النفسية والإجتماعية والتاريخية، وتعدد بواعث انتاجه، وتراكم خبرات إنسانية شتى في تكوينه. فالمحمة قد تركبت من عدة أساطير سومرية بنت عليها العبقريّة السامية ذلك الهيكل الشامخ، الذي يعطي خلاصة عن علم وفكر وفلسفة وفن الشعب الرافدي العريق، في مجالات هامة عدة. من هنا لا نستطيع اعطاء تفسير واحد للمحمة، فنبخسها بذلك حقها. فالمحمة لم توضع لغرض واحد، ولم تنشأ عن باعث واحد. ففي المص مستويات عدة متداخلة ومتألّفة، وعلى الدارس والمفسّر، أن أراد الموضوعية والشمول، أن يُفرّق بين تلك المستويات مميزاً بعضها عن بعض، حذر الوقوع في أحادية النظرة.

المحمة باعتبارها مغامرة فكرية فذة:

تتقدم المحمة بمجموعة من التأمّلات المترابطة، التي تتخذ من النشوء والتكوين والبدايات موضوعاً لها. فالشكل الحالي للوجود قد إنبثق عن شكل سابق له؛ ولم ينبثق عن عدم. فعندما كانت نعاماً وأبسو وممو يمزجون أمواهم معاً، لم يكن هناك زمان، لأن الزمان نتاج التغيّر، مرتبط بإيقاعه، وتلك العناصر الثلاثة كانت في هدأة وصمت وسكون، كما لم يكن هناك مكان، لأن المياه المتمازجة كانت وحدها ولا موجود معها قبل أن تخلّق السموات والأرض وتُحدّد الأمكنة والإتجاهات. أن فكرة إنبثاق الوجود الحالي عن وجود سابق له، تتخلل فكر المنطقة وتميز كل التأمّلات الخاصة بالتكوين. كما نجدتها في سفر التكوين العبراني: (فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعُمُرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ). وإلى يومنا هذا، لم يقبل العلم الحديث فكرة العدم المطلق، فكل نظريات التكوين العلمية تتحدث من نشوء الكون من مادّة ما، بدئية، ووجود ما سابق. كما أثبت القرآن الكريم فكرة الوجود السابق على الخلق عندما قال: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) سورة هود ٦٠. كما أشار محمد (ص) في الحديث الشريف إلى نفس الموضوع عندما أجاب عن سؤال: أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق؟ فقال: كان في عماء. (والعماء هو الغيم الرقيق الذي يحول بين الناظر وبين الشمس)^(٤).

بعد ذلك تتابع تغيرات نشوء الكون في الملحمة، فمن الاطروحة ينبعث طباقها، ومن تناقضهما يظهر التركيب. فالقوى الكسونية المتمثلة في الثالوث البدئي تنتج في صميمها القوى الحركية المتمثلة في الآلهة الجديدة، ومن صراعهما يظهر إلى الوجود الكون بكل مظاهره. الماء العذب موجود في بطن الأرض لأن إياها قد قهر أبسووبنى مسكنه فوقه تاركاً إياه حبيساً في الأعماق. والضباب يتشكل فوق الماء لأن إياها قد خرم أنف ممو بجبل يجره به أينما ذهب، والسما والأرض تكونتا من جسد الآلهة تعامة التي شطرها مردوخ إلى شطرين، والإنسان خُلق من دماء الإله كينغو وأعطى الحياة ليكدح على الأرض ويقدم للآلهة طعامها، وبابل ظهرت للوجود لأن الآلهة بنوها لزعيهم مردوخ... الخ.

الملحمة باعتبارها تارستاناً:

يعتبر إنتقال البشرية من مرحلة الثقافة الأمومية إلى مرحلة الثقافة الأبوية، من أهم الإنقلابات التاريخية الكبيرة - ورغم أن الاينوما ايليش قد كُتبت في فترة متأخرة عن ذلك الانقلاب، إلا أنها تنطوي على ذكريات حية. وغيضة عن تلك الحقبة الفاصلة. فالحالة الكونية للآلهة البدئية، هي تمثيل واضح لسكونية المجتمع الأمومي وابتعاده عن التغيرات السريعة والحديثة التي ميزت المجتمع الأبوي فيما بعد. أما الحالة الدينامية للآلهة الشابة بزعامة إيا أولاً ومردوخ فيما بعد، فهي تمثيل واضح لحركية المجتمع الأبوي وإشارة لبدء الحضارة التي نعرفها الآن. أن الصراع بين المعسكر الذي تقوده تعامة، والمعسكر الذي يقوده مردوخ لم يكن إلا تمثيلاً للصراع بين ثقافتين متميزتين. ثقافة مركزها المرأة، وأخرى مركزها المجتمع وتكريساً للثقافة الأبوية الطالعة. لقد غادرت القوى الحضارية الجديدة مرحلة النوام مع الطبيعة، التي ميزت

(٤) معي الدين بن عربي، الفتوحات المكية: القاهرة ١٩٧٢ جزء ١، ص ٤٩.

المجتمع الأمومي، ودخلت مرحلة السيطرة على الطبيعة. ولم تكن سيطرة إيا على أبسو إلا رمزاً لسيطرة الإنسان على الماء العذب وتسخيره لزراعته وريته، وذلك بحفر الآبار وبناء السدود^(٥) وحفر القنوات. ولم يكن بناء الآلهة لمدينة بابل إلا رمزاً لشروع الإنسان في بناء حواضره.

الملحمة باعتبارها نتاجاً نفسانياً:

يمثل صراع مردوخ ضد تعامة على مستوى الأسطورة، صراعاً آخر يقوده الفرد على المستوى الشخصي، ضد الإعتماد على الأم، بما يمثله هذا الإعتماد من إتكالية وتفكك في بنية الشخصية. أن صراعاً كهذا، لا يحدث، كما قد يظن البعض، في فترة مبكرة من حياة الفرد، بل قد يتأخر حدوثه إلى أواسط العمر. ويغدو قتل الأم، رمزاً لبناء الشخصية وتكاملها^(٦).

الملحمة باعتبارها تأسيساً إجتماعياً وسياسياً:

يتوافق تاريخ كتابة الملحمة مع تاريخ تأسيس الإمبراطورية البابلية الأولى في عهد الملك حمورابي، الأمر الذي يدعونا للتأمل طويلاً في تتابع أحداث الملحمة التي تأخذ بيد مردوخ وترفعه من ابن للآلهة إلى سيد مطلق لها. لقد رفعت أساطير كثيرة من شأن آلهتها. ولكننا قلما نعثر في أي مكان على كبير للآلهة قد نال من السلطة ما ناله مردوخ من التقديس والبعيل ما حازه. الأمر الذي يدفعنا للإعتقاد بأن سيرة مردوخ في الملحمة ليست إلا انعكاساً لمسيرة الأمبرطور البابلي وترسيخاً لسطانه^(٧). فما يحدث على مستوى الأسطورة، تأسيس لما يجب أن يحدث على مستوى الواقع. وبابل التي بنتها الآلهة منذ البدايات كأول مدينة على الأرض هي التي يجب أن تسود العالم باعتبارها أقدس مكان وأقدم مكان.

(٥) يوسف اليوسف، قراءة في ملحمة التكوين البابلي، مجلة المعرفة السورية العدد ١٩٧، تموز ١٩٧٨.

(٦) ألمج إلى مثل هذا التفسير (يونغ): C.G. Jung, Man and His Symbols, Newyork 1964.

(٧) المرجع رقم ٥

الملحمة بإعبارها تأسيساً لديانة جديدة :

تتوافق كتابة الملحمة مع سيادة بابل على وادي الرافدين والمناطق المتحضرة الجديدة. والسيادة العسكرية تتبعها سيادة ثقافية تُنتبها وتمد في عمرها، فكانت الملحمة وسيلة لنشر الديانة البابلية وتثبيتاً لعبادة إلهها مردوخ، الذي ساد الآلهة جميعاً وتفوق على آبائه وأقرانه. وقد خُصَّص الجزء الأكبر من الملحمة لسيرة مردوخ ووصف مولده ونشأته وصعوده إلى السلطان وصراعه مع القوى الشريرة، وأعمال الخلق التي إستحق بها سلطاناً أبدياً على الآلهة والبشر والأكوان. وتقرّبنا أسماءه الخمسون، كثيراً من المفاهيم التوحيدية اللاحقة. وكان الآلهة السابقة إجتمعت في واحد، وكأنها تجليات له، وصور من صورته.

الملحمة بإعبارها تبريراً وتأسيساً لطقس قديم:

تأتي الملحمة لبث الروح في طقس معروف قديم، وهو الإحتفال برأس السنة، وإعطائه المعنى وتثييته. ففي اليوم الرابع من الأحتفالات بعيد رأس السنة البابلية (الايكيتو) الذي يستمر من الأول من نيسان إلى الحادي عشر منه، كانت الملحمة تُتلى كاملة من قبل الكاهن الأعلى، أمام تمثال مردوخ بحضور جماهير العباد. وفي أيام أخرى من الأحتفال كان يجري تمثيل بعض مشاهد الملحمة، وربما شارك الملك وكبار الكهنة أنفسهم في إتخاذ الأدوار الرئيسية في التمثيل. كما كانت مقاطع أخرى تُنشد وتُغنى من قبل العباد أنفسهم⁽⁸⁾. وذلك كله مساعدة من العباد لآلهتها في المعركة الدائمة مع قوى الفوضى والعماء. فالعركة البدئية لم تحدث مرة واحدة وكفى، بل هي معركة متجددة، يُشارك البشر فيها طقسياً، فيشدون أزرّ آلهتهم ويعطونها سناً ومدداً.

الملحمة بإعبارها فناً رفيعاً:

تعتبر الاينو ما ايليش من أجمل النصوص الأدبية القديمة، وهي إلى جانب

8 - Alexander Heidel, The Babylonian Gernesis- Phoenix Books, Chicago. 1970 p16.

ملحمة جلجامش وملحمة هوميروس وبعض أسفار التوراة، ابدع ما أنتج إنسان الحضارات القديمة من أدب. فيإلى جانب الصياغة الشعرية الجميلة، تتمتع الملحمة بحبكة روائية فذة. وهي في مجموعها أشبه بسمفونية موسيقية مؤلفة من أربع حركات، الحركة الأولى عذبة وهادئة، لا تكاد نسمع فيها سوى أصوات مديدة خافتة، حيث الأمواه البدئية تتمازج في حلم أزلي لذيد - الحركة الثانية حوار بين النغم الخافت والنغم الصاخب، حيث يعلو الصوت حيناً، ويعم الصمت حيناً آخر، تنتهي بنغم نشيط يمثل إنتصار إيا على آبسو وتراجع الآلهة البدئية تراجعاً مؤقتاً. الحركة الثالثة قوية تصارع فيها الألحان الصاخبة وتملؤها أصوات الظواهر الطبيعية من رياح وعواصف وصواعق، وترتفع منها زئير المخلوقات العجيبة، ثم تنتهي بشكل عنيف وصاعق يمثل مصرع تعامة. الحركة الرابعة تبدأ مرتبة منظمة وتنتهي بنشيد فرح وصلاة لمردوخ.

أن التصوير البديع لبعض مشاهد الملحمة يجعلها أشبه بشرط حي كاد تسمع فيه الأصوات وترى فيه الأشكال وتشم روائح الأشياء. وخصوصاً عندما يأتي النص لوصف تحرك مردوخ للقاء تعامة والصراع الذي دار بينهما. فها هو في عدته الكاملة يتقدمه البرق وتتبعه الرياح الأربعة ترفع أطراف شبكته الهائلة، ومن ورائه تعصف الرياح الشيطانية السبعة التي أعدها ليعصف بها أعماق تعامة. من تحته طوفان المطر الهادر يطير فوقه في مركبته العاصفة يجرها طاقم من أربعة أفراس إلهية، أسنانها حادة وفي أنيابها السم. إكتسى بدرع مهييب من الزرد وأعتم بهالة تشيع الرعب والذعر، يتأرجح قوسه على كتفه؛ وترتفع الهراوة في يده والشعلة اللاهبة تندفع من جسده، أما مشهد إلتحام الإلهين وإنتهاؤه بسقوط تعامة في شبكة مردوخ ودفعه للرياح الصاخبة في فمها الفاجر وشطره، من ثم، قلبها بسهمه، فمن المشاهد التي تبقى حيّة في ذاكرة قارئها أبداً.

نصوص بابلية (أخرى) في التكوين

إلى جانب ملحمة التكوين الأساسية، قدمت لنا الأسطورة البابلية نصوصاً أخرى تدور حول نفس الموضوع إلا أن معظم هذه النصوص ناقص، بسبب الحالة التي وصلتنا عليها الألواح الفخارية التي إحتوت عليها. إضافة إلى أن النصوص نفسها لا ترقى إلى مستوى الاينوما إيليش من الناحية الجمالية.

١- نص سيبار:

تم العثور على هذا النص في خرائب مدينة سيبار، ويعود تاريخه إلى الدولة البابلية الجديدة. في القرن السادس قبل الميلاد. ويعتبر هذا النص من أهم تلك النصوص المتفرقة التي تقدم لنا تنويعات مختلفة لحكاية الخلق والتكوين. وقد كُتِب النص ليكون مقدمة لتعويذة سحرية بقصد تطهير المعبد. فقد أعتقد الفكر الأسطوري القديم أن العودة لذكر تفاصيل الخلق وبدايات الأشياء، من شأنها دوماً إعطاء التعويذة قوة، وذلك بإستحضارها الزمن الغض، عندما كانت قوة الخلق تتخلل الوجود البكر. يجري النص على النحو التالي^(٩):

9 - A. Heidel, The Babylonian Gernesis- Phoenixs, Chicago 1970

قبل أن يوجد للآلهة بيت مقدس في مكان مقدس
قبل أن يُخْلَق القصب، ويظهر للوجد الشجر
قبل أن يُصْنَع الأجر وتُبْتَكَّر قوالبه
لم يكن هناك مدينة ولا بشر
قبل أن تظهر للوجود (نيبور) وتُبْنَى (ايكور)
قبل أن تظهر (اوروك) ويُبْنَى (ايانا)
لم يكن للآبسو وجود* وأريدو لم تُبْنَ بعد
ولم يكن قد بُنِيَ بعد مسكن للآلهة .
في تلك الأزمان، لم يكن سوى البحر..
ثم ظهرت أريدو. وتُبْنَى (معبد) الايزاجيلا
الايزاجيل الذي وصلت أساساته إلى الآسبو
ظهرت بابل للوجود، وانتصب الايزاجيلا
وظهر الآلهة، الانوناكي سواسية
فدعوها بالمدينة المقدسة، مسكنهم، وقرة عينهم
ثم وضع مردوخ مغرفة من قصب وضعها على وجه الماء .
وعجن طيناً وسكبه مستعملاً المغرفة
فلكي يخلد الآلهة ويهدأوا في مساكنهم
خلق لهم الإنسان
إلى جانبهم خلق لهم بذور البشر
ثم خلق حيوانات (سوموقان)*
وخلق الدجلة والفرات وحدد مجراهما وأعلن اسميهما
خلق الأعشاب وطحالب الأهوار والقصب والخشب
خلق مراعي السهول الخضراء
والأرض والمستنقع وعيدان القصب

* المقصود هنا بيت لإله إيا * سوموقان، إله المشية.

البقرة والعجل والشاة وقطعان الزرائب
خلق البساتين والغابات
القطعان الوحشية والقطعان ذات الصوف
إلى هنا ويتشوه اللوح الأجرى وعندما يبدأ النص بالوضوح نجد أن الأسطورة قد إنتهت وأننا قد
صرنا في قلب التعويذة السحرية التي كان النص مقدمة لها.

٢- آدم وحواء:

يحكي هذا النص^(١٠٠) قصة خلق الكائنات الحية. وقد وُجد محفوراً على لوح شبه تالف في أنقاض
مكتبة آشور بانيبال في نينوى. وقد أثارت السطور القليلة المتبقية منها إهتماماً كبيراً لإثارتها إلى
خلق الزوجين البشريين الأوليين. ولكن لسوء الحظ، فإن النص غير واضح في معظمه وتمتنع
قراءته تماماً، في الموضوع الذي يبدأ فيه بالقاء ضوء، على الحكاية الخالدة،
عندما خلق الآلهة في مجتمعهم كل الأثياء
كَوْنُوا السماء وشكّلوا الأرض
وأخرجوا للوجود الكائنات الحية
خلقوا قطعان السهول، ووحوش الفلاة ومخلوقات المدينة
بعد[.....] إلى المخلوقات الحية[.....]
وعَيّنوا نصيبهم من قطعان سوموقان ومن مخلوقات المدينة
[.....] كل المخلوقات، كل الخلق[.....]
[.....]
قام إيا بخلق زوجين شابين
وأعلا من شأنهما فوق جميع المخلوقات.
هناك تفسيران ممكنان لتعبير (مخلوقات المدينة). التفسير الأول أن مخلوقات المدينة هم
البشر، وإن في النص تقديماً وتأخيراً على عادة الأسلوب

الأسطوري في التعبير وعلى ما جرى عليه التوراة من ذكر روايتين متداخلتين على خلق الإنسان، الأولى تُشير إلى خلق البشر دفعة واحدة، والثانية تأتي على ذكر الزوجين الأولين، وهي تلي الأولى في الترتيب. ولكفي أميل للقول بأن المقصود بمخلوقات المدينة هم الآلهة لأن المدن فد بُنيت في الأصل ليسكنها الآلهة كما هو شأن بابل.

٣٠ في الطين حيث ينحد الإنسان بالإله:

الخالق في هذا النص هو آلهة الأمومة (مامي) أو كما تُدعى أيضاً (ننماخ) أو (ننخرساج) أو (ننتو) وهي الأم الكبرى، وهي أيضاً الأرض والتربة الخصبة. يعادلها عند الكنعانيين (عشيرة) وعند الإغريق (جيا) وفي كريت (رحيا) وفي آسيا الصغرى (سيبيل). فكل الثقافات القديمة عبدت آلهة أنثى كبيرة، هي الأرض- الأم التي كانت مركزاً للحياة الروحية. ورغم صعود الآلهة المذكوره ودفعهم الأم الكبرى إلى الورا في الثقافات الأبوية، إلا أن قوة وتأثير هذه الآلهة بقي قائماً في أعتى أشكال المجتمعات الذكورية^(١١). وفي بلاد الرافدين، تقاسمت وظائف الأم الكبرى الموروثة عن العصور السالفة، آلهتان هما ننتو (مامي، ننماخ، ننخرساج) وعشتار- فبقيت ننتو الأم- الأرض وصارت عشتار الحب وروح الخصوبة الكونية.

يشكل النص الذي بين أيدينا^(١٢) مقدمة لتعويدة سحرية تُتلى لتسهيل ولادة الحوامل وتخفيف آلامهن . وكما هو الأمر فإن التعويذة تبدأ بتلاوة جوانب من حكاية التكوين لإستمداد القوة والفعالية:

(الجزء الأول من اللوح مكسور)

أنت عون الآلهة؛ مامي؛ أيتها الحكيمة

أنت الرحم الأم

ياخالقة الجنس البشري.

(١١) راجع مؤلفي (لغز عشتار) فصل عشتار- الأم الكبرى

12 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: Jamas Pritchard, Ancient Near Eastem Texts.

Newjersy* باعتبار ما سيكون

1969.

إخلقى الإنسان فيحمل العبء
إخلقه يحمل العبء [.....].
ويأخذ عن الآلهة عناء العمل
فتحت ننتو فمها
وقالت للآلهة الكبار
لن يكون لي أن أنجز ذلك وحدي
ولكن بمعونة أنكي سوف يُخلق الإنسان
الذي سوف يخشى الآلهة ويعبدها*
فليعطني أنكي طيناً أعجته
فتح أنكي فمه
قائلاً للآلهة الكبيرة
في الأول والسابع والخامس عشر من الشهر
سأجهز مكاناً طهوراً
وسيدبح (هناك) أحد الآلهة
وعندها فيلتعمد بقية الآلهة
وبلحمه ودمائه
ستقوم ننتو بعجن الطين
إله وإنسان معاً
سيتحدان في الطين أبداً..

٤ - آدم وحواء بدون طين:

يقدم لنا هذا النص^(١٣) حكاية أخرى عن خلق الزوجين الأولين. وقد وُجد النص محفوراً على لوح يعود للقرن الثامن قبل الميلاد. عُثِر عليه في خرائب مدينة آشور. ووفق هذا النص، فإن دماء الآلهة تُستعمل في خلق الإنسان بدون طين.

* السطر مُترجم عن هيدل لا عن سبيسر. 13 - A. Heidel, The Babylonian Genesis- Phoenix, Chicago.

عندما شكلت الأرض وأخرجت
عندما حددت مصائر الأرض والسماء .
عندما إستقرت شطآن دجلة والفرات
عندما أنو وانليل وإيا
الآلهة الكبار .

وبقية الآلهة المبعجلين
جلسوا جميعاً في مجمعهم المقدس
وإستعادوا ما قاموا به من أعمال الخلق:
أما وقد حددنا مصائر السماء والأرض
وجرت القنوات في مجاريها، وتوضّعت الخنادق
وإستقرت شطآن دجلة والفرات.

ماذا بقي علينا أن نفعل
ماذا نستطيع بعد، أن نخلق
يا مجمع الآلهة، أيتها الأنوناكي
ماذا بقي علينا أن نفعل؟
ماذا نستطيع، بعد، أن نخلق؟
فأجاب الحضور من الآلهة المبعجلين

الأنوناكي ، الذين يحددون المصائر والأقدار
بقسميها، توجهوا بالإجابة إلى انليل:
في (أوزوموا) عماد السماء والأرض
لنذبح بعض آلهة اللامجا*
ومن دمائهم فلنخلق الإنسان

ولنوكله بخدمة الآلهة على مر الأزمان

سيقوم على صيانة خنادق الحدود ... ونضع في يده السلّة والمعول

* آلهة اللامجا.. هم آلهة الجرف ومن صغار الآلهة .

فيبني للآلهة العظام
هياكل مقدّسة تليق بهم
سيميّز الحقول بعضها عن بعض
على مر الأزمان
ويقوم على صيانة خنادق الحدود
ويحفر الخنادق الثابتة
ويعمل على صيانة أحجار الحدود
سيسقي الأرض بأقاليمها الأربعة
ويُخرج من جوفها الخيرات الوفيرة
(خمسة أسطر مشوهة)
فيجعل حقول الأنوناكي تنتج غلالاً وفيرة
سيحتفل بأعياد الآلهة
ويستخرج الماء العذب
(اوليجار) و(الجار) *
سيكون أسماهما
وسيربيان الثيران والخرفان والاسماك والطيور
ويزيدان في عطاء الأرض
(انول) و(نينول) ** نطق فمهما المقدّس
وارورو *** المقدّسة سيده الآلهة وذات السلطان
رسمت للبشر أقداراً رائعة
٥- السوس ووجع الأسنان :

وهذا النص^(١٤) أيضاً مقدمة لتعويذة مخصصة لشفاء آلام الأسنان . يحكي

*** ننتو نتماخ الآلهة الأم

** من آلهة الزراعة

* آدم وحواء البابليين

14- E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics Cin: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts.

Newjersy, 1969

النص شطراً من حكاية التكوين وبدايات الأشياء ويعود لإصول وجع الأسنان وكيف ظهر.

بعد أن خلق أنو السماء

وبعد أن خلقت السماء والأرض

وبعد أن خلقت الأرض الأنهار

والأنهار خلقت القنوات

والقنوات خلقت المستنقعات

والمستنقعات خلقت السوس

مضى السوس باكياً إلى (شمش) *

وذرف الدمع في حضرة إيا

- ماذا تعطيني لطعامي؟

- ماذا تعطيني لشرايبي؟

- أعطيك شجر التين الناضج

- أو أعطيك المشمش

- بماذا يفيدني شجر التين

- بماذا يفيدني المشمش

دعني أصعد وأتخذ لي مسكناً

بين الأسنان وعظام الفك

حيث أمتص دماء الإنسان

وأنخر فيها

عند جذور وعظام الفك

(أدخل الابرة وأمسك بالسوس) **

لأنك نطقت بهذا أيها السوس

* إله الشمس.

** الكلام هنا موجه للطبيب المعالج .

فليسحكك إيا بجبروت

(وعزم) يديه

(تعويذة ضد وجع الأسنان)

(الطريقة: أحضر بيرة وزيتاً وإمزجهما معاً

وأتلّ التعويذة ثلاث مرات وضع المزيج على الأسنان)

٦ - نضان باللغة اليونانية:

قبل إكتشاف الحضارة البابلية بأجيال طويلة عرف العالم شيئاً عن أسطورة الخلق البابلية عن

طريق نصّين كُتِبَا باللغة اليونانية. النص الأول، لآخر فلاسفة الإفلاطونية الحديثة

وهو (داماسكيوس) وتعني الدمشقي، المولود في دمشق حوالي ٤٨٠ بعد الميلاد. وقد تحدث هذا

الفيلسوف عن بعض الأساطير البابلية في كتابه الرئيسي: "صعوبات وحلول المبادئ الأولى"

يقول داماسكيوس في روايته عن التكوين البابلي:

(لا يقول البابليون بمبدأ واحد للكون، بل بمبدأين. الأول تاوت، والثاني أباسون. فتاوت هي

زوجة أباسون وكانت تدعى بأَم الآلهة. وقد ولد لهذين الإلهين مولود واحد هو موميز، الذي

نعتقد أنه يمثل العالم العقلي. وعنهم نشأ جيل ثانٍ: داشي وداشوش . وعن هذين نشأ جيل

ثالث: كيساري وأراسوس. وهذان وُلِدَ لهما ثلاثة هم: أنوس وإيلينوس وأوس. ومن أوس

وداوكي وُلِدَ بيل الذي يقولون أنه من صَنَعَ الكون).

أن التشابه المدهش حقاً بين هذه الرواية وبين الإينوما ايليش، حتى لكأنها مقطع مقتبس عنها

مباشرةً. فتاوت هي تعامة وأباسون هو أبسو، ومومز . هو ممو: وداشي وداشوش هما لخمو

ولخامو، وكيساري وارسوس هما انشار وكيشار، وأنوس هو أنو، وإيلينوس هو انليل، وأوس

هو إيا وداوكي هي زوجته دومكيئا. أما بيل فهو الاسم التبادلي لمردوخ والذي دُعِيَ به دوماً.

النص اليوناني الثاني هو نص بيروسوس، سبة لكتابه بيروسوس كاهن مردوخ

في بابل. وقد عاش هذا الكاتب في فترة متأخرة من تاريخ بابل، بعد فتح الإسكندر، وخلال

النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . قام بيروسوس

بكتابة تاريخ مملكة بابل إستناداً إلى الوثائق المطلوبة التي وصلت إليه من العصور القديمة، ونشر كتابه باللغة اليونانية عام ٢٧٥ قبل الميلاد. وقد ضاعت أعمال هذا الكاتب بما فيها تاريخ بابل، إلا أن مقتبسات عن ذلك الكتاب ظهرت في أعمال الكاتب اليكسندر بوليستر، الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد. تجري رواية بيروسوس على الشكل التالي^(١٦):

(في البدء، لم يكن سوى الظلام والماء. ثم ظهرت إلى الوجود مخلوقات عجيبة التكوين: رجال ذوو أجنحة، جناحان وأحياناً أربعة، لهم وجهان بدل الواحد. وآخرون ذوو أج ام بشرية ورأسين، رأس امرأة ورأس رجل، وكانت أعضاؤهم الجنسية مؤنثة ومذكرة معاً. وآخرون لهم سيقان وقرون الماعز، أو حوافر وذيل الحصان. وبالمقابل كان هناك ثيران ذوو رؤوس بشرية وكلاب لهم ذيول السمك، وخيول لهم رؤوس الكلاب... وهكذا... مخلوقات كثيرة قد إستعارت من بعضها خصائص واشكالاً. وهذه المخلوقات كلها قد صوّرت على جدران معبد بل. وفوق أولئك جميعاً امرأة إسمها اوموركا، وفي اللغة الكلدانية تامتي - أي البحر.

إلا أن هذا الاسم في القيمة العددية. يعادل القمر. ثم جاء مردوخ - بل- فصارع المرأة وشطرها شطرين، جاعلاً من شطرها الواحد أرضاً ومن شطرها الآخر سماء، وقضى على جميع المخلوقات العجيبة، وأحلَّ النظام في الكون. ولكن الأرض كانت خربة ومهجورة فأمر مردوخ بقطع رأس أحد الآلهة، ومزج دمه بتراب الأرض، ومن ذلك المزيج صنع الإنسان ليملاً الأرض. ثم صنع الحيوانات بأجناسها. وبعد ذلك خلق النجوم والشمس والقمر والكواكب السيّارة (الخمسة).

رغم إختلاف هذه النصوص عن بعضها وإختلافها عن الاينوما ايليش في ترتيب عمليات الخلق، إلا أن عناصرها جميعاً واحدة: الماء البدئي، الحالة الكونية الأزلية، ظهور القوى العقلية الفعالة المتمثلة بالإله أو الآلهة الشابة، صراع كوني حاسم، إحلال النظام الشامل، خلق السماء والأرض، خلق الكواكب والنجوم، خلق الإنسان والحيوان والحياة النباتية. كما تتفق معظم هذه النصوص على خلق الإنسان من طين وعلى خلق زوجين بدئيين، عنهما تسلسل الجنس

البشري . هذا وتعود كل هذه العناصر للظهور في الرواية التوراتية مما سيجري بحثه في التكوين التوراتي. وتُذكرنا جملة: ولكن الأرض كانت خربة وخالية، الواردة في نص بيروسوس بما ورد في سفر التكوين، العهد القديم (وَكَاَنَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ الْعُمْرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللَّهِ يَرِفُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ." .. الخ. (تك ١: ٢)

وبعيداً عن الأساطير في المنطقة، نجد كثيراً من أساطير الشعوب، حتى البدائية منها، تقول بتسلل البشرية عن زوجين أوليين. فتقول أسطورة أفريقية^(١٧) أن الإله نزامي قد خلق الإنسان الأول وأسماه سيكوم. ولما رأى أن هذا الإنسان وحيد في العالم، أمره أن يصنع لنفسه امرأة من غصن شجرة وأسماءها مبونوي. وتقول أسطورة أفريقية أخرى^(١٨) أنه في البدء لم يكن هناك سوى رجل وامرأة، يعيش كل منهما دون أن يعرف بوجود الآخر، إلى أن إلتقيا صدفة عند أحد الينابيع، فتشاجرا وتصارعا، ومن خلال ذلك إكتشفا الفعل الجنسي ومباهجه فتصالحا وأنجبا خمسين فتى وفتاة. وتقول أسطورة فارسية^(١٩) أن الذكر والأنثى إنبتقا عن شجرة وكانا متّحدين في جسد واحد، ثم جاء الاله أهورا مزدا وفصل كل منهما عن صاحبه وأرسلهما إلى الأرض. وتروي الأسطورة المكسيكية أن الخالق لما فكّر بصنع الإنسان فكّر في المادة المناسبة لذلك فإختار الطين، ولكن هذه المادة أثبتت عدم صلاحيتها لانها ذابت في الماء عندما ذهب الزوجين الاولين للإستحمام، ثم صنعهما من خشب ولكن المحاولة الثانية لم تكن ناجحة أيضاً، ثم أستقر على المعدن الذي أثبت نجاحه فإستوى المخلوقان كاملين وأنجبا الجنس البشري .

17 - Philip Freund, Myths of Creation. W.H. Alien, London 1964

18 - ibid

19 - ibid

٣ / التكوين الكنعاني

سكن الكنعانيون سورية الشرقية والشريط الساحلي السوري منذ مطلع التاريخ المكتوب وأشادوا مراكز حضارية بقيت مشعة حتى الفترات الكلاسيكية المتأخرة. وبالإضافة إلى التأثير المتبادل بين الثقافة الكنعانية والثقافات السامية الأخرى المجاورة والثقافة المصرية، فإن الثقافة الكنعانية كانت ذات تأثير مباشر على الثقافة الكريتية والثقافة اليونانية المبكرة. ويمكن القول^(١) أن الحضارة الكنعانية قد دخلت في أساس الثقافة اليونانية اللاحقة. يظهر هذا التأثير في الأساطير اليونانية التي تُشير صراحة إلى التأثير الثقافي الشرقي. كأسطورة قدموس الإله الذي جاء من فينيقيا وعلم اليونانيين الكتابة، وأسطورة إختطاف الآلهة السورية يوروبا التي أعطت أسمى للقارة الأوروبية الجديدة، وقد أطلق اليونان على من إحتكوا بهم من الشعوب الكنعانية أسم الفينيقيين.

حتى الربع الأول من هذا القرن، بقيت معلوماتنا عن الميثولوجيا الكنعانية والأدب الكنعاني محدودة جداً، ومعتمده على مصادر مشكوك في صحتها وصدقها وهذا الشك راجع أما إلى كون هذه المصادر معادية للكنعانيين، كما

1 - C.H. Gordon, Ugarit and Minoan Crete, Nerton Library, New York, 1967 pi 11

هو الأمر في كتاب التوراة الذي نقل لنا كثيراً من أسماء الآلهة الكنعانية، وذكر لنا كثيراً من طقوسهم. أو لكون المصادر متأخرة تاريخاً، ومتأثرة بأساليب التفكير الأجنبية، كما هو حال المؤلفين الذين كتبوا باللغة اليونانية، في الفترة اللاحقة، مثل فيلو الجبيلي، الذي نقل لنا كثيراً من آراء ومعتقدات الفينيقيين، ولكن من خلال عقل مشبّع بالثقافة اليونانية وأساليبها الفلسفية.

إلا أن إكتشاف مدينة أوغاريت على الساحل السوري، جعلنا نقف على أرض أكثر صلابة لأن الألواح الفخارية التي تم العثور عليها في أنقاض معبد بعل هناك، قد وصلتنا بالثقافة الكنعانية مباشرة دون وسيط أو ناقل. وبعد حل رموز الكتابة الأوغاريتية، ثبت بالدليل القاطع أن الكتابة المسماة التي نقشت على تلك الألواح، هي كتابة أبجدية، وأنها أول أبجدية كتبها الإنسان وتنتمي لعائلة اللغات السامية.

والاوغاريتية شديدة القرب للغة العربية. ولعل إيراد بعض المقاطع من اللغة الأوغاريتية مكتوبة بالحروف العربية، ومقارنتها بترجمتها العربية، يعطينا فكرة عن هذا القرب ونوعه. وإليك مقطوعاً من ملحمة كرت:

يعرب بحدره وببكي (أي يدخل خدره وببكي) بتن رجم ويدمع (أي يثني الكلام ويدمع) تنكتن أدمعته (أي ودموعه تئكت). كم شقلم أرضه (كما المثاقيل على الأرض).. تمنح مصت مطته

(أي تبلل غطاء سريره). ايل يرد بظهرته (ويرد ايل بظهوره) . أب آدم ويقرب (أي

ويقرب أبو البشر) يسأل كرت (أي يسأل كرت) يدمع نعمن غلم ايل؟ (أي أيدمع الجميل غلام

ايل؟) على لظهر مجدل * (أعلُ ظهر القلعة) ركب شكم صمت (أي أركب شكائم الجدار) سأيدك

شم (أي أرفع يدك نحو السماء). دبج لثور ابك ايل (أي وأذبح للثور أبيل ايل).

يظهر على رأس قائمة الآلهة الاوغاريتية الإله (أيل) كبير الآلهة ورب السماء،

يعتلي عرشه في السماء السابعة، وقد شاعت عبادة هذا الإله لدى جميع الشعوب السورية.

فنجده في الحواضر الفينيقية، والأرامية في الألف الثالث قبل الميلاد، كما نجده في مدينة تدمر

وغيرها من الحواضر السورية في العصور الكلاسيكية

(٢) نسيب وهبة الخازن: أوغاريت. ملاحم وبطولات وأساطير.

* وكلمة مجدل ما تزال حتى الآن شائعة في تسمية بعض الأماكن في سورية.

المتأخرة. وقد عبده العبرانيون في مطلع تاريخهم أيضاً، وكان إله أجدادهم الأولين كما يحدثنا بذلك كتاب التوراة في سفره الأول. كما نجد الإله بعل أو حدود وهو رب المطر والسحاب والصاعقة. وكان الإله الأقرب لقلوب العباد لعلاقته المباشرة بمعاشهم، فهو سيد الدورة الزراعية التي يعتمد عليها البشر في حياتهم. وإلى جانب بعل نجد نقيضه الإله (موت) إله الجفاف والحرارة والعالم الأسفل، وهو في صراع دائم مع بعل. ومن الآلهة المؤنثة عبد الكنعانيون (عشيرة) الأم الكبرى وزوجة ايل. وكانت تُدعى أيضاً (ايلات) نسبة إلى ايل، من ألقابها سيدة البحر: وما زال أسمها حتى الآن يُطلق على الخليج المعروف في البحر الأحمر بأسم خليج ايلات. كما عبدوا عناة حبيبة الإله بعل ورح الخصوبة الكونية، وكانت تُلقَّب بالعدراء، وعشتارت؛ وهي آلهة أخرى للخصب تقاسمت مع عناة وظائف آلهة الخصب البابلية عشتار. إلى جانب هذه الآلهة الرئيسية نجد آلهة تأتي في المرتبة الثانية مثل الإله (يم) وهو البحر الأول، وشبش، آلهة الشمس، وهي أنثى على عكس إله الشمس البابلي شمش. وداجون إله القمح وأبو الإله بعل.

تتجه الأسطورة الأوغاريتية لتفسير الطبيعة بطريقة تروي تَوْق الإنسان الكنعاني المستمر لإستمرار الخصب في الأرض والحيوان والإنسان، ودوام إتصال دورة الطبيعة. وقد صيغت الأسطورة في قالب حركي مليء بالفعل وإنطلاقاً من ذهنية بعيدة عن الجريد. فنجد الآلهة التي تمثل تشخيصاً لظواهر الطبيعة، وقد إنهمكت في القيام بأفعال حركية، بها ترتبط حركات الطبيعة. فعندما يقوم بعل، وهو إله الحياة والخصب، بمنازله موت إله الموت والجفاف فإن أهمية هذا الصراع ونتائجه لا تقتصر على الإلهين المتصارعين، بل تشمل الظواهر الكونية كلها. تقع الألواح الفخارية التي قدمتنا للأسطورة الكنعانية في ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى وتضم الأساطير المتعلقة بالإله بعل، وعلاقته مع بقية آلهة المجمع الفينيقي، والمجموعة الثانية وتضم ملحمة (كرت) ملك حبور، والمجموعة الثالثة وتضم ملحمة (أقهات) وهو ملك كنعاني آخر، وتحوي قصته كسابقها على فيض من العناصر الأسطورية. وقد عُثِر على هذه الألواح جميعاً في أنقاض معبد بعل وهي في حالة يُرثى لها من التشوّه والتلف مما جعل مهمة الباحثين

على غاية من الصعوبة. يضاف إلى ذلك الصعوبات والمشاكل التي مازالت تثيرها اللغة الاوغاريتية إلى يومنا هذا. فحتى الآن مازال هناك كثير من النصوص الغامضة والعصية على التفسير. وتواجهنا الصعوبات بشكل خاص في ألواح بعل، فكاتب الألواح لم يُعْطِها تسلسلاً ما، فجاء كل لوح بأسطورة قد يكون لها علاقة بغيرها أو لا يكون. فالألواح لا تقول لنا مثلاً، هل وقع صراع بعل وموت قبل أو بعد صراع بعل مع يم. وهذا ما جعل باب الإجتهد مفتوحاً على مصراعيه، الأمر الذي وضعنا أمام ترجمات مختلفة متباعدة عن بعضها لأساطير بعل، فالتغيير في تسلسل الألواح يُغيّر من القصة تغييراً جوهرياً، فإذا أُضيف إلى ذلك الإجتهدات الواسعة في تفسير اللغة الاوغاريتية نفسها، صار واضحاً مدى الصعوبة التي تواجه الباحث في تقديم صورة واضحة لمسلسل بعل. وقد أطلعت على التسلسل الذي قدّمه

L- Delaporte⁽³⁾ والتسلسل الذي قدمه J- Gray⁽⁴⁾ والتسلسل الذي قدمه C. H. Gordon

وخرجت بتسلسل أقرب لوجهة نظر الأخير. ولكنني قسمت الألواح إلى مجموعتين: المجموعة الأولى إعتبرتها فصلاً في التكوين الكنعاني، وسيرى القاريء مشروعية هذه النظرة. أما المجموعة الثانية فأساطير في الخصب ألحقها في باب (الإله الميت) الذي عالجت فيه أساطير الخصب في المنطقة. ونظراً للتلف الكبير الحاصل في الألواح، فقد قدمت ترجمة أمينة للمقاطع الواضحة ومختصرات نثرية للمقاطع المشوهة كيلاً أثقل على القاريء بكثرة من السطور غير الواضحة والمليئة بالفراغات. والنص مترجم عن C.H.Gordon في كتابه :

arit and Mlnoan Crete Norton, New York 1967 Ug الذي قدم فيه ترجمة كاملة لألواح أوغاريت.

١ - «بعل» و«يم» السيطرة على المياه الأولى:

يلعب إله الخصب بعل في هذه الأسطورة نفس الدور الذي لعبه مردوخ في الاينو ما ايليش في قهر المياه الأولى وإحلال نظام الكون. ولما به البدئية هنا يمثلها

3- L.Delaport, Phoenician Mythology, in Larousse Encyclopedia of Mythology, Hamlyn, London 1977

4 - John Gray, The Canaanites Fradrick A. Praeger. Newyork 1964

يم ابن ايل. ونص الأسطورة شعري يستخدم الكثير من المترادفات والتشابه على طريقة الشعر العربي.

عندما يصبح اللوح الفخاري واضحاً للقراءة، نجد الإله يم وقد بدأ النزاع مع بعل، فهو يتلو من رسوليته كتاباً موجهاً لمجمع الآلهة، يطلب فيه تسليم بعل ليصح عبداً له، والظاهر أن بعل قد تحاشى الصدام مع يم في البداية ولجأ إلى مجمع الآلهة . ولكن المجمع نفسه لا يستطيع أن يحيي بعل من سطوة يم الذي كان يتمتع بقوة فائقة وسلطة واسعة :

إمضياً أيها الشبابان

إمضياً ولا تتقاعسا

(أنطلقا) ويمّياً وجهيكما

شطر مجمع الآلهة

في وسط جبال الليل

عند قدمي ايل لا تسجدا

وأمام مجميع الآلهة لا تركعا، بل أعلننا ما لديكمما

قولاً ل (ثور) ** قولاً لايل أبي

وأعلننا أمام مجمع الآلهة رسالة يم سيدكما رسالة السيد (نهر)***

سَلّموا لي، ذلك الذي تؤون

ذاك الذي كلكم تؤون

سَلّموا إليّ بعل وأنصاره

إبن داجون، حتى إرث ذهبه).

فإنطلق الشبابان

ودونما تقاعس

* ما زالت هذه الكلمة في اللغة العربية تدل على البحر. ** الثور من القاب الإله ايل

*** نهر من أسماء يم وتعني كما في العربية المياه العذبة الجارية في النهار. فالإله يم كان إله المياه المالحة والمياه الحلوة أيضاً.

(توجَّهًا) وَيَمَّمَا وَجْهَيْهِمَا
شطر جبال الليل ... شطر مجمع الآلهة
وقبل أن يلتئم مجمع الآلهة
قبل أن يجلسوا للمائدة
كان بعل واقفاً قرب ايل
فلما رأى الآلهة الرسولين
مبعوثا السيد نهر
أحنوا رؤوسهم حتى الركب
نعم وهم على عروش جلالهم
فويخيم بعل قائلاً:
(لماذا أطرقتم أيها الآلهة؟
لماذا أحنيتم) رؤوسكم حتى الركب؟
نعم (لماذا) وأنتم على عروش جلالكم
دَعَوِ الإلهين القادمين يقرآن *
دَعَوْهُمَا يقرآن ألواح يم
ألواح السي نهر
وأرفعوا رؤوسكم أيها الآلهة
(ارفعوا رؤوسكم) من إنحناءها
نعم(أرفعوها) وأنتم على عروش جلالتكم
وسأنبري أنا للرد على رسل يم
على رسل السي نهر فرفع الآلهة رؤوسهم
وعندما يصل الإلهان الرسولان يتوجهان مباشرةً للمجمع بالرسالة دون أن يُقدما فروض
الطاعة والإحترام لأحد، ويقرآن مطالب يم:

* ترجم جوردن هذا السطر على النحو التالي: دعو اثنين من الآلهة يقرآن . ولكي إرتأيت من سياق النص أن الإلهين هنا هما رسولا يم لا غيرهما.

(سَلِّمُوا إِلَيَّ ذَاكَ الَّذِي تَتَّوُونَ)

ذَاكَ الَّذِي كَلَّمَكُمْ تَتَّوُونَ ... سَلِّمُوا إِلَيَّ بَعْلَ وَأَنْصَارِهِ.

إِبْنُ دَاجُونَ، حَتَّى إِرْثَ ذَهَبِهِ)

فَأَجَابَ إِيْلَ، أَجَابَهُ أَبُوهُ الثَّوْرَ، قَائِلًا:

(لِيَكُنْ بَعْلَ عَبْدًا لَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ يَمُ)

لِيَكُنْ بَعْلَ عَبْدًا لَكَ إِلَى الْأَبَدِ ... إِبْنُ دَاجُونَ لِيَكُنْ أَسِيرَكَ)

وَكَجَمِيعِ الْأَلْهَةِ، سَوْفَ يَقْدَمُ لَكَ الطَّاعَةَ

نَعَمْ، وَسَيَبْذُلُ لَكَ التَّقْدِمَاتِ كَأَبْنَاءِ الْقِدَاسَةِ

فِيثُورَ بَعْلَ، وَيَقْفِزُ إِلَى سِلَاحِهِ لِقَتْلِ الرَّسُولِينَ إِلَّا أَنْ الْأَلْهَتِينَ عِنَاةً وَعَشْتَارَتِ تَحُولَانِ دُونَ بَغِيْتِهِ،

لَأَنَّ الْعَرَفَ يَقْضِي بِصِيَانَةِ حَيَاةِ الرَّسُلِ :

فَأَمْسَكَ بِيَدِهِ سَكِينًا

وَأَنْتَضَى بِالْأُخْرَى خَنْجَرًا

وَلَوَّحَ بِهِمَا مُعْتَرِمًا قَتَلَ الشَّائِبِينَ

إِلَّا أَنْ حَدِيثِ الْأَلْهَتِينَ يَضِيْعُ مَعَ تَشَوُّهِ اللَّوْحِ الْفَخَّارِيِّ الَّذِي يَسْتَمِرُّ إِلَى نَهَايَةِ النَّصِّ. أَمَّا بَقِيَّةُ

الْقِصَّةِ فَتَعْتَرِثُ عَلِمَهَا فِي لَوْحٍ آخَرَ نَالَهُ التَّشَوُّهُ مَا نَالَ اللَّوْحِ الْأَوَّلِ. تُحَدِّثُنَا الْمَقَاطِعَ الْوَاضِحَةَ فِي اللَّوْحِ

عَنْ تَعَاوُنِ الْإِلَهِينَ الْحَرْفِيِّينَ (كُوَثْرَ) وَ(حَاسِيْسَ) مَعَ الْإِلَهِ بَعْلَ، إِذْ يَصْنَعَانِ لَهُ سِلَاحِيْنَ مَاضِيِيْنَ

يَسْتَخْدِمُهُمَا ضِدَّ يَمُ، حَيْثُ يَقُومُ السِّلَاحُ الْأَوَّلُ بِشَلِّ حَرَكَةِ يَمُ وَيَتَكْفَلُ الثَّانِي بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ. وَبَعْدَ

الْإِنْتِهَاءِ مِنْ صَنْعِ السِّلَاحِيْنَ يَتَقَدَّمُ الْإِلَهِينَ لِبَعْلَ بِنَبِؤْتِهِمَا:

أَلَمْ نُقَلِّ لَكَ يَا بَعْلَ، أَيُّهَا الْأَمِيرُ؟

أَلَمْ نُعَلِّنْ لَكَ يَا رَاكِبَ الْغِيُومِ؟

هُؤَلَاءُ أَعْدَاؤُكَ يَا بَعْلَ

هُؤَلَاءُ أَعْدَاؤُكَ الَّذِينَ سَوْرَفَ تَقْتُلُ

هُؤَلَاءُ أَعْدَاؤُكَ الَّذِينَ سَنَقْضِيْ عَلِيْهِمْ

وَلَسَوْفَ تَقْبِضُ عَلَيَّ الْمُلْكَ إِلَى الْأَبَدِ

وَتَبْسِطُ عَلَيَّ الْكُلَّ سِيَادَتِكَ

ثم يتقدم كوثر بالسلاح ويعطي له اسمه :

لَتُكُنْ، وليَكُنْ إسمك (العاصف) *

إعصف، إعصف بـ (يم)

إدفع به عن عرشه

إدفع (نهر) عن كرسي سيادته

ولسوف تنطلق من يد بعل

وكالصقر تندفع من بين أصابعه

لُتُصِيب منكبي الأمير يم

فإنطلق السلاح من يد بعل

وكالصقر إندفع من بين أصابعه

وضرب منكبي الأمير يم

في المنتصف، بين ذراعي السي نهر

ولكن يم كان قوياً.... فلم يهن ولم يُقهر

ولم تتخاذل مقاصله

لا ولم تهواقمته

وهنا يندفع حاسيس ويضع بين يدي بعل السلاح الثاني ويعطيه إسمه:

لَتُكُنْ وليَكُنْ إسمك الصاعق

إصعق يم على عرشه.... إدفع بنهر عن كرسي سيادته

ولسوف تنطلق من يد بعل

كالصقر تندفع من بين أصابعه.

إضرب رأس الأمير يم

وتكن إصابتك في المنتصف بين العينين

يتهاوى (يم)... ويخر ساقطا

فإنطلق السلاح من يد بعل

* إسم السلاحين غير واضح الدلالة في الأوغاريتية.

وكالصقر إندفع من بين أصابعه
وضرب رأس الأمير يم
في المنتصف بين عيني السيد نهر
فَخَرَّ يم وتضعضع ... وتهاوى ساقطاً
تخاذلت مفاصله وهَوَّت قامته
وهنا تضطرب الآلهة لهذا الحدث وينقسمون بين راضٍ وساخط.
وتتوجه عثنارت بالقول إلى بعل:
مَرَّقه يا بعل العلي. بعثرهُ يا راكب الغيوم..
لقد مات يم وقضى نحبه
فَلَيْسُد بعل ويحكم

وإلى هذين اللوحين يمكن أن نلحق لوحاً ثالثاً، ربما كان إستمراراً لترتيبنا المُفترض للألواح حيث نجد عناة وقد دعت الآلهة إلى وليمة فاخرة، ربما إحتفالاً بإنصار بعل المؤزَّر على المياه وتوطيده ملكه. وتُقابل هذه الوليمة، في إفتراضي، الوليمة التي أُقيمت لمردوخ البابلي بعد إنتصاره على المياه. يأتي الآلهة جميعاً إلى مأدبة عناة، حيث يقدم اللحم والخمر، وينشد المنشدون وتصدح الموسيقى. وبعد ذلك يمضي بعل إلى جبل صفون:

ومضى بعل صاعداً إلى مرتفعات صفون

وهناك التقى ببناته

مَتَّع النظر بـ (بدرية) إبنة النور

و(طلية) إبنة المطر

وأرصية إبنة الأرض

* في الاوغارتية بعل عليان وما زالت كلمته عليان في اللغة السومرية الدارجة تدل على العلو وقد حافظ جوردن على الكلمة بإعتبارها إسماً لا صفة.

** ترجمة السطر والذي سبقه مأخوذ عن Gray أما جوردن فيأتي بهما على الشكل التالي : عازُّ عليك ما فعلت يا بعل. وهذا الإختلاف يُظهِر مدى التباين الشائع في فهم اللغة الأوغارتية.

أسماء بنات بعل مثال آخر على قرب الأوغاريتية للعربية بدرية إسم ما زال شائماً في سورية والنسبة هنا للبدن وهو القمر الكامل. وطب هنا هي الطل أو الندى. وأرضية هي الأرض والتربة الخصبه

٢- بعل يبنى ديناً له:

بانتصار بعل على المياه، تنتصر قوى النظام والحضارة على قوى الفوضى والعماء. ونستطيع أن نفترض أن بعل بعد أنتصاره ذلك قد قام بتنظيم الكون ووضع أسس الحضارة - ولكن بعل بعد إنتصاره يلزمه بيت لسكناه، كما هو شأن الآلهة الكبرى. وهنا يحدثنا نص آخر عن سعي بعل لبناء مثل هذا البيت، تماماً كما حصل مردوخ على بيته بعد إنتصاره. وفي هذا النص نجد بعل يطلب المعونة من حبيبته عناة في الحصول على بيته :

ليس لبعل بيت كبقية الآلهة

ولا هيكل كأبناء عشيرته

(ليس له) كمسكن ايل (ولا) كبيوت أبناء ايل

(ولا) كمسكن عشيرة سيدة البحر

(ولا) كبيت بدرية إبنة النور

أو طليّة بنت المطر ... أو أرضية بنت الأرض

أو بيوت الحوريات العظيمات

فأجابت عناة العذراء :

سهمتم أبي ايل، الثور، بالأمر

من أجلي سهمتم أبي بالأمر

وإلا رميته إلى الأرض كحمل صغير

وجعلت الدم يجري (في نسغ) شعره الأشيب

وفي شعيرات لحيته البيضاء.

سيعطي بعل بيتاً كبقية الآلهة

نعم ويُعطيه هيكلأ كأبناء عشيرة ... ثم قفزت على ساقها

وغادرت الأرض
مِيَمَّة شطر إيل
عند منبع النهرين
في وسط التيارين
ودخلت على إيل في مقرّه
دخلت حرم الملك (أبو شنم) *
وعندما إقتربت من مقر أبيها، وصله صوتها مهدداً متوعداً، فلجأ إلى غرفته الثامنة الي تقع خلف
غرف أخرى سبع:
فأجابها إيل من وراء غرفه السابع من داخل غرفته الثامنة:
(أعرفك عنيفة متهورة يا إبنتي
وأعرف أن لا راد لما تشائين **
فماذا تريدن، أي عناة، أيها العذراء؟)
فأجاب عناة العذراء:
(عاقلة هي كلمتك يا إيل
وأبدية هي حكمتك
وسعادة مقيمة ما تلفظ به
ملكنا هو بعل العلي
سيدنا الذي لا يعلو أحد عليه
وبعد أن تعرض عناة قضيتها على إيل تتطوع زوجة إيل وأولادها لتأييد دعوى عناة:
وهنا صاحت عشيرة وأولادها
صاحت الآلهة ومَن لَفَّ لَقَمَّها
هو ذا بعل بلا بيت كبقية الآلهة
ولا هيكل كأبناء عشيرة
وليس له كمسكن إيل

* أبو شنم، من ألقاب إيل. والأمر تماماً كما في العربية عندما تقول أبو فلان. ** السطر مترجم بتصرف.

ولا كمسكن عشيرة سيدة البحر

ولا كبيت بدرية إبنة النور

أو طليّة إبنة المطر ... أو أرضية بنت الأرض

أو بيوت الحوريات العظيمات

وعندما ينزل إيل عند رغبة عناة، يجري إرسال مبعوثي الآلهة عشيرة وهما (قادش) و(امرار) إلى

الإلهين الحرفيين (كوثر) و(حاسيس) يحملان الأمر ببناء البيت:

إمض يا صياد عشيرة

إمض يا قادش-امرار

[.....]

إنحنِ أمام قدم كوثر وإسجد له

إسجد أمامه وبجله

وأعلنِ أمام الصانع الماهر رسالة بعل العليّ

رسالة عليّ المحارب**

وتتكفل عناة بنقل الخبر إلى بعل الذي يجلس ينتظر حضور الإله الصانع.

وعندما يصل كوثر- حاسيس إلى صفون قادماً من موطنه في كريت، يستقبله بعل

بالحفاوة والترحيب، ويذبح لأجله ثوراً ويُقيم مأدبة عامرة، يبدأ على إثرها بناء البيت . إلا أن

خلافاً يقع بين بعل وكوثر حول تصميم البناء. فبينما يقترح كوثر أن يكون للبيت نوافذ، يُصر

بعل على أن يكون البيت خلواً منها. ويُحسم الخلاف لصالح كوثر، وعندما ينتهي الهيكل، يأتي آية

في الجمال والإبداع، كتلة من خشب الأرز والفضة والذهب يعتلي قمة صفون.

٣- بعل وعناة:

نتعرف في مطلع هذا النص على الوجه المدبر للآلهة عناة، فهي ككل آلهات الخصب القديمة

تمتلك مجموعتين من الخصائص المتناقضة. فمن جهة

* يجري هنا وفي أماكن أخرى من النصوص الأوغارتية، التحدث إلى زوج من الآلهة بصيغة المفرد.

** وردت هنا صفة العليّ على أنها إسم على مرادف لبعل-راجع لهذا الخصوص الصفحة ٥٨ من كتاب Gordon

السابق الذكر

هي ربة الحب والجنس والخصب وربة الحياة ومن جهة أخرى هي ربة الحرب والدمار والكوارث، ربة الظلام^(٥) مُجَبَّة رقيقة رؤوم، وقوية جبارة متسلطة. وقد رأينا في النص السابق كيف دخلت على أبيها إيل إله السموات الذي إرتعد لقدومها واختبأ في غرفته، وإستمعنا إلى تهديدها له ووعيدها. أما في هذا النص فنجدها وقد خاضت مذبحه دموية تقتل فيها من الاعداء بيديها وتغوص في دمائهم؛

هي ذي عناة تُقاتل بضراوة

إنها تذبج أبناء المدينتين

إنها تصارع أبناء شامراء البحر

وتبيد أبناء مشرق الشمس

تحتمها الرؤوس تتطاير كالنسور

وفوقها تتناثر الأذرع كالجراد

وأبناء شاطيء البحر هم سكان الغرب. أما أبناء مشرق الشمس فهم سكان الشرق ، أي أن عناة كانت تُمعن تفتيلاً في الناس كافة. فلسبب غير معلوم، قررت عناة إفناء الجنس البشري وإتبعبت في ذلك الوسيلة المباشرة، أي تنفيذ المهمة بيديها، على عكس الإله انليل الذي إتخذ قراراً مشابهاً في بلاد الرافدين ولكنه إستعمل في حملته الامراض والأوبئة الفتاكة كما إستعمل الطوفان العظيم.

إنها تغوض في دماء الأبطال حتى الرُكب

إنها تغوص في دماء الناس حتى العنق

ولكن الجولة الاولى لم تكن كافية، فتراها تكُر مرة أخرى:

أنها تقاتل بضراوة أنها تعارك أبناء المدينتين

.....

تقاتل (وتقف) وتُجبل النظر تذبج (وتقف) فتأمل

كبدها يتفجر سروراً وقلها يمتلأ حبوراً

وبيدها راية الإنتصار

(٥) للتوسع في هذا الموضوع، راجع مؤلّفي (لغز عشتار)، فصل عشتار السوداء.

تحوض في دماء الأبطال حتى الركب

وتغوص في دماء الناس حتى العنق.

وما إن إنتهت عناة من مهمتها وهدأت ثائرتها حتى بدأت :

تغسل يديها في دماء الجنود

وأصابعها في دماء البشر

[.....]

تجمع المياه وتغتسل

بندى السماء ... بزيت الأرض

بأمطار راكب الغيوم (تغتسل)

وهنا يقوم بعل بإرسال مبعوثيه إلى الآلهة الغاضبة، طالباً منها أن تضع السلاح وترفع راية

السلام، واعدأ إياها بكشف أسرار الطبيعة أن هي أتت لزيارته في مسكنه الجبلي:

عند قدمي عناة إنحنيا وأركعا

إسجد أمامها بجلاها وقولا للعدراء عناة،

إعلنا لسيدة الابطال،

رسالة بعل العلي

إعلنا كلمة (عليّ) المحارب:

(أن ضعي في الأرض خبزاً

وضعي في التراب لفاحاً*)

وأسكبي في الأرض قُربان السلام

والتقدمات في وسط الحقول

[.....]

وإيّ فلتُسرع قدماك

إيّ فلتُسرع ساقاك

فعندي كلمة أود لو قلتها لك

* نبات مقدّس عند القدماء إعتقدوا بإملاكه لخواص سحرية كثيرة.

ومسألة لو أطلعتك عليها
هي كلمة الاشجار (والاوراق)
هي همسة الصخور (والحجارة)
وشوشة السماء للأرض ... وغمغمة الأغوار للنجوم
فأنا عليّ بالبرق الذي لا تُدرك كنهه السموات
وعندي من الأسرار ما لا يعرفه البشر
ولا جموع الأرض به تعرف هلّي إليّ، فأريك كل ما لديّ
هلّي إلى مقربي، أنا رب صفون، هلّي إلى حرمي.
إلى جبالي، إلى المكان المقدس
إلى تلال القوة(والمنعة)
وعندما يقترب الرسولان تتطير عناة وتظن أن مكروهاً ما قد أصاب بعل
فتبادرهما بالسؤال ملهوفة:
أي (جوبار) و (اوغار) ما الذي أتى بكما
أي عدوٍ قام بوجه بعل؟
أي خصمٍ قد ناهض راكب الغيوم؟
ألستُ التي محقت يم حبيب ايل؟**
ألستُ التي قضت على نهر، الإله العظيم؟
ألستُ التي أفنت التينين؟
وسحقت الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة
لقد قضيت على موت مختار آلهة الأرض.
ودمرت بيت إيل (زوب)***
لقد قاتلتهم جميعاً وحزتُ على ذهيمهم
أولئك الذين أزاخوا بعل عن أعالي مفون

* سطر مترجم بتصرف. ** نلاحظ هنا أن عناة تدعي لنفسها نفس البطولات التي قام بها بعل في ألواح أخرى

*** وهو غير الإله إيل

الذين دفعوا به عن كرسي ملكه،
وأبعده عن عرش جلالته
نعم، أي عدو قام في وجه بعل؟
وأأي خصم قد ناهض راكب الغيوم؟
فأجابها الشائبان قائلين: لم يقم في وجه بعل عدو
لا ولم يناهض راكب الغيوم خصم
ولكن هي ذي رساله لن بعل العليّ
وكلمة من عليّ المحارب:
(ضعي في الأرض خبزاً... وضعي في التراب لفاحاً
وأسكي في الأرض قربان السلام
والتقدمات في وسط الحقول)
يُكرران الرسالة حرفياً إلى آخرها. وعندما ينتهيان تجيئهما ملهوفة:
أضع في الأرض خبزاً... وأضع في التراب لفاحاً
وسأسكب في الأرض قربان السلام
والتقدمات في وسط الحقول

ثم أنها لا تنتظر عودة الرسولين بجوابهما، بل تطير لتوها قاطعة مئات الأميال تطوي الفيافي
والقفار. وعندما يراها بعل قادمة من بعيد يرسل جمعاً من النساء لإستقبالها، ويذبح من أجلها
ثوراً، ويحتفل بها إحتفالاً مشهوداً. وبقدومها تبتهج الطبيعة، فيرقص النبات، ويتكاثر الحيوان.

٤ - نص باللغة اليونانية - ساخونياتن والنظرية الزائفة:

في عمرة المد الثقافي الهيليني الذي إجتاح شرقي المتوسط منذ القرن الثالث قبل الميلاد، كانت
تقوم أصوات متفرقة، تدعو للتذكير بثقافة المنطقة والوقوف في وجه تيار الثقافة اليونانية
الذي بدأ يطبع العالم المتحضّر بطابعه في ذلك الوقت. من تلك الاصوات كان صوت الكاتب
السوري فيلو الجبيلي الذي عاش في نهاية القرن الأول الميلادي، ووضع مؤلفاً ضخماً في تاريخ
الفينيقيين

إشتمل على تسعة أجزاء ضاعت جميعها. ولم يبقَ منها سوى مقاطع متفرقة أوردها مؤلفون آخرون نقلاً عنه.

في حديثه عن الميثولوجيا حاول أن يُثبت أن الأساطير الإغريقية قد بُنيت في معظمها على أصول كنعانية شرقية، وأرجع معظم آلهة الإغريق إلى جذورهم الفينيقية. وقد وضع معظم أفكاره على لسان كاتب فينيقي قديم عاش في القرن الرابع عشر قبل الميلاد أسمه (سانخونيانن) مدعيًا أن مؤلفه الكبير ليس إلا ترجمة لأفكار ذلك الكاتب العظيم.

ولعل أهم ما بقي لنا من كتاب فيلون - سانخونيانن ، هو النظرية الفينيقية في التكوين، التي وصلتنا بسبب تصدي بعض الكتاب المسيحيين لنقدها، في حملتهم الي شتوها ضد المعتقدات القديمة وتفنيدها. وهكذا نجد أن نظرية انخرنياش التي نقلها فيلو، لم تصلنا إلا عن طريق المصادر المعادية، التي إستعملتها وسيلة للنقد والمحاجة، وتثبيتاً للفكر المسيحي الجديد. وهذا الوضع برمته، يترك مجالاً واسعاً للشك في صحتها مما سأحدث عنه لاحقاً.

تقول النظرية^(١) أنه في البدء، لم يكن هناك سوى ريح عاصفة، وخواء مظلم. ثم أن هذه الريح وقعت في حب مبادئها الخاصة وتمازجت. ذاك التمازج كأن (الرغبة) وهي مبدأ خلق جميع الأشياء . ولم يكن للريح معرفة بما فعلت، نتج عن تمازج الريح (موت) الذي كان عبارة عن كتلة من الطين أو مجموعة من العناصر المائية المتخمرة. وكان بذرة الخلق. وكان لموت شكل البيضة عندما تتكون. غدا مضيئاً وأنتج الشمس والقمر والنجوم والمجموعات النجمية الكبرى. ثم إلهب الهواء بتأثير إلهاب اليابسة والبحر وتشكل الهواء والسحاب وهطل على الأرض ماء مدارر. وبتأثير حرارة الشمس، انفصلت الأشياء وطارت من مكانها لتلتقي في الهواء وتتصادم، فنشأت البروق والرعود، وعلى صوتها أفاق الحوانات مذعورة وراحت تنتقل على اليابسة وفي البحر، ذكوراً وأنثاءً.

وتتابع النظرية سرد أنساب البشر بدءاً من الزوجين (كوليبيا) و(باو) وتعزو لكل جيل فضل إكتشاف من إكتشافات الحضارة، كإكتشاف النار والزراعة وتربية الحيوان وما إلى ذلك وتشرح كيف عبد البشر أصحاب تلك الإكتشافات وجعلوهم من الآلهة بعد موتهم، إلى أن تصل إلى أورانوس. السماء، وزوجته جيا الأرض،

6 - L. Delaport. Phoenician Mythology (in Larousse Encyclopedia of Mythology).

أبي عليون، أي العالي أو السامي. ويشرح النص هنا نفس القصة الإغريقية المعروفة عن قسوة أورانوس على أولاده ومحاولته قتلهم، إلى أف يأتي كرونوس. أحد أولاده، الذي يتغلب عليه بمعونة صديقه هرمس ويأخذ سلطانه. وهو الذي بنى أول مدينة فينيقية وهي جبيل. ولكن أباه أرسل له ثلاث بنات لقتله، فما كان من كرونوس إلا أن لإستمالهن وتزوّج بهن. فولدت له الأولى وهي عستارت سبع بنات وولدين أحدهما يوثوس، والآخر ايروس. وولدت له الثانية وهي رحيا، أيضاً سبع بنات. ولما تابع أورانوس الحرب ضد ابنه كرونوس، قام الأخير بمفاجأته في كمين وقبض عليه وأخصاه ففاض دمه في الجداول والينابيع.

ولا أريد المضي في سرد مزيد من التفاصيل حول هذه النظرية، مكتفياً بما سردته. أن زيف النص يبدو واضحاً للعيان دون كبير مشقة أو جهد في تمحيصه. وسأنتقل في نقده من ثلاث زوايا. الزاوية الأولى، ما يقدمه لنا النص نفسه، بصرف النظر عن أية عناصر خارجية. والزاوية الثانية، ملابسات وصول النص إلينا، والقنوات غير المتعمدة التي سلكها. والثالثة ما قدّمته لنا حفريات رأس شمرا من مقارنات مفيدة مع أمثال هذه النصوص المتأخرة. أولاً: أن قراءة أولى للنص تُظهر لنا أنه قد كُتِب بروح وخلفية وثقافة يونانية.

فروح الفلسفة الإغريقية تشع من كل حرف من حروفه، وخاص في مقدمته. عندما كان هناك ربح عاصفة وخواء مظلم، وعندما وقعت الريح في حُب مبادئها الخاصة... الخ. كما أن التركيز على فكرة المنشأ المادي للدين وعلى أن الآلهة التي عبدها البشر، لم تكن إلا رجالاً صالحين قدّموا للبشرية خدمات جليّ فتم تأليههم وعبادتهم، يدل دلالة واضحة على التأثير الكبير بالاتجاهات الفلسفية المتأخرة، وبيتعد بنا عن منحنى التفكير الديني الأسطوري الذي كان سائداً في الفترة التي عزا ناقل النص إلينا إنتاجه. لقد كان القرن الرابع عشر قبل الميلاد زمناً ما زال الفكر الأسطوري فيه منتعشاً، وفيه كُتبت ألواح رأس شمرا، وأساطير بعل وعناة وملاحم كرت وأقهاث، مما كشفت عنه حفريات موقع مدينة أوغاريت. ولا يمكن بحال أن تكون العقلية التي أنتجت تلك النصوص، هي نفسها التي أنتجت نص سانخونياتن. والمشكلات التي كانت مطروحة وقتها، لم تكن مشكلة وجود الآلهة أم لا، بل مشكلة أي إله يُعبَد. والتساؤل عن وجود الآلهة لم يُطرح إلا في العصور الفلسفية اللاحقة. كما أن الفترة نفسها هي التي شهدت الصراع بين

وحدانية الإله وتعدد الآلهة، حيث قامت ديانة أختاتون في مصر، وتبعها ديانة موسى في سوريا. ثانياً: أخبرنا فيلو الفينيقي (٤٢ ميلادية) عن سانخونياتن، ونقل لنا عنه تاريخ فينيقية، مدّعيًا أنه إنما يترجم لليونانية فقط، ما كتبه سانخونياتن قبل ذلك بألف وأربعمائة عام. دون أن نعثر لسانخونياتن قبل ذلك على ذكر إلا عند كاتبين سوريين آخرين هما، ادريان الصوري (١٥٠ ميلادية) وفورفيوس الصوري (٤٤٨ ميلادية) وكلاهما لاحقان لفيلو الجبيلي . وليس مُستبعداً أن يكونا قد إستندا في ذكرهما لسانخونياتن على فيلو نفسه ، كما تغدو مسألة تحقيق النص أصعب إلا أن أعمال فيلو قد ضاعت كلها، وإن ما نعرفه عنها قد وصل إلينا عن طريق أقلام يونانية أو مسيحية. والنص الذي ين أيدينا الآن قد نقله أوزيب الكاتب المسيحي ناقداً، ومدافعاً عن المسيحية. فما الذي بقي لنا من سانخونياتن إذا؟

لقد لعب سانخونياتن في أعمال فيلو دوراً مشاهراً لما لعبه سقراط في محاورات أفلاطون، فلقد بات مؤكداً منذ زمن بعيد أن سقراط في محاولات أفلاطون لم يكن إلا شخصية تتحرك لتعبر عن آراء أفلاطون وفلسفته، مع الخلاف الواضح بين المثاليين لأن الأدلة قائمة على وجود شخص اسمه سقراط، ولأن أعمال افلاطون قد وصلتنا مباشرة ، بينما لا وجود لأي دليل تاريخي على وجود سانخونياتن ، وأعمال فيلو قد ضاعت تماماً .

ثالثاً: لقد كان جُل ما نعرفه عن لاهوت الكنعانيين عبارة عن متفرقات وردت في أعمال المؤلفين اليونان إلا أن إكتشاف رأس شمرا على الساحل السوري في مطلع هذا القرن، وحل أجديتها السبابة، جعلنا على إتصال مباشر بالفكر والأدب واللاهوت الكنعاني . فالألواح تتحدث عن نفسها دون وسيط. ولقد غدا من نافلة القول التحدث عن أي نص منقول، يتعارض مع ما تنطق به المكتشفات، فما الذي تقوله لنا الألواح الأوغاريتية عن نص فيلو؟

أن بعض أسماء الآلهة الفينيقية قد ورد في نص فيلو. إلا أن هذا النص قد إمتلأ بأسماء الآلهة اليونانية فكاد لا يترك لهاً إغريقياً إلا وذكره. وكل هذه الأسماء لم نعثر لها على ذكر في الواح أوغاريت التي تعود إلى نفس الفترة التي عزا ناقل النص إليها إنتاج نظرية سانخونياتن. إضافة إلى تناقضات واضحة بين وظائف بعض الآلهة عند سانخونياتن ووظائفها في الواح أوغاريت.

وبشكل عام يمكن القول، أن فيلو قد أراد الدفاع عن الثقافة السورية بإستعمال المنظور الأغرريقي، والقوالب الفكرية الإغريقية، فأتى بنظرية تليفقية، هي قبل كل شيء نظريته الخاصة لا نظرية الفينيقيين. وقد وقع بعض دارسي الأسطورة العرب* في الفخ السهل، وتبنّوا نص فيلو بإعتباره عملاً فكرياً فذاً معبراً عن الفكر الكنعاني القديم وصرفهم الحماس لهذا النص الفني الجميل عن النظرة الموضوعية.

* راجع كتاب يوسف حوراني، نظرية التكوين الفينيقية، دار النهار بيروت ١٩٧٠.

٤ / التكوين (التوراني)

لمحة تاريخية :

إذا كان لنا أن نأخذ ما كتبه العبرانيون عن أنفسهم في توراتهم، بإعتباره تاريخاً، لتتبعنا ظهور العبرانيين في المنطقة، من خلال ثلاث حركات بشرية أساسية. الأولى، هجرة إبراهيم السيد الأول، من مدينة أور الكلدانية في أرض الرافدين وإستقراره في أرض كنعان بفسطين: "وَقَالَ الرَّبُّ لِأَبْرَامَ: «أَذْهَبْ مِنْ أَرْضِكَ وَمِنْ عَشِيرَتِكَ وَمِنْ بَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُرِيكَ. فَأَجْعَلَكَ أُمَّةً عَظِيمَةً وَأُبَارِكَكَ وَأَعْظَمَ اسْمَكَ، (١) وبعد وصول إبراهيم وأهله إلى كنعان، يبرم معه الرب ميثاقاً، فيُعطيهِ الأرض له ولنسبِهِ من بعده: (في ذَلِكَ الْيَوْمِ قَطَعَ الرَّبُّ مَعَ أَبْرَامَ مِيثَاقًا قَائِلًا: «لِنَسْلِكَ أُعْطِيَ هَذِهِ الْأَرْضَ، مِنْ نَهْرِ مِصْرَ إِلَى النَّهْرِ الْكَبِيرِ، نَهْرِ الْفُرَاتِ). (٢). والحركة الثانية تظهر بقيادة يعقوب أو إسرائيل ابن إسحق وحفيد إبراهيم، وعن يعقوب هذا تصدر أسباط إسرائيل الاثنا عشر ومعه يُجدد الرب عهد

(١) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٣ : ١-٢

(٢) العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ١٥ : ١٨

إبراهيم: (والأرض التي أعطيتُ إبراهيمَ وإسحاقَ، لكُ أعطيتها، وَلَسْتُكَ مِنْ بَعْدِكَ أُعْطِيَ الأَرْض) (٣) أما الحركة الثالثة، فتقوم بها جموع اليهود الفارين من مصر بقيادة موسى، تلك الشخصية الغامضة في التاريخ، غموض شخصية إبراهيم، وذلك في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد. دخلت هذه الجموع الرعوية الجائعة أرض فلسطين من الجنوب بعد أن تاهوا في صحراء سيناء أربعين سنة، جزاء خوفهم من دخول الأرض أول مرة. لقد أرهبتهم أرض كنعان بما رأوا فيها من منعة وثروة وحضارة فقفلوا راجعين إلى الصحراء؛ «أُرْسِلْ رِجَالًا لِيَتَجَسَّسُوا أَرْض كَنْعَانَ.....» (قد ذهبنا إلى الأرض التي ارسلنا اليها . وحقاً أنها تفيض لبناً وعسلاً وهذا ثمرها. غير أن الشعب الساكن في الأرض معتر، والمدن حصينة عظيمة جداً..... وجميع الشعب الذي رأينا فيها أناس طوال القامة. وقد رأينا هناك الجبابرة بني عناق، فكنا في أعينهم كالجراد..... فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت، وبكى الشعب تلك الليلة وتذمر على هرون وموسى جميع بني إسرائيل وقال لهما كل الجماعة، ليتنا متنا في أرض مصر)) وهنا يغضب يهوه إليهم، ويقرر حرمانهم من دخول الأرض التي وعدهم بها، إلى أن يتطهروا من أدراهم: (في هذا القفر تسقط جثثكم وأما أطفالكم فإني مآدخلهم، فيعرفون الأرض التي احتقرتموها. فجثثكم أنتم تسقط في القفر، وبنوكم يكونون رُعاة في هذا القفر أربعين سنة، ويحملون فجوركم حتى في جثثكم في القفر)^(٤).

كان تقدم العبرانيين في أرض كنعان بطيئاً جداً. إلا أن سياية الإفناء التي إتبعوها لم يذكر لها تاريخ مثيلاً: (رجع جميع إسرائيل إلى العي وضربوها بحد السيف. وكان جملة من قُتِل في ذلك اليوم، رجل وامرأة، اثني عشر ألفاً، جمع أهالي العي. وأحرق يشوع العي، وجعلها تل ردم إلى الأبد خراباً)^(٥). وعاد يوشع في ذلك الوقت وإفتتح حاصور وقتل ملكها بالسيف، وضربوا كل نفس فيها بحد السيف، ولم تبق نسمة، وأحرق حاصور بالنار)^(٦) (وقال صموئيل لشاول، إياي أرسل

(٢) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٣٥: ١٣

(٤) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ١٣-١٤.

(٥) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٨: ٢٤-٢٨

(٦) العهد القديم، يوتن، الإصحاح ١١: ١٠

الرب لمسحك على شعب إسرائيل. والآن فإسمع كلام الرب." ((فَالآنَ أَذْهَبُ وَاضْرِبُ عَمَالِيْقَ، وَ حَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ بَلِ افْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيْعًا، بَقْرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا))^(٧) وعندما تم لهم الإستيلاء . في فلسطين إنقسموا، في مملكتين: إسرائيل في الشمال وبهودا في الجنوب. وبقي العبرانيون عالع على الثقافات المجاورة ففي أوج إزدهار دولتهم أيام الملك سليمان، نجد هذا الملك يستعين بالحرفيين والصنّاع الفينيقيين لبناء هيكله المشهور، ويستورد له المواد اللازمة من فينيقيا: ("وَأَرْسَلَ سُلَيْمَانُ إِلَى حُورَامَ مَلِكِ صُورَ قَائِلًا: «كَمَا فَعَلْتَ مَعَ دَاوُدَ أَبِي إِذْ أَرْسَلْتُ لَهُ أَرْزًا لِيَبْنِيَ لَهُ بَيْتًا يَسْكُنُ فِيهِ،" فهذا أنا ذا أبني بيتاً لاسم الرب إلهي فالآن أُرْسِلْ لِي رَجُلًا حَكِيمًا فِي صَنَاعَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْأَرْجُوَانِ وَالْقِرْمِزِ وَالْأَسْمَانْجُونِيَّ، مَاهِرًا فِي النَّقْشِ،... وَأَرْسِلْ لِي حَشَبَ أَرْزٍ وَسَرْوٍ وَصَنْدَلٍ مِنْ لُبْنَانَ، لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ عِبِيدَكَ مَاهِرُونَ فِي قَطْعِ حَشَبِ لُبْنَانَ. (٨).

وما أن يُقارب القرن السادس قبل الميلاد على نهايته حتى يُدْمَرُ نبوخذنصر البابلي مملكة إسرائيل ، ويحمل رجالها أسرى إلى بابل. وبعد ذلك يأتي الفتح اليوناني ثم الروماني ويتلاشى الكيان السياسي لليهود تماما. ويتبع ذلك تفكك وجودهم الإجتماعي والديني بانتشار المسيحية وتحول الشعوب السورية إليها.

الحلقة الثقافية:

لم يحضر اليهود إلى سورية الجنوبية معهم ثقافة خاصة بهم، فقد عاشوا في مصر عيشة العبيد والأذلاء، وفروا منها إستجابة لدعوة رجل فولاذي هو موسى. وقد تضاربت الآراء حول هذه الشخصية الفذة. ولعل أكثر هذه الآراء إشارة، النظرية القائلة أن موسى مصري الأصل وليس عبرانياً^(٩)، وأنه قائد عسكري من أتباع ديانة آتون ، وهي أول ديانة توحيدية معروفة تاريخياً، أسسها الفرعون أختاتون. ولما هلك أختاتون، ودمر كهنة الديانات التقليدية كل ما بناه، تفرق أتباعه واهله إلا

(٧) العهد القديم، صمويل ١، الإصحاح ١٥: ٣-١

(٨) العهد القديم، أخبار الأيام ٢ الإصحاح الثاني: ٣-٨

(٩) سيجموند فرويد، موس والتوحيد .

أن موسى التابع المخلص لإخناتون أخذ على عاتقه متابعة الرسالة فقام بإختيار اليهود، تلك الفئة الغربية المضطهدة، للبشير بهم، وقادهم، لقاء إهتدائهم، في مسيرتهم الطويلة للخلاص من العبودية. ولعل هذا الإختيار الذي قام به موسى، هو الذي أعطى فكرة إختيار الإله يهوه لشعبه في التوراة. وتتابع هذه النظرية منطقيها فتقول أن اليهود بعد خيبتهم المتلاحقة وضياعهم الطويل، قد قتلوا قائدهم في ثورة من ثورات الغضب، وهذا الفعل الشنيع هو الذي أدخل على اليهودية فكرة المسيح المنتظر، لأن الندم قد إعتصر قلوب المغتالين، وترسّخ بعد ذلك في لا شعور الجماعة، ونشأت الأمنية بعودة القتل، الذي لم يمّت وإنما إختفى، ليعود في نهاية العالم لقيادة شعبه.

رغم قلة ما نعرفه عن الديانة الأتونية، بسبب الإنتقام الشامل الذي تعرضت له من قبل الكهنة الثائرين فإننا نستطيع أن نلمح أوجه التشابه بين الديانتين، الأتونية والموسوية، وذلك رغم ما خضعت له الاخيرة بعد موسى. فأولاً، تُصِر الديانتان، ولأول مرة في التاريخ، على وحدانية الإله. إلا أن وحدانية أخناتون أعم وأشمل، لانه يرى آتون الهأ وللأمم كلها، بينما بقيت اليهودية فترة طويلة من تاريخها، على الإعتقاد بيهوه إلهاً للشعب اليهودي، يتجلى في المعارك والانتصارات، لا كما يتجلى آتون في الأزهار والأشجار وجميع أشكال النماء والحياة) ثانياً، تمنع الديانتان أي نوع من أنواع التصوير أو النحت للإله الواحد.

لذلك فقد حطمت كل التماثيل إبان حكم أخناتون ومسحت عن جدران المعابد كل صور وأسماء الآلهة القديمة. وكانت الإشارة الوحيدة المسموح بها كرمز للإله، هي أشعة الشمس التي كانت جميع الصلوات تحث على النظر للقوة الكامنة خلفها.

فأتون ليس قرص الشمس ذاته بل خالق أشعته التي يمدّها بالطاقمة. وليس ما في الكرة الملتهبة من مجدٍ مشرق، إلا رمز للمقدرة المستورة. كذلك نقرأ في التوراة: (لَا تَصْنَعْ لَكَ تَمْثَالًا مَنْحُوتًا، وَلَا صُورَةً مَا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتُ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ).^(١٠) ثالثاً، لا نجد في الديانتين أثراً لفكرة البعث والحساب والحياة الآخرة. فأخناتون في صراعه مع الديانات القائمة آنذاك، أراد أن يحرم أوزوريس، وهو

(١٠) العهد القديم، التثنية، الإصحاح ٥: ٧

الإله الشعبي الأول. ملكوته من العالم الآخر، لأنه كان رب البعث والحساب الذي يزن الحسنات والسيئات في العالم الأسفل، ومالك قلوب العباد الباحثين عن السعادة في الحياة الثانية. فعمد أخناتون إلى الغاء فكرة البعث والحساب. وعلى منواله نسجت الديانة اليهودية التي لا نجد عندها أفكاراً واضحة عن الحياة بعد الموت. بل أن هذه الفكرة قد أعتُبرت لفترات طويلة ضلالاً مبيئاً، ولم تبدأ في السيطرة على عقول بعض المتدينين إلا في الفترات المتأخرة وقبل ظهور السيد المسيح.

رابعاً، نظراً لإتصال الديانات المصرية بالسحر، فقد حاربت الأتونية السحر والسحرة وأبطلت تأثيرهم في المجتمع. كذلك الأمر في الديانة اليهودية التي حرّمت السحر.

أن تأثر الديانة اليهودية بالديانة الأتونية هو أمر منطقي وممكن، بصرف النظر عن حكاية موسى المصري. فالديانة اليهودية نشأت في زمن لا يبعد كثيراً عن زمن إزدهار الأتونية. ونستطيع بسهولة أن نفترض أن الديانة الأتونية بعد إنهيارها، قد تحولت إلى ديانة سرية إنتشرت بين المضطهدين الغرباء وخضعت لتحولات أساسية عبر الوقت، إلى أن إتخذت شكلها الجديد على يد موسى. وقد إستمرت بعض الصلوات الأتونية حية في كتاب التوراة. ومن ذلك مثلاً إحدى صلوات أخناتون في تسبيح إلهه التي نجدها في المزمور ١٠٤ من سفر المزامير في التوراة: صلاةأختاتون^(١١)

-العالم في ظلام كأنه الموت. الأسود تخرج من عريتها

والحيات من جحورها

والظلام يسود

-وعندما تشرق في الأفق يتلاشى

* لمزيد من التفاصيل عن وجهة نظر اليهودية في موضوع الحياة الآخرة، راجع سفر العالم الأسفل من هذا الكتاب.

(١١) الأسطر التالية مُنتخبة من صلاة أخناتون.. من أجل النص الكامل للصلاة راجع.

الظلام وكلُّ يذهب إلى عمله
- تزهّر كل الأشجار والنباتات وتفتّح
والطيور تُرفرف في أعشاشها، والخرفان
ترقص وتثبت على أرجلها
- السفن تمخر عباب الماء صموداً أو هبوطاً
والأسماك في النهر تقفز امامك، وأشعتك
في وسط البحر العظيم
- كم هي متددة أعمالك.. لقد خلقت
الأرض وفقاً لمشيئتك. وكل ما عليها
من ناس وحيوان
- لقد خلقت نيلاً في السماء
يرسل الماء على المخلوقات، فيسقي
حقولهم ويجعل الجبال تفيض سيولاً
فتروي الناس والقطعان في الأرض
- أنت الذي خلق الغصول، وخلقت السماء
البعيدة تسطع فيها وتشرق وتغرب يوماً بعد يوم
- العالم كله بين يديك. عندما تسطع على المخلوقات
تحيا. وعندما تغرب عنها تموت، وبك يعيش الإنسان

المزمور ١٠٤

تجعل ظلمة فيصير ليل، فيه تدب كل حيوان الوعر
الأشبال تزمجر لتخطف وتلتمس من الرب طعامها
" تشرق الشمس فتجتمع في مأويها وتربض.
الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله؟ إلى المساء

تشع أشجار الرب أرز لبنان الذي نصبه
حيث تعشعش هناك العصافير أما اللقلق فالسرو؟
بيته، الجبال العالية للوعول، والصخور ملجأ للوبار
- هذا البحر الكبير ألواسع الاطراف
هناك دبابات بلا عدد. صغار الحيوانات مع كبار،
هناك تجري السفن

- ما أعظم أعمالك يارب. كلها
بحكمتك صُنِعَت. ملائنة الأرض يغناك
- الساقى الجبال من علاليه، من ثمر؟
أعمالك تُشيع الأرض. المنبت عشباً
للمهائم، وخضرة لخدمة الإنسان لاجراج خبز من الأرض
وخمر تُفرح قلب الإنسان
- صنع قمراً للمواقيت، الشمس تعرف مغربها.
كلها إياك ترتجي لترزقها قوتها في حينه
تعطيها فتلتقط وتفتح يدك فشيع خبزاً، تحجب وجهك
فترتاع تنزع أرواحها فتموت وإلى تراجها تعود.
ترسل روحك فتخلق وتُجدد وجه الأرض.

هذا وربما كنا أقدر على إيجاد مزيد من المشابهات لو وصلنا من تراث الآتونية أكثر مما وصل.
ولكن الإنتقام الشامل الذي تعرضت له هذه الديانة بعد وفاة مؤسسها، قد جعل التاريخ لا
يعرف عنها إلا القليل.

وإذا كانت الآتونية قد أعطت اليهودية دفعتها الأولى، فإن المناخ الثقافي الذي نمت فيه
وترعرعت، فيما بعد، وأقصد به الثقافة السورية المجاورة، قد كان له أكبر الأثر في تشكّلها
وتطورها البيطيء. وقد كتب التوراة عبر مسافة زمنية تبدأ في القرن العاشر قبل الميلاد وتنتهي في
القرن الأول. فالأسفار الخمسة الأولى قد كُتبت على مدى ثلاثة قرون ابتداءً من القرن العاشر.
أما آخر أسفار التوراة، وهي

سفر المكابيين الأول، وسفر المكابيين الثاني، فقد حررت خلال القرن الأول قبل الميلاد. والتوراة هو المأثرة الثقافية الوحيدة للشعب اليهودي.

ومع هذا التطور البطيء تطورت فكرة اليهود عن الإله . وكان على إلههم يهوه أن ينتظر طويلاً قبل أن ينتقل من مجرد إله خاص بشعب إسرائيل، يُصارع ويُقارع آلهة الشعوب الأخرى للحفاظ على وحدانيته لدى شعبه المختار، إلى إله مطلق للعالم. فآيات التوراة تتحدث عن يهوه دائماً كأعظم الآلهة شأنًا: ((وَالْبَيْتُ الَّذِي أَنَا بَانِيهِ عَظِيمٌ لَأَنَّ إِلَهَنَا أَعْظَمُ مِنْ جَمِيعِ الْإِلَهَةِ))^(١٢). ويهوه نفسه على ما يبدو كان إلهاً كنعانياً. فقد وجدت في أرض كنعان عام ١٩٣١، بين المكتشفات، قطع من الخزف، من بقايا عصر البرونز، مكتوب عليها اسم إله هو (هياها) أو (ياهو). كما نسمع الإله ايل يقول في بعض ألواح أوغاريت: أسم أبي ياو. وهذا الإله ربما حمله العبرانيون معهم إلى مصر، وعادوا به وقد اختلط بالإله أتون بعد هربهم من هناك، أو طردهم* وفي أسفار التوراة الأولى نجد، أن اليهود ينادون إلههم بإسم «ايل» وهورب الأرباب عند الكنعانيين والآراميين وإله السماء. نقرأ في سفر التكوين: « وَبَكَرَ يَعْقُوبُ فِي الصَّبَاحِ وَأَخَذَ الْحَجَرَ الَّذِي وَضَعَهُ تَحْتَ رَأْسِهِ وَأَقَامَهُ عَمُودًا، وَصَبَّ زَيْتًا عَلَى رَأْسِهِ، وَدَعَا اسْمَ ذَلِكَ الْمَكَانِ «بَيْتُ إِيل»..... وَهَذَا الْحَجَرُ الَّذِي أَقَمْتُهُ عَمُودًا يَكُونُ بَيْتَ الرَّبِّ (١٣) وفي مكان آخر نقرأ ((فَأَتَى يَعْقُوبُ إِلَى لُوزَ الْآتِي فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَهِيَ بَيْتُ إِيلَ. هُوَ وَجَمِيعُ الْقَوْمِ الَّذِينَ مَعَهُ، وَبَنَى هُنَاكَ مَذْبَحًا، وَدَعَا الْمَكَانَ «إِيلَ بَيْتِ إِيلَ» لِأَنَّهُ هُنَاكَ ظَهَرَ لَهُ اللَّهُ حِينَ هَرَبَ مِنْ وَجْهِ أَخِيهِ))^(١٤). هذا ونجد إسم ايل في كثير من أسماء الأعلام اليهودية مثل، رعوثيل، إسماعيل، إسرائيل... الخ. وهي أسماء مركبة، رعو- ايل، إسماع- ايل، إسرا- ايل.

وفي المراحل التالية نجد يهوه ينفصل عن ايل ويحاول إنتزاع صفات

(١٢) العهد القديم، أخبار الأيام ٢ الإصحاح الثاني: ٥

* ينقل المؤرخ يوسيفوس عن مانتيون، وهو مؤرخ مصري عاش في القرن الثالث قبل الميلاد. أن اليهود قد طردوا من مصر بسبب وباء تفشى بينهم. وإن موسى كان كاهناً مصرياً خرج للبشير بين اليهود وتعليمهم قواعد النظافة على نسق ما هو متبع بين الكهنة المصريين.

(١٣) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٢٨: ١٨-٣٢. (١٤) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٣٥: ٤-٨

وسلطات الإله السوري (بعل) إله المطر والصاعقة والرعود، والإله الأكثر محبة في قلوب السوريين. فالرعد هو صوت بعل الذي يعلن قدومه، والغيوم مركبته التي تُقلّه، والصاعقة سلاحه، والبرق هيبتته، والمطر نعمته. هذه الرموز كلها إدعاها يهوه لنفسه: ((صَوْتُ الرَّبِّ عَلَى الْمِيَاهِ. إِلَهُ الْمُجْدِ أَرَعَدَ الرَّبُّ فَوْقَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ، صَوْتُ الرَّبِّ بِالْجَلَالِ))^(١٥) وكذلك، ((الْجَاعِلُ السَّحَابَ مَرْكَبَتَهُ، الْمَائِي عَلَى أَجْنِحَةِ الرَّيحِ))^(١٦) فهوه هنا يتخذ لنفسه صفة أساسية من صفات بعل وهي، راكب الغيوم. وحتى عندما يأتي يهوه لمصارعة التنين والقضاء عليه، فإن تنين يهوه هو نفس تنين بعل. نقرأ في ألواح أوغاريت، وفي سفر أشعيا:

النص الأوغاريتي ^(١٧)	سفر أشعيا ١:٢٧
والآن تريد أن تقتل (لوتان) الحية الهاربة. الآن تريد أن تُجهز على الحية الملتوية، (شالباط) العتية ذات الرؤوس السبعة	فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ الْقَاسِي الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوِيَاتَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِيَةَ. لَوِيَاتَانَ الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّتَةَ، وَيَقْتُلُ التَّنِينَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ

ويأتي المزمور ٩٢ بسرد مشابه لسد النص الأوغاريتي عن صراع بعل ضد أعداءه

النص الأوغاريتي ^(١٨)	المزمور ٩
هو ذا أعداؤك يا بعل هو ذا أعداؤك تُبيدهم هو ذا خصومك تُبيدهم	أَنَّهُ هُوَذَا أَعْدَاؤُكَ يَا رَبُّ، لِأَنَّهُ هُوَذَا أَعْدَاؤُكَ يَبِيدُونَ. يَتَبَدَّدُ كُلُّ فَاعِلِي الْإِثْمِ.

وكما تغلب بعل على المياه الأولى يم كذلك يهوه (أنت متسلط على كبرياء البحر، أنت سحقت رهب مثل القليل)،^(١٩) وكما طالب بعل ببناء بيت له بعد إنتصاره، كذلك

(١٥) سفر المزامير. المزمور ٢٩ . (١٦) سفر المزامير- المزمور ١٠٤
(١٧) النص الأوغاريتي ترجمة أنيس فريجة: أوغاريت، دار النهار، بيروت ١٩٨٠ ص ١٥٦ وقد أرجعت كلمة (لوياتان) فيه إلى أصلها الأوغاريتي (لوتان) وفق ترجمة غوردن .
(١٩) العهد القديم، سفر المزامير ٨٩ 18 - CH Gordon, Ugarit. Norton Library Newyork 1962. P 48

يفعل يهوه، وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناتان قائلاً اذهب وقل لعبدي داود : هكذا قال الرب: أنت تبني لي بيتاً لسكنائي لأنني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم، بل كنت أسير في خيمة وفي مسكن^(٢٠) وكان اليهود لدى قراءتهم في التوراة يتهيبون لفظ إسم يهوه، فعندما يصلون في قراءتهم للأسم يلفظون بدلاً عنه أسم أدوناي وهو من ألقاب بعل، كما أن أسم أدوناي يرد تبادلياً مع أسم يهوه في أكثر من موضع في الكتاب المقدس.

وإذا كان يهوه قد حاول التشبه بالآلهة السورية والبابلية، فإنه قد بز قساتهم بما جنته يداه من أعمال الدمار والفتك والقتل. فهو إله حقوق لا يكتفي بعقوبة المذنب وحده، بل أنه يتابع إنتقامه من ذرية المذنب، ويحل عليهم غضبه وإنقامه، «افتقد ذنوب الآباء في الابناء، وفي الجيل الثالث والرابع من الذين يبغضوني»، وغضبه لا يهدأ إلا بالتضحيات التي تُحرق على المذبح ويُسر لرائحتها كثيراً « وَيُرْتَبُ بَنُو هَارُونَ الْكَهَنَةُ الْقِطْعَ مَعَ الرَّأْسِ وَالشَّحْمِ فَوْقَ الْحَطَبِ الَّذِي عَلَى النَّارِ الَّتِي عَلَى الْمَذْبَحِ. وَأَمَّا أَحْشَاؤُهُ وَأَكَارِعُهُ فَيَغْسِلُهَا بِمَاءٍ، وَيُوقِدُ الْكَاهِنُ الْجَمِيعَ عَلَى الْمَذْبَحِ مُحْرِقَةً، وَفُودَ رَائِحَةٍ سَرُورٍ لِلرَّبِّ. »^(٢١) « وَتُوقِدُ كُلُّ الْكَبْشِ عَلَى الْمَذْبَحِ. هُوَ مُحْرِقَةٌ لِلرَّبِّ. رَائِحَةُ سَرُورٍ، وَفُودٌ هُوَ لِلرَّبِّ. »^(٢٢).

وغضب يهوه لا يزول بالتضحية الحيوانية فقط، بل لابد من التضحية الإنسانية أيضاً. نقرأ في سفر صموئيل الثاني من العهد القديم . أن جوعاً وقحطاً شديدين قد عمّا البلاد مدة ثلاث سنوت، وكان ذلك أيام الملك داود فيطلب داود وجه الرب، ويفهم منه أنه حاقد من أجل شاوول الذي قتل الجبعونيين، فيقوم داود بتقديم سبعة رجال قرباناً للرب حتى يهدأ :

« وسلمهم إلى يد الجبعونيين، فصلبوهم على الجبل أمام الرب. فسقط السبعة معاً وقُتلوا في أيام الحصاد، في أولها في إبتداء حصاد الشعير^(٢٣). ورغم قسوة يهوه وجبروته، فإن اليهود لم يتوقفوا عن عبادة آلهة السوريين طيلة تاريخهم. فهذا يعقوب نفسه يطلب من أهل بيته أن يزعوا الآلهة السورية من وسطهم: (فَقَالَ يَعْقُوبُ لِبَنِيهِ وَلِكُلِّ مَنْ كَانَ مَعَهُ: «اغزِلُوا الآلهة الغريبة التي بينكم

(٢٠) العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح ٧:٣. (٢١) العهد القديم، سفر اللاويين، الإصحاح ١:٦.. (٢٢)

العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٢٩:١٧ (٢٣) العهد القديم، سفر صموئيل ٢، الإصحاح ٢١:٩.

وتطهروا وأبدلوا ثيابكم.... فأعطوا يعقوب كل الألهة الغريبة التي بين أيديهم، والأفراط التي في آذانهم، فطمرها يعقوب^(٢٤) وهؤلاء

بنو إسرائيل، وموسى بعد بين ظهرانهم يتركون مهوه ويتبعون عبادة بعل: «وتعلق إسرائيل ببعل، فحسي غضب الرب على إسرائيل، فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلّقهم للرب مقابل الشمس، فترتد حمو غضب الرب»^(٢٥)

والملك سليمان، أعظم ملوك اليهود قاطبة، كان من عبدة الألهة السورية ((ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه . فذهب سليمان وراء عشتاروت إلهة الصيديونيين. وملكوم رجب العموريين. وعمل سيمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب))^(٢٦). وبعد سليمان كان معظم ملوك اليهود يعبدون مع مهوه آلهة سورين ((وعمل آخاب الشر في عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله، وسار وعبد البعل وسجد له، وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه بالسامرة»^(٢٧)).

وهكذا نجد أن مطلب مهوه المتواضع في الوصية الأولى من الوصايا العشر لم يتحقق له، وهو أن يكون مقامه فوق سائر الأرباب. لقد كانت رحلة مُضنية، تلك التي مشاها مهوه، عبر تاريخ طويل إمتد أكثر من ألف سنة، قبل أن يصبح من خلال الديانة المسيحية، إلهاً واحداً مطلقاً. لقد ابتدأ مهوه بداية وثينه متواضعة، ثم شق طريقه بدأب نحو الوحدانية. ولعل علاقته المبكرة مع موسى تُظهر تلك البداية المتواضعة. فهوه لا يدعي العلم المطلق عندما يطلب إلى اليهود أن يميزوا بيوتهم بدهنها بدماء الخرفان المضحاة، فلا يهلكوا مع من يُريد إهلاكهم من المصريين؛ ((وَيَكُونُ لَكُمْ الدَّمُ عَلاَمَةً عَلَى البُيُوتِ الَّتِي أَنْتُمْ فِيهَا، فَأَرَى الدَّمَ وَأَعْبُرُ عَنْكُمْ، فَلَا يَكُونُ عَلَيْكُمْ ضَرْبَةٌ لِلْهَلَاكِ حِينَ أَضْرِبُ أَرْضَ مِصْرَ.))^(٢٨). وهو إله متردد يخشى شماتة الناس به وبشعبه،

ويستطيع موسى بذكائه أن يدفعه لتغيير رأيه. ((وَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «حَتَّى مَتَى يُهَيِّنُنِي هَذَا الشَّعْبُ؟ وَحَتَّى مَتَى لَا يُصَدِّقُونَنِي بِجَمِيعِ الآيَاتِ الَّتِي عَمِلْتُ فِي وَسَطِهِمْ؟ اني ساضربهم بالوباء وأبدهم. فقال موسى للرب فان قتلت هذا الشعب سوف تتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك

(٢٤) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٣٥:٢.

(٢٥) العهد القديم، سفر العدد، الإصحاح ٢٠:٢-٣. (٢٦) العهد القديم، سفر الملوك ٢، الإصحاح ١١:٤-١٠

(٢٧) العهد القديم، الملوك ٢، الإصحاح ٣٠:١٦-٣٢ (٢٨) العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ١٢:١٣

قائلين لأن الرب الذي لن يقدر أن يدخل هذا الشعب الى الأرض التي حلف لهم فقتلهم في القفر. إصفح عن ذنب هذا الشعب وكما غفرت لهذا الشعب من مصر الى هنا فقال الرب قد صفحت حسب قولك (٢٩).

وهو إله مشخص يمكن رؤيته بالعين المجردة فهذا موسى يلمح قفاه :
((فَقَالَ: «أَرِنِي مَجْدَكَ... وَقَالَ الرَّبُّ: «هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفْ عَلَى الصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى اجْتَاَزَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُّكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ، وَأَسْزُكُ بِيَدِي حَتَّى اجْتَاَزَ ، ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى »)) (٣٠) وهو بطل يصارع الوحوش والتنانين تماماً كألهة السوريين والبابليين والإغريق: أَنْتَ شَقَقْتَ بِعِزَّتِكَ يَم * وَشَدَخْتَ رُؤُوسَ التَّنَانِينَ عَلَى الْمِيَاهِ. أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لُوبَاتَانَ وَجَعَلْتَهُ مَأْكَلًا لَزَمْرِ الْقَفَارِ (٣١).

وقصارى القول، أن كتاب التوراة، وهو المأثرة الثقافية الوحيدة للشعب اليهودي، قد نشأ وتطور إنطلاقاً من أرضية ثقافية سورية وبابلية ومصرية. وإن مسيرة الفكر العبراني، في سعيه لبناء ديانة مستقلة،

لم تتكلل بالنجاح إلا عن طريق إستيعاب وتمثل الديانات السابقة، والألهة القوية التي لم يستطع مهوه زحزحتها إلا بإستعارتها لنفسه.

لقد بدأت المشابهات بين التوراة وآداب الشرق القديم تظهر، عندما بدأت الحضارات القديمة للمنطقة تتكشف من تحت التراب بواسطة الحفريات الأثرية التي أحييت آداباً قد قُفِدَتْ منذ عهد بعيد.

أن ضوءاً قوياً قد سُلِّطَ الآن على التوراة ومنشئته. وأصبح في وسع القائلين بالمعجزة التوراتية أن يُدركوا أن آداب التوراة لم تظهر كاملة النمو، وإنما مدت جذورها عميقاً، لتشرب نسغ حضارات معاصرة لها وأخرى سابقة عليها. ون التربة التي أمدَّت مؤلّفي التوراة بمادتهم الأدبية كانت تربة كنعان وآرام وأرض الرافدين.

(٢٩) العهد القديم، سفر العدد، الإصحاح ١٤: ١١-٢٠ (٣٠) العهد القديم، سفر الخروج، الإصحاح ٣٣: ٢٠-٢٣ * بعض الترجمات العربية للتوراة تترك أسم يم كما هو وبعضها يستبدله بالبحر. والاول أصح لأن النص التوراتي الأصلي يعني بيم المياه الأولى كما وردت في النصوص السورية القديمة. (٣١) العهد القديم، المزمور ١٣: ١٤-١٤

أسطورة التكوين التوراتية:

لنقرأ الآن إسطورة التكوين التوراتية، كما وردت في مطلع كتاب التوراة: سفر التكوين،
الأصحاح الأول والثاني :

الإصحاح الأول: فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. وَكَانَتِ الْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ
الْعُمُرِ ظُلْمَةٌ، وَرُوحُ اللهِ يَرِفُّ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ نُورٌ»، فَكَانَ نُورٌ. وَرَأَى اللهُ النُّورَ أَنَّهُ
حَسَنٌ. وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةَ دَعَاهَا لَيْلًا. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ
صَبَاحٌ يَوْمًا وَاحِدًا.. وَقَالَ اللهُ: «لِيَكُنْ جِلْدٌ فِي وَسْطِ الْمِيَاهِ. وَلِيَكُنْ فَاصلًا بَيْنَ مِيَاهِ وَمِيَاهٍ». فَعَمِلَ
اللهُ الْجِلْدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجِلْدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجِلْدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْجِلْدَ
سَمَاءً. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَانِيًا.

(سفر التكوين ١: ٩) وَقَالَ اللهُ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلِتُظْهِرِ الْيَابِسَةَ».

وَكَانَ كَذَلِكَ. وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمِعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ
اللهُ: «لِتَنْبِتِ الْأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْرُزُ بِرُزًّا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجَنَسِهِ، بِرُزُّهُ فِيهِ عَلَى
الْأَرْضِ». وَكَانَ كَذَلِكَ. فَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلًا يُبْرُزُ بِرُزًّا كَجَنَسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا بِرُزُّهُ
فِيهِ كَجَنَسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا ثَالثًا.

وَقَالَ اللهُ: «لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لِتُفَصِّلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ
وَسِنِينَ. وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جِلْدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الْأَرْضِ». وَكَانَ كَذَلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ

الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الْأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الْأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جِلْدِ
السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتُفَصِّلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ
أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ اللهُ: «لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَافَاتِ ذَاتِ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلِيَطِرَّ طَيْرٌ فَوْقَ الْأَرْضِ عَلَى وَجْهِ
جِلْدِ السَّمَاءِ». فَخَلَقَ اللهُ الثَّنَائِينَ الْعُظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الْأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَابَةِ الَّتِي فَاضَتْ بِهَا الْمِيَاهُ
كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجَنَسِهِ. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلًا: «أَنْثَمِرِي وَأَكْثَرِي وَأَمْلِي الْمِيَاهِ فِي الْبِحَارِ. وَلِيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الْأَرْضِ».

وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا خَامِسًا. قَالَ الرَّبُّ لِتُخْرِجِ الْأَرْضَ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجَنَسِهَا: بَهَائِمَ،
وَدَبَابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا وَجَمِيعَ دَبَابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذَلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ.

وقال الربُّ «نَعْمَلُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَطُونَ عَلَى سَمَكِ

الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الْأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ». فَخَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللَّهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللَّهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَتَمِزُوا وَاكْتُرُوا وَامْلَأُوا الْأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانَ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ؟» وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلِ يُبْرَرُ بُزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ، وَكُلُّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرٌ يَبْرُرُ بُزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا، وَلِكُلِّ حَيَوَانَ الْأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَابَةٍ عَلَى الْأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عَشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا. وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ كُلَّ مَا عَمَلَهُ فَإِذَا هُوَ حَسَنٌ جِدًّا. وَكَانَ مَسَاءً وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا سَادِسًا. الْأَصْحَاحُ الثَّانِي:

"فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. وَفَرَعَ الرَّبُّ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. فَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ، لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ الرَّبُّ خَالِقًا. هَذِهِ مَبَادِئُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حِينَ خُلِقَتْ، يَوْمَ عَمِلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ. كُلُّ شَجَرِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَكُنْ بَعْدُ فِي الْأَرْضِ، وَكُلُّ عَشْبِ الْبَرِّيَّةِ لَمْ يَنْبُتْ بَعْدُ، لِأَنَّ الرَّبَّ الْإِلَهَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَمْطَرَ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَا كَانَ إِنْسَانٌ لِيَعْمَلَ الْأَرْضَ. ثُمَّ كَانَ ضَبَابٌ يَطْلُعُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَسْقِي كُلَّ وَجْهِ الْأَرْضِ. وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الْأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَغَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهَ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلْأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: اسْمُ الْوَّاحِدِ فَيَشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. وَذَهَبَ تِلْكَ الْأَرْضُ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمَقْلُ وَحَجَرُ الْجَزَعِ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّلَاثِ حِدَاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقَ أُشُورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ. وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا.

يقتفي التكوين التوراتي أثر أساطير التكوين السومرية والبابلية والكنعانية، في خطوطه العامة وفي تفاصيله. فالحالة البدئية السابقة للخلق حالة عماء مائي وظلمة سرمدية. ومن هذه المياه تم التكوين، حيث قام بهوه بتقسيم المياه إلى قسمين رفع الأول إلى السماء، وترك الثاني في الأسفل فصار بحاراً منها برزت

اليابسة. وعلى هذه اليابسة تابع يهوه إفعاله الخلاقة، فأخرج النبات والمرعى والشجر المثمر، وخلق الحيوان، وفي السماء خلق الشمس والقمر والنجوم، وفي البحر خلق الحيوانات المائية، وفي الجو خلق الطير، وأخيراً خلق الإنسان.

وإذا كان صراع يهوه مع التّين البدئي لم يظهر في هذه الأسطورة كمقدمة للخلق، كما هو الشأن في أسطورة التكون البابلية، فإن مثل هذا الصراع يظهر في نصوص أخرى تتحدث عن أفعال يهوه الخلاقة، وفيها نجده قبل الخلق وقد إنهمك في الصراع مع تّينه لوياتان. من ذلك مثلاً المزمور الرابع والسبعون :

((أَنْتَ شَقَقْتَ الْبَحْرَ بِقُوَّتِكَ. كَسَرْتَ رُؤُوسَ التَّنَّانِينِ عَلَى الْمِيَاهِ. أَنْتَ رَضَضْتَ رُؤُوسَ لُويَاتَانِ. جَعَلْتَهُ طَعَامًا لِلشَّعْبِ، لِأَهْلِ الْبَرْيَةِ. أَنْتَ فَجَّرْتَ عَيْنًا وَسَيْلًا. أَنْتَ يَدَبْتَ أَنْهَارًا دَائِمَةً الْجَرَّانِ. لَكَ النَّهَارُ، وَلَكَ أَيْضًا اللَّيْلُ. أَنْتَ هَيَّأْتَ النَّوْرَ وَالشَّمْسَ. أَنْتَ نَصَبْتَ كُلَّ تَحْوِمِ الْأَرْضِ. الصَّيْفَ وَالشِّتَاءَ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا.)).

على أن القراءة المتأنية لنص التكوين التوراتي، تظهر لنا تناقضاً واضحاً في أحداثه. ففي البدء خلق الرب السماوات والأرض. ثم نجده يخلقها مرة ثانية بفصل المياه عن بعضها. ومرة نجده يخلق البشر دفعة واحدة ذكراً وأنثى خلقهم وَبَارَكَهُمُ الرَّبُّ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَكَثُرُوا واملأوا الأرض،» وفي المرة الأخرى يخلق الرب الإنسان بدءاً من زوجين أوليين مقتضياً بذلك أثر الأساطير البابلية والسومرية. وفي الواقع فإن هذا النص، ونصوصاً أخرى كثيرة في التوراة قد كُتبت بعد التوفيق بين روايتين توراتيتين. دعا علماء التوراة الرواية الأولى بالرواية اليهودية، والثانية بالرواية الألوهيمية. في الرواية الأولى يظهر الإله تحت اسم يهوه وفي الثانية تحت اسم إيلوهيم.* وقد جري المزج بين الروايتين بعد العودة من الأسر البابلي عام 538 ق.م. عندما قام كهنة اليهود بصياغة موحدة لأسفار التوراة. فاذا حللنا رواية التكوين إلى مكوناتها، إستطعنا تمييز الروايتين عن بعضهما وفق التالي: (32)

النص اليهودي:

١ - الحالة الأولى للكون، عماء مائي

* ويذكرنا اسم إيلوهيم بلفظ الجلالة اللهم. كما أن السق الأول منه مأخوذ من إيل إله السماء الكنعاني.

32 - S.H. Hooke, Middle Eastern Mythology, Pelican Book, London. 1968

- ٢ - يعزى الخلق إلى إيلوهيم الذي قام به في ستة أيام منفصله، في كل يوم عمل
- ٣ - تساسل مراحل الخلق وفق التالي:
- النور
 - السماء
 - اليابسة
 - الزرع
 - الاجرام السماوية
 - الاسماك والطيور
 - الحيوانات والبشر رجالاً ونساءً

النص الإلهيمي:

- ١ - الحالة الأولى للكون قفر وخراب لا حياة فيه ولا زرع ولا ماء.
 - ٢ - يُعزى الخلق إلى يهوه، دون أي تقسيم زمني.
 - ٣ - تتسلسل مراحل الخلق وفق التالي :
 - الإنسان، آدم من تراب
 - جنة في شرقي عدن .
 - الأشجار من كل نوع بما فيها شجرة المعرفة
 - الحيوانات والوحوش والطيور (لا ذكر للأسماك)
 - المرأة تُخلَق من الرجل
- هذا ولعل أكثر المشابهات إثارة، بين أسطورة التكوين التوراتية وبقية الأساطير في المنطقة، هي المشابهات مع الاينو ما ايليش. مما سأحدث عنه مفصلاً فيما يلي

٥ / الألواح النكويئية السبعة

إضافة للإحتكاك الطويل مع الثقافات السورية المجاورة، فإن السبي البابلي قد قدّم لليهود فرصة للإطلاع على آداب وديانة وأساطير ثقافة أرض الرافدين. وعندما عادوا إلى أورشليم، وقاموا بتدوين نصوص التوراة المتفرقة في كتاب جامع شامل، دخلت خبراتهم أيام السبي، بشكل تلقائي وطبيعي، فيما دونوه من نصوص . وكانت الاينوما ايليش درة الأدب والفكر البابلي، عميقة التأثير فيهم. ولا يقتصر تأثير الاينوما ايليش على أفكار العبرانيين في مسائل الخلق والتكوين، بل يتعداها إلى جوانب أساسية وهامة في فكرهم الديني. من ذلك مثلاً، أثرهم الكبير بفكرة شمولية الإله مردوخ التي أبرزتها الاينوما ايليش من خلال شرحها لمضمون أسمائه الخمسين، فظهر مردوخ، رغم - بقية الآلهة، إلهاً أوحداً مطلقاً. إلا أننا سنقتصر في هذا المجال على دراسة التأثير الخاص بموضوعات التكوين. فنقارن النقاط الأساسية لكلا الأسطورتين واحدة واحدة.

١ - طبيعة المبدأ الأول:

المبدأ الأول في كلا النصين هو المياه. وإنطلاقاً من هذه المياه البدئية تتم

كل عمليات الخلق. وهي أزلية غير مخلوقة، في النص البابلي هي جسد آلهة ثلاثة، أبسو وتعامة وممو. وفي النص التوراتي نجدتها إلى جانب الإله دون أن يوضح لنا النص أيهما أقدم.

٢ - الظلام البدئي:

يأتي النصّان على ذكر الظلام البدئي، غير أن الاينو ما ايلش لا تذكره بوضوح، بل يأتي ذكره صراحة في نص بيريسوس الذي يقول أنه في البدء، لم يكن هناك سوى الظلام والماء.

٣ - الضوء قبل النجوم والأجرام السماوية المشعة:

يقول النصّان بوجود الضوء وإختلاف الليل والنهار، قبل خلق الأجرام السماوية. فالانينوما ايلش تتحدث عن وجود الايام والليالي منذ عهد أبسو، وغضبه على أبنائه، عندما كان لا يستطيع النوم ليلاً ولا الراحة نهاراً. كما أن مردوخ نفسه كان يشع بالنور. وفي الفصل الأول من سفر التكوين يخلق الرب النور ويميّز الليل من النهار قبل أن يخلق الأجرام المنيرة والنجوم والكواكب.

٤ - خلق السماء:

يتفق النصان على أن السماء أتت نتيجة فصل المياه الأولى إلى قسمين. ففي النص البابلي يشطر مردوخ تعامة شطرين ويرفع أحدهما سماء وفي النص التوراتي: (وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ الَّتِي تَحْتَ الْجَلْدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلْدِ. وَكَانَ كَذَلِكَ.. وَدَعَا اللَّهُ الْجَلْدَ سَمَاءً).

٥ - خلق الأرض:

قام مردوخ بقياس أبعاد الأبسو، أقام لنفسه نظيراً له، بناء هائلاً دعاه عيشاراً أي الأرض. ولقد صنع ذلك بنصف تعامة الآخر. كذلك الأمر في سفر التكوين التوراتي، فبعد أن يرفع الرب نصف المياه الأولى إلى الأعلى، تتجمع المياه

السفلى إلى جانب مشكلة البحار، وتظهر الأرض منبتقة من تحتها: ((وَقَالَ الرَّبُّ: «لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلِتُظْهِرِ الْيَابِسَةُ، وَدَعَا اللَّهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَاجْتَمَعَ الْمِيَاهُ دَعَاهُ بِحَارًا»))

٦ - خلق الاجرام المنيرة:

بعد أن شكل مردوخ السماء والأرض، إلتفت إلى خلق الاجرام المضيئة، وقسم الوقت فرسم خط السميت، وحدود السنة وجزئها إلى أشهر وأيام، وأمر القمر بالسطوع وأوكله بالليل، جعله حلية وزينة ومنظماً للشهور السنة، وخلق الشمس محددة لأيام الأرض. وفي سفر التكوين، بعد أن ينتهي الرب من تشكيل السماء والأرض (وقال الرب لَتَكُنْ نُورًا فِي جَلْدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ). «وَكَانَ كَذَلِكَ.. فَعَمَلَ اللَّهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الْأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الْأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللَّهُ فِي جَلْدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ،.»

٧ - خلق الحيوانات والنبات:

لا تحتوي ملحمة التكوين البابلية في أجزائها المقروءة شيئاً عن خلق الحيوان والنبات، ويعتقد أن الاجزاء المفقوة من اللوح الخامس تتحدث عن مثل هذا الخلق. أما النص التوراتي فيتحدث عن خلق الحيوانات في اليوم الخامس. أما نبات الأرض فلم يظهر إلا بظهور الإنسان.

٨ - خلق الإنسان:

تتفق الروايتان على أن خلق الإنسان هو آخر عمل في سلسلة الخلق التي قام بها الإله. كما تتفقان على الأهمية البالغة لهذا العمل. ففي بداية اللوح السادس نجد مردوخ وقد حدثته نفسه بخلق أشياء مبدعة. وقد وصف هذا العمل في مكان آخر من اللوح بأنه العمل الذي يسمو علة الإفهام. أما أهمية خلق الإنسان في نص التوراة، فتظهر في كونه قد خُلق على صورة الإله، وأُعطِيَ السيطرة على الأرض، وسُخِّرَتْ له حيواناتها ونباتاتها.

وفي نصوص بابلية أخرى تتعلق اصن. وجرى ذكرها سابقاً، تتحدث الأسطورة من خلق الإنسان إنطلاقاً من زوجين أولين، وكذلك الأمر في الرواية التوراتية. وقد تم صنع الإنسان الأول في الأسطورة، أما من دم الإله وحده، أو من دم الإله ممزوجاً بالطين، ثم تُعلّق عليه صورة الآلهة فيأتي على شهبها. وفي الرواية التوراتية يُصنع الإنسان من طين على صورة الإله. هدفت الآلهة البابلية من خلق الإنسان، إلى تحميله عبء العمل الذي كان مفروضاً على الآلهة. ورغم أن هذا الهدف لا يظهر واضحاً في النص التوراتي، إلا أن النتيجة النهائية الأخيرة تتطابق مع غايات الأسطورة البابلية، عندما يطرد آدم من الجنة ويُفرض عليه العمل كعقوبة: « وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكثِيرًا أَكْثَرَ أَنْعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اشْتِيَاؤُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ. وَقَالَ لِأَدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الْأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَبَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَاكًا تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. يَعْزِقُ وَجْهَكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». (٣٣) .

أطلقت الرواية التوراتية على الإنسان الأول أسم آدم والواقع أن هذه الكلمة أوغاريتية فينيقية وتعني: البشر أو الإنسان^(٤٣). وقد وردت هذه الكلمة في عدة نصوص أوغاريتية ومنها ملحمة كرت، عندما يظهر الإله إيل للملك كرت في الحلم:

وبينما هو يبكي وقع في غفوة

بينما هو يذرف الدموع غلبه النعاس

نعم لغد غلب كرت النعاس

وغاب في سبات عميق

ولكنه ما لبث أن أجفل إذ ظهر له في الحلم (إيل)

في رؤاه ظهر أبو آدم

وإختصار لما سبق نضع تسلسل الخلق في كلا النصين جنباً إلى جنب:

(٣٣) العهد القديم، -سفر التكوين، الإصحاح الثالث: ١٦-١٨

سفر التكوين	الايانوما ايليش
١ - الظلام يغلف المياه الأولى وروح الرب يرف فوق المياه	١ - العماء الأول تعامة الماء المالح، وزوجها الماء الحلو يحيط بهما ظلام
٢ - خلق النور	٢ - النور يشع ويتولد من الآلهة
٣ - خلق السماء	٣ - خلق السماء
٤ - خلق ال أرض	٤ - خلق ال أرض
٥ - خلق الأجرام السماوية	٥ - خلق الاجرام السماوية
٦ - خلق الإنسان	٦ - خلق الإنسان
٧ - يهوه يستريح	٧ - مردوخ ينتهي من الخلق والآلهة تحتفل به

تفسيرات حول تشابه النصين :

١-التفسير الأول: النص البابلي قد اعتمد على النص التوراتي. وهذا بعيد الإحتمال لأسبقية الاينوما ايليش على أية نصوص مدوّنة للتوراة. فتاريخ تدوين الملحمة البابلية يعود إلى تاريخ قديم، حدده دارسوها بحوالي ١٨٠٠ سنة قبل الميلاد، أي قبل ولادة موسى بأربعة أو خمسة قرون. ولاشك أن أصولها ترجع إلى مصادر موعلة في القدم. أما التوراة العبرانية فقد دُوّنت أقدم أسفارها وهي أسفار موسى الخمسة بعد العودة من الأسر البابلي في القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد. ولم يُقر النص النهائي للتوراة إلا في القرن الأول قبل الميلاد. وقد علقت مصادر دينية مسؤولة على هذا التشابه في بعض المناسبات بقولها أن موسى قد أستعمل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية سابقة، ونقل ما يوافق الغاية الي إستهدفها بإلهام الروح القدس.

٢-التفسير الثاني: النص التوراتي قد أعتد النص البابلي. وهناك الكثير من المبررات التاريخية التي تدعم هذا الرأي. فاللغة البابلية قد شاعت في المنطقة وانتشرت غرباً حتى الساحل السوري، وشمالاً حتى آسيا الصغرى وذلك منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد تم العثور في خرائب عاصمة الحثيين على نصوص

أدبية بابلية مكتوبة باللغتين الحثيَّة والبابلية، منها أجزاء الواح تحتوي على مقاطع من ملحمة جلجامش. كما تم العثور في خرائب تل العمارنة في مصر، على مراسلات بين ملوك فينيقيا وملوك مصر باللغة البابلية. مما يدل على أن اللغة البابلية قد غدت، في زمن ما، حوالي منتصف الألف الثاني، لغة الدبلوماسية في المنطقة. كما عُثِر في تل العمارنة أيضاً على نصوص الأساطير البابلية، كأسطورة أدبا، وأسطورة ملكة العالم الأسفل، وقد كُتبت بلغة بابلية وبطريقة أقرب للتمارين المدرسية. ويغلب الظن أنها كانت تُستعمل لتدريس اللغة.

وهكذا نرى أن العبرانيين كانوا معرضين للإطلاع على الأدب البابلي في أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة. ولكن أفضل مكان وأنسب زمان لمثل هذا الاطلاع، كان إبان الأسر البابلي خلال القرن السادس قبل الميلاد. ومن ناحية أخرى إذا أردنا أن نعتبر إبراهيم، الجد الأول، شخصية تاريخية، وهذا ما لم تثبت عليه بينة حتى الآن، فإننا نستطيع متابعة التأثير إلى تاريخ أبعد، إلى أوائل الألف الثاني، عندما هاجر إبراهيم من أرض الرافدين، حاملاً معه تقاليد دينية بابلية.

٣ - التفسير الثالث: كلا النصين قد إعتدما نصاً أقدم، وتقاليد دينية أعرق، وربما نتج الفكران، البابلي والعبراني، من ديانة توحيدية قديمة، وهي الديانة التي تسلسلت من نوح إلى إبراهيم. وهذا التفسير ربما قامت عليه بينة في المستقبل.

سفر الطوفان

{ قُلْنَا اِحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ
وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ }

قران كريم: سورة هود ٧

وقال الرب لنوح: ((ادخل السفينة أنت وجميع أهلِكَ، فإني رأيتك بارًا
أمامي في هذا الجيل.))

العهد القديم: سفر التكوين، الإصحاح السابع ١

((يا ابن أوبارا-توتو. قوِّض بيتك وابن سفينة. أهجِر ممتلكاتك
وانجُ بنفسِكَ ... أترك متاعك وأنقذ حياتك.. وأحمل فيها بذرة كل
ذي حياة...))

أسطورة بابلية

بعد فترة، ليست بالطويلة، من خلق العالم وظهور الحياة. تكتشف الآلهة أن الإنسان لم يحقق تماماً الغاية التي من أجلها قد خُلِق. وإنه قد عاث في الأرض التي أستخلف فيها فساداً وسفك الدماء. فتقرر إفناء الحياة على الأرض، وغسلها بطوفان شامل، تبدأ بعده تاريخاً جديداً. ولكن الإنسان خلال عهده القصير على الأرض، قد حقق بعض غاياته، وترك منجزات حضارية وثقافية لا يُستهان بها. ولذا لا بد من الحفاظ على ذلك الجزء الصالح ونقله للعالم الجديد ليكون أساس البناء الثاني. ولن يتسنى ذلك إلا بإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر، تحمل معها منجزات العمل الإنساني لتبدأ منها عهداً ثانياً، على أرض تطهرت من فساد الاجيال السالفة. ويقود ملحمة النجاة هذه، رجل حكيم صالح تختاره الآلهة لهذه المهمة الفريدة، وتوكل إليه مهمة بناء سفينة هائلة، يحمل فيها أهله والمقربين إليه من الصالحين ومن كل زوجين من الحيوانات إثنين. فيقلع بها عند اندياح الطوفان، وقد حمل فيها من المؤمن ما يكفي. وعند جفاف المياه يطلق حيواناته للجهات فتملاً الأرض مرة ثانية، ويؤسس بمن تبقى من البشر مدينة جديدة. تتكرر هذه الخطوط العريضة للأسطورة، مع بعض التنويعات، لدى السومريين والبابليين والebraانيين. ومع السفن الفينيقية تنتقل إلى اليونان، فتروي لنا

الأسطورة الإغريقية^(١) أن كبير آلهة الاوليمب (زيوس) قر تدمير الحياة على الأرض، فأرسل طوفاناً عارماً إستمر تسعة أيام قضى على الناس أجمعين إلا رجلاً وإمرأة هما (ديكليون) وزوجته (فرحة)، طافا بسفينة إستقرت بهما على قمة جبل البرناس. وقد رأى زيوس، بعد ذلك، أن يسرع بإعادة الحياة إلى الأرض، فأمر الزوجين أن يقوما برمي الأحجار الصغيرة خلفهما، فتحولت هذه الاحجار إلى مخلوقات حية.

ومن المثير للتأمل، أن أسطورة الدمار الشامل شائعة في أماكن متفرقة من العالم، وبين شعوب لايربط بينها مكان أو زمان . ففي بوليفيا نجد لدى السكّان الاصليين أسطورة عن دمار العالم بواسطة نار سماوية^(٢) قضت على جمع مظاهر الحياة عدا رجل واحد لجأ إلى كهف حريز ، وتزوّد بالماء والمؤن الكافية، وبين الفينة والأخرى كان يمد عصاً طويلة من ثقب صغير في باب كهفه، فتعود العصا مرّة ساخنة، فيعرف أن النار ما زالت ملتبّهة في الخارج. إلى أن مدها مرة فعادت باردة، فعرف أن طوفان النار قد إنحسر عن الأرض. ففتح باب كهفه ليرى الأرض محروقة مؤحشه وأنه الكائن الوحيد على سطحها .

وفي نيوزيلندا أسطورة مشابهة عن حريق سماوي^(٣)، اذ يقوم أحد الأبطال من البشر سرقة النار السماوية والفرار بها إلى الأرض. يقوم هذا البطل بالقضاء على العملاق حارس النار، ويسلبه الشعلة المقدسة ويأتي بها قومه. ولكنه لجّدّة عهد به يسقطها من يده، فينسكب لهيها ويغطي على الأرض. يرفع الرجل صلواته مستنجداً بإله المطر الذي يحاول إطفاء النار لكن عبثاً. ثم يلجأ لإله العواصف والأعاصير فلا يستطيع حيال النار شيئاً، فتتابع إتهامها للأرض والبحر على السواء. إلى أن يجتمع كل الالهة فيسلطون فيضاناتهم إلى تغمر العالم وتطفى النار. تذكّرنا هذه الأسطورة بقصة برومئوس اليوناني، الذي سرق النار الإلهية من السماء، وما تبع ذلك من كوارث حلّت بالبشر.

ولدى هنود كاليفورنيا، أسطورة مماثلة، حيث يقوم أحد الأبطال بسرقة النار

1 - RotertGraves, GreekMyttis, Penguins 1974. PP 139.139 "

2 - F. Freudn, Myths of Creation. w. H. Allen, London,1961

3 - ibid.

من السماء، ولكنها تقع من يده وتحرق العالم. وتتناقل قبائل البرازيل حكاية طوفان عظيم، وكذلك قبائل غينيا البريطانية، وأمريكا الوسطى الشمالية، وبعض القبائل الأوروبية قبل إنعاقها المسيحية. وفي أسطورة هندية، أن فيظاناً غمر العالم ولم ينجُ منه سوى رجل وإمراة كانا على أعلى قمة. وبعد إنحسار الفيضان. جعلاً يرتجفان من البرد فعطف عليهما أهل القمر وأرسلوا لهما ناراً ليتدفئا^(٤).

أن شيوع أساطير الطوفان والدمار الشامل في جميع أنحاء العالم يُثير مسائل شتى تتعلق بتفسير هذا النوع من الأساطير وبواعث نشأتها. فهل تنقل لنا هذه الروايات المرعبة أحداثاً تاريخية وقعت في أزمان سحيقة قبل التاريخ المكتوب، وترسّخت في ذاكرة البشر. أن هذا التفسير رغم جاذبيته لا تؤكد الدراسات الجيولوجية والأركيولوجية حتى الآن، أم هل تشف هذه الأساطير عن حقائق نفسية ونوازع خافية باطنه؟ هل هي طغيان النزعات التدميرية الكامنة في لا شعور البشر ورغبة لا واعية في تدمير الذات؟ هل هي إحساس عارم بالأحباط من حضارة تسير دوماً في إتجاه مخالف لسعادة الإنسان، حضارة يجب تدميرها كلما أحكمت حلقاتها وضيقت خناقها على صانعيها؟ اسئلة أتركها بلا جواب.

١ / الطوفان السومري

تؤسس لنا الأسطورة السومرية لأقاصيص الطوفان التي شاعت في المنطقة، كما أسَّست من قبل أقاصيص التكوين. فنص الطوفان الذي تم العثور عليه في خرائب مدينة (نفر) السومرية، يقدم لنا الخطوط العريضة لكل أساطير الطوفان اللاحقة في بابل وسورية وبلاد الإغريق، وفي كتاب التوراة. وذلك رغم الحالة السيئة التي وجد عليها اللوح الفخاري الحاوي على الأسطورة، ورغم تشوّه النص. ونقصه في معظم مواضعه. وتتلخص الخطوط العريضة للأسطورة في أربع نقاط تتكرر كلها، مع بعض التنويعات، في بقية الأساطير اللاحقة :

١ - قرار إلهي بدمار الأرض بواسطة طوفان شامل.

٢ - اختيار واحد من البشر لإنقاذ مجموعة صغيرة من البشر وعدد محدود من الحيوانات.

٤ - إنهاء الطوفان وإستمرار الحياة من جديد بواسطة من نجا من الإنسان والحيوان.

يَمنع النقص الحاصل في بداية النص، من حصولنا على فكرة واضحة عن مطلع الأسطورة. وما أن يصبح النص واضحاً حتى يبدأ الحديث عن خلق الإنسان وظهور خمس مدن إلى الوجود هي : أريدو، باديتيرا، لاراك، شروباك. وهي من

أوائل المراكز الحضريّة السومرية. بعد توزيع هذه المدن على مجموعة من الأبطال والملوك، يتشوه النص ويغيب معناه. وعندما يبدأ اللوح، نجد الآلهة وقد قررت إفناء البشر بواسطة طوفان يغمر الأرض. إلا أن بعض الآلهة تُظهر عدم رضائها عن ذلك القرار. فهذه «أنانا» آلهة الحب والخصب تنوح وتبكي مصير البشر المفجع، وهذا انكي إله الحكمة يخرج عن إجماع الآلهة ويأخذ على عاتقه انقاذ بذرة الحياة على الأرض. يتصل انكي بالملك زيوسودرا، وكان إنساناً تقياً صالحاً، فيحدثه من وراء حجاب، كاشفاً له نوايا الآلهة، شارحاً له خطته لإنقاذ الحياة، والتي تتلخص في قيام زيوسودرا ببناء سفينة كبيرة لحمل الزمرة الصالحة من البشر وبعض الحيوانات. ورغم أن المقاطع الواضحة من النص لا تُشير إلى بناء سفينة، وهوية الناجين وعدد الحيوانات، إلا أن المقاطع الباقية تصف لنا السفينة أثناء الطوفان، وتحدثنا عن قيام زيوسودرا بذبح ثور وكبش قرباناً للآلهة بعد نجاته. وهذا يدل على أنه حمل معه في السفينة بعض الحيوانات.

وبعد إنتهاء الطوفان يُكافأ زيوسودرا على عمله بإعطائه نعمة الخلود وإسكانه في أرض دلمون، جنة السومريين. وهذه ترجمة للمقاطع الواضحة من الأسطورة^(٥):

في ذلك الحين بكت (نتتو) كامرأة في المخاض

وانانا المقدسة ناحت على شعبها

انكي فكّر ملياً، وقَلب الأمر على وجوهه

أنو وانليل وانكي وانخرساج [.....]

آلهة الأرض وآلهة السماء دعوا باسم أنو وانليل

في تلك الأيام زيوسودرا كان ملكاً وقِيماً على المعبد

تام بتقديم [قربان] عظيم

وجعل يسجد بخضوع [ويركع] بخشوع

ودونما كَلَل توجه للآلهة [في المعبد]

فرأى في أحد الأيام حليماً لم يرَ له مثيلاً

5 - S.N. Kramer, Sumerian Mythology, Harper, Newyork 1961

-A. Heidel. The Gilgamesh Epic, Phoenix Books. Chicago. 1970

الإله [.....] جدار [.....]

وعندما وقف زيوسودرا قرب الجدار وسمع صوتاً

(قف قرب الجدار على يساري وإسمع

سأقول كلاماً فإتبع كلامي

أعطِ أذنًا صاغية لوصاياي

إنّا مُرسلون طوفاناً من المطر [.....]

فيقضي على بني الإنسان [.....]

ذلك حكم وقضاء من مجمع الآلهة أمر أنو وانليل

[فنضع حداً] لملكوت البشر.

يتبع ذلك تشوّه في النص. إلّا أن المفقود يصف ولا شك تعليمات الإله حول بناء السفينة

ومواصفاتها ونوعية ركبها، ثم قيام زيوسودرا ببنائها. وعندما يتضح النص للقراءة نجد أنفسنا

وسط الطوفان:

هبّت العاصفة كلها دفعةً واحدة

ومعها انداحت سيول الطوفان فوق [وجه الأرض]

وسبعة أيام وسبع ليالٍ

غمرت سيول الامطار وجه الأرض

ودفعت العواصف المركب العملاق فوق المياه العظيمة.

ثم ظهر (ارتو) * ناشراً ضوءه في السماء على الأرض

فتح زيوسودرا كوةً في المركب الكبير

تاركاً أشعة البطل أوتو تدخل منه.

زيوسودرا الملك خرَّ ساجداً أمام أوتو

ونحر ثوراً وقدّم ذبيحة من غنم

يعود النص للتشوّه مرة أخرى. ومن المحتمل أن يكون الجزء الناقص هنا يتحدث عن جفاف

المياه وهبوط السفينة على الأرض الجافة وحضور بقية الآلهة

* أوتو: إله الشمس.

وسرورهم بنجاة الحياة من الدمار الكامل، والإنعام على بطل الطوفان بالحياة
السرمدية في أرض دلمون : زيوسودرا الملك ،
سجد أمام أنو وانيل
ومثل إله وهباه حياة أبدية
ومثل إله وهباه روحاً خالدة
عند ذلك زيوسودرا ، الملك
دُعِيَ بأسم حافظ بذرة الحياة
وفي أرض [.....] أرض دلمون
حيث تشرق الشمس، أسكناه

ودلمون، جنة السومريين. ليست مكاناً لأرواح الصالحين. لأن الحياة الأخرى لم تكن معروفة
لدى السومريين. وحالة الموت . هي حالة أبدية يدخلها كل البشر بصرف النظر عما قدمت
أيديهم في الحياة الدنيا، حيث يدلّفون إلى العالم الأسفل، عالم الظلمة الأبدية، في أستمراية
ليست بالحياة وليست بفقدان الحواس والشعور والإدراك . وسنبحث هذه النقطة في باب
العالم الأسفل لاحقاً. أما الجنة فهي مرتع الآلهة، وقلة قليلة من البشر الذين أُعِمَّ عليهم الخلود.
نقرأ عنها في لوح آخر وصفاً حياً، فهي مكان طاهر نظيف ومضيء، حيث لا تنعق الغربان ولا
تصرخ الثوحة، ولا يفترس الأسد ولا الذئب، وحيث لا تلتهم الحيوانات الزرع، ولا يعرف أحد
الآلام والمرض والعجز والشيخوخة، حيث لا مكان للحزن والبكاء*..

* من أجل النص راجع فصل الجنة السومرية.

٢ / الطوفان البابلي

كما فعل البابليون في رائعهم الأول (الايونوما ايليش) كذلك فعلوا في رائعهم الثانية «ملحمة جلجامش» فملحمة جلجامش هي تأليف أدبي رائع، بين مجموعة نصوص سورية قديمة تتحدث عن بطل سومري حكم الفترة النضرة الأولى التالية للطوفان. فكانت تلك الاقاصيص السومرية نواة بنت عليها العبقريّة الأدبية البابلية ذرة من درر الأدب القديم؛ وحملتها الكثير من تصورات الثقافة البابلية، الفكرية والدينية والفلسفية . وإلى جانب نصوص جلجامش السومرية، أستفاد البابليون من نص الطوفان السومري فادخلوا في سياق الملحمة التي جاءت نسيجاً متميزاً في معانيها ومراميها.

كان نص الطوفان، هو أول ما تم اكتشافه من ملحمة جلجامش. ففي عام ١٨٧٢ أعلن عالم الآثار البريطاني جورج سميث من توصله لحل رموز أحد ألواح مكتبة بانيبال الحاوي على نص عن الطوفان مشابه للنص التوراتي. وقد أثار هذا الاعلان الكثير من الحماس، فتتابعت البعثات الأثرية على المنطقة، إلى أن تم الكشف عن ألواح ملحمة جلجامش الأثني عشر، والتي تغطي أسطورة الطوفان معظم اللوح الحادي عشر منها، ورغم أن قصة الطوفان تبدو للوهلة الأولى وقد أُقحمت على أحداث الملحمة، إلا أنها، في الواقع، قد جاءت في إنسجام تام

مع الايقاع المأساوي للملحمة، وأضافت إليها أبعاداً ومعالي خاصة، مؤكدة أن الخلود سراب لن يناله أحد من البشر.

جلجامش، بطل مدينة أوروك وملكها، ثلثه إله، وثلثاه بشر قضى حياته في الصيد واللهو والبطش بالناس، منتشياً بقوته الخرافية وطاقته المتفجرة - ثم يتعرف علي أنكيدو، نده وتغير الصداقة العميقة التي ربطت بينهما مجرى حياته، فيقرر تحويل قواه وطاقاته للعمل المجدي الذي ينفع الناس، يقوم الصديقان بمغامرات عديدة ذات أهداف سامية، إلا أن أنكيدو يموت نتيجة إحدى هذه المغامرات. وهنا يصحو جلجامش على المأساة الحقيقية في حياة البشر وبهيم على وجهه في الصحاري والبراري تاركاً عرشه ومملكته باحثاً عن سر الخلود واكسير الحياة، يدفع به قدر الإنسان الفاني . فهو رغم ثلثه الإلهي، فإن نَسَبَه البشري يشده إلى القدر المشترك لبني الإنسان. وبعد صعب ومشاق لا يقدر عليها بشر، وصل جلجامش إلى اوتنابشتيم، الإنسان الذي ميّت عليه الآلهة بالحياة الخالدة، ويسأله عن سر الخلود، وكيف الحصول عليه . فيقص عليه اوتنابشتيم قصته مؤكداً أن ما حصل له هو أمر فريد لن يتكرر بسهولة لأحد من الناس، ويكشف له خبايا وأسرار واقعة الطوفان الكبير^(٦):

قال جلجامش لاوتنابشتيم البعيد:

أنظر إليك يا اوتنابشتيم ،

فأرى شكلك الرقيق لا يختلف من شكلي

نعم أنك لا تختلف عني في شيء

لقد صوّرتك في نفسي كبطل على أهبة القتال

ولكن ها أنت مستلقٍ بتراخٍ أو متكيء

أخبرني كيف حصلت على رفقة الآلهة ونلت الخلود؟

فقال اوتنابشتيم لجلجامش:

جلجامش سأكشف لك أمراً كان مخبوءاً،

وأبوح لك بسر من أسرار الآلهة،

(شوريباك) مدينة أنت تعرفها،

6 - E. A. Spiser, Akkadian Myths and Epics (in: j. Pritchard, Ancient Near Eastern texts, Edited, Princeton.

تقع على شاطئ نهر الفرات
لقد شاخت المدينة والآلهة في وسطها،
فحدثتهم نفوسهم أن يرسلوا طوفاناً،
كان هناك أنوا بوههم،
كما كان إنليل مستشارهم،
و(ننورتا) ممثلهم، و(اينوجي) وزيرهم،
و(ننجيكو) الذي هو (إيا) كان حاضراً أيضاً،
فنقل حديثهم إلى كوخ القصب:.
(يا كوخ القصب، يا كوخ القصب، جدار يا جدار،
أصغ يا كوخ القصب، وتفكر يا جدار..
رجل شوريباك يابن اوبارا - توتو،
قوض بيتك وإين سفينة،
أهجر ممتلكاتك وأنج بنفسك،
أترك متاعك وأنقذ حياتك،
أعمل على حمل بذرة كل ذي حياة،
والسفينة التي أنت بانها،
ستكون وفقاً لمقاسات مضبوطة،
يكون عرضها معادلاً لطولها، وغطها كما هي المياه السفلى).
عندما فهمت ذلك قلت لـ(إيا) «مولاي،
[سأضع نصب عيني] ما قد أمرتني به
وأعمل على تنفيذه.
[ولكن بماذا] أجب المدينة والناس والشيخوخ؟
ففتح إيا فمه وقال متوجهاً بالحديث إلى انا خادمه:

* كوخ القصب هو بيت أوتونابشتيم.

** والجدار هنا يُدْغَرنا بالنص السومري عندما يتحدث أنكي إلى زبوسودرا من خلف حائط

(إليك ما تقوله لهم :

لقد علمتُ أن انليل يكرهني،

وعليّ بعد الآن إلا أبقى في مدينتكم،

وَألا أُدير وجهي نحو أرض انليل،

سأهبط إلى آبسوا أعيش مع مولاي إيا،

أما أنتم فسينزل عليكم مطر وافر،

[.....] من ال/ طيور... من الاسماك،

[.....] غلال الحصاد، وفي السماء رب العاصفة،

سيُزل عليكم خيراته مطراً من القمح)*.

وما أن [لاح أول قَبس من نور الصباح

حتى تجمع الناس حولي،

[.....]

(سطران مشوهان)

جلب الاطفال القار [بينما] جلب الكبار [كل ذي] فائدة،

وفي اليوم الخامس أنهيت هيكل [السفينة].

كانت أرضيتها (ايكو)** واحد، وأرتفاع جدرانها مائة

وطول كل جانب من جوانب سطحها مائة وعشرين ذراعاً***

حددت هيكلها الخارجي وشكّلته،

وستة سطوح سفلية بنيت فيها،

وبذلك قسّمها لسبعة طوابق،

كما قمت بتقسيم أرضيتها لتسعة أقسام،

وثبّتُ على جوانبها مصدات المياه،

زودتها بالموّن والذخيرة، وسكيت في الفرن ستة وزنات من القار،

* من الواضح أن (إيا) يحاول تغطية مقاصده عن الناس وتظليلهم

** مقياس للمساحة يعادل ٣٦٠٠ م^٢ *** وبذلك يصبح شكل السفينة مكعباً منتظماً.

وثلاث وزنات من الأسفلت .
ثلاث وزنات من الزيت أتى بها حاملوا السلال،
واحداً إستهلكها نقع مصدات المياه،
وأثنتان قام ملاح السفينة بخزنها . .
ذبحت للناس عجولاً، ... ورحت أنحر الخراف كل يوم،
عصير العنب والخمر الأحمر والزيت والخمر الابيض،
أعطيت الصنّاع فشربوا كما من نهر .
وأحتفلوا كأعياد رأس السنة.
و[.....] المرهم وضعت يدي.
[.....] أضحت السفينة جاهزة.
[.....] كان صعباً للغاية.
[.....] من فوق ومن تحت.
[.....] ثلثاها.
حملت إليها كل ما أملكه.
كل ما أملكه من فضة حملت إليها.
كل ما أملك من ذهب حملتُ إليها.
كل ما لدي من بذور كل شيء حي حملتُ إليها
وبعد أن أدخلتُ إليها أهلي وأقاربي جميعاً؛
وطرائد البرية وو حوشها وكل أصحاب الحرف
عيّن لي الإله (شمش) وقتاً محدداً:
(عندما يرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في السماء،
أدخل الفلك وأغلق عليك بابك، ... وما أن أزف الموعد،
حتى أرسل سيد العاصفة مطراً مدمراً في السماء
قلبت وجهي في السماء، كان الجو مربعاً للنظر،

* انليل

دخلتُ السفينة وأغلقت عليَّ بابي،
أسلمتُ قيادها للملاح بوزور-أموري،
أسلمته الهيكل العظيم بكل ما فيه.
وما أن لاحت تباشير الصباح،
حتى علت الأفق غيمة كبيرة سوداء،
يُجلجل في وسطها صوت (حدد) *.
ويسبقها (شوللات) و «خانش» **
أقتلع ارجال... الدعائم،
وقام ننورتا بفت السدود.
رفع (الانانوكي) مشاعلهم،
حتى أضاءت الأرض ببريقها.
إلا أن ثورة حدد بلغت حدود السماء،
أحالت إلى ظلمة ما كان مضيئاً،
وقام بتحطم الأرض كما تُحطم الجرة.
عصفت الريح العاتية يوماً كاملاً،
بعنف عصفت و [.....]
أتت على الناس وحصدتهم كما الحرب،
حتى عبي الأخ عن أخيه
وبات أهل السماء لا يرون أهل الأرض
حتى الآلهة دُعروا من هول الطوفان،
وهربوا صاعدين إلى سماء (أنو) ***
إنكمشوا كالكلاب الخائفة وربضوا في أسى
صرخت «عشتار كامرأة في المخاض

* حدد إله البرق والرعد والصواعق والامطار. ** مساعدا الإله حدد *** هو نرجال إله العالم السفلي
**** أنو كما نعرف هو سيد السماء، وبما أن السماء كانت في تصوّر البابليين سبعة طباقاً فإن أنو قد إتخذ إسماء
السابعة مقرأً له.

ناحت سيده الألهة ذات الصوت العذب،
(لقد آلت إلى طين تلك الأيام القديمة،
ذلك بأني نطقت بالشر في مجمع الألهة،
فكيف استطعت أن أمر بمثل هذا الشر.
كيف إستطعت أن أمر بالحرب لتدمير شعبي،
تدمير من أعطيتهم انا الميلاذ،
وها هم يملأون اليم كصغار السمك)
وبكى معها آلهة الأنونانكي.
جلسوا يندبون وينوحون، وقد غطوا أفواههم. ستة أيام وستة ليالٍ،
والرياح تهب والعاصفة وسيول المطر تطغى على الأرض.
ومع حلول اليوم السابع ، العاصفة والطوفان ،
خففت من وطأتها وكانت قبل كأنها الجيوش المحاربة.
وأخذ البحر يهدأ والعاصفة تسكن ، والطوفان يتوقف.
فتحت نافذة فوق النور على وجهي.
نظرت إلى البحر. كان الهدوء شاملاً
وقد عاد البشر إلى الطين .
كان ال[.....] بمحاذاة السقف ،
جلستُ وأنحيت أبكي، وإنسالت دموعي على وجهي،
ثم نهضتُ وتطلعت في كل الإتجاهات، مستطلعاً حدود البحر.
على بعد أثنى عشرة ساعة مضاعفة، إنبثقت قطع من الأرض،
وإستقرت السفينة على جبل(نصير).
أمسك الجبل بالسفينة ومنعها من الحركة.
ومضى اليوم الأول والثاني والجبل ممسك بالسفينة.
ومضى اليوم الثالث والرابع والجبل ممسك بالسفينة.

ومضى اليوم الخامس والسادس والجبل ممسك بالسفينة
وعندما حل اليوم السابع،
أتيت بحمامة وأطلقتها في السماء.
طارت الحمامة بعيداً وما لبثت أن عادت إليّ
لم تجد مستقراً فأبت.
فأتيت بسنونو وأطلقتها في السماء،
طار بعيداً وما لبث أن عاد إليّ
لم يجد موطناً لقدميه فأب،
ثم أتيت بفراب وأطلقتها في السماء،
فطار الغراب بعيداً ولما رأى أن الماء قد إنحسر،
أكل وحام وخط ولم يعد.
عند ذلك أطلقت الجميع للجهات الأربع وقدمت أضحية.
سكبت خمر القربان على قمة الجبل.
أقمت سبعة قدور وسبعة آخر،
وجمعت تحتها قصب السكر الحلو وخشب الأرز والأس.
فتشمم الآلهة الرائحة الزكية،
تجمعوا على الأضحية كالذباب،
وعندما وصلت الآلهة العظيمة، (عشتار)
رفعت عقدها الكريم الذي صنعه أنو وفق رغباتها وقالت:
(أيها الآلهة الحاضرون. كما لا أنسى هذا العقد اللازوردي
الذي يُزِين عنقي
فأنني لن أنسى هذه الأيام قط وأذكرها دوماً
تقدّموا جميعاً وقربوا من الذبيحة،... إلا انليل وحده لن يقترب،
لأنه سبّب الطوفان دونما ترو،.. وأسلم شعبي للدمار)).
وعندما وصل انليل،

ورأى السفينة أنتابه الغيظ الشديد
وأستشاط غضباً من الآلهة الأيجي
أنجا أحد من الفانين؟ الم يكن مُقدراً أن يهلكوا جميعاً؟
كع نورتا. د. ه. ولال مخاطباً انليل المحارب :
(مَن يستطيع أن يقوم بأمر دونما إيا
أن إيا وحده يعي كل الأمور.
ففتح إيا فمه وقال مخاطباً انليل المقاتل :
(أيها المحارب، أيها الحكيم بين الآلهة.
كيف، آه كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان؟
حَمَل المذنب ذنبه، والاثم أثمه.
أمهله حتى لا يفي؛ ولا تمهله كي لا يفسد.
كنت تستطيع بدل الطوفان أن تُسلط الأسود لثُنُقِ عدد البشر
كنت تستطيع أن تطلق الذئاب فتُنقِص من تعدادهم .
أو تحدث القحط الذي يُهلك ابلاد.
أو تأتي بأيرا** فيحصد الناس.
ثم أنني لستُ الذي أفشى سر الآلهة العظام.
لقد أريت أتراحيسس*** حلماً فاستشف منه السر.
والآن أعقد أمرك بشأنه).
فصعد انليل إلى السفينة،
وأخذ بيدي وأصعدني معه
كما أصعدَ زوجتي أيضاً وجعلها ترقع إلى جوارِي،
ثم وقف بيننا ولمس جبهتنا مُبَاكاً؛
(ما كنتَ يا اتونابشتيم إلا بشراً فانياً
ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا (خالدين)

* نورتا، إله السدود والري والقنوات. ** إله الطاعون. *** أسم آخر لزيوسودرا أو أوتونابشتيم

وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار سعيشان).
ثم أخذوني وأسكنوني في البعيد حيث فم الأنهار.
يعتبر هذا النص أهم نصوص الطوفان في أرض الرافدين، وذلك للعثور عليه كاملاً دونما نقص أو تشويه، ولدقة تعبيره وجمال أدائه الأدبي، ونصاعة لغته الشعرية. فهو جزء من ملحمة ذائعة الصيت في العالم القديم تُرجمت إلى معظم لغات المنطقة القديمة. إلا أنه ليس النص الوحيد. فقد وصلتنا أساطير طوفان أخرى من أرض الرافدين سنتعرض لها فيما يلي من هذا الفصل.

نص نيبور:

يقدم لنا هذا النص أقدم رواية سامية عن الطوفان، فهو يعود إلى الدولة البابلية القديمة. وتم العثور عليه في خرائب مدينة نيبور مكتوباً على لوح آجري تالف ومكسور. ولم تسمح حالة اللوح باستعادة أكثر من بضعة أسطر منه. ولكن هذه الأسطر الباقية تعطي فكرة واضحة عن مضمونه: (٧)

سأقوم بإفلات [المياه....]

[.....] سوف يأخذ الناس أجمعين.

[.....] قبل أن يحل الطوفان

[.....] سأسبب الخراب والدمار والفناء

[.....] قم ببناء السفينة

[.....] سيكون هيكلها

[.....] سفينة عظيمة، وسيكون أسمها حافظة الحياة.

[.....] قم بتغطيتها بغطاء متين

وإلى السفينة التي صُنعت إجلب وحوش البر وطيور السماء

أن هذه الأسطر على قلبها تعطينا فكرة واضحة من مضمون القصة. فهناك طوفان قادم، وإله

يسطفي أحد البشر لينقذ الحياة، ويأمره ببناء سفينة وحمل

أصناف الحيوان إليها. ولا شك أن هذا النص يُشكّل النواة التي بُني عليها نص طوفان جلجاش.

ملحمة أتر احيسس :

وهي النص البابلي الثالث عن الطوفان ورغم أنها وصلتنا موزعة على عدة كسرات ألواح فإن سياقها العام واضح، ويمكن متابعتها دونما إشكال ولا إبهام. وقد سبق الطوفان في هذه الرواية بالأمراض والأوبئة التي أرسلها أنليل في محاولة للتقليل من تعداد البشر الذين بدأ تكاثرهم وضجيجهم يقض عليه مضجعه ويمنع النوم عن جفونه^(٨):

لقد عمرت الأرض وتكاثر الناس

تكاثروا حتى تُخِمت بهم الأرض كما تُتخَم الشاة

وتزايدوا حتى أزعجوا الإله «انليل» بتجمعاتهم

لقد وصل ضجيجهم إليه (في عليائه)

فقال للآلهة الكبرى.

لقد إزداد صخب البشر

وجعل النوم بعيداً عن عيوني

فلتقع الأشجار التي تُطعمهم

ولتعو بطونهم طلباً للطعام

وليمنع «حدد» في الأعالي مطره عنهم.

وفي الأعماق فلتنضب مياه الينابيع

وليتوقف سيل المياه من العيون

واتهب الرياح

[.....]

لتحرم السماء من غيومها

وتُبقى الأرض دونما مطر

* وهي الآلهة الخالقة عند البابليين وعددها سبعة.

لتمنع الحقول غلالها
ولتحجب (نيسابا) صدرها الخصب
(يتبع ذلك تشويه كبير حتى السطر ٣٨٧ ثم يتابع النص على الشكل التالي):

ففتح انكي فمه

وقال مخاطباً أنليل:

لماذا أمرتَ [.....]

سأمد يد المساعدة إلى البشر [.....]

والطوفان الذي قد أمرت به

(مجموعة أسطر مشوهة يصعب ترجمتها يلها مباشرة سطر إستدراكي ثم التذييل المعهود الذي يُنهي به النسخ كل لوح).

فتح أتراحيسس فمه

وقال لمولاه

(تذييل):

اللوح الثاني من: عندما الإنسان الإله مجموع سطوره ٤٣٩ سطرأ نسخها: ايليت - إيا - النسخ المساعد ٢٨ شباط.

في السنة التي قام بها الملك أميزادوجا بإعادة بناء

دور - افيزادوجا

عند فم الفرات

الكسرة الثانية:

(البداية مفقودة)

فتح اتراحيسس فمه وقال لمولاه:

هلا اعطيتني شرحاً لأحلامي

[.....]

حسناً فلتُصغ إليّ أسمع يا جدار

* آلهة القمح والحبوب. وهي صرورة أخرى من صورة الآلهة - الأم نخرساج.

وتحل كلماتي يا كوخ القصب
قوؤس بيتك وإبن سفينة
أهجر ممتلكاتك.... وخلص حياتك
والسفينة التي أنت بانها
(يتبع ذلك تشويه كبير حتى نهاية الكسرة حيث نجد نفس التذييل الذي رأيناه في الكسرة
السابقة).
[.....]

الكسرة الثالثة:

وفي الوقت المحدد الذي سأعينه لك
أدخل الفلك وأغلق عليك بابك
إحمل إليها الجبوب والمتاع والمواشي
زوجك وعائلتك واقرباءك وأصحاب الجرف
طرائد البرية ووحوشها، وما إسطعت من أكلة الأعشاب
سأدفع بها إليك، وتقبع عند أبوابك تحرسها لك
ففتح اتراحيس فمه وقال محدثًا (إيا) مولاه:
لم يسبق لي أن بنيت سفينة
فهلأ رسمت لي شكلاً لها على الأرض
أستعين به على بنائها
[.....] على الأرض [.....]
ثم أني سأعمل على تنفيذ كل ما أمرتني به.
(البقية مكسورة).

الكسرة الرابعة:

(البداية مفقودة)
وعندما حلت الـ [سنة الثانية]

وتبعثها السنة الثالثة
تبد الناس في [.....]سهم
وعندما حلّت السنة الرابعة [.....] في ضيق
[.....] الواسع غداً ضيقاً
وهام الناس في الطرقات بإكتئاب
وعندما حلّت السنة الخامسة طرقت البنت باب أمها*
ولكن الأم لم تفتح لإبنتها بابها
وراقبت البنت ميزان أمها ... وراقبت ميزان إبنتها*
وعندما حلّت السنة السادسة. أُعدّت الإبنة لتكون طعاماً
كما هيء الأطفال ليكونوا طعاماً [.....]مليئاً
وراح البيت [يفترس] البيت الآخر
وصارت وجوه الناس كوجوه أشباح الموتى
[وعاشوا] بأنفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنيها تتوقف) ... ولكنهم تلقّوا رسالة
(بقية العمو تالفة، ولكننا نستنتج مما ورد في العمود الثاني أن البشر لم يُنحوا إستراحة مما
يعانون فعادت أحوالهم للأزدهار، ولكنهم عادوا لاقلاق انليل من جديد فشن عليهم حملة
جديدة).

في الأعالي [أمسك حدد أمطاره]
و في الأعماق نضبت (الينابيع) ولم تصل المياه لأبارها
وضنّت الحقول بخيراتها
(لأن) نيسابا قد حجبت صدرها [.....]
فاضت السهول بال[ملح.....]
ولم يظهر الزرع ولا أزهزرت النبت
واجتاحت الأمراض والأوبئة الناس أجمعين
أغلقت الأرحام وباتت بلا حبل ولا ولادة

* والواضح من هذا المعنى أن النساء قد هجرن أزواجهن فعدن إلى أهلهن.
* أي أن العلاقات صار يسودها الشك وعدم الثقة والمحاسبة الدقيقة في جميع الأمور.

[.....]

وعندما حلّت السنة الثانية [.....] المؤمن

وعندما حلّت أن الثالثة

تغير الناس في [.....].

وعندما حلّت السنة الرابعة [.....] في ضيق

[.....] الواسع غدا ضيقاً

وهام الناس في الطرقات بإكتئاب

وعندما حلّت السنة الخامسة طرقت البنت باب أمها

ولكن الأم لم تفتح لإبنتها بابها

وراقبت البنت ميزان أمها ... وراقبت ميزان إبنتها

وعندما حلّت السنة السادسة. أُعدّت الإبنة لتكون طعاماً

كما هيء الأطفال ليكونوا طعاماً ال[.....] مليوناً

وراح البيت يفترس الآخر

وصارت وجوه الناس كوجوه أشباح الموتى

وعاشوا بأنفاس خفيضة (مكتومة تكاد لوهنيها تتوقف)

ولكن اتراحيس الرجل [الحكم]

توجه بقلبه [إلى إيا سيده]

[وتكلم] مع إلهه [وسيده أي] ما تكلم معه

[.....] باب إلهه

وإلى جانب النهر أقام سريره

[.....] الامطار [.....]

(يلي ذلك نقص ولكننا نفهم من سياق ما يلي أن إيا قد إستجاب لأتراحيس بعد أن أقام هذا إلى

جانب النهر يصلي ليكون قريباً من انكي إله الماء. ولكن الناس عادوا لسابق عهدهم فعاد انليل

إلى افانينه في افنائهم والتقليل من توالدهم).

بسبب ضوضائهم غدا (انليل) منزجاً

وبسبب ضجيجهم لم يطرأ الكرى جفونه.

فَعقد انليل إجتماعاً

وقال للآلهة أبنائه:

(عظيمة صارت ضوضاء البشر

وبسببها أنا منزعج

وبسببها لا يطرأ الكرى جفوني

[.....]فلتكن هناك ملاريا

وبلحظة خاطفة فلتضع الأوبئة حداً لضجيجهم

وتهب عليهم كما العواصف (والاعاصير) عِلل وأمراض وأوبئة وحيّ

[.....]فكانت ملاريا

وبلحظة خاطفة وضعت الأوبئة حداً لضجيجهم

وكالعواصف هبت عليهم (وحصدتهم)

عِلل وأمراض وأوبئة وحيّ

ولكن اتراحيس توجه بقلبه إلى سيده (ايا)

وتكلم مع إلهه

وسيده إيا تكلم معه

فتح اتراحيس فمه وقال مخاطباً إيا سيده :

(يا إلهي أن البشر يئنون

وقد طغى من الأرض غضب الآلهه

[.....]وأنت يامن خلقتنا

هلا اجتثت العِلل والأمراض والأوبئة والحي

ففتح إيا فمه وقال له لما سمع نداءه :

[.....]في الأرض

[.....]وصل لآلهتك

فعقد انليل إجتماعاً وقال للآلهة أبنائه:

([.....] لا تضعوهم

لم ينقص البشر بل إزدادوا عما قبل

ضوضائهم تزعجني (وتؤرقني)

وضجيجهم يمنع من عيني الكرى

فلتمنع الأشجار عنهم أثمارها ولتعو بطونهم طلباً للخضار

في الأعالي فيلمسك حدد مطره عنهم

وفي الأعماق فلتنضب الينابيع ولا تصل المياه لأبارها

ولتبخل الحقول بخيراتها

ولتحجب نيسابا صدرها (الخصب).

ولتنتج الحقول العريضة ملحاً

فلا يظهر الزرع ولا يزهر النبات

ولتعصف الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين

وتُغلق الأرحام فلا حَبَل ولا ولادة،

(فكان ما قال)

مَنَعَت الأشجار ثمارها عن الناس

وعوت بطونهم طلباً للخضار

وفي الأعالي أمسك حدد مطره عنهم

وفي الأعماق نضبت الينابيع ولم تصل المياه لأبارها

وضنّت الحقول بخيراتها وحجبت نيسابا صدرها (الخصب)

وعصفت الأمراض والأوبئة بالناس أجمعين

وأغْلِقَت الأرحام فلا حَبَل ولا ولادة

(يلي ذلك نقص. وعندما يكتمل اللوح للقراءة نجد مساعي انليل في إفناء البشر عن طريق إغلاق

الأرحام تبوء بالفشل. لأن أتراحيسس وآخرون معه يمضون إلى ربة الولادة «مامي» أو «ماما» التي

تجدد الخلق من طريق أرحام طينية.

والمقطع يشوبه الغموض بعض الشيء. وقد عمدتُ إلى ترك ترجمة بعض الأسطر
للحفاظ على المعنى العام.

[.....] قَبَلُوا أقدامها

قائلين : اليك ندعو يا خالقة من الإنسان

يا سيدة جميع الآلهة

ومضوا إلى بيت الأقدار ننجيكو (الذي هو) إيا و(ماما) الحكيمة

.....

وقال إيا [.....] بينما يتلو التعويذة ويكررها

وطلب من (مامي) أن تتلو التعويذة وهو جالس أمامها

فتلثها (ماما) وعندما أنهتها

صبتها على (ما جمعه) من طين

واقطعت منه أربع عشرة قطعة. ووضعت سبعة على اليمين

ووضعت سبعة على اليسار وبينما أقامت قطعة من الأجر

.....

وفتحت لكل منهما سُرّة (في وسطه)

سبعة أرحامٍ وسبعة أُخُر. سبعة أنتجت رجالاً

وسبعة أنتجت نساءً

إلى هنا وينتهي ما وصلنا من ملحمة (أتراحيسس). والواقع أن الصورة التي ظهر بها انليل لصورة

مهولة. وهو وأن أرتبط اسمه بأهم حوادث الدمار والخراب في المنطقة فإن له جانباً آخر لا

علاقة له بالدمار والخراب بل بالبناء والنظام. وكيف لا وهو الذي اخرج العالم من وسط افاء

وخلق الشكل من الهيولي، والنظام من لجة الفوضى، وأورد هنا ترتيباً من إحدى الصلوات

الكثيرة التي وُجِدَت في تمجيده وتعظيمه باعتباره محرر الكون:

لولا انليل الجبل العظيم

لما بُنيت المدن ولا أُقيمت المواطن ولما سُيِّدت الزرائب والحظائر.

لما أُقيم مُلك، ولا ولد كاهنٌ أعظم

ولما أُختيرَ كاهن الـ (ماخ) ولا الكاهنة العليا...
ولغدا العمال وليس عليهم رئيس ولا مشرف
والأنهار لولاه ما جلست مياهها الفيض والإرواء
ولولاه ما وضع السمك بيضه في الأهوار
ولما بَنَت أطيّار السماء أعشاشها في الأرض الواسعة
وفي السماء لولاه ما جاءت بمائها السحب العابرة
ولولاه ما نَمَت النباتات والأعشاب التي يزهو بها السهل
وفي الحقل والمرعى ما إزدهرت الغلّة الوافرة
وما أنتجت الأشجار في الغابات أثمارها

نص بيروسوس:

قلنا في فصل التكوين أن بيروسوس هو كاهن مردوخ في بابل في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد بعد فتح الأسكندر وطغيان التأثير الهليني وقد قام هذا الكاهن بكتابة تاريخ (بابل) عن طريق جمعه من المخطوطات والوثائق المدونة، ونشره باللغة اليونانية عام ٢٧٥ ق.م. وقلنا أن أعمال هذا الكاتب قد ضاعت كلها. غير أن مقتبسات منه قد ظهرت في أعمال الكاتب الكسندر برليستر في القرن الأول قبل الميلاد. ومن جملة تلك المقتبسات رواية بيروسوس عن الطوفان^(٩): بعد موت الملك (اردتيس) تولى الحكم بعده ابنه (اكسوثروس) الذي وقع في عهده الطوفان الكبير. ففي ذات ليلة تجلّى (كرونوس)* للملك في الحلم وأنبأ. أنه سيقوم في الخامس عشر من شهر تموز بإهلاك الحياة على الأرض بواسطة طوفان مدمر لا يُبقي على شيء. ثم أمره أن يشرع بكتابة ألواح عن بداية كل شيء وتطوره ونهايته**. طمر هذه الألواح في (سيبارا) مدينة إله الشمس. كما أمره أن يبني سفينة ويقلع فيها مع عائلته وأقربائه، وإن يخزن فيها الماء والطعام ويحمل إليها

9 - A.Heidel,TheGelgamesh

* يقوم الكاتب اليوناني هنا بتغيير أسم الإله من (إيا) إلى كرونوس الإله اليوناني المعروف.

** ويقصد (ايا) بذلك إلى حفظ منجزات الحضارة من الضياع.

الحيوانات الحية من كل ما يطير أو يدب على الأرض. فإذا سُئِلَ إلى أين يبغي الذهاب عليه أن يقول: «إلى الآلهة لأصلي لها على أن تكون رفيقة بالبشر» فصُدِعَ الملك بما أمر وبني سفينة طولها خمسة (اسناديا) وعرضها اثنتا (اساديا) وملأها وفق المشيئة الإلهية ثم صعد مع زوجته وأولاده والمقربين إليه .

وبعد أن هدأ الطوفان أرسل (اكسوثروس) بعض الطيور. فلما لم تجد مكاناً تهبط إليه أو طعاماً تلتقطه عادت إلى السفينة ، فإنتظر فترة ثم أرسل الطيور مرة أخرى. ولكنها عادت إلى السفينة أيضاً وعلى أرجلها آثار من طين . وعندما أطلقها للمرة الثالثة طارت ولم تُعَد. فعرف اكسوثروس أن الأرض قد إنكشفت. وما لبثت السفينة أن إستوت على أحد الجبال ولم تُعَد تتحرك. نزل الملك من السفينة ومعه زوجته وابنته وملاح السفينة. فسجد على الأرض وبني مذبحاً وقدم قرباناً للآلهة .

ولما تأخر عن العودة إلى السفينة نزل ساكنوها وبحثوا عنه ومن رافقه فلم يقفوا لهم على أثر. وبينما هم في حيرة من أمرهم أتاهم صوت من السماء يأمرهم بالتقوى والصلاح ويُخبرهم بأن اكسوثروس رُفِعَ إلى الآلهة ليعيش معهم عيشة خالدة لأنه كان تقياً صالحاً، كما شاركته في هذه النعمة زوجته وابنته وملاح السفينة. وأخبرهم الصوت أن المكان الذي هبطوا فيه هو إحدى بقاع أرمينيا. وإن عليهم أن يعودوا منه إلى بابل وإن يستعيدوا الألواح المطمورة في «سبارا». وعندما سمع القوم ما قاله لهم الصوت السماوي، قاموا بتقديم أضاحٍ للآلهة ومضوا إلى بابل سيراً على الأقدام . وقبل وصولهم عرجوا إلى حيث الألواح فإسترجعوها ثم تابعوا فبنو المدينة من جديد، وأشادوا مدناً كثيرة أخرى وأقاموا المعابد والهيكل.

٣ / الطوفان التوراتي

إذا كان الدارس بحاجة إلى إعمال الفكر ليُظهر التشابه القائم بين نصوص التكوين السومرية والبابلية والسورية من جهة، والنص التوراتي من جهةٍ أخرى، فإن نصوص الطوفان تعفيه من كثرة التمهيص والتدقيق والبحث عما خفي من المعاني والرموز: أن التشابه بين النصوص البابلية والنص التوراتي يدعو لكثير من التأمل والتفكير. ومرة ثانية تطرح نفسها، مسألة التفسير، بقوة أكبر. لقد كتب مؤلفو التوراة نص الطوفان معتمدين بشكل واضح على أكثر من نص بابلي، مع بعض التعديل والتغيير، ومعظم التعديلات تتعلق بشخصية الإله الرئيسي في الرواية فبينما تزدهم الرواية البابلية بالآلهة المتناقضة الأهواء والرغبات، يتفرد يهوه بالفعالية الرئيسية في الرواية التوراتية. وفيما عدا ذلك فإن الرواية التوراتية تتبع نفس المخطط العام الذي أسست له الأسطورة السومرية. وسأعمد بعد سرد النص التوراتي إلى إجراء مقارنة شاملة بين جميع النصوص التي قدمتها.

طوفان نوح - سفر التكوين الإصحاح السادس:

(١-)- "وَحَدَّثَ لَمَّا ابْتَدَأَ النَّاسُ يَكْتُمُونَ عَلَى الْأَرْضِ، وَوُلِدَ لَهُمْ بَنَاتٌ..، ٢- رأى

أَنْ أَبْنَاءَ اللَّهِ رَأَوْا بَنَاتِ النَّاسِ أَنَّهُنَّ حَسَنَاتٌ. فَاتَّخَذُوا لِنَفْسِهِمْ نِسَاءً مِنْ كُلِّ مَا اخْتَارُوا.

٣- فَقَالَ الرَّبُّ: «لَا يَدِينُ رُوحِي فِي الْإِنْسَانِ إِلَى الْأَبَدِ، لِزَيْغَانِهِ، هُوَ بَشَرٌ. وَتَكُونُ أَيَّامُهُ مِثَّةً وَعِشْرِينَ سَنَةً». ٤- كَانَ فِي الْأَرْضِ طُغَاءٌ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ أَيْضًا إِذْ دَخَلَ بَنُو اللَّهِ عَلَى بَنَاتِ النَّاسِ وَوَلَدْنَ لَهُمْ أَوْلَادًا، هَؤُلَاءِ هُمُ الْجَبَابِرَةُ الَّذِينَ مُنذُ الدَّهْرِ دَوُوَ اسْمُهُمْ. ٥- وَرَأَى الرَّبُّ أَنَّ شَرَّ الْإِنْسَانِ قَدْ كَثُرَ فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّ كُلَّ تَصَوُّرٍ أَفْكَارٍ قَلْبِهِ إِنَّمَا هُوَ شَرِيرٌ كُلَّ يَوْمٍ... ٦- فَندم الرَّبُّ أَنَّهُ عَمِلَ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ، وَتَأَسَّفَ فِي قَلْبِهِ. ٧-

فَقَالَ الرَّبُّ: «أَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ الْإِنْسَانَ الَّذِي خَلَقْتُهُ، الْإِنْسَانَ مَعَ بَهَائِمِ وَدَبَابَاتِ وَطُيُورِ السَّمَاءِ، لِأَنِّي حَزِنْتُ أَنْتِي عَمَلُهُمْ». ٨- وَأَمَّا نُوحٌ فَوَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنِي الرَّبِّ. ٩- هَذِهِ مَوَالِيدُ نُوحٍ: كَانَ نُوحٌ رَجُلًا بَارًا كَامِلًا فِي أَجْيَالِهِ. وَسَارَ نُوحٌ مَعَ اللَّهِ. ١٠- وَوَلَدَ نُوحٌ ثَلَاثَةَ بَنِينَ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ. ١١- وَفَسَدَتِ الْأَرْضُ أَمَامَ اللَّهِ، وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ ظُلْمًا. ١٢- وَرَأَى اللَّهُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ قَدْ فَسَدَتْ، إِذْ كَانَ كُلُّ بَشَرٍ قَدْ أَفْسَدَ طَرِيقَهُ عَلَى الْأَرْضِ. ١٣- فَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ: «أَجَلُ كُلِّ بَشَرٍ بَيْنَ يَدَيَّ، لِأَنَّ الْأَرْضَ امْتَلَأَتْ ظُلْمًا مِنْهُمْ. فَهِيَ أَنَا مَهْلِكُهُمْ مَعَ الْأَرْضِ. ١٤- اصْنَعْ لِنَفْسِكَ تَابُوتًا مِنْ خَشَبِ جُفْرٍ. تَجْعَلُ الْفُلْكَ مَسَاكِينَ، وَتَطْلِيهِ مِنْ دَاخِلٍ وَمِنْ خَارِجٍ بِالْقَارِ.

١٥- وَهَكَذَا تَصْنَعُهُ: ثَلَاثَ مِثَّةٍ ذِرَاعٍ يَكُونُ طُولُ الْفُلْكِ، وَخَمْسِينَ ذِرَاعًا عَرْضُهُ، وَثَلَاثِينَ ذِرَاعًا سُمْكُهُ. ١٦- وَتَصْنَعُ طَاقًا لِلتَّابُوتِ، وَتَكْمُلُهُ إِلَى حِدِّ ذِرَاعٍ مِنْ فَوْقٍ. وَتَضَعُ بَابَ الْفَتَابُوتِ فِي جَانِبِهِ. مَسَاكِينَ سُفْلَى وَتَوَانِي وَتَوَالِثَ تَصْنَعُهُ... ١٧- فَهِيَ أَنَا آتٍ بِطُوفَانِ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ لِأَهْلِكَ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحُ حَيَاةٍ مِنْ تَحْتِ السَّمَاءِ. كُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ يَهْلِكُ. ١٨- وَأَقِيمَ عَهْدِي مَعَكَ، فَتَدْخُلُ التَّابُوتَ أَنْتِ وَبَنُوكَ وَامْرَأَتُكَ وَنِسَاءُ بَنِيكَ مَعَكَ... ١٩- وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلُ إِلَى التَّابُوتِ لِاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. ذَكَرًا وَأُنْثَى تَكُونُ... ٢٠- مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلُ إِلَيْكَ لِاسْتِبْقَائِهَا. ٢١- وَأَنْتِ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعُهُ عِنْدَكَ، فَيَكُونُ لَكَ وَلِهَا مَأْكَلًا. ٢٢- فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ اللَّهُ. هَكَذَا فَعَلَ.

الإصحاح السابع :

١- فَقَالَ اللَّهُ لِنُوحٍ: «أَدْخُلِ التَّابُوتَ أَنْتِ وَجَمِيعُ بَيْتِكَ، لِأَنِّي إِيَّاكَ رَأَيْتُ بَارًا لَدَيَّ فِي هَذَا الْجِيلِ... ٢- وَخُذْ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ مَعَكَ سَبْعَةً سَبْعَةً ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَمِنَ الْبَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَّاهِرَةٍ اثْنَيْنِ: ذَكَرًا وَأُنْثَى.

- ٣- وَخُدُّ مِنْ طُيُورِ السَّمَاءِ أَيْضًا سَبْعَةً سَبْعَةً: ذَكَرًا وَأُنْثَى. لَاسْتِبْقَاءِ نَسْلِ عَلَى وَجْهِ كُلِّ الْأَرْضِ. -
- ٤- لِأَنَّي بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ أَيْضًا أُمْطِرُ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. وَأَمْحُو عَنْ وَجْهِ الْأَرْضِ كُلَّ قَائِمٍ عَمِلْتُهُ». ٥- فَفَعَلَ نُوحٌ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَهُ بِهِ الرَّبُّ. ٦- وَمَا كَانَ نُوحٌ ابْنَ سِتِّ مِائَةِ سَنَةٍ صَارَ طُوفَانُ الْمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ. ٧- فَدَخَلَ نُوحٌ التَّابُوتَ هُوَ وَبَنُوهُ وَامْرَأَتُهُ وَنِسَاءُ بَنِيهِ مَعَهُ مِنْ وَجْهِ مِيَاهِ الطُّوفَانِ. ٨- وَمِنَ الْمَهَائِمِ الطَّاهِرَةِ وَالْمَهَائِمِ الَّتِي لَيْسَتْ بِطَاهِرَةٍ، وَمِنَ الطُّيُورِ وَكُلِّ مَا يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ. ٩- دَخَلَ التَّابُوتَ اثْنَانِ اثْنَانٍ إِلَى نُوحٍ، ذَكَرًا وَأُنْثَى، كَمَا أَمَرَ اللَّهُ نُوحًا..
- ١٠- وَحَدَّثَ بَعْدَ السَّبْعَةِ الْأَيَّامِ أَنَّ مِيَاهَ الطُّوفَانِ صَارَتْ عَلَى الْأَرْضِ. ١١- فِي سَنَةِ سِتِّ مِائَةٍ مِنْ حَيَاةِ نُوحٍ، فِي الشَّهْرِ الثَّانِي، فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، انْفَجَرَتْ كُلُّ يَنَابِيعِ الْعُمُرِ الْعَظِيمِ، وَانْفَتَحَتْ طَاقَاتُ السَّمَاءِ. ١٢- وَكَانَ الْمَطَرُ عَلَى الْأَرْضِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً. ١٣- فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَيْنَهُ دَخَلَ نُوحٌ التَّابُوتَ هُوَ وَسَامٌ وَحَامٌ وَيَافِثُ بَنُو نُوحٍ، وَامْرَأَةُ نُوحٍ، وَثَلَاثُ نِسَاءٍ بَيْنَهُنَّ مَعَهُمْ. ١٤- هُمْ وَكُلُّ الْوَحُوشِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الْمَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الدَّبَابَاتِ الَّتِي تَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلُّ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا: كُلُّ عَصْفُورٍ، كُلُّ ذِي جَنَاحٍ. ١٥- وَدَخَلَتْ التَّابُوتَ إِلَى نُوحٍ، اثْنَيْنِ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ جَسَدٍ فِيهِ رُوحٌ حَيَاةٍ. ١٦- وَالِدَاخِلَاتُ دَخَلَتْ ذَكَرًا وَأُنْثَى، مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ. وَأَغْلَقَ الرَّبُّ عَلَيْهِ. ١٧- وَكَانَ الطُّوفَانُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى الْأَرْضِ. وَتَكَاثَرَتِ الْمِيَاهُ وَرَفَعَتِ التَّابُوتَ، فَارْتَفَعَ عَنِ الْأَرْضِ. ١٨- وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ وَتَكَاثَرَتْ جِدًّا عَلَى الْأَرْضِ، فَكَانَ الْفُلُكُ يَسِيرُ عَلَى وَجْهِ الْمِيَاهِ. ١٩- وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ كَثِيرًا جِدًّا عَلَى الْأَرْضِ، فَتَغَطَّتْ جَمِيعَ الْجِبَالِ الشَّامِخَةِ الَّتِي تَحْتَ كُلِّ السَّمَاءِ. ٢٠- خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فِي الِارْتِفَاعِ تَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ، فَتَغَطَّتِ الْجِبَالَ. ٢١- فَهَلَكَ كُلُّ ذِي جَسَدٍ كَانَ يَدْبُ عَلَى الْأَرْضِ وَالنَّاسِ كَافَهُ. ٢٢- كُلُّ مَا فِي أَنْفِهِ نَسَمَةٌ رُوحٌ حَيَاةٍ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْيَابِسَةِ مَاتَ. ٢٣- فَمَحَا اللَّهُ كُلَّ قَائِمٍ كَانَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ: النَّاسَ، وَالْمَهَائِمَ، وَالدَّبَابَاتِ، وَطُيُورَ السَّمَاءِ. فَانْمَحَتْ مِنَ الْأَرْضِ. وَتَبَقِيَ نُوحٌ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي التَّابُوتِ فَقَطْ. ٢٤- وَتَعَاظَمَتِ الْمِيَاهُ عَلَى الْأَرْضِ مِئَةً وَخَمْسِينَ يَوْمًا. .

الإصحاح الثامن:

- ١- ثُمَّ ذَكَرَ اللَّهُ نُوحًا وَكُلَّ الْوَحُوشِ وَكُلَّ الْمَهَائِمِ الَّتِي مَعَهُ فِي الْفُلِكِ. وَأَجَارَ اللَّهُ رِيحًا عَلَى الْأَرْضِ فَهَدَأَتِ الْمِيَاهُ. ٢- وَأَنْسَدَتْ يَنَابِيعَ الْعُمُرِ وَطَاقَاتُ السَّمَاءِ، فَامْتَنَعَ الْمَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ..
- ٣- وَكَانَتِ الْمِيَاهُ تَتَرَاوَعُ عَنِ الْأَرْضِ كُلَّمَا مَرَّتْ

وعادت ونقصت المياه بعد مئة وخمسين يوماً. ٤- وأستقر التابوت في الشهر السابع في اليوم السابع عشر منه على جبال آراراط. ٥- وكانت المياه كلما مرت نقصت إلى الشهر العاشر وفي أول يوم منه ظهرت رؤوس الجبال. ٦- وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت التي صنعها. ٧- وأطلق الغراب فخرج وجعل يتردد إلى أن جفت المياه عن الأرض. ٨- ثم أطلق الحمامة من عنده لينظر هل غاصت المياه من وجه الأرض. ٩- فلم تجد الحمامة مستقراً لرجلها فرجعت إليه إلى التابوت اذ كانت المياه على وجه الأرض كلها فمد يده فأخذها وأدخلها إلى التابوت. ١٠- ولبث أيضاً سبعة أيام آخر وعاد فأطلق الحمامة من التابوت.

١١- فعدت إليه الحمامة وقت العشاء وفي فيها ورقة زيتون خضراء فعلم نوح أن المياه قد جفت عن الأرض. ١٢- ولبث أيضاً سبعة أيام آخر ثم أطلقها فلم تعد ترجع إليه أيضاً. ١٣- وكان في سنة إحدى وست مائة في اليوم الأول من الشهر الأول أن جفت المياه عن الأرض فرفع نوح غطاء التابوت ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف. ١٤- وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين منه جفت الأرض. ١٥- فخاطب الله نوحاً قائلاً. ١٦- أخرج من التابوت أنت وإمراتك وبنوك ونسوة بنيك معك. ١٧- وجمع الوحوش التي معك من كل ذي جسد من الطير والبهائم وسائر الدبيب الساعي على الأرض أخرجهم معك ليتوالدوا في الأرض وينمون ويكثرون عليها. ١٨- فخرج نوح وبنوه وإمراته ونسوة بنيه معه. ١٩- وجميع الوحوش والدبابات والطيور وكل ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من التابوت.

٢٠- وبني نوح مذبحاً للرب وأخذ جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطير الطاهرة فأصعد محرقات المذبح. ٢١- فتدبّر الرب رائحة الضحى وقال الرب في نفسه لا أعيد لعن الأرض أيضاً بسبب الإنسان بما تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أهلك كل حي كما صنعت. ٢٢- وأبدأ مادامت الأرض فالزئ والحصاد والبرد والحر والصيف والشتاء والنهار والليل لا تبطل. وكما رأينا في أسطورة التكوين التوراتية، فإن قصة الطوفان تقدم لنا أيضاً فرصة لملاحظة النسج الذي قام به كتاب التوراة، بعد العودة من الأسر في بابل لنوعين من النصوص التوراتية. الأول ويظهر الرب فيه تحت اسم يهوه، والثاني تحت اسم إيلوهيم. ولذا دعونا النصوص الأولى باليهودية والثانية الإيلوهيمية.

أن قراءة الطوفان التوراتي دون أخذ هذه الحكاية بعين الاعتبار توقع القارئ،

في حيرة لما في الحوادث من تناقض. لأن مؤلفي التوراة قد جعلوا النصين يتداخلان مع بعضها دونما إتفات لالغاء التناقضات بينهما. ولإيضاح ذلك لابد من العودة إلى النص مرة أخرى لإيراد أوضح النقاط التي يبدو التعارض فيها محيراً للوهلة الأولى.

ورد في الإصحاح السادس: ١٩ - ٢٠ (ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل التابوت لتحيا معك، ذكراً وأنثى تكون. من الطير بأصنافها ومن الهائم بأصنافها ومن جميع دبابات الأرض بأصنافها يدخل اليك اثنان من كل لتحيا) أما في الإصحاح السابع: ٢ - ٣ فنقرأ: (وخذ من جميع الهائم الطاهرة سبعة سبعة؛ ذكوراً وأنثاءً. ومن الهائم التي ليست طاهرة اثنين ذكراً وأنثى). إن الفقرتين تطرحان تعليمات متناقضة تماماً. ففي الأولى يتوجب على نوح أن يحمل من الحيوانات والطيور والدبابات اثنين بصرف النظر عن نوعها أو طهارتها، أما في الفقرة الثانية فعدد الحيوانات المحمولة يتوقف على نوعها وطهارتها.

وفي الإصحاح السابع: ١٢ (وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة، وفي نفس الإصحاح: ١٧ (وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض). وفي الإصحاح الثامن: ٣ (ونقصت المياه بمد مئة وخمسين يوماً). وفي نفس الإصحاح: ٦ (وكان بعد أربعين يوماً أن فتح نوح كوة التابوت إلى صنعها وأطلق الغراب لينظر هل غاصت المياه عن وجه الأرض).

هنا أيضاً نواجه بروايتين، الأولى تجعل مدة الطوفان مئة وخمسين يوماً وإنحساره مئة وخمسين. والثانية تجعل مدة الطوفان أربعين يوماً وإنحساره أربعين مضافاً إليها فترات كل منها سبعة أيام. كما تختلف الروايتان في إطلاق أسم ومكان الرسو. فبينما تنص الأولى على رسو السفينة على جبل آارات دون التعرّض للطيور، تتحدث الثانية عن إطلاق الغراب والحمامتين وتغفل مكان الرسو.

بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية

سنأتي الآن إلى إجراء المقارنة بين النص التوراتي والنصوص السومرية والبابلية السابقة عليها. وذلك بتتبع العناصر الرئيسية في رواية الطوفان.

إله الطوفان:

في سفر التكوين، يقوم إله اليهود يهوه بإرسال الطوفان. ولكن مجمع الآلهة السومري والاكادي من قبله هو الذي يقرر الطوفان. وهذا القرار ليس إجماعياً بدليل أن آلهة الولادة (نفتو) في النص السومري تنوح على أولادها البشر. وانكي الحكم يقرر بينه وبين نفسه مد يد المعونة للناس وإنقاذ الحياة عن طريق زيوسودرا التقي الأثير لديه. كذلك الأمر بالنسبة للنص البابلي فعشتار ندمت على إنصياعها لقرار البعض في مجمع الآلهة، وايا قام بكشف سر القرار الإلهي لأوتنابشتم. ثم أننا بطريقة غير مباشرة نعرف في آخر النص، أن انليل هو المسؤول الرئيسي عن الطوفان، شأنه في ذلك شأن يهوه، ويبدو أنه هو الذي أقترحه وحمل الآلهة للموافقة عليه، ومن ثم قام بإدارته حتى النهاية لتبدو مسؤولية الطوفان واقعة بكليتها على انليل من كلام إيا: ((كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان)) ومن كلام عشتار: ((تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة. إلا انليل وحده لن يقترب لأنه سبب الطوفان دونما ترو. وأسلم شعبي للدمار)).

٠٢ أسباب الطوفان:

يوكد التوراة صراحة على الأسباب الاخلاقية وراء قرار دمار الإنسان. فالأرض قد فسدت وإمتلأت بالعنف والشر. أما النص البابلي فيعطي تلميحاً بالأسباب الأخلاقية، حيث نجد «إيا» في آخر النص يخاطب انليل قائلاً: ((حَمَلِ المذنب ذنبه والأثم إثمَه... أمهله كي لا يفنى ولا تُهْمَلُهُ كيلا يفسد)). وهذا يدل بوضوح على أن غرض انليل الأساسي من الطوفان كان القضاء على الشرور والآثام فدمر الجميع دون تمييز بين الصالح والطالح. وعلى العكس من هذين النصين فإن ملحمة أتراحيسس تطرح سبباً غريباً للطوفان يُدْكَرنا بالسبب الأساسي للصراع بين الآلهة في أسطورة التكون. فإنليل يشعر بالإنزعاج من صخب البشر وضوضائهم فيقرر إفناءهم بعد أن أعيته الحِيل في التقليل من عددهم. ولكنه بعمله هذا يناقض العلة الرئيسية لخلق البشر، ألا وهي حَمَلِ عبء الكدح عن الآلهة. فهل كان يُخطئ لخلق جديد يعقب الطوفان

كما فعل زيوس في الأسطورة اليونانية؟ هذا ما لا تستطيع الأسطورة، بنصها الذي وصلنا، الإجابة عليه.

٣- بطل الطوفان:

(زيوسودرا) كان بطل الطوفان السومري. والكلمة تعني "الذي وضع يده على العمر المديد"، وذلك إتماداً على ما أعطته له الآلهة من حياة سرمدية عقب الطوفان. أما أسم (أوتنابشتيم) بطل القصة البابلية فيعني "الذي رأى الحياة"، والأسم مشتق هنا أيضاً من طبيعة المكافأة التي نالها لأنقاذه الحياة على الأرض. وفي ملحمة اتراحيس فإن الأسم يعني "الواسع الحكمة". أما سفر التكوين فلم يعنِ بإيجاد علاقة ما بين أسم نوح وبين التجربة التي مر بها البطل. فقد فُسِّرَت كلمة نوح أحياناً بأنها تعني الراحة. إلا أن الحياة المديدة التي عاشها نوح تضمه إلى جانب زيوسودرا الذي وضع يده على العمر المديد، و أوتنابشتيم الذي رأى الحياة، فلقد عاش نوح تسعمائة سنة.

عاش أوتنابشتيم في (شوروباك) وهي من أقدم المدن في جنوبي الرافدين وقد ورد ذكرها بين المدن الخمسة التي ظهرت للوجود عقب خلق الكون السومري أما زيوسودرا فإن نقص النص يمنع من معرفة المدينة التي عاش فيها. ولم يخصص التوراة مدينة بذاتها عاش فيها نوح. كانت نجاة زيوسودرا راجعة لكونه رجلاً تقياً صالحاً. وكذلك الأمر فيما يتعلق باكسوتروس ونوح. ومن سياق النص البابلي نفهم أيضاً أن أوتنابشتيم كان كذلك.

٤- الإعلام عن الطوفان:

تتفق جميع النصوص على أن الإعلام عن الطوفان قد جاء من جهة إلهية. وتختلف في كيفية إيصال الخبر. فزيوسودرا رأى حلماً لم يرَ شيئاً له قط. فأخذ يتضرع للآلهة عسى أن تُظهِر له معناه، ثم أنه سمع صوتاً يأمره أن يقف خلف حائط ليتلقى من خلاله رسالة الإله الذي أنبأه القرار. كذلك أوتنابشتيم الذي رأى حلماً يُخاطبه فيه . إيا، من وراء جدار كوخه القصب، ويكشف له فيه سر الآلهة. ويؤكد نص بيريسوس كذلك على الحلم كواسطة للاتصال.

أما في التوراة فنجد الإله يتصل بنوح مباشرة دونما ستار أو حجاب ودون الحاجة لوساطة الحلم. وفي شخص يهوه تتحد شخصيتا (ايا) و (انليل) فهوه الذي أمر بالطوفان وهو الذي ابغ نوح وأختاره للنجاة. بينما يقوم بهذه المهمة في بقية الأساطير إلهان منقصلان أحدهما يرسل الطوفان والثاني يتولى إعلام من يختارهم للنجاة دون علم الأول.

٥ - السفينة:

كما تباينت أسماء بطل الطوفان تباينت كذلك تسميات السفينة التي بناها فالقصة السومرية أشارت للسفينة بأنها (ماجور) أي السفينة العملاقة ونص نيبور أستعمل كلمة مشابهة. أما نص جلجامش فسماها (ايليبو) التي تعني مجرد سفينة أو مركب، ولكنه يصفها في أماكن متفرقة على أنها (الهيكل العظيم). بينما لا يستعمل سفر التكوين سوى كلمة واحدة (يتيا) التي تعني بالعبرية الصندوق أو التابوت.

تحوي سفينة اوتنابشتيم على سبعة طوابق وتنقسم عمودياً إلى تسعة أقسام. وثناء بنائها لا نعرف ما إذا قد جعل لها نوافذ أو فتحات وأبواب، ولكننا نقرأ بعد إنتهاء الطوفان أن اوتنابشتيم قد فتح نافذة فسقط النور منها على وجهه. أما سفينة نوح فتحوي على ثلاثة طوابق وتتألف من عدد غير محدد من الأقسام. ولها باب في جانبها وفتحة للنور تحت السقف مباشرة تدور حول السفينة من كل الجوانب ، وبينما يتفرد اوتنابشتيم بإستعمال الزيت عندما قام بنقع مصدات المياه بوزنة واحدة وخزن الوزنتين الباقيتين، فإنه يتفق مع نوح على إستعمال القار الذي طلى به السفينة. ولكنهما يعودان للإختلاف بشأن الشكل الخارجي والأبعاد . وعلى كُلي فإن أبطال الطوفان يُؤمرون كُلي بدورهِ ببناء سفينة عظيمة تحمل نور الحياة وتتدخل الشخصية الإلهية كثيراً أو قليلاً بتحديد شروط بنائها.. ويبدو أن اوتنابشتيم كان أكثرهم حرية في ذلك.

٦ - مركاب السفينة:

بعد أن فرغ من عمله، قام اوتنابشتيم بنقل كل ما يملكه من ذهب وفضة إلى السفينة. كما نقل إليها أهله وأقاربه وجميع أهل الجرف. ودفع إليها طرائد البرية

ووحوشها، وأقام عليها ملاحاً أسلمه قيادها. ويأتي عمل اوتنابشتيم في حمل أصحاب الجِرَف مشابهاً في مغزاه لعمل اكسوتروس في طمر اللوح الحاوية على سجلات بداية كل شيء وتطوره، فالبطلان يحاولان حفظ حضارة الإنسان وثقافته من الضياع ونقلها للأجيال التالية التي تعقب الطوفان، حتى لا تجد نفسها مضطرة للبدء من جديد. ويبدو من سياق النص أن اوتنابشتيم قد حمل معه طيوراً لأنه قام بإطلاق بعضها على سبيل الأستطلاع. كما قام بحمل المون والذخائر. ونستدل من المقاطح الباقية من النص السومري، أن زيوسردرا قد حمل معه بعض الحيوانات، بدليل أنه قام بتقديم ذبائح الشكر للآلهة من الثيران والخرفان. وكذلك فعل اتراحيس الذي حمل إلى السفينة طرائد البرية ووحوشها وما أستطاع من آكلي الأعشاب، ونقل إليه أهله وأقاربه وأصحاب الجِرَف وجرى أكسوتروس على نفس المنوال فنقل وزجه وأولاده وأصدقاءه المقربين وخبز فيها الطعام والشراب وحمل فيها مخلوقات حية مجنحة وذوات أربع.

تفق التوراة مع قصص أرض الرافدين من حيث نقل الأشخاص والطعام والحيوان. إلا أن العدد الهائل للأفراد يتقلص إلى ثمانية فقط، هم نوح وزوجته وأولاده الثلاثة وزوجات أولاده. أما الحيوانات المحمولة والأطعمة حسب أوامر لرب فكانت: (مِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ الصَّنْدُوقِ لِتَحْيَا مَعَكَ ذَكَرًا وَأُنْثَى تَكُونُ. مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْناسِهَا، وَمِنْ الْهَيْائِمِ كَأَجْناسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَابَاتِ الْأَرْضِ كَأَجْناسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ تَدْخُلِ إِلَيْكَ اثْنَيْنِ مِنْ كُلِّ لَحْيَا. وَأَنْتَ، فَخُذْ لِنَفْسِكَ مِنْ كُلِّ طَعَامٍ يُؤْكَلُ وَاجْمَعُهُ عِنْدَكَ، فَيَكُونُ لَكَ وَلَهُمْ مَأْكَلًا) ويتبع ذلك تفصيل بالحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة.

أما كيف سيعمل بطل الطوفان على جمع كل هذه الحيوانات فيبدو أن الشخصية الإلهية هي التي تكلفت بدفعها إليه بحملها إلى السفينة، كما يبدو من ملحمة اتراحيس ومن سفر التكوين. ففي ملحمة اتراحيس نرى إيا يقول لعبده (طرائد البرية ووحوشها وما أستطعت من آكلي الأعشاب سأدفع بها إليك) كذلك في سفر التكوين نجد أن الحيوانات تأتي إلى نوح دونما جهد منه لجمعها وحصرها (وتدخل الصندوق لتحيا معك) (يدخل إليك اثنين من كل لَحْيَا). ٧- يوم

إبداء الطوفان:

(في السنة الستمائة من عمر نوح، من الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه.

في ذلك اليوم تفجرت عيون الغمر وتفتحت كوى السماء. ومن المعروف أن السنة العبرية الزراعية تبدأ في الخريف في أواخر تشرين الأول. يكون الشهر الثاني والحالة هذه، هو كانون الأول بداية موسم الأمطار في سورية.
أما قصة بيروسوس فتجعل الطوفان يبدأ في اليوم الخامس من شهر مايس. بينما تصمت بقية النصوص عن ذكر أي موعد معيّن لبدء الطوفان

٨- علل الطوفان:

سبب الطوفان في النص البابلي عن العاصفة والأمطار والمياه السفلية (فحدد) إله الرعود والبروق والصواعق والأمطار قد إنطلق يسبقه مساعده. ورجال فتح فوهات العالم الأسفل فإنطلقت مياه الأعماق الحبيسة. ونورتا إله السدود والري فتح سدوده وقنواته ففاضت دونها ضابط. وفي التوراة كذلك، تسبب الطوفان عن الأمطار الغزيرة وإنبثاق المياه السفلية. أما النص السومري فيؤكد على الأمطار كعنصر أساسي.

وقد قام الجيولوجي النمساوي E.SUESS في نهاية القرن التاسع عشر بمحاولة إيجاد تفسير علمي لرواية الطوفان فقال أن الطوفان ربما تسبب أساساً عن عاملين، أولهما موجات عملاقة من البحر سببها اضطراب زلزالي في إقليم الخليج العربي أو في الجنوب منه. وثانيهما إعصار عنيف نشأ في خليج البنغال، ثم عبر الهند متجهاً شمالاً نحو الخليج العربي. وقد صادف ذلك كله في موسم الفيضان السنوي في حوض الدجلة والفرات. وتشققت الأرض بتأثير الزلزال واندفعت منها المياه. وهكذا فإن الطوفان قد نشأ بتأثير مياه البحر الطاغية بصورة رئيسية. أما المياه السفلية وباه الفيضان فلم تكن إلا عناصر مساعدة.

ولا نريد هنا أن نناقش هذه النظرية أو غيرها. بل نقول أن علل العبان كانت متشابهة في النصين البابلي والتوراتي. وذلك بصرف النظر عن تأكيد كل نص على عناصر معينة دون أخرى.

٩- مدة الطوفان:

أعطى التوراة فواصل زمنية محددة بين الحوادث المؤلفة للقصة. فلقد دام الطوفان

أربعين يوماً. ثم إبتدأت المياه بالتناقص بعد مائة وخمسين يوماً..... الخ، وجمع الأزمنة بعضها إلى بعض نستنتج أن المدة الفاصلة بين بدأ الطوفان وخروج نوح من السفينة قد أمتدت قرابة السنة الكاملة. أما النص البابلي فلم يأت على تفصيل للفواصل الزمنية، بل إكتفى بالقول أن الطوفان أستمر سبعة أيام وسبعة ليال. وكذلك الأمر في الأسطورة السومرية؛ حيث أستمر الطوفان ستة أيام وست ليال. لذلك لا نستطيع إستنتاج مدة معينة لدوام الطوفان البابلي، ولكنه قطعاً قد دام مدة أقصر بكثير من طوفان نوح.

١٠- أين إستقرت السفينة:

إستقرت سفينة اوتنابشتيم على جبل (نصير) أي جبل الخلاص، وقد ورد أسم هذا الجبل في حوليات الملك آشوربانيبال الي حددت موقعه في جنوب نهر الزاب الأدنى، وهو أحد روافد الدجلة.

أما سفينة نوح فقد إستقرت على جبل أراط . ٠ وأراط في الواقع ليس إسماً لجبل بل هو إسم يُطلق على بلاد أرمينيا. ويبدو أن السفينة قد رست على أعلى قمة في بلاد أراط. ومن هنا جاءت التسمية، وقد وردت كلمة أراط في مواضع أخرى من التوراة للدلالة على قطر وبلاد لا على جبل. من ذلك مثلاً ما ورد في سفر أشعيا ٣٧: ٣٨- (وفيما هو ساجدٌ في بيتِ نصرُوكَ إلهه، قَتَلَهُ (أَدْرَمَلِكُ) و(شَرَّاصِرُ) أَبْنَاهُ بِالسَّيْفِ، وَهَرَبَا إِلَى أَرْضِ أَرَاطِ. وَمَلَكَ أَسْرَحَدُونُ ابْنُهُ مَكَانَهُ. وَمَا وَرَدَ فِي سَفَرِ أَرْمِيَا الإِصْحَاحِ الحَادِي وَالخَمْسُونَ: ٣٧- (إِنصَبُوا الرِّأْيَةَ فِي الأَرْضِ وَأَنفُخُوا فِي البوقِ فِي الأُمَمِ. خَصَّصُوا عَلَيهَا الأُمَمَ وَنادوا عَلَيهَا مَمَالِكُ أَرَاطَ وَمِيَّ وَأَشْكَنَازَ).

١١- إطلاق الطيور:

في اليوم السابع لبدء الطوفان أطلق اوتنابشتيم حمامة لإستطلاع المحيط. وما لبثت أن عادت إليه لانها لم تجد مستقراً لقدميها. ويعد فاصل زمني غير محدد أطلق سننو فطار ثم عاد أيضاً. فإنتظر فترة أخرى ثم أطلق غراباً فطار ولم يعد.

فإستدل من ذلك أن الأرض قد أصبحت صالحة للمهبوط فحرر سگان السفينة

وأطلقهم للجهات الأربع. أما نوح فقد بدأ بالغراب. وقد أظهر بهذا التصرف حكمة أكثر من زميله اوتنابشتيم. ذلك أن الغراب يهوى المرتفعات دون السفوح والسهول. لذلك فإن غيابه لا يدل على إنحسار الماء عن جميع الأرض. ثم أنه أرسل الحمامة ذلك الطائر الذي لا يطير إلا في السهول والمنخفضات. فحامت الحمامة ثم عادت، فأنتظر سبعة أيام وأطلق بعدها الحمامة الثانية فطارت وعادت في المساء، وفي منقارها غصن زيتون طري. ويبدو أنها وجدت مكاناً تهبط فيه وطعاماً إلا أن الوضع بشكل عام لم يكن مشجعاً على قضاء الليل خارج السفينة فانتظر سبعة أيام أحر، وأطلق الحمامة الثالثة فطارت ولم تعد. مما دل نهائياً على أن السهول قد غدت جافة كما المرتفعات.

وهكذا تتفق الروايتان في إرسال الطيور ولكنها تختلف في نوعيتها وعددها. فبينما يرسل اوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً، يقوم نوح بإرسال غراب وثلاث حمامات. ونستطيع أن نلمح تشابهاً من حيث المغزى بين عودة حمامة نوح وفي منقارها غصن زيتون، وعودة طيور اكسوتروس وعلى مخالها آثار من طين.

١٢- مغادرة السفينة:

ينتظر نوح فترة أطول قبل الخروج من السفينة. وكانت هذه الفترة كافية لنمو النباتات من جديد لإعالة جيل ما بعد الطوفان من الناس والحيوان، أما خروج باقي أبطال الطوفان فقد كان سريعاً لأن دوام الطوفان لم يكن بالطول الكافي لدمار الطبيعة دماراً تاماً كما هو الأمر في الطوفان التوراتي. وقد جاء خروج نوح بناءً على أمر من الإله كما كان الحال لدى دخوله. أما اوتنابشتيم والآخرون فقد خرجوا بناءً على تقديرهم الخاص.

١٣- تقدير الذبيحة والعهد الإلهي:

يرفع كل أبطال الطوفان الشكر للآلهة علي نجاتهم، ويقدمون الأضاحي والقربان. فزيبوسودرا خَرَّ ساجداً أمام أوتو ونجر ثوراً وقدم ذبيحة من غنم . واكسوتروس سجد على الأرض وبنى مذبحاً وقدم قرباناً للآلهة. و اوتنابشتيم أطلق الركاب للجهات الأربع وقدم أضحية. ونوح بنى مذبحاً للرب، وأخذ من جميع المهنم الطاهرة و الك جميع الطير الطاهرة، فأصعد محرقات على المذبح ، وهنا يتطابق

حرفياً النص البابلي مع التوراة فبعد حرق الأضاحي نقرأ في نص اوتنابشيم (تَدَسَّقُ الألهة
الرائحة الزكية) ونقرأ في التوراة (فَتَنَسَّمَ الرَّبُّ رَائِحَةَ الرِّضَا...)

يتقبل الرب تقدمة نوح ويندم على فعلته ويقطع على نفسه عهداً أبدياً بالألأ يُدَمَّر الأرض ثانية
بطوفان مماثل: (وَقَالَ الرَّبُّ فِي نَفْسِهِ: «لَا أُعِيدُ لَعْنِ آرَاضٍ أَيْضًا... وَلَا أَعُوذُ أَهْلِكَ كُلَّ حَيِّ كَمَا
صَنَعْتُ. .. وَأُقِيمُ عَهْدِي مَعَكُمْ... تِلْكَ قَوْمِي جَعَلْتُهَا فِي الْعَمَامِ فَتَكُونُ عِلَامَةً عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَ
الأرض»). وفي نص اوتنابشتيم ينسى الألهة غضبهم على البشر عندما يشمون رائحة الأضحية،
ويتجمعون على صاحبها وقد سُزُوا بنجاة الحياة على الأرض. ولا نجد هنا إشارة مباشرة لعهد ما
مع الإنسان.

إلا أن كلام عشتار يوحي لنا بشيء قريب جداً من العهد الإلهي، ومن إشارته التي كانت عند يهوه
قوس قزح، كلما رآه تذكّر عهده مع البشر، فعندما وصلت عشتار رفعت عقدها الكريم الذي
صنعه أنو وفق رغبتها وقالت: «أيها الألهة الحاضرون كما أنني لأنسى عقد اللازورد الذي يُزِين
عنقي. فإنني لن أنسى هذه الأيام قط سأذكرها دوماً» أن رفع عشتار لعقدها يُقْرَب كثيراً في
مضمونه من قوس قزح الذي يعطيه يهوه إشارة وعهد.

أما عن الندم فتعبر عنه عشتار عندما تقول: «تقدموا جميعاً وقربوا من الذبيحة إلا انليل
وحده لن يقترب لأنه سبب الطوفان دونما تردد أسلم شعبي للطوفان» كما يعبر عنه إيا عندما
يخاطب انليل: «كيف ... آه كيف دونما تفكر جلبت هذا الطوفان» وبالنهاية فإن انليل نفسه
يُعبّر عن ندمه عندما يبدأ غضبه. فيُصعد اوتنابشتيم وزوجه ويمنحهما بركاته الإلهية وخلوداً
لنفسيهما، ويُسكهما في القاصي البعيد عند فم الانهار. وينال أبطال الطوفان الآخرون جزاءً
مماثلاً، فيُمنح زيوسودرا حياة أبدية في أرض دلمون واكسوتروس ينال نفس النعمة، أما نوح
فينال أيضاً بركات إلهية من يهوه ولكن هذه البركات لا تصل حد إسباغ نعمة الخلود: «وَبَارَكْ
اللَّهُ نُوحًا وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلَأُوا الأَرْض.».

إلا أن نوحاً يتكشّف فيما بعد في التوراة عن إنسان سكيّر عرييد، فيبعد أن غرس كرماً، حصد
وشرب من خمره فسكر وأخذ يرقص ويتعري من ثيابه: «وَشَرِبَ مِنَ الخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرَّى ذَاخِلَ
خَبَائِثِهِ" فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافِثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ
عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَسَّيَا إِلَى الوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجَّهَاهُمَا إِلَى الوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا".
فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ،

عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصَّغِيرُ، فَقَالَ: «مَلْعُونُ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لِإِخْوَتِهِ، وَقَالَ: «مُبَارَكُ الرَّبِّ إِلَهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ». " ٩: ٣١-٣٥

نلاحظ هنا أن العبرانيين قد أدخلوا هذا الفاصل في القصة لتبرير إمتلاكهم لأرض الكنعانيين وطردهم أهلها الذين لعنهم يهوه بسبب رؤية جدهم كنعان لعورة أبيه

ذبيحة:

لقد قمنا بسرده ما عُثِرَ عليه حتى الآن من أساطير الطوفان في المنطقة، وأجرينا مقابلة بين هذه النصوص، موجّهين النظر أحياناً إلى نقاط اللقاء وتاركين أحياناً أخرى لذهن القارئ أن يعقد المقارنة ويكشف نقاط اللقاء والخلاف. والسؤال الأخير الذي يطرح نفسه: هل أتمد النص التوراتي على النص البابلي أو أي من النصوص الأخرى؟ والجواب الذي أراه بالدراسة الموضوعية للنصوص هو نعم. مع بقاء الإحتمال قائماً في رجوع النصوص جميعاً إلى نص أقدم، أو إلى رواية بقيت في أذهان شعوب المنطقة من ديانة توحيدية سابقة. والواضح أن الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة، وبكثير من تفاصيله على النص البابلي حتى أن بعض التعبيرات تكاد تنطبق بحرفية مطلقة. وإذا أخذنا بعين الإعتبار أن يهوه إنما يقوم في الرواية التوراتية بجميع الأدوار المتناقضة للآلهة، لزالنا إلى حد كبير شقة الخلاف بين الروايتين .

فهوه يقرر منفرداً إرسال الطوفان، ثم أنه هو الذي يتسبب في علله، من طغيان مياه السيول والأمطار وإنبثاق المياه السفلية، وهو الذي ينقذ بعض الأثريين لديه، وهو الذي يندم ويعدّ بالأفعال يفعل ذلك ثانية.

أما من ناحية الصياغة الأدبية، فإن النص البابلي يتفوق بشكل واضح على نص التوراة. وبكفي أن نستعيد قراءة وصف أهوال الطوفان، لنرى التصوير الغني البديع والصنعة الأدبية الرفيعة. ويقترب النص قمة روعته في النهاية عندما يقترب انليل من اوتنابشتيم وزوجته في مشهد درامي رائع فيصعدُهُما إلى السفينة، ويجعلهُما يركعان أمامه فيلمس جبهتهما مُباركاً: ما كنتَ قبل اليوم إلا بشراً فانياً ولكنك منذ الآن، ستغدو وزوجتك مثلنا نحن الآلهة، وفي القاصي البعيد ستعيشان عند مم الأنهار.

وأخيراً وقبل أن أغادر أسطورة الطوفان، أود أن أقف وقفة عابرة مع تفسير

أسمح للبعض أن لا يأخذه مأخذ الجد. ولكن علم الفضاء الحديث، ورحلات الفضاء التي قام بها الإنسان في العشرين سنة الأخيرة، قد أثبتت الإمكانية العملية للـسفر بين العوالم. يُضاف إلى ذلك أن دراسات تجري في أنحاء شتى من العالم، تفتح نتائجها أبواب واسعة أمام تساؤلات مشروعة عن وصول كائنات عاقلة من عوالم أخرى إلى الأرض، حاملة معها أصولاً حضارية من عوالمها. إلا يُحتمل أن أسطورة الطوفان الذي قضى على كل شيء، إلا نخبة مختارة حملت معها أصول الحضارة، هي واقعة حدثت في كوكب آخر خارج مجرتنا؟ إلا يُحتمل أن سفينة نوح هي سفينة فضاء أبحرت بعد دمار ذلك الكوكب حاملة معها مجموعة مختارة فحطت رجالها على الأرض حيث تابع ركبها حياتهم عليها؟

قد يبدو هذا التفسير ضرباً من الخيال العلمي، ولكن مسألة وصول سگان الكواكب الأخرى إلى الأرض في فترة مبكرة من تاريخ الحضارة الإنسانية، قد خرجت من حيز الخيال العلمي، إلى حيز الدراسة العلمية الجادة.

٤ / أساطير الدمار

لم تكن أساطير الطوفان وحدها التي أخبرتنا عن أحداث الدمار، والكوارث العامة التي حلت بإنسان الحضارات القديمة. فلقد وصلتنا مجموعة أخرى من الأساطير تروي أحداثاً لا تقل رهبة وروعة عن أحداث الطوفان، ولكنها لا تقص عن دمار شامل يفني البشر والحيوان، بل عن دمار جزئي يتوقف في منتصف الطريق وقبل أن يقضي على الحياة قضاء مبرماً. ولعل هذا النوع من الأساطير، قد لعب في العهود القديمة ما لعبته المأساة على المسرح في العالم الكلاسيكي، فيما بعد. لعلها كانت نوعاً من تطهير المشاعر، يحسه المستمع وهو يصغي إلى ما ترويهِ من أهوال ومآسي فتكون له بمثابة المتنقّس لكل أنواع العنف الداخلي المضطرم الذي يحسه البشر ويحارون في كيفية إطلاقه. ولعلها نوع من أنواع التعبير عن طاقات البشر التدميرية الكامنة، والتي لا تكفي شتى أنواع الحروب لإفراغها من شحناتها.

وفي نطاق التفسير التاريخي والإيتيولوجي، ربما كانت هذه الأساطير تبريراً وتعليلاً، لكوارث حقيقية حلت بالإنسان، وحاد في أسبابها ودواعيها وأغراضها، فجاءت الأسطورة تروي تساؤلاته. فهذه أسطورة سومرية تروي دماراً حلَّ بالبلاد إلى إنتقام الإلهة أنانا من يستاني أغتصبها، وهذه أسطورة بابلية تعزو العواصف التي اجتاحت البلاد طويلاً وعرضاً، إلى غضب إله العاصفة انليل، وأخرى تعزو انتشار

المرض الفتاك إلى إله الطاعون ايرا الذي يستفيق من كسله سن الآونة والأخرى ليمارس مهامه في نشر الأوبئة والأمراض السارية .

انا والبستاني:

تروي أسطورة سومرية، أن بستانياً، أسمه شوكا ليتودا، زرع شجرة وتعهدا بالرعاية والعناية حتى كبرت ونشرت ظلها الواسع على معظم أجزاء حقله الذي حمته من العواصف الهوجاء. إلى أن كان يوم:

وذات يوم، بعد أن عبرت سيدتي السماء وقطعت الأرض

انا، بعد أن عبرت السماء وقطعت الأرض

بعد أن قطعت أرض عيلام وبلاد شوبر

بعد أن قطعت [.....]

دخلت الكاهنة انا البستان وغلها النوم تعباً.

فراها شوكا ليتودا من طرف بستانه

فقبلها وضاجعها وعاد إلى طرف بستانه.

فلما صار الصبح وأشرقت الشمس

تلفت الفتاة حولها خائفة

تلفت انا حولها فزعاً

فانظر الأذى الذي أوقعته الفتاة من أجل فرجها

انا من أجل فرجها ماذا فعلت

لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم

ففاضت كل الغابات والبساتين بالدم.

وصار الناس إذا أرادوا نضح الماء من آبارهم لا يجدون ما يشربونه سوى الدم. فتلفت المزروعات

وعم الجع. ولما لم تجد الذي جامعها، قامت بتسليط الرياح والعواصف المدمرة، ولكن دون

جدوى، لقد قالت سأجد الذي ضاجعتي في أنحاء البلاد، ولكنها لم تجد الذي ضاجعها.

فترسل كارثة ثالثة إلا أن كسور اللوح الأجرى وتشووه، تمنعنا من معرفة ماهية هذه الكارثة، ولا نعرف على أي وجه إنتهت الأسطورة.

انليل والعاصفة:

عندما يسكن الهواء، يكون انليل في حالة هدوء ودعة وإطمئنان، وإذا هبَّ النسم العليل فإن انليل يسرح ويمرح. وإذا هبت العاصفة فانليل في حالة حركة وإنفعال. أما إذا اشتدت العاصفة وثار الإعصار فإن انليل في حالة غضب وهياج، كما هو الأمر في الأسطورة السومرية التالية^(١٠):

دعا انليل العاصفة

والناس ينوحون

أخذ من الأرض الرياح المنعشة

والناس ينوحون

أخذ من سومر الرياح الطيبة

والناس ينوحون

ودعا (بدلاً منها) الرياح الشيطانية

والناس ينوحون

وأكلها لـ «كينغالودا» راعي العواصف

دعا العاصفة لتفني البلاد

والناس ينوحون

ودعا العواصف المدمرة

والناس ينوحون

عين الإله (جيبيل) * مساعداً له

ودعا أعاصير السماء... والناس ينوحون

والأعاصير المعولة المنقضة من السماوات

10 - Henri Franfort, Before Philosophy, Pelican Books, 1964

* جيبيل: إله النار.

والناس ينوحون
العاصفة العتية تزمجر مكتسحة البلاد
والناس ينوحون
العاصفة القاسية كموج الطوفان
تهشم سفن المدينة وتلتهمها والناس ينوحون
كل هذا جمعه عند أساس السماء.... والناس ينوحون
أشعل نيراناً كانت نذير العاصفة
والناس ينوحون
وألهب جوانب الرياح الغاضبة
بحر الصحراء اللافح
فكانت تحرق كهجير الظهيرة اللاهب
والعاصفة التي أمرها انليل في حقد
(العاصفة) التي تلتهم البلاد
غطت «أور» كما الثوب، ولقتها كما القماط
وفي اليوم الذي تركت به العاصفة البلاد
غادرتها والمدينة خراباً
آه يا أيها الأب (نانا).
لقد ترك المدينة يبابا والناس ينوحون
في اليوم الذي تركت به العاصفة البلاد
والناس ينوحون
(جثث) البشر لا كسرات الجرار
كانت تغطي الطرقات
والجدران كانت متصدعة
البوابات العالية والمسالك

* نانا: أن القمر.

قد تكدّست فيها الموتى
وفي الشوارع العريضة تعود الناس الإحتفال
تكدّست هناك الموتى
وفي جميع الطرق والسُّبُل تناثرت الجثث
وفي الحقول الطلقة التي كانت تُملأ بالراقصين
تراكم هناك الموتى
وملأ دم البلاد ثقوبها
وكمعدنٍ في قالب
ذابت الأجسام كالدهن تحت الشمس.

إله الطاعون بمخاخ العالم:

وفي الأسطورة البابلية يقوم (ايرا) إله الطاعون والأوبئة الفتاكة بدور أساسي في الكوارث والبلايا العظيمة التي تحل على الأرض. فنراه مشغولاً على الدوام بما يتوجّب عليه تنفيذه من أعمال الخراب والإبادة، وفي الأسطورة التي سنأتي على ذكرها فيما يلي نجد ايرا وقد مرت عليه فترة طويلة لم يلعب فيها دوراً هاماً على مسرح الاحداث، فنال منه الكسل وفترت همّته. ولكن (سيبي) سلاحه الفتاك ذا الشُعاب السبع، المرعب الذي ينفث الموت الزؤام يخاطبه وقد نال منه الملل والضجر^(١١):

أنهض وسِرُ قُدماً يا (ايرا)

أيها المتسكّع في أرجاء المدينة كعجوز مريض

أيها الزاحف في البيت كطفل هَرِم

لقد بتنا نأكل طعام النساء، كمن لم يركب السهل أبداً

وصرنا نخشى الوغى كمن لم يعرف يوم كرهه، قط

أنهض أيها البطل الراكب السهول.

أصرع الإنسان والحيوان.

11- S. N. Kramer, Mythology of the Ancient World, Anchor Books, Newyork. (His Charter on Sumerson mythology).

أما الآلهة فتسمع (بفعالك) وتخشى (بأسك)
والملوك ستسمع (عن بطولاتك) وتفزع (سطوتك)
والعفاريت ستسمع (بمأثرك) وتتقي (جبروتك)،
سيسمع كل عظيم ويرتعد
ستسمع بك البحار المتلاطمة وتضطرب
ستسمع بك الجبال الراسيات وتضطرب
أي (ايرا) لقد قلتُ كلمتي فهل سمت؟
مشدود هو القوس وحادة هي السهام،
ومسلول هو السيف قد تهبأ للفتك (فهبأ نهضت).
وهنا تشتد عزائم ايرا فيستدعي وزيره (ايشوم) صائحاً به :
أوسعوا لي فإني سأقتحم الدروب
والى جانبي سيمشي (سيبي) البطل الذي لا قرين له،
ومن خلفي ستمشي أنت يا مساعدي.
فإستمع (ايشوم) لكلمات (ايرا) بقلب حزين. وشعر بالأس لما ينتظر البشر من مصير .
أيها الآلهة. لقد أزمعتُ شراً للبشر والآلهة
لقد أضمرت للأرض دماراً.
فهل من وسية لردك (عمّا أنتويت)
ففتح «ايرا» فمه وقال: مخاطباً مساعده (ايشوم)
صمتاً يا ايشوم. وأنصت لما أقول
دعني أنبئك بمصير الإنسان (وقدره)
أي مساعدي يا ايشوم الحكيم أسمع كلماتي:
في السماء أنا فأس وحشية.
في الأرض أنا أسدٌ (هصور)
في البلاد أنا ملك فوق الجميع
أنا الجليل بين الآلهة،
وأنا المقدام بين الايجيجي..

وأنا القوي بين الانانوكي

لأن الانسان لم يخش كلماتي

ولم يأبه بتعاليم (مردوخ) *

بل عمل وفق مشيئة قلبه (ورغباته).

لأنني سأدعو مردوخ أن يخرج من سكنه،

(فإن فعل) سأقوم بتدمير الإنسان.

فلأن مردخ سيد البشر والآلهة. لا يستطيع ايرا أن يتصرف وفق هواه ما لم يغض الطرف عنه

فيمضي إليه بخدعة ليترك مسكنه في معبد «الايذاجيلا» ويمضي إلى مكان ستطهر ناره عباءته،

فيستحم ويتجدد ويعود أقوى مما كان وأقدر على تصريف شؤون الكون والإنسان :

إلى بابل مدينة ملك الآلهة يمم «ايرا» شطره

دخل (الايذاجيلا) قصر السموات والأرض ومثل أمامه.

فتح فمه وقال مخاطباً ملك الآلهة:

أيها الرب أن الهالة النورانية رمز إلهتك،

المشعة أبداً كنجم سماوي،

قد كسدت وخبأ لونها،

وتاج سيادتك قد مال (عن رأسك)

أترك مكان سكنك وإنطلق

ونحو الدار التي ستطهر ناراها عباءته شد الرجال.

ولكن مردوخ يخشى إن هو ترك الايذاجيلا مركز الكون في بابل، أن يعود العالم إلى العماء وتطغى

الفوضى الكونية التي تلجمها قوة مردوخ وجبروته، وتربّعه على عرش الكون في معبده ذي البرج

العالي. كما يخشى أن يخلو الساح لآلهة العالم الأسفل فتنتطلق لتلتهم جميع الأحياء دونما رادع

أووازع - ولكن ايرا يطمئنه أنه ساخذ عنه المؤولية كاملة خلال غيابه نوب عنه حتى عودته .

فيترك مردوخ قصره ويمضي للأستحمام في المكان الذي أقترحه ايرا. وما أن يغيب الإله الأكبر

حتى يستدعي ايرا وزيره ايشوم قائلاً:

* وهذا مشابه لأسباب كل أفعال الدمار الذي قام به يهوه ضد شعبه المختار الذي كان ينسى على الدوام كلمات الرب.

أوسعوا لأنني سأفتحكم الدرب.
لقد حان اليوم وازفت الساعة،
سأهيب بالشمس فتترك شعاعها،
وأغطي بالظلام الدامس وجه النهار.
فمن ولدته أمه في يوم ماطر،
سدفته في يوم مسغبة.
ومن مضي من طريق مروية خضراء،
سيأخذ في عودته طريق غبار ورمال.
(يتجه بالحديث لمردوخ الغائب)
(إبق حيث أنت في الدار التي دخلت،
وسأسهر بإخلاص على تنفيذ شرائعك،
فإن سمعت أصوات ذوي الشعور السود* تناديك،
لا تُعطِ توسلاتهم أذناً صاغية))
سأضع نهاية لجميع مراكز الحياة،
لأحيلها ركاماً، سأدمر كل المدن،
فأحيلها خراباً،
سأهدم كل الجبال،
وسأمخ عنها القطعان،
سأزلزل المحيطات،
وأفرغ منها الخيرات سأقتلع الأشجار وغيضات القصب،
سأسحق كل عظيم،
وأصرع الإنسان أرضاً،
وأمحق كل شيء حي.

ثم ينطلق إله الطاعون والأوبئة الفتاكة والخراب غير عابئ بمحاولات ايشوم

* ذوو الشعور السود أو ذوو الرؤوس السود تعبير أستعمله السومريون والأكاديون في وصف أنفسهم.

لوزيره عن عزمه فيدمّر أولاً بابل ويقضي على سكّانها، ثم ينتقل إلى (ايريك) مدينة البغايا المقدسات والغلمان والمخصيين واللوطيين، حيث معبد عشتار بما فيه من مخننين نالت عشتار من رجولتهم ، فهدم المدينة ولكنه يبقى متعطشاً للفتك راغباً في المزيد من الخراب: سأظهر مزيداً من الفتك والانتقام؛

فأستلب روح الأبن

ويدفنه أبوه.

ثم أستلب روح الأب،

ولا يجد أحداً ليدفنه. فمن بنى لنفسه بيتاً وقال :

هذا مكان راحتي (وإقامتي)؛

فإني جاعل بيته هذا مستقراً لي،

عندما تحملي الأقدار إليه، فألبث في وسطه؛

حاملاً الموت لصاحبه،

ثم أدمر بيت راحته وإقامته.

فإذا صار خراباً (يباباً)، وهبته لشخصٍ آخر.

على أن ايشوم يفرع أشد الفزع من هذا الفتك الأعمى. دون تمييز بين الصالح والطالح فيتوجه

لايرا قائلاً:

ايرا أيها الجليل.

قد سقيت التقي الردى، كما سقيت الظال الردى

قد سقيت الخاطيء الردى،

كما سقيت الطاهر الردى.

قد سلبت حياة من رفع الأضاحي للآلهة؛

وسلبت حياة حاشية الملوك ورجالهم؛

سلبت حياة كبير القوم،

وسلبت حياة الفتاة الغضة.

ومع هذا ترفض أن تستريح وتقول لنفسك :

سأسحق كل عظيم وأصرع أرضاً كل ضعف.
سأقتل سيد القوم،..... لأجعل قومه في حيرة من أمرهم،
سأهدم البيوت العالية ودعائم الجدران،
سأمحق كل ثروات المدينة،
ماخلع الصواري فتضل السفن سبيلها
وأمزق الأشرعة فلا تصل سفينة شاطئها.
سأمزق الجبال أرباً رافعاً عنها راياتها
سأجفف الصدور حتى يموت الصغار.
وأجفف الينابيع حتى تتوقف الأنهار عن الجريان.
سأطفيء نور الكواكب والنجوم وأتركها دونما رعاية*.
سأتلف جذور الأشجار فلا تنمو بعد (ولا تورق).
سأخلع أساسات الجدران فتهتز أعاليها (وتتداعى).
وإلى مسكن ملك الآلهة سوف أمضي حيث لن يعارضني أحد
ويبدو أن خطاب (إيشوم) قد طامن من ثورة «ايرا» قليلاً فيقرر العفو عن الأكاديين فقط
وتدمير كل ما عداهم :
أرض أرض ومدينة مدينة.
كل بيت سمهاجم البيت الآخر.
ولن يعفو الأخ عن أخيه،
فيقتل بعضهم بعضاً
وعند ذلك سينهض الأكاديون فيخضعوهم جميعاً .
وبذلك يجد «ايرا» الهدوء والسكينة، ويُخبر الآلهة بأن مخططه في البدء كان إفناء البشر جميعاً
بسبب خطاياهم، ولكن حديث إيشويم قد غير رأيه فأنقذ الأكاديين فقط وجعل لهم الغلبة على
أعدائهم:

ستنقلب القلّة الباقية في الأرض إلى كثرة،

* نور النجوم ليس دائماً بل أنها تُشعل كل ليلة من قبل الآلهة المعنية.

وسيجد كل إنسان منهم فرجاً
سيقبض الأكاديون على أعدائهم العظماء،
فيحمل كلُّ منهم سبعة كما تُحمَل الخرفان
ستحولون مدنهم إلى خراب وتجعلون جبالهم ركماً
وتؤوبون بابل بثمان الغنائم (والأسلاب)
(وتجعلون) آلهة البلاد الغضبي،
ترجع إلى مساكنها (راضية) هادئة.
ستكاثر القطعان وتنمو الحبوب.
والأرض التي تُرِكَت يبيأً،
ستجعلونها منتجة خصبة.
وجميع الحكام من وسط مدائنهم،
سيجلبون إلى بابل أتاواتهم.
أما معابد (ايكور) التي دُمِّرت،
فتشع بالنور قممها كالشمس الصاعدة،
ويفيض الدجلة والفرات بالمياه الغزيرة
ولأيام طويلة تحكم بابل فوق البلاد
وتنتهي القصيدة بخاتمة تؤكد على عنصر الوحي في الأسطورة فكاتب النص يقول أنه قد دوّن ما
أوحى إليه من قبل الآلهة دونما زيادة أو نقصان. وهذه الإلتفاتة تكشف لنا أوجهاً هامة في
الأسطورة ودورها ونظرة الجماعة لها. فليس مدوّن الأسطورة في نظر نفسه ونظر الجماعة
المؤمنة به إلا كاتب وحي وإلهام يلعب دور الوسيط بين الإله والناس .
(ألاً) من أجل مجد (ايرا).
فلتُشَد هذه الأغنية سنوات لا عدَّ لها.
وكيف ثار غضب (ايرا)،
فقرر خراب البلاد،
وإفناء الناس والحيوان.
وكيف قام مستشاره (ايشوم) بتهديته:

فجرى إنقاذ قلّة قليلة.

وإلى كابتى عيلانى مردوخ* حافظ الألواح ابن داببي،

عرضها (الأنشودة) ايشوم فى حلم لىلى،

فعدما نهض من نومه صباحاً لم ينسَ سطرأ واحداً،

ولم يزد عليها سطرأ واحداً،

وبعد أن سطر الكاتب هذه الأنشودة سمعها (ايرا) و(ايشوم) وبقية الآلهة فنالت إستحسانهم:

لقد سمعها (ايرا) ونالت إعجابه.

راقت له أنشودة ايشوم، وعظّمها معه جميع الآلهة.

وهكذا نطق ايرا الجليل:

ستغمر الخيرات بيت من يُقدّس هذه الأنشودة،

ولن يتدسّم من يهملها رائحة زكية قط.

سيحكم الجهات الأربع من يرفع أسى من الملوك،

أما من يُرتل أنشودتي من المغنين فلن يموت قتلاً،

وتبقى كلماته حلوة الوقع فى أذان الملوك والأمراء .

والكاتب الذى يعلمها عن ظهر قلب سينجو من أيدي العدو

وفى مجمع المتعلمين حيث يذكر أسى دون إنقطاع،

سأفتح الأذان واسعاً.

أما البيت الذى يخزن هذا اللوح،

فلن يلقى ثورة ايرا وغضب ايشوم،

ولن يقرب منه سيف القتل،

فنصيبه السلام والرغد.

إلا فلتبق هذه الأنشودة أبد الدهر،

ولتسمعها كل البلاد وتقُدّسها،

ولتنطق بأسى كل الأرض المسكونة وتُبجّله.

* أسم كاتب النص.

يهوه والكوارث الشاملة:

ولعل إله العبرانيين يهوه من أكثر الآلهة ولعاً بالدماء والكوارث الشاملة. ففي سفر الخروج نجد موسى يحاول إقناع فرعون عبثاً بالسماح لشعبه بمغادرة أرض مصر إلى الأرض الموعودة في كنعان، وبعد أن ينال منه اليأس يلجأ إلى ربه الذي يشن حملة من الفتك الشامل بفرعون وقومه، لإجباره على إطلاق العبرانيين وهو يبدأ بما بدأت به (انانا) السومرية فيملاً آبار المصريين بالدم: (خُذْ عَصَاكَ وَمُدَّ يَدَكَ عَلَى مِيَاهِ الْمِصْرِيِّينَ، عَلَى أَنْهَارِهِمْ وَعَلَى سَوَاقِيهِمْ، وَعَلَى آجَامِهِمْ، وَعَلَى كُلِّ مُجْتَمَعَاتِ مِيَاهِهِمْ لِتَصِيرَ دَمًا. « ثم ينتقل لفتون تدميرية أخرى: (فَمَدَّ هَارُونُ يَدَهُ عَلَى مِيَاهِ مِصْرَ، فَصَعِدَتِ الضَّفَادِعُ وَعَطَّتْ أَرْضَ مِصْرَ). وبعد ذلك (مَدَّ هَارُونُ يَدَهُ بِعَصَاهُ فَضْرَبَ تُرَابَ الْأَرْضِ، فَكَانَ بَعُوضٌ عَلَى النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ.. كُلُّ تُرَابِ الْأَرْضِ صَارَ بَعُوضًا) .

(فَدَخَلَتْ دُبَانٌ كَثِيرَةٌ إِلَى بَيْتِ فِرْعَوْنَ وَبُيُوتِ عِبِيدِهِ. وَفِي كُلِّ أَرْضِ مِصْرَ خَرِبَتِ الْأَرْضُ مِنَ الدُّبَانِ). (فماتت مواشي المصريين بأسرها ومن مواشي بني إسرائيل لم يمت أحد) (فأخذ من رماد الاتون ووقف بين يدي فرعون وذراه موسى إلى السماء فصار قروحاً وبثوراً منتفخة في جميع أرض مصر) (فكان برد و نار متواصلة بين البرد شيء عظيم جداً... فضرب البرد في جميع أرض مصر جميع ما في الصحراء من الناس والبهائم وضرب البرد جميع عشها وكسر جميع أشجارها.) (وساق الرب ريحاً شرقية على الأرض ذلك اليوم وطول الليل، وعند الصباح حملت الريح الشرقية الجراد على جميع أرض مصر... فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر) (فكان ظلام مدلهم في جميع أرض مصر ثلاثة أيام لم يكن الواحد يُبصر أخاه) (فلما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر، من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الاسير الذي في السجن وجميع أبقار البهائم. فقام فرعون ليلاً هو وجميع عبيده وسائر المصريين، وكان صراخٌ عظيم في مصر حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت) وعند هذا الحد فقط يقتنع فرعون بضرورة إطلاق بني إسرائيل فيفعل ذلك وهو مُكره على أمره.

ومن عادة يهوه إفناء المدن بكاملها فلا يترك منها أحداً فينجو ليحدِّث بأحوال ما حدث لها.

نقرأ بسفر التكوين الإصحاح ١٩ : ١٢ - ٣٦ (وَقَالَ الرَّجُلَانِ لُوطٍ: «مَنْ لَكَ أَيضًا هَهُنَا؟ أَصْهَارُكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلٌّ مِنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ، لِأَنَّنا مُهْلِكَايِن هَذَا الْمَكَانِ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلْنَا الرَّبُّ لِهَيْلِكَهُ فَخَرَجَ لُوطٌ وَكُلُّمُ أَصْهَارُهُ الْأَخْذِيْنَ بَنَاتِيهِ وَقَالَ: «فُومُوا أَخْرُجُوا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، لِأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكُ الْمَدِينَةِ فَكَانَ كَمَا نَحْنُ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ.. وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلَكَانِ يُعْجَلَانِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «فَمُ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمُوجُودَتَيْنِ لِنَلَا تَهْلِكُ بِإِيْمِ الْمَدِينَةِ» وَمَا تَوَاتَى، أَمْسَكَ الرَّجُلَانِ بِيَدِيهِ وَيَدِي امْرَأَتِهِ وَيَدِي ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ الرَّبِّ عَلَيْهِ، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَةِ. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «أَهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لَا تَنْظُرْ إِلَى وِرَائِكَ، وَلَا تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. أَهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِنَلَا تَهْلِكُ» فَقَالَ لَهُمَا لُوطٌ: «لَا يَا سَيِّدُ. هُوَذَا عَبْدُكَ قَدْ وَجَدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ، وَعَظَّمْتَ لُطْفَكَ الَّذِي صَنَعْتَ إِلَيَّ بِاسْتِيقَاءِ نَفْسِي، وَأَنَا لَا أَقْدِرُ أَنْ أَهْرُبَ إِلَى الْجَبَلِ لِعَلَّ الشَّرَّ يُدْرِكُنِي فَأَمُوتَ.. هُوَذَا الْمَدِينَةُ هَذِهِ قَرِيبَةٌ لِلرَّهْبِ إِلَيْهَا وَهِيَ صَغِيرَةٌ. أَهْرُبْ إِلَى هُنَاكَ.. أَلَيْسَتْ هِيَ صَغِيرَةً؟ فَتَحَيَا نَفْسِي» فَقَالَ لَهُ: «إِنِّي قَدْ رَفَعْتُ وَجْهَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَيضًا، أَنْ لَا أَقْلِبَ الْمَدِينَةَ الَّتِي تَكَلَّمْتُ عَنْهَا. أَسْرِعْ أَهْرُبْ إِلَى هُنَاكَ لِأَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفْعَلَ شَيْئًا حَتَّى تَجِيءَ إِلَى هُنَاكَ».

لِنَدْلِكَ دُعِي اسْمُ الْمَدِينَةِ «صُوعَرَ»..

وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الْأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوعَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيَةً وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدْنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سَكَّانِ الْمُدْنَ، وَبَنَاتِ الْأَرْضِ. وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وِرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ .

سفر التثنية

(وفي ذلك الوقت ستقتتل لوتان
الحية الهاربة، وتضع نهاية
للحية الملتوية، ذات الرؤوس السبعة)

أسطوره أوغاريتية

((فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ
الْقَاسِي الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوِيَّائَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِبَةَ.
لَوِيَّائَانَ الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّيةَ، وَيَقْتُلُ التَّنِينِ الَّذِي فِي الْبَحْرِ.))

التوراة: أشعيا-٢٧: ١

لقد أقامت الآلهة الفتية نظام الكون، ودفعت عجلة الحضارة، بعد أن قضت على قوى العماء البدئية. فأحلت النظام والترتيب محل الفوضى القديمة، وبدأ العالم معها عهداً جديداً، واضح المعنى والهدف والغاية. إلا أن قوى العماء لم تعلن بعد إستسلامها الكامل.

وها هي قوى جديدة تنتسب لها، تندفع بين الحين والآخر، للهدم والخراب والقضاء على منجزات الإنسانية، في محاولة يائسة لارجاع العالم إلى حالته الكونية الأولى. وهذه القوى الجديدة، تلبس لباس القوى القديمة، فتعيد إلى الذاكرة تعامة ووحوشها الرهيبة ، فهي وحوش جبارة، وهولات ضخمة لا تنتهي للعالم البشري أو العالم الحيواني المعروف. نراها على شكل حيات هائلة ذات رؤوس متعددة، و: تنانين بحرية مريعة، أو طيور عملاقة. وتكاد هذه القوى أن تثار للعالم القديم الذي تنتهي إليه، لولا تصدّي أحد الأبطال لقتالها وإرغامها على التراجع، والحفاظ، من ثم، على أمن العالم، ونظامه، وإستقراره.

وإسطورة التّين، شائعة في كل مناطق الشرق القديم، كما أنها شائعة في معظم الأساطير العالمية. الأمر الذي يجعل ربطها برمز معين على قدر كبير من الصعوبة، دون الوقوع في ورطة التعميم وأحادية النظرة. ولكن التفسير الإنساني

يبدو مغريباً وجذاباً، خصوصاً إذا علمنا أن التفسير التاريخي لا تُثبتته الوقائع المستمدة من الأنثروبولوجيا والتاريخ الطبيعي. ذلك أن ظهور الإنسان قد تأخر فترة زمنية كبيرة عن زمن إنقراض الديناصورات الضخمة، التي سيطرت على الأرض فترة لا بأس بها من الزمن. فشاء حسن حظه إلا يجتمع بها أو يراها، إلا هياكل عظمية في متاحف العصر الحديث.

وعلى هذا إذا إتبعنا المنطق الفرويدي، نستطيع النظر إلى هذه التنانين بإعتبارها تمثيلاً لقوى اللاشعور الفردي، الذي يضطرم على الدوام بكل ما يناقض الوضع الحضاري للإنسان، تلك القوى التي تحاول دوماً إفتحام عالم الشعور. وهنا نستطيع إعتبار البطل الذي يقهر التنانين بمثابة الفرد الرى داخل المجتمع، الذي يشطح كح جماح لا شعوره والسطرة عليه ليحيا متوازناً مع قيم الجماعة، أما إذا إتبعنا المنطق اليونغي، فإننا ننظر إلى عملية الصراع مع التنانين بإعتبارها عملية بناء للشخصية الفردية individuation يتخلّص الفرد من خلالها من تأثيرات الطفولة وإعتماده على شخص الأم.

على أن حكاية البطل والتنانين، لا تقف عند حدرد الأسطورة القديمة. فنحن نجدها في جميع حكايا الشعوب الفولكلورية، وقصص الأطفال، كما أنها محببة لتفوس الناس في العصر الحديث أيضاً، حيث نرى الموضوع يتكرر في كثير من أفلام السينما التي تقص عن وحش مائي يخرج من أعماق المحيطات، أو قرد عملاق يأتي المدينة من جوف الغابات دون أن تستطيع أحدث الأسلحة القضاء عليه إلا بصعوبة بالغة.

١ / الثنين السومري

بعد أن تم تنظيم الكون السومري؛ وبعد فترة ليست طويلة من فصل السماء عن الأرض، يندفع من باطن الأرض تنين العالم الأسفل (كور) الإله المطلق لعالم الموت . والظلام، في محاولة لمد نفوذه على بقية العالم، وإرجاع الحياة إلى جماد، والحركة إلى سكون، والنور إلى ظلمات. ولكن الآلهة الشابة التي وطدت، حديثاً سلطتها تتصدى له وتُعيده إلى عالمه. وقد تصدى لكور على التوالي، وفي مواقع مختلفة، كل من انانا آلهة الحياة والحب والخصب، وأنكي إله الماء واهب الحياة، وبنورتا ابن انليل إله الهواء والحركة. والنصوص السومرية التي روت عن صراع آلهة الحياة والحركة، ضد تنين العالم الأسفل، وصلتنا في حالة سيئة من التشوه والنقص، الأمر الذي يمنع من معرفة مصير كور النهائي . إلا أن بقية الأساطير السومرية تتحدث عن كور باعتباره مكاناً لا باعتباره تنيناً أو إلهاً، مما يدل على أن كور التنين قد قُتِل في إحدى هجماته، وترك اسمه يُطلق على العالم الأسفل الذي كان يسكنه"

كور تختطف أريشكيجال:

يتحدث هذا النص عن قيام الإله كور باختطاف الإلهة أريشكيجال لتصبح

زوجة له في العالم الأسفل، وعن تصدي الإله انكي له والمعركة الي دارت بينهما^(١).

بعد أن إبعدت السماء عن الأرض

وَفُصِّلَتِ الأرض عن السماء

وتم خلق الإنسان

وأخذ (آن) السماء وإنفرد انليل بالأرض

أخذ الإله كور الإلهة اريشكيجال غنيمة

ولكن (انكي) أبحر، لكنه أبحر

أبحر الأب انكي إلى كور

قصد إلى كور مُبحراً

رماه بالحجارة الصغيرة

كما رماه بالحجارة الكبيرة

كان يرمي الحجارة الصغيرة باليد

والحجارة الكبيرة ب (....) القصب.

وبما أن هذا النص لم يكن مكرساً لرواية قصة كور واريشكيجال، فإنه لم يعن بإكمال القصة التي افترض أنها معروفة في ذلك الحين ومفصلة في نصوص أخرى. والواقع فإن هذا النص قد ورد كمقدمة لنص آخر هو نص جلجامش وأنكيدو والعالم الأسفل، حيث جرت العادة في معظم النصوص السومرية أن يبدأ الكاتب بفقرة تتحدث عن الأصول والبدائيات والأحداث الجسام التي وقعت في تلك الأزمان الأولى. على أننا نعثر على اريشكيجال في النصوص اللاحقة، وخصوصاً البابلية منها، وهي ربة للعالم الأسفل من دون كور. فهل يدل ذلك على فشل انكي في إنقاذها، ثم أن إنقاذها قد تم ثم هبطت إلى العالم الأسفل في وقت لاحق ومن خلال أحداث مختلفة؟، هذا ما لا تُجيب عليه النصوص الي بين أيدينا.

كور واناانا:

بطل التين هنا هو الإلهة أناانا، آلهة الخصب والحب، وآلهة الحرب والدمار

1 - S. Noah Kramer, Sumerian Mythology. Harper. Newyork, 1961

أيضاً، تصدى للإله كور وتتغلب عليه. فتحمل لقب (قاهرة كور) الذي نعتها به كثير من الروايات السومرية. والنص غامض وبه كثير من النقص، ولكننا نستطيع إقتباس بعض فقراته (٢).

سأرميه بالحربة الطويلة

وسأوجه ضده كل أسلحتي

وبالغابات المحيطة به سأضرم النار

وفي [.....] سوف أغرس فأسي البرونزي

وكجبل أراتا، سأنزعه عنه هيبتة

وكما يفعل جيبيل إله النار المقدسة سأجفف ماءه

وكمدينة لعنها أن لن تعود سيرته الأولى

وكمدينة نبذا انليل، لن ينهض ثانيةً.

ورغم أن (آن) يحذرهما من مغبة المخاطرة، إلا أنها في حماسة شديدة، تشهر القتال وتوجه

أسلحتها في صراع ناجح ضد كور لتطأه أخيراً بقدميها .

نورتا يُصارع أساج:

نورتا ابن انليل إله الهواء والعاصفة. وهو إله الرياح الجنوبية العاصفة، وأيضاً إله القنوات

والسدود والري. وهو في هذا النص يعتزم التصدي لأساج عفريت العالم الأسفل وإله العِلل

والأمراض والساعد الأيمن لكور. وقبل أن يتوجه للقتال يقوم سلاحه شارور (ولا يوضح لنا

النص نوع هذا السلاح) بتشجيعه وحثه على بدء الهجوم. وعندما تبدأ المعركة، يبدي أساج من

الشدّة والمراس، ما يجعل نورتا يفر وكأنه طائر. ولكن سلاحه العنيد يعود لحنه على مواصلة

القتال. وفي هذه المرة يستطيع نورتا قهر اساج والتغلب عليه. إلا أن سلسلة من الكوارث تلي

ذلك. فالعالم السفلي يتزعزع لهذه الحادثة، وتثور نائرة كور، فيبتلع أولاً المياه العذبة من

الينابيع والآبار والأنهار:

سادت المجاعة وإستحال الإنتاج

غاضبت الأنهار الصغيرة حتى لا تستطيع فيما غسل اليدين

وحرمت الحقول السقاية، ولم تحفر قنوات للري
وإختفت الزراعة من وجه الأرض، تاركة مكانها للطحالب
بعد هذه المرحلة التخريبية الأولى يدفع كور بمياه الأعماق بقوة إلى سطح الأرض لتكتسح أمامها
كل شيء. وهنا يتصدى ننورتا مرة أخرى لقوى العالم الأسفل، فيعمل على بناء سد عظيم من
الحجارة في وجه المياه، وينجح في صد هجومها المدمر وينقذ سومر.

وأما ما فاض فقد جمعه

وأما ما خرج من كور

فقد جمعه ودفعه إلى نهر دجلة

من تلك المياه التي غمرت الحقول

فانظر الآن تَر كل شيء على الأرض

يبتهج بمأثر ننورتا، ملك البلاد

الحقول تعطي حبوباً وافرة

والبساتين والكروم تحمل الثمار

والرب مسح الحزن عن البلاد

وأبهج نفوس الآلهة^(٣)

وقد سمعت ننماخ بفعال إبنها ننورتا فقامت لرؤيته. ناجته من بعيد أن يأذن لها برؤيته،
وعندما تحضر إليه يهدها جبل الحجارة الهائل الذي ردمه في وجه كور، فتحمل أسم سيدة
الجبل إي ننخرساج، وهو أسم من أسماء الأم - الأرض.

يقيم بعض الباحثون، في تفسير أساطير كور الثلاثة التي أوردناها، تشابهاً بين كور السومري
وتعامة البابلية. من هؤلاء السيد س. ن. كريم، الذي نُدين له بمعظم ما نعرف من النصوص
السومرية، والذي يطرح رأياً مفاده إن كور السومري هو أصل تعامة البابلية. وفي الحقيقة فأني
لا أرى أية رابطة تجمع بين الأثنين للأسباب التالية: أولاً:

في الأسطورة السومرية كان كور إلهاً للعالم الأسفل، وبعد زواله بقي إسمه للدلالة على عالم
الظلمات والاموات أما تعامة فلم يكن لها علاقة بالعالم الأسفل لا في حياتها ولا بعد مماتها .

ثانياً: كانت تعامة في الأسطورة البابلية إلهاً بدنياً يُمثّل العماء والهبولي الأولى ، وكان لا بد من القضاء عليها ليزوغ العالم المنظّم. أما كور السومري فلم يكن كذلك.
ثالثاً: كانت تعامة آلهة كونية. صنع مردوخ من جسدها الكون. أما كور السومري فقد تلاشى ولم يبقَ منه سوى إسمه، يطلق على مملكته التي غادرها.
رابعاً: كان صراع مردوخ مع تعامة، صراعاً سبق الخلق والتكوين . أما قتل التين كور فيحدث بعد التكوين بفترة لا بأس بها، ولا قيمة لهذا الصراع بتاتاً فيما يتعلق بعملية الخلق.

جلجامش وأرض الأحياء:

جلجامش بطل أسطوري ورد اسمه في ثبت ملوك سومر كملك لمدينة أور، من الأسرة التي حكمت بعد الطوفان. ونراه في أحد النصوص التاريخية السومرية في حرب مع آجا ملك المدينة السومرية المجاورة (كيش) إلا أن قصصاً كثيرة حيكت حول هذه الشخصية التاريخية، فرفعتها من مقام الواقع إلى عالم الأسطورة ونرى، جلجامش فيما بعد، وقد إنتقل إلى الادب البابلي، حيث قامت العبقرية الأدبية الأكادية بجمع حكايات جلجامش السومرية وحياتها في نسج رائع مع إضافات من إبتكار الكتاب الأكاديين الذين خرجوا علينا بملحمة متكاملة، هي درة الأدب القديم.

والأسطورة التي سنقدمها هنا(٤) هي إحدى تلك الأساطير التي دخلت في نسج الملحمة البابلية. ونرى فيها جلجامش الملك، يمضي لصراع وحش رهيب، سعياً وراء تخليد ذكره ورفع اسمه. فلقد أدرك جلجامش أن الموت قادم لا محالة، وأن نسبه الإلهي لن يُنجيه من مصير البشر، فقرر القيام بفعل مجيد يُخلّد به اسمه بعد موته. لأن الخلود هو خلود الذكر وعمل الإنسان الصالح :

إلى أرض الأحياء، تاق السيد الى السفر

إلى أرض الأحياء، تاق جلجامش إلى السفر

فقال لتابعه أنكيدو:

أي أنكيدو. أن الختم والأجر، لم يأتيا، بعد، بالمصير المحتوم ولسوف أدخل أرض الأحياء،

4 - S. Noah Kramer, Sumerian Myths and Epic Tales, (in: J.Pritchards Ancient Near. astern Texts, Edited, Princeton, Newyork 1969).

وأخَلدَ لِنَفْسِي هُنَاكَ أَسْمَاءً
فَفِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي رُفِعَتْ فِيهَا الْأَسْمَاءُ سَأَرْفَعُ إِسْمِي
وَفِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي لَمْ تُرْفَعْ فِيهَا الْأَسْمَاءُ سَأَرْفَعُ أَسْمِي
فَأَجَابَهُ تَابِعُهُ أَنْكِيدُوا:
بَلِّغْ أَوْتُو، الْبَطْلَ أَوْتُو
فَتَلِكِ الْأَرْضَ فِي رِعَايَةِ أَوْتُو
أَرْضَ الْأُرْزِ الْمَقْطُوعِ، فِي رِعَايَةِ أَوْتُو، بَلِّغْ أَوْتُو.
فَرَفَعَ جَلْجَامِشَ بِيَدَيْهِ جَدِيداً تَامَ الْبِيَاضَ
وَضَغَطَ إِلَى صَدْرِهِ جَدِيداً أَسْمَرَ، قَرِيبَاناً
وَبِيَدِهِ أَمْسَكَ الْعَصَا [.....] الْفِضْيَةَ
وَقَالَ مَخَاطَباً أَوْتُو السَّمَوَاتِ:
(أَيُّ أَوْتُو، إِنِّي لِدَاخِلِ أَرْضِ الْأَحْيَاءِ، فَكُنْ نَصِيرِي
إِنِّي لِدَاخِلِ أَرْضِ الْأُرْزِ الْمَقْطُوعِ، فَكُنْ نَصِيرِي))
فَأَجَابَهُ أَوْتُو:

إِنَّكَ لـ[.....] حَقًّا، وَلَكِنْ مَا بَغَيْتِكَ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ؟
(أَيُّ أَوْتُو، سَأَتَوَجَّهُ لَكَ بِكَلِمَةٍ عَلَّكَ تُصْغِي إِلَيَّ
وَكَلَاماً أَسْمِعُهُ لَكَ، عَلَّكَ تُصْغِي إِلَيَّ
فِي مَدِينَتِي يَمُوتُ الرَّجُلُ كَسِيرِ الْقَلْبِ
يَفْنَى الرَّجُلُ حَزِينَ الْفُؤَادِ..... أَنْظُرْ مِنْ فَوْقِ السُّورِ
فَأَرَى الْأَجْسَامَ الْمَيْتَةَ طَافِيَةً فِي النَّهْرِ
وَأَرَى أَنِّي سَأَعْدُو مِثْلَهَا حَقًّا
فَالْإِنْسَانُ مَهْمَا عَلَا، لَنْ يَبْلُغَ السَّمَاءَ طَوْلًا
وَمَهْمَا إِيَّسَعَ، لَنْ يُغَطِّيَ الْأَرْضَ عَرْضًا
وَإِنَّ الْخَتْمَ وَالْأَجْرَ، لَمْ يَأْتِيَا، بَعْدَ، بِالْمَصِيرِ الْمَحْتَمِومِ
سَأَدْخُلُ أَرْضَ الْأَحْيَاءِ، وَأُخَلِّدَ لِنَفْسِي هُنَاكَ أَسْمَاءً

ففي الأماكن التي رُفِعَت فيها الأسماء سأرفع إسمي
وفي الأماكن التي لم تُرَفَع فيها الأسماء سأرفع أسمى
فتقبّل أوتو دمومه قرباناً وكرجلاً رحيم أظهر له من رحمته
(ثم أسلمه) سبعة جبابرة، أبناء من أم واحدة

الأول. [.....] الذي. [.....]

الثاني، الأفعى السامة التي. [.....]

الثالث التتّين الذي. [.....]

الرابع، النار الحارقة التي. [.....]

الخامس، الحية الهائلة التي تخلع الأفئدة و. [.....]

السادس، الطوفان المدمر الذي يطغى

السابع، البرق الوامض الذي لا يصدده شيء

يلي ذلك سبعة وعشرون سطرًا، معظمها يحتوي على نقص في موضع أو أكثر. ولكن المعنى
الأجمالي كامل الواضح فبعد أن يضع أوتو تحت تصرفه تلك الجبابرة السبعة، ينطلق جليجامش
إلى مدينته طالباً خمسين متطوعاً لمرافقته في رحلته - ويشترط في مرافقيه أن يكونوا بلا بيوت
يملكونها أو زوجات أو أولاد، فيكون له ما أراد، ثم يمضي إلى الحدادين فيصنعون له ومرافقيه
أجود أنواع الأسلحة وعندما تكتمل عدته يشرع في مغامرته. يقطع جليجامش بجماعته ستة جبال
هائلة، وعند عبور الجبل السابع يجلس الركب للراحة، فيقع جليجامش في سبات عميق طويل.
وعبثاً يحاول أنكيديو إيقاظه: هزّه فلم يتحرك

تحدث إليه فلم يلقَ جواباً:

أيها المضطجع، أيها المضطجع

أي سيدي جليجامش، إلى متى ترقد؟

أظلمت الأرض، وإنتشر الليل في كل مكان

وها هو الغسق يرسل شعاعه الأخير

وأوتو قد مال إلى رافع الرأس إلى حضن أمه نيجال*.

* نيجال هي نخرساج الأرض - الأم

فيا سيدي جلجامش إلى متى ترقد؟

هل تركت من رافقتك من أبناء مدينتك يقفون في إنتظارك عند سفح الجبل؟
هل تركت أمك التي ولدتك تجرر اذيال الخيبة في ساح المدينة؟»

وهنا إنتبه من غفوته

نهض وقد جللته الهيبة كرداء

ضم إلى صدره عباءته التي تزن ثلاثين شاقلاً

وإنتصب على الأرض كثور عتي

ثم إنحنى حتى لامس فمه الأرض وبرزت أسنانه:

((أقسم بحياة أمة ننسون التي ولدتني، وبأبي لوجال بندا المقدس أني سأجابه ذلك الرجل إن

كان رجلاً، أو ذلك الإله إن كان كذلك

ستتوجه خطواتي قُدماً نحو الأمام، لا وراء نحو المدينة)).

وهنا ناشده تابعه المخلص قائلاً:

((إي سيدي، أنت لم ترَ ذلك الرجل. ولم تعرف منه الخوف

ولكني رأيته ونالني منه الهلع الشديد

أن لذلك الرجل أسنان كأسنان التتبن

ووجهه يشبه وجه الأسد وله إنقضاض كسيل دافق

من جهته التي تلتهم القصب والأشجار لا ينجو أحد.

فيا سيدي تابع رحلتك نحو تلك الأرض فأنا عائدٌ إلى المدينة ل

أخبر أمك بأمجادك فتهلك (ابتهاجاً)

وأخبرها يموتك المتوقَّع فتذرف الدمع الغزير)).

ولكن جلجامش يشجعه ويحثه على المضي قدماً فيما قَدِمَا من أجله، فيتابع الركب سيره حتى

يصل إلى غابة حواوا وحش الارز. فيشرع رجال الحملة بقطع الأشجار حول عرين حواوا الذي

يخرج للإنقضاض على مهاجميه ولكنه سرعان ما يقع في قبضة البطلين، ويبدأ في الإستعطاف

لكسب حياته :

((أي أوتو، لم أعرف لي أمّاً ولدتني، ولا أباً رعاني.

فأنت من أوجدني، وأنا مني في هذه الأرض ورعاني)).

ثم إلتفت إلى جلجامش وإستحلفه بالسماء والأرض والعالم الأسفل
أخذه من يده وشده إليه
فأخذت جلجامش الشفقة به
وقال لتابعه أنكيدو:

((أي أنكيدو لندع الطائر الحبيس يرجع إلى مقره
لندع الرجل الأسير يعود إلى حضن أمه))
فقال أنكيدو لجلجامش:
((أن مَنْ لا حصافة عنده

سرعان ما يلتمه نمتار)) * الذي لا تميز عنده
إذا عاد الطائر الحبيس إلى حضن أمه
فلن ترى ثانية، مدينة أمك التي ولدتك)).
وهنا قال حواوا لأنكيدو:

((لقد أوغرت صدره ضدي يا أنكيدو
أيها الأجير [.....] لقد أوغرت صدره ضدي)).
عندما صدر منه هذا القول قطعاً منه العنق
وقدماه ترباناً لإنليل وننليل

جلجامش وثور السماء:

وهذه أسطورة أخرى بطلها جلجامش أيضاً . ولكن اللوح الذي حملها إلينا قد وُجد على درجة
كبيرة من التشوّه والنقص، الأمر الذي يمنع تقديم ترجمة كاملة لها. ولذا سأكتفي بإعطاء فكرة
عامة عن هذه الأسطورة، مع الإستعانة بالنص البابلي المتأخر الذي أدمجها أيضاً في نسيجه،
كما أدمج أسطورة جلجامش وأرض الاحياء.

بعد النقص الحاصل في بداية اللوح، تُطالعنا الآلهة انانا وهي تُخاطب جلجامش وتُعدد له
الهدايا والأعطيات التي ستغدقها عليه. ونستطيع هنا أن

* عفرت العالم الأسفل، قابض الأرواح . ويقال عزرائيل.

نستنتج إعتماًداً على النص البابلي اللاحق أن الإلهة تعرض عليه حبها والمنافع التي ستعود عليه أن هو إخذها زوجة له. وعندما يعود النص للوضوح نجد أننا في حضرة أبيها أن، رب السماء، تطلب منه أن يعطيها ثور السماء لتقتل به جلجامش. لذا نستطع الإستنتاج أن جلجامش قد رفض حب الإلهة وركل عرض الزواج الذي تقدمت به. ولكن الإله أن يتردد في إعطاء إبنته المتهورة ثور السماء، فتلجأ إلى تهديده بخلعه عن العرش وإدارة الكون مع بقية الآلهة من دونه. فيخضح أن للتهديد ويسلمها قيادة ثور السماء الذي يهبط إلى الأرض يُعث فيها فساداً وينشر الخوف والهلع بين ظهرانيها.. وهنا ينتهي الكم الواضح من النص السومري ، ولكن النص البابلي يؤكد إنتصار جلجامش على ثور السماء حيث يواجهه مع صديقه أنكيدو فيقطعان رأسه ويقدمانه هدية للإله شمش .

٢ / الثنين البابلي

قتل اللابو:

تحدث هذه الأسطورة عن وحش جبّار يُدعى بـ (اللابو) . وقد خرج هذا الوحش من الأعماق المائية إلى ديار الحضارة محاولاً تدمير كل ما بناه الإنسان، إلى أن ينجح أحد الآلهة في القضاء عليه. يجري النص على النحو التالي: ^(٥)

تنهدت المدينة و [.....] الناس

تناقصت أعداد البشر [.....]

ولم يكن لنواحيهم أحد لـ [.....]

ولا لصراخهم أحد لـ [.....]

مَن [الذي أنجب] الحيّة ؟

تعامة [مَن أنجب الحيّة] *

قام انليل برسم شكل (للتنين) في السماء **

5 - L.W. King, The Seven Tablets of Creation, London, 1902. (Cited by A. Heide in his Babylonian Genesis).

* وفي ترجمة أخرى: البحر من أنجب الحية . راجع هيدل

** الشكل الذي رسمه انليل في السماء هو درب المجرة وما زال قائماً إلى يومنا هذا.

كان طوله خمسين ساعة مضاعفة وإرتفاعه ساعة مضاعفة.

وكان إتساع فمه ستة أذرع و[.....] أثنتي عشر ذراعاً

أما محيط أذنه فستة أذرع

كان يستطيع قنص الطيور عن بعد ستين ذراعاً

وتسعة أذرع في العمق يستطيع الإنسلاال تحت الماء

كان يرفع ذيله [.....]

وجميع آلهة السماء [.....]

سجد الآلهة أمام سن في السماء.

وبلهفة أمسكوا بأذيال رذائه:

((مَن ذا الذي سيمضي لقتل اللابو

وتخليص الأرض الواسعة

فتكون له السيادة من بعد على الجميع))

(فقال الإله سن) **

((إمضي يا تيشباك وأقتل اللابو

خلص الأرض الواسعة من شره

فتكون لك السيادة من بعد على الجميع

- لقد أرسلني سيدي لقتال وحش النهر ولكني لا أعرف اللابو))

وهنا يُصيب اللوح كسور وتشوهات تمنع من فهم محتوياته . فنقف عند خوف تيشباك وتردده

في قتال التنين. وهذا ما يُعيد إلى أذهاننا أجواء التحضير لقتال تعامة في الاينو مايليش، عندما

يتهيَّب البعض نزالها قبل أن يتطوع مردوخ. وعندما يعود النص للوضوح، نجد أنفسنا في

معمعان المعركة، دون أن نعرف أي إله قد تجرأ على المضي للقاء اللابو:

[.....] فتح فمه وقال للإله [.....]

((حرَّك الغيوم، أصنع زوبعة

* الساعة المضاعفة مقياس بابلي ويُعادل ما يقطعه الإنسان في ساعتين(عشرة كيلومترات).

** سن: إله القمر.

وخاتم حياتك (ضعه) أمام وجهك
أطلقَ سهماً وصَرَخَ اللابو [.....])
فحرَّك الغيوم وصنع زوبعة
وخاتم حياته (وضعه) أمام وجهه
أطلقَ سهماً (وصَرَخَ) اللابو [.....]
وثلاث سنوات، وثلاثة أشهر، ليل نهار
جرى دم اللابو [.....]

ينطبق على هذه الأسطورة التفسير العام الذي تقدتُ به في فاتحة هذا السفر . فالتنين هنا نتاج القوى البدئية السابقة لتنظيم الكون، دفعت به المياه، الت ترمز في الأسطورة لقوى العماء، والفوضى، إلى الكون المرتب لزعزعة بنيانه وإعادته إلى حالته السابقة. كما ينطبق على النص تفسيرنا للأسطورة بإعتبارها مغامرة للعقل الباحث عن الأسباب والغايات، وذلك في جزئها الخاص بشكل التنين. فعندما أتى انليل لشرح خطة المعركة للآلهة، قام برسم شكل اللابو في السماء، ليوضح عظمته وقوته، فكان درب المجرة الذي يقطع السماء المعتمة من أقصاها إلى أقصاها. وقد بقي ذلك الرسم محفوراً في الأعالي إلى يومنا هذا. ومن ناحية أخرى ينطبق على الأسطورة التفسير الذي يؤكد أن التنين ليس إلا قوى اللاشعور المكبوتة. ذلك أن اللابو قد أندفع من أعماق المياه التي ترمز في الأسطورة إلى أغوار اللاشعور.

ويذكرنا التفسير البابلي لوجود درب المجرة في السماء، بإسطورة أغريقية عن طفولة هرقل. فعندما تأتي الآلهة هيرا زوجة زيوس لأرضاع الطفل الخارق، يمتص من ثديها مصة قوية كانت كافية ليندفع الحليب منه إلى السماء مشكلاً درب المجرة المعروف في اللغات الأوروبية بأسم درب اللبن Milkyway نسبة إلى لبن الآلهة هيرا الذي إنتثر في الأعالي وما زال عالقاً هناك.

الطائر «زو»:

كان الطائر العملاق زو من قوى العالم الأسفل المدمرة. نرى رسومه على العديد من الأختام التي عُثِر عليها في أرض الرافدين، ويبدو فيها في هيئة هي مزيج من الإنسان والطائر. كما ورد اسمه في كثير من النصوص الطقسية وهو في صراع

مع بعض كبار الآلهة. لأحد النصوص يصف مردوخ أنه من حطّم رأس زو بينما يعزو نص آخر هذا العمل إلى الآلهة ننورتا. أما النص الذي نحن بصدده الآن، فقد وصلنا في روايتين متشابهتين، الأولى من نينوى، والثانية من سوسه. وسأقوم فيما يلي بترجمة نص نينوى لأنه الأوضح والأكمل، مع الاستعانة بنص سوسه لتوضيح مواضع النقص في الأول^(٦).
تتلخص الأسطورة في أن زو يرغب في السيطرة على الآلهة جميعاً واحتلال مركز الصدارة. ولن يتيسّر له ذلك إلا إذا سرق ألواح الأقدار التي يحملها انليل، تلك الألواح التي تعطي حاملها سلطة مطلقة في الآلهة والبشر والأكوان. ينجح طائر العالم الأسفل في مسعاه ليهرب بالألواح بعيداً تاركاً الآلهة في جزع شديد للحادث الجلل الذي أسلم مصائر الأكوان للقوى العمياء. وكما هو الأمر في أساطير التّين السابقة، فإن مهمة القضاء على الوحش توكل إلى العديد من الآلهة ولكنهم يتنصّلون منها. إلى أن يستطيع أحدهم ويحقق نصراً مؤزراً. إلا أن تشوه اللوح الفخاري ونقصه يمنعا من معرفة أسم الإله الذي نجح في تلك المهمة. والنص بمجمله ذو أصل سومري واضح، نظراً إلى أن الإله انليل يظهر فيه كرئيس لمجمع الآلهة وحامل لألواح الأقدار:

(بداية النص تالفة)

لقد شهدت عيناه سر سيطرة انليل وقوّته.

رأى تاج ملكه ورياء إلهيته

ورأى ألواح الأقدار وتملاها مراراً

وكلما رأى أبا الآلهة، رب الدورناكي

(كلما) طمعت نفسه في مركز انليل:

(سأحصل على ألواح الأقدار

وأمسك بمصائرهم جميعاً

سأرسي دعائم ملكي وأتحكّم في الأقدار

6 - E. A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: J Pritchard, ancient Near Eastern Texts, Editai Prlnctcn. New York.1979)

A. Heidel, The Babylonian Genesis. Phoenix Books. Chicago 1970.

سأحكم فوق جميع الايجي)
وهكذا، بعد أن صمم على التحرك
إنتظرَ طلوع النهار عند باب غرفة انليل
وعندما مضى انليل ليستحم في الماء الصافي
وخلع تاجه فوضعه على العرش
خطف ألواح الأقدار
فأغتصب السلطة والملك والسيادة
ثم طار زو حيث أختفى في جباله
فساد الوجوم وعم الصمت
وانليل أبو الآلهة، قد شُلَّت حركته
فالحرم المقدس، قد سُرقت هيئته وضاعت روعته
انطلقت الآلهة هنا وهناك للمشاورة
فتح أنو فمه وقال مخاطباً ابناؤه الآلهة :
(ليقم ذلك الإله ويصرع زو
ويجعل اسمه عالياً في العالم المجمع المعمور)
فدعوا بأسم الأمبر حدد ابن أنو
لما تكلم الأمر الناهي أنو:
(حدد، أيها المنتصر الجليل، ليكون إنقضاضك حاسماً
وبسلاحك فلترسل البرق يصرع زو
فيغدو أسمك عالياً في مجمع الآلهة العظام
ولا نظير لك بين أخوتك الآلهة
وستبني لك المعابد وتُشاد
فتكون جليلاً في معبد الآلهة ويعلو أسمك)
فأجاب حدد متحدثاً إلى أنو أبيه:
(أي أبت، مَنْ يستطيع الإقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟

وهل بين الآلهة أبنائك شبيه لزو؟
لقد أسك بين يديه بألواح الأقدار
وأغضب السلطة والملك والسيادة ... وطار بعيداً مختبئاً في جباله
فكلمته اليوم نافذة ككلمة رب الدورناكي
من يعترضه يؤول إلى تراب
ورؤيته تثير في الآلهة الرهبة والقنوط
وهنا طلب من أنو أن لا يمضي في الطريق
يلي ذلك تشوه وكسور في اللوح، وعندما يتضح النص، نجد أنو جاداً في إقناع إله آخر في الماضي
إلى زو .

فدعو إليه «شارا» ابن عشتار

فتكلم إليه الأمر الناهي:

«شارا أيها المنتصر الجليل ليكن إنقضاضك حاسماً

فيغدو أسمك عالياً بين الآلهة العظام

ولا نظير لك بين أخوتك الآلهة

وستبني لك المعابد وتُشاد

وفي جهات الأرض الأربعة ستقام هياكل لعبادتك

وستبني هذه الهياكل حتى في ايكور

فتكون جليلاً في حضرة الآلهة ويعلو أسمك)

فأجاب شارا متحدثاً إلى أبيه أنو:

«أي أبت، من يستطيع الأقتراب من تلك الجبال الرهيبة؟

وهل بين الآلهة أبنائك شبيه لزو؟

لقد أسك بين يديه بألواح الأقدار

وأغضب السلطة والسيادة

إلى هنا ينتهي الجزء المقروء من النص. إلا أننا نستطيع الإستنتاج بأن واحداً من الآلهة قد تطوَّع

لقتال زو وأكمل مهمته بنجاح، ذلك أن لقب قاهر زو قد ألصقَ بأكثر من عمل فني قد صوِّر

مصرع ذلك الوحش الجبار.

٣ / الثنين الثوراتي

لم يترك إله اليهود «يهوه» صفة من صفات آلهة السورين، أو فعلاً من أفعالهم، أو صلاحية من صلاحياتهم، إلا وإدعاها لنفسه، كما ألمحنا إلى ذلك في سفر البداية. فهو ايل نفسه إله السموات السوري، لم يكتف بنقل صفاته وصلاحياته، بل إدعى لنفسه الأسم ذاته. وهو أدون (ادونيس)، إدعى لنفسه الأسم وناداه به عباده في مواضع كثيرة من الكتاب المقدس. وهو مُذلل المياه الأولى كمردوخ وبعل، نقرأ في التوراة « صَوْتُ الرَّبِّ عَلَى الْمِيَاهِ. إِلَهُ الْمُجْدِ أَرَعَدَا الرَّبُّ فَوْقَ الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ. ، صَوْتُ الرَّبِّ بِالْقُوَّةِ. صَوْتُ الرَّبِّ بِالْجَلَالِ...»^(٧) « أَنْتِ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ،»^(٨) وهو يركب السحاب كما يفعل بعل « أَلْجَاعِلُ السَّحَابِ مَرْكَبَتُهُ، الْمَأْثِي عَلَى أَجْنِحَةِ الرَّيْحِ. »^(٩) كما لم يتورع يهوه عن مصارعة الجيوش الهائلة والتنانين وحيات البحر. وهو في سبيل ذلك يتخلى عن الشمولية والإطلاق، لأن الخالق لا يصارع مخلوقاته، بل يصارع أنداده. وبدافع من غيرته العظيمة من الإله بعل، الذي بقي اليهود وملوكهم يعبدونه

(٧) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور التاسع والعشرين.

(٨) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور التاسع والثمانين.

(٩) العهد القديم، سفر المزامير، المزمور أربعة ومائة.

إلى فترات متأخرة جداً من تاريخهم، نجد يهوه يُجدد مرة أخرى الصراع القديم الذي خاضه بعل مع التّنين لوتان، وذلك في نص توراتي يتطابق حرفياً مع النص الأوغاريتي. وقد أوردنا النصين في فصل التكوين التوراتي، ونوردهما هنا مرة أخرى:

النص الأوغاريتي	سفر أشعيا ٢٧ : ١
والآن تريد ان تقتل لوتان الحية الهاربة الآن تريد أن تجهز على الحية الملتوية «شالباط» العتية ذات الرؤوس السبعة	فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يُعَاقِبُ الرَّبُّ بِسَيْفِهِ الْقَاسِي الْعَظِيمِ الشَّدِيدِ لَوْتَانَ، الْحَيَّةَ الْهَارِبَةَ. لَوْتَانَ الْحَيَّةَ الْمُتَحَوِّتَةَ، وَيَقْتُلُ التَّنِينَ الَّذِي فِي الْبَحْرِ

وفي نصوص أوغاريتية أخرى نجد أن عناة، حبيبة بعل، تقوم أيضاً بقتل التّنين وسحق الحية الملتوية (١٠).

أي جوبار وأغار ما الذي أتى بكما هنا

أي عدو قد قام في وجه بعل

وأي خصم ناهض راكب الغيوم

أَلَسْتُ التي محقت «يم» حبيب ايل

أَلَسْتُ التي قضت على نهر الإله العظيم

أَلَسْتُ التي أفنت التّنين

وسحقت الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة؟

وفي أماكن أخرى من التوراة، نجد إشارات أخرى لنفس التّنين: (١١)

أنت شققَتَ البحر بقوّتك

كسرتَ رؤوس التنانين على المياه.

أنت رضضت رؤوس لوياتان
جعلته طعاماً للشعب، لأهل البرية
أنت فجرت سيلاً وعيناً
أنت بيست أنهاراً دائمة الجريان
لك النهار ولك الليل أيضاً
أنت هيأت النور والشمس
أنت نصبت كل تخوم الأرض
الصيف والشتاء أنت خلقتها

في هذا النص نجد قصة أخرى للتكوين. فعملية الخلق تلي التغلب على المياه وعلى لوياتان وبقية التنانين وهذا الجو يُذكرنا بصراع مردوخ مع تعامة، وقهره لها ولجيشها المؤلف من تنانين وأفاع ومخلوقات عجيبة. وفي نص توراتي آخر، نقرأ وصفاً حياً للوتيان، يُعيد إلى ذاكرتنا وصف تعامة وجبروتها: (١٢)

(مَنْ يَفْتَحُ مِصْرَاعِي فَمَهْ؟ دَائِرَةُ أَسْنَانِهِ مُرْعِبَةٌ. عِطَاسُهُ يَبْعَثُ نُورًا، وَعَيْنَاهُ كَهَيْدُبِ الصُّبْحِ. مِنْ فَمِهِ تَخْرُجُ مَصَابِيحُ، شَرَارُ نَارٍ تَتَطَايَرُ مِنْهُ. مِنْ مِخْرَنِهِ يَخْرُجُ دُخَانٌ كَأَنَّهُ مِنْ قَدْرِ مَنْفُوحٍ أَوْ مِنْ مِرْجَلٍ. نَفْسُهُ يُشْعِلُ جَمْرًا، وَلَهَيْبٍ يَخْرُجُ مِنْ فِيهِ. قَلْبُهُ صُلْبٌ كَالْحَجَرِ، وَقَاسٍ كَالرَّحَى. عِنْدَ هُوْضِهِ تَفْرَعُ الْأَقْوِيَاءُ. يَحْسِبُ الْحَدِيدَ كَالْتِينِ، وَالتُّحَاسَ كَالْعُودِ النَّخْرِ. حِجَارَةُ الْمُقَالَعِ تَرْجِعُ عَنْهُ كَالْقَشَنِ. يُضِيءُ السَّبِيلَ وَرَاءَهُ فَيُحَسِبُ اللُّجَّ أَشْيَبَ. لَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ نَظِيرٌ.)

والى جانب لوياتان، هناك تنانين أخرى يُصارعها يهوه ويتغلب عليها. منها (رهيب) الذي نقرأ عنه في أكثر من موضع في العهد القديم: (اسْتَيْقِظِي، اسْتَيْقِظِي! الْبَيْبِي قُوَّةٌ يَا ذِرَاعَ الرَّبِّ! اسْتَيْقِظِي كَمَا فِي أَيَّامِ الْقَدِيمِ، كَمَا فِي الْأَدْوَارِ الْقَدِيمَةِ. أَلَسَتْ أَنْتِ الْقَاطِعَةُ رَهَبِ، الطَّاعِنَةُ التَّيْنِ؟"، أَلَسَتْ أَنْتِ هِيَ الْمُنْشَفَّةُ الْبَحْرَ، مِيَاةَ الْعَمْرِ الْعَظِيمِ، الْجَاعِلَةَ أَعْمَاقَ الْبَحْرِ طَرِيقًا لِعُبُورِ الْمُفْدِيَيْنِ؟ (١٣).

وهذا النص يُذكرنا بحدِيثِ عِناةِ فِي النِصِ الْأَوْغَارِيَتِي السَّالِفِ الذِّكْرِ: أَلَسَتْ الَّتِي سَحَقْتَ يَم
..... الخ

(١٢) أيوب الإصحاح ٤١: ١٤-٢٣

(١٣) أشعيا، الإصحاح ٥١: ٩-١٠.

وفي مكان آخر في العهد القديم نقرأ عن رهب أيضاً:

(مَنْ يُشْبِهُ الرَّبَّ بَيْنَ أُنْبَاءِ اللَّهِ؟ ، إلهٌ مَهُوبٌ جِدًّا فِي مُؤَامَرَةِ الْقَدِيدِينَ، وَمَخُوفٌ عِنْدَ جَمِيعِ الَّذِينَ حَوْلَهُ. يَا رَبُّ إلهَ الْجُنُودِ، مَنْ مِثْلُكَ؟ قَوِيٌّ، رَبُّ، وَحَقُّكَ مِنْ حَوْلِكَ. أَنْتَ مُتَسَلِّطٌ عَلَى كِبْرِيَاءِ الْبَحْرِ. عِنْدَ ارْتِفَاعِ لُجَجِهِ أَنْتَ تُسَكِّمُهَا. أَنْتَ سَحَقْتَ رَهَبَ مِثْلِ الْقَتِيلِ. بِذِرَاعِ قُوَّتِكَ بَدَّدْتَ أَعْدَاءَكَ. لَكَ السَّمَاوَاتُ. لَكَ أَيْضًا الْأَرْضُ. الْمَسْكُونَةُ وَمِلْؤُهَا أَنْتَ أَسَّسْتَهُمَا. الشِّمَالُ وَالْجَنُوبُ أَنْتَ خَلَقْتَهُمَا.) (١٤).

يحتوي هذا النص على أصداء وثنية واضحة، فالرب واقف في مجمع الآلهة، أي أبناء الله، ولا نظير له بينهم كبعل أو مردوخ . وهو عظيم لأنه أنتصر على المياه. وعلى التين رهب، ثم يتابع أعمال الخلق، تماماً كمردوخ.

وعن رهب نقرأ أيضاً (الرب لا يرد غضبه، يَنْحَنِي تَحْتَهُ أَعْوَانُ رَهَبٍ) (١٥).
("بِقُوَّتِهِ يُرْعِجُ الْبَحْرَ، وَيَفْهَمُهُ يَسْحَقُ رَهَبَ. يَنْفَخَتِ السَّمَاوَاتُ مُسْفِرَةً وَيَدَاهُ أَبْدَأَتَا الْحَيَّةَ الْهَارِيَّةَ.) (١٦).

هذا، وقد إنتقل (رهب) إلى الأساطير المسيحية فيما بعد . ولكن الإله هنا لا يباشر بنفسه قتال التين بل يترك ذلك لأحد القديسين، وهو القديس جاورجيوس الذي تمثله الأعمال الفنية المسيحية في القرون الوسطى وهو يطعن بحريته التين الرهيب.

(١٤) المزمير، المزمور ٨٩: ٦-٢ .١

(١٥) أيوب، الإصحاح ٩: ١٣-١٤ .

(١٦) أيوب، الإصحاح ٢٦: ١٢-١٣ .

سفر الفروع والنفوس

(وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ)
قرآن كريم: البقرة. ٢٤؛

(وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةٍ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا.
وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا،
وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا».)

العهد القديم - سفر التكوين، ١٥: ١٧

١ / الجنة السومنية

منذ أن زالت المشاعة الإبتدائية، وفقد الفرد سلطته على وسائل إنتاجه لصالح الآخرين، تحول العمل من متعة تحقيق للذات، إلى عبودية وإغتراب، ومن طقس جماعي مرض، إلى وحدة قاسية بلا هدف أو غاية إلا لقمة عيش يومية تدفع للإستمرار يوماً آخر. ومع نضوج المجتمعات الأبوية التسلطية وإحكام حلقاتها على الأفراد، صار الإنسان إلى حالة إحباط دائمة هي شرطه الأساسي في حياة تبدو بلا معنى ولا تسعى إلى غاية، سوى موت يضع حداً لفصل مؤلم. ولكن المجتمع التسلطي إسّطاع أن يحرم الفرد من كل شيء، لا من رغبة في التغيير بادية أو كامنة و.. حلم. تجلّت رغبة التغيير في ثورات البشر عبر التاريخ في سبيل حياة أفضل وحرية أكثر. وتجلّى الحلم، بديلاً عن الفعل، في أدبيات البشر التي تصف عالماً قادماً، هو حرية كاملة ومساواة مطلقة وراحة من لعنة العمل المفروض على الإنسان ، عالم لا مرض فيه ولا عناء ولا شيخوخة ولا موت. فكانت أساطير الجنة لدى كل الشعوب، تعبيراً سلبياً عن رغبة في التعبير لم تخرج إلى حيز الفعل، أو فعل تم إحباطه فصار حلماً يُنتظر.

أسطورة العص الذهبي:

عَبَّرَ السومريون عن ذلك الحلم في نص جميل يصف العصر الذهبي للإنسان قبل هبوطه إلى دنيا العبودية والعمل المغترب، حيث كان سيداً لنفسه وسيد الطبيعة:⁽¹⁾

في تلك الأيام، لم يكن هناك حية ولا عقرب ولا ضبع
لم يكن هناك أسد ولا كلب شرس ولا ذئب
لم يكن هناك خوف ولا رعب
لم يكن للإنسان من منافس
في تلك الايام كانت (شوبور) أرض المشرق، أرض الوفرة وشرائع العدل
وسومر أرض الجنوب، ذات اللسان الواحد، أرض الشرايع الملكية
و(أورى) أرض الشمال، الأرض التي يجد فيها كل حاجته
و(مارتو) أرض الغرب، أرض الدعة والأمن
وكان العالم أجمع يعيش في إنسجام تام
ولسان واحد يُسَبِّحُ الكل بحمد انليل.

أسطورة دلمون:

أما الجنة، بمفهومها الذي تجلّى، فيما بعد، في التوراة، فُتَحِدِنَا عنها أسطورة أخرى هي أسطورة دلمون⁽²⁾:

أرض دلمون مكان طاهر، أرض دلمون مكان نظيف
أرض دلمون مكان نظيف، أرض دلمون مكان مضيء
في أرض دلمون لا تنعق الغربان
ولا تصرخ الشوحة صراخها المعروف
حيث الأسد لا يفترس أحداً ولا الذئب ينقض على الحمل

1 - S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork. 1961

2 - ibid

ولا الكلب المتوحش على الجدي

ولا الخنزير الجري يلتهم الزرع

والطير في الأعالي لا [.....]صغارها

والحمامة لا [.....] رأسها

حيث لا أحد يعرف رمد العين

ولا أحد يعرف آلام الرأس

حيث لا يشتكي الرجل من الشيخوخة

ولا تشتكي المرأة من العجز

حيث لا وجود لمنشد ينوح ولا لجوال يعول

في هذا الفردوس، كان يعيش انكي إله السماء العظيم، وزوجته ننخرساج الأرض-الأم، كما عاش في الفردوس التوراتي فيما بعد آدم وحواء. وقد أخرج انكي ماءه وسقى تربة زوجته الأرض، فحول دلمون إلى جنة إلهية خضراء. ومن اتحاد الماء (انكي) بالتربة (ننخرساج) يمتليء الفردوس بالحقول والأشجار والثمار، كما تظهر مجموعة من إلهات النبات يقوم انكي باغوائهن تاركاً زوجته. ثم أن ننخرمراج تقوم بخلق ثمانية أنواع من النباتات العجيبة. وقبل أن تفرح بعملها، يرسل انكي رسوله أيسمند. الذي يقطف له تلك النباتات فيأكلها جميعاً. وما أن تعلم الخالقة بذلك، حتى تغضب غصباً شديداً، وترسل على انكي لعنة مقيمة: (إلى أن يوافقك الموت، لن أنظر إليك بعين الحياة). إلا أن الآلهة الآخرين يجزعون لهذا الأمر، ذلك إن اللعنة على انكي تعني شح المياه وغوصاً إلى باطن الأرض تدريجياً. ويحار مجمع الآلهة في كيفية معالجة الأمر خصوصاً وإن ننخرساج قد غابت عن الأنظار حتى لا تفسير رأيها أو تخضع لضغط أحد. أما انكي فتشدد عليه الأمراض وتهاجمه ثمانية علل بعدد النباتات التي أكلها وأخذ. ينهار تدريجاً. وأخيراً ينقذ الثعلب الموقف عندما يتطوع للبحث عن ننخرساج ويجدها في النهاية. وتخضع ننخرساج لمشينة الآلهة وتقوم بشفاء انكي عن طريق خلق ثمانية آلهة. كل إله يختص بشفاء أحد أعضاء أنكب العليلة.

- ننخرساج: ما الذي يوجعك يا أخي

- ننكي: أن فكي هو الذي يوجعني

- ننخرساج، لقد أوجدت لك الإله ننتول

- ننخرساج: ما الذي يوجعك يا أخي

-انكي: إن ضربي هو الذي يوجعني

- ننخرساج: لقد أوجدت من أجلك الإله ننسوتو

وهكذا يتابع تعداد أوجاعه وتتابع ننخرساج خلق آلهة الشفاء من أجله. إلى أن يصل إلى ضلعه:

- ننخرساج : ما الذي يوجعك يا أخي

- أنكي: أن ضلعي هو الذي يؤلمني

- ننخرساج: لقد أوجدت من أجلك الآلهة ننتي

هذا ويناقش بعض علماء السومريات في أن كلمة (تي) في السومرية تعني ضلع، ولكنها تعني أيضاً

(أحيا) أو(جعله يحيا) أما كلمة (نن) فتعني سيدة، كما رأينا سابقاً من تحليل إسم ننخرساج التي

تعني سيدة الجبل. وعلى هذا يكون أسم الآلهة (ننتي) يعني سيدة الضلع أو السيدة التي تُحيي.

وهذه السيدة شبيهة بحواء التوراة التي أُخذت من ضلع آدم فهي سيدة الضلع وهي حواء بمعنى

التي تحيي.

لقد أسست الأسطورة السومرية لأساطير الجنة، اللاحقة في المنطقة، ولأسطورة سقوط

الإنسان، وفقدانه عالمه الذهبي القديم. ورغم أنه لا توجد بين أسطورة سومرية تحكي

كيفية فقدان الإنسان لعصره الذهبي وهبوطه إلى عالم الذل والهوان، إلا أننا نستطيع إفتراض

وجود مثل هذه الأسطورة أستنادا لما تقصه أسطورة العصر الذهبي السومرية علينا من أوضاع

الإنسان السابقة على الهبوط.

٢ / الجنة البابلية

لم يعثر حتى الآن على أسطورة بابلية مشابهة لأسطورة دلمون، رغم الأشارات الدالة على وجود مثل هذه الأسطورة . فنحن نعلم من أسطورة الطوفان البابلية أن أرض دلمون هي مكان الخالدين، لأن أتنابشتيم وزوجته بعد أن ينقذا الحياة على سطح الأرض من الطوفان، يكافئهما أنليل يجعلهما من الخالدين، وكانا قبلاً من البشر الفانين، ويُسكِنهما في (دلمون) حيث منابع الأنهار. فدلْمون إذن هي الجنة السومرية البابلية، وهي مرتع الآلهة الخالدين، ولكنها في نفس الوقت مسكن البشر ممن أُسبِغَتْ عليهم نعمة الخلود. وتُحدِّثنا ألواح أوغاريت عن جنة مماثلة. فالإله ايل يسكن عند منبع الأنهار أيضاً، كما هو الأمر في دلمون وفي فردوس التوراة حيث تنبع أنهار فيشون وجيحون وحداقل والفرات .

أما سقوط الإنسان فتنقله لنا أسطورة أخرى وهي أسطورة (أدابا) وأدابا هنا هو الإنسان الأول الذي خسر الخلود بسبب غلطة، وهذه الغلطة رغم أنها ترجع إلى سوء تفاهم، وسوء نية الإله إيا الذي خلقه، إلا أنها في نتائجها تتلاقى مع نتائج خطيئة آدم. فكلاهما خسر الحياة الابدية وجلب الموت على ذريته. ونلاحظ هنا تشابه الأسمين، آدم - أدبا ...

قام الإله (ايا) بخلق أدبا لخدمة معبده، وصيد السمك للآلهة، وجعله عاقلاً وأسبغ عليه الحكمة الكاملة غير أنه لم يهبه الحياة الابدية. وفي أحد الأيام بينما كان أدبا يصطاد على شاطئ الخليج العربي، هبّت رياح الجنوب وقلبت قاربه ورمته به في الماء. فغضب لذلك ولعنّها على ما فعلت، فأنكسر أحد جناحها ولم تستطع الهبوب مرة أخرى. وبعد سبعة أيام من إختفاء ربح الجنوب، دُعِيَ أدبا للمثول أمام أنو كبير الآلهة، لإستجوابه على ما فعله. وقبل صعوده زوّده خالقه (أيا) بعدد من النصائح، وأشار عليه أن يُطيل شعره، ويلبس ثياب الحداد، للتأثير على الإلهين تمّوز وجيزيدا حارسا بوابة السماء، عندما يسألان عن سبب حداده، يُجيب أنه حزناً على تمّوز وجيزيدا اللذين كانا يعيشان على الأرض ثم أختفيا - أن ذلك سيسرهما ويسمحه له بالمرور. كما قال له أن طعام الموت وماء الموت سيُقَدَّمان له في السماء وعليه إلا يأخذ منهما شيئاً.

وعندما مثل أدبا أمام أنو وأستجوبه قام تمّوز وجيزيدا بالوقوف إلى جانبه، ويبدو إن المسألة سارت في صالحه، فلم يكتف أنو بالعفو عنه بل قرر مكافأته بضمه إلى صف الخالدين، طالما أنه دُعِيَ للمحكمة وإطّلع على أسرار السماء. فأمر له بطعام الحياة ليأكل إلا أن أدبا ملتزماً بوصية إيا فلم يمد يده إلى الطعام.

وعندما أمر له بشراب الحياة أمتنع عن الشرب. فدعاه أنو للاقتراب منه ضاحكاً وقال له : لماذا فعلت ذلك يا أدبا؟ لماذا ألم تأكل ولم تثرب؟ أليست صحتك على ما يُرام؟ ثم إلتفت إلى حاشيته وقال: خذوه واعيدوه إلى الأرض. خسر أدبا الحياة الأبدية لانه لم يأكل ولم يشرب مما قُدِّم له فأعيد إلى الأرض الفانية يعمل ويتعذب هو وذريته من بعده.

عُثِر على الأسطورة في نسختين في مكتبة آشور بانيبال، وكل نسخة مكتوبة بخط مغاير، وتختلف قليلا في روايتها عن الأخرى. كما عُثِر على نسخة منها بالخط المسماري في أرشيف الفرعون المصري أمنحوتب الثالث، إلى جانب النصوص السامية الأخرى التي وُجِدَت هناك، والتي كانت تُشكل جزءاً من التبادل الثقافي بين الحضارين. وقد كُتبت كل من النسختين على لوحين إلا أن الألوح قد وصلتنا في حالة مشوهة مع فقدان معظم أجزائها.

أسطورة أدبا - النسخة الأولى: (٣)

اللوح الأول:

لقد أعطى كل الحكمة [.....]

وأمره من أمر أنو وكلمته. [.....]

لقد زُود بالفهم الكامل لإنقاذ كلمة الآلهة على الأرض

لقد أعطى الحكمة ولكنه لم يُمنح الحياة الأبدية

في تلك الأزمان ابن أريدو الحكيم.

(إيا) خلقه ليكون أول البشر ورائداً لهم.

وأمر إيا الحكيم كان نافذاً لا راد له.

فهو البارع والفاثق الحكمة بين الآلهة.

خلق أدبا الطاهر حارساً للمعبود وقيماً على الشعائر.

فكان خبازاً يصنع الخبز.

كان خبازاً يقدم الخبز لأريدو.

كان يقدم الطعام والماء كل يوم لأريدو وبيده الكريمة خط الألواح المقدسة،

التي لم تكن توجد لولاه

كان يشرع مركبة ويصطاد السمك لأريدو.

في تلك الأزمان أدبا ابن أريدو،

أدبا ابن إيا كان يؤوب مساءً إلى بيته.

ويقصد بوابة المدينة في نهاية كل يوم،

وُرسى مركبه على رصيفها في ميناء القمر الجديد.

وذات مرة هبّت الريح ودفعت بمركبه بعيداً.

فراح يضرب بمجدافيه بقوة

3 - E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: Ancient Near Eastern Texts. Edited) Princeton. New Jersey

1969

A. Heidel, The Babylonian Genesis, Phoenix Books, Chicago, 1970.

* في تلك الأزمان كانت المدن مسكونة بالآلهة فقط.

[.....] في البحر الواسع.

(بقية اللوح مفقودة)

الكسرة الثانية:

(البداية مكسورة)

لقد هبت ريح الجنوب وأغرقتة.

دافعة إياه إلى عالم إيا.

ريح الجنوب [.....]

(سأكسر لك جناحك) وما أن نطق فمه بذلك،

حتى كُسر جناح الريح، ولسبعة أيام ... لم تهب على أرض أنو

إستدعى وزيره «لابرات» قائلاً:

(لماذا لم تهب رياح الجنوب في الأيام السبعة الأخيرة فأجابه وزيره لابرات قائلاً: مولاي،

أن أدبا ابن إيا قد كسر جناح رياح الجنوب.

فلما سمع أنو هذا القول،

نهض عن عرشه وصاح قائلاً: ليأتوا إليّ به

وهنا عرف إيا بالأمر، وهو المطلع على مجريات السماء

فألبس أدبا شعراً طويلاً،

وزوده بوشاح الجِداد يضعه عليه.

وقال له: أي أدبا، ستمضي إلى أنو، الملك،

وفي صعودك ستأخذ طريق السماء،

وتقترب من بوابة أنو.

ويكون في حراستها (تموز) و (جزيدا)

وعندما يريانك سيسألانك قائلين: أيها الإنسان،

من أجل من تبدو في هذه الهيئة؟

من أجل من ترتدي وشاح الحزن؟ فتُجيب.

لقد غاب عن الأرض إلهان.

ولذا تجدانني حزيناً عليهما. فيسألان:

ومن هما الإلهان الغائبان؟ فتُجيب:

إنهما تمّوز وجزيذا، وهنا سينظران لبعضهما،
وسيبتسمان ويقولان لك قولاً كريماً،
وسيتحدثان من أجلك في حضرة أنو،
وسيقفان إلى جانبك لدى مثولك أمام أنو
ولسوف يُقدّم لك طعام الموت،
فلا تأكله، وشراب الموت سيقدم إليك،
فلا تشربه. وسيعطونك، عباءة فإلبسها وزيتاً فإدهن به نفسك.
هذه وصاياي فإعمل بها والكلمات، ... التي أقولها لك فإحفظها.
ثم وصل رسول أنو وقال: لقد كسر آدابا.
جناح رياح الجنوب وعليه أن يمثل أمام أنو.
ثم أعطاه طريق السماء، وإلى السماء دفع به.
وعندما وصل إلى بوابة أنو.
كان تمّوز وجزيذا يقفان على البوابة
وما إن شاهداه حتى صاحا به.
أيها الإنسان من أجل من تبدو في هذه الهيئة؟
آدابا من أجل من ترتدي وشاح الحزن؟
- «لقد غاب عن الأرض إلهان ولذا فأنا حزين
إنهما تمّوز وجزيذا» فنظرا إلى بعضهما،
وإبتسما. وعندما دخول آدابا على أنو الملك،
رفع أنو صوته لم رآه قائلاً:
إقترب مني يا آدابا. لماذا كسرت جناح رياح الجنوب؟
فأجاب آدابا قائلاً «مولاي.
لقد كنت أضطاد السمك في عرض البحر لبيت سيدي،
وكان البحر هادئاً كأنه المرآة .
ثم هبت رياح الجنوب وأغرقني

دافعة بي إلى عالم سيدي*، وفي ثورة غضبي،

لعنت رياح الجنوب) تمّوز، وجيريدا

وقفنا إلى جانبه وقالنا لأنّو كلمات حسنة

فهدأت خواطر آنو ولبث ساكناً،

- (لماذا كشف إيا لإنسان غير مقدّس

مكنونات السماء والأرض؟**

لقد جعله قوياً وجعل له أسماً

فماذا نصنع به؟ هاتو له.

بطعام الحياة ليأكل منه)

فجلبوا طعام الحياة. ولكنه لم يقربه. وشراب الحياة

فلم يشرب منه. وعباءة

جلبوا له فلبسها. وزيتاً جلبوا له فدهنَ به نفسه فنظر آنو إليه وضحك منه :

تعال إلى يا آدابا. لماذا لم تأكل ولم تشرب.

أليست صحتك على ما يُرام؟ : «لقد أمرني إيا سيدي ألّ أكل أو أشرب»

خذوه وأعيدوه إلى الأرض.

وهكذا فعل إيا كما فعل يهوه في الأسطورة التوراتية. لقد خلق الإنسان وحجب عنه الخلود،

صنعه كاملاً وحكيماً وسيداً ولكنه دفعه للخطيئة المميتة، لأن الحياة الأبدية يجب أن تبقى وقفاً

على الآلهة وحدهم. ونستطيع أن نلمح تشابهاً

* عالم إله المياه. ** ربما كان هذا السطر يُشير إلى مقدره آدابا على كسر جناح الريح بقوة كلمته السحرية المستمدة

من إيا . أو ربما كان يُشير إلى نتائج الحادث حيث صعد آدابا إلى السماء وتعرّف على ما لا يجب من الأسرار.

ويذكر هذا السطر بقول يهوه في أسطورة الفردوس التوراتية: «هُؤَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَوَاجِدٍ مِنَّا عَارِفًا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.

وَالآنَ نَعْلَهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الْأَبَدِ».

من العبادة التي أعطيت لأدبا ليلبسها وبين الردائين اللذين أعطيا لأدم وزوجه ليلبسهما عشية خروجهما من الجنة ((وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ لِأَدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا)).

النسخة الثانية:

اللوح الأول:

(البداية تالفة)

عندما سمع أنو هذه الأمور

[.....] وفي سَوْرَةَ غضبه وحنقه

[.....] أرسل من عنده رسولاً

[.....] غير أن إيا العليم بسرائر الآلهة العظيمة

[.....] أرسل كلمة لأدبا

[.....] فحضر أدبا إلى إيا الملك

.....

ثم أن إيا العليم بما تخفي صدور الآلهة

دَلَّه على معارج السماء

وأسدل عليه شعراً طويلاً

[.....] وألبسه وشاح الحزن

وأخذ ينصحه قائلاً له:

((أي أدبا ستمضي الآن إلى أنو الملك

فإسمع وصاياي وأحفظ كلماتي

عندما تصعد إلى السماء وتقرب بوابة أنو

ستجد تمّوز وجيزيدا على بوابة أنو.

البقية مكسورة)

اللوح الثاني:

(البداية تالفة)

أمر له بالزيت فدهن به نفسه

وطلب له العباءة فلبسها

فضحك آنو عالياً من فعال آدابا :

يا آلهة السماء جميعاً مَنْ حَقَرَه على ذلك؟

ثم يمنع النقص الحاصل في السطور من إعطاء فكرة واضحة عن بقية اللوح، إلا أننا نعلم أن فعلة آدابا قد جرّت الأمراض والعِلل على جنسِه. غير أن هذه الأمراض والعِلل قابلة للشفاء عن طريق الآلهة (نن كارا) آلهة الشفاء. ويبدو أن هذه الأسطورة كانت تُتلى كجزء من تعويذة لشفاء المرضى.

ولقد عُثِر على ختم بابلي أثار كثيراً من الجدل بسبب تمثيله لقصة شبيهة جداً بقصة سقوط الإنسان التوراتية، نجد في الرسم رجلاً وإمرأة يجلسان متقابلين وبينهما شجرة يمدان يديهما إلى ثمارها، وخلف المرأة تنتصب حية طويلة في وضع أشبه بوضع الهامس في أذن المرأة. فهل يحكي لنا هذا الرسم فعلاً أسطورة السقوط الأصلية؟؟ وهل سنجد في المستقبل النص الذي يحدثنا عنه؟ في الواقع أن شدة قرب الرسم للرواية التوراتية يجعلني أميل للرأي القائل بأن هذا الختم يُصوّر لنا رواية فُقدت نصوصها لتظهر في التوراة من جديد.

منازبات في أساطير الشعوب:

أن الحديث عن إبتلاء الإنسان بالشرور والأمراض والأوبئة نتيجة خطئه، يحقّز للأذهان عدداً من الأمثلة الموازية في ميثولوجيا الحضارات الأخرى؛ ومنها أسطورة باندورا اليونانية^(٤). فقد عهدت الآلهة إلى بروميثيوس وأخيه أمر تجهيز المخلوقات بما يلزمها لمواجهة عوامل الطبيعة، ومشاق الحياة على الأرض، فقام أخوه منفرداً بهذه العملية وأعطى كل شيء للحيوانات من شعر ووصوف وأنياب وأظافر..... الخ. وترك الإنسان عارياً لا سلاح ولا كساء. لكن بروميثيوس، إحساساً منه بالمسؤولية، قام بسرقة النار الآلهية من السماء، وأفشى سرها لبني البشر. فيغضب زيوس أشد الغضب لفعلة بروميثيوس، ويقرر الإنتقام منه فيوعز إلى ابنه هيڤستوس (فولكانو) أن يصنع نموذجاً من طين أعطاه زيوس الحياة ودعاها (المرأة)

4 - M. S. Shapiro, A Dictionary of Mythology. Granada, London and New York 1981 pp 14,161

ثم جاءت الآلهات فأعطيتها من حسنهنَّ وجمالهنَّ وعذوبتهنَّ، وأُطلقَ عليها أسم (بانديورا) أي سيدة النِّعم . وأرسل بها زيوس إلى بروميثيوس واخيه ، أمَّا الأول فقد كان حذراً من هدية زيوس ولم يقبلها. بينما قبلها الثاني واتخذها زوجةً له. فما كان منها بعد أن أُستقر بها المقام، حتى جاءت إلى الجرة الكبيرة التي كان زيوس قد أودعها لدى الاخوين قائلاً لهما ألا يفتحاها ففتحتهما. ومنها خرجت إلى الأرض كل الأوبئة والأمراض والغرور، التي ما زال الإنسان مبتلياً بها حتى الآن بسبب المرأة.

وتشارك أساطير شعوب عديدة في القول بمسؤولية المرأة عن فقدان الإنسان للحياة الأبدية وابتلائه بالأوبئة والأمراض، منها بعض الأساطير البدائية كأسطورة قبائل في مونتانا. تقول الأسطورة: (٥)

كان في قديم الزمان إله عجوز. ثم أن هذا الإله فكر في أن يخلق الأشياء والإنسان ومظاهر الطبيعة المختلفة، فقام إلى عمله مرتحلاً من الجنوب إلى الشمال، صانعاً في طريقه الحيوانات والطيور والجبال والأنهار والوديان والشلالات، مشكلاً صورة العالم كما نراه الآن. ثم أنه صنع نموذجين من الطين على شكل امرأة وذكر صغير هو إبنها، وغطاهما بغطاء قائلاً يجب أن تصبحا بشراً. ثم تركهما وعاد إليهما في اليوم التالي، ورفع عنهما الغطاء، فوجد أنهما قد تغيرا قليلاً، فتركهما وعاد في اليوم الثاني والثالث ثم الرابع، حيث وجد أن التحول قد تم، وإن بإسماعهما الآن أن يكونا رجلاً وامرأة، فقال لهما إنهما إنهما إنهما، ففعلاً ذلك وسارا إلى جانب صانعتهما إلى ضفة النهر، وهناك تساءلت المرأة هل نعيش للأبد أم ستكون هناك نهاية لهذه الحياة؟ فقال الإله: في الواقع لم أفكر بذلك بعد. ولكن أنظرا إليّ، سأرمي بهذه القطعة من روث الجاموس، فإن هي عامت على سطح الماء فإن الإنسان سيموت أربعة أيام فقط ثم يعود للحياة مرة أخرى، وأما إذا غرقت فستكون هناك نهاية لحياته، ورمي القطعة فعامت، ولكن المرأة كانت طمّاعة وشرهة للحياة، قالت: بل سأرمي هذه القطعة من الحجر فإن هي عامت سنعيش أبداً، وإن غاصت سنموت. ورمت بالحجر فغاص إلى القاع. فقال الإله : حسناً. لقد قمتِ بالإختيار وسيكون هناك نهاية للإنسان.

٣ / الجنة التوراتية

في رواية الجنة التوراتية، تعود للظهور معظم العناصر الإسطورية التي وجدناها في الأسطورة السومرية والبابلية والكنعانية. فالجنة في التصور التوراتي، هي مكان زرعه الإله في شرقي عدن، مكان راحة له ونزهة وأسكن فيه آدم الذي خلقه. ويتطابق هذا المكان في كثير من صفاته وخصائصه مع ما رأينا من وصف الأسطورة. فهو مكانٌ آمنٍ وسلام يعيش الإنسان فيه بدعةً وإطمنان، غير مضطر للعمل من أجل تحصيل قوته اليومي، حيث لا يعرف مرضاً ولا حزنًا ولا موتاً. ويقع هذا المكان عند فم الأنهار، تنبع منه أربعة أنهار هي فيشون وجيحون وحدانل والفرات، تماماً كالجنة الكنعانية حيث يعيش الإله ايل، رب السموات، كما مر معنا في أسطورة بعل وعناة: (ثم قفزت عناة على ساقها، وغادرت الأرض، ميممة وجهها شطر ايل، عند منبع النهرين العظيمين، في وسط التيارين، ودخلت على ايل في مقره). وكالجنة البابلية أيضاً، سكن الخالدين ((ما كنتَ قبل اليوم إلا بشراً فانياً (يا أوتنابشاتيم). ولكنك وزوجك منذ الآن ستغدوان مثلنا خالدين. وفي القاصي البعيد عند فم الأنهار ستعيشان)).

كما نجد العناصر الأسطورية الخاصة بخلق الإنسان الأول، تدخل في الرواية التوراتية عن خلق الإنسان . فقد خلق آدم من طين ومنه خلقت زوجته حواء.

وقد عددنا في سفر التكوين الروايات السومرية والبابلية التي تتحدث عن خلق الزوجين الأوليين من طين أو من دم الإله الممزوج بالطين. وأسم آدم نفسه كما رأينا ليس إلا كلمة أوغارية تعني البشر أو الإنسان . وبالإضافة إلى ذلك تروي لنا حكاية آدم وحواء التوراتية عن العصر الذهبي للإنسان كما روته الأسطورة السومرية، وعن سقوطه وخسارته الخلود، كما روت أسطورة آدبا البابلية. فأدبا، والأسم هنا شديد الشبه بآدم، هو الإنسان الأول، الذي خسر الخلود بسبب غلطة صغيره تماماً كأدم. فإن كليهما قد خسر الحياة الابدية، وجلب الموت على ذريته.

ولنأت الآن إلى الرواية التوراتية كما وردت في سفر التكوين، الإصحاحين الثاني والثالث: ((وَعَرَسَ الرَّبُّ الْإِلَهَ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ. وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَبِيهِةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةً لِلْأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يُنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: إِسْمُ الْوَّاحِدِ فَيَشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الدَّهَبُ. وَإِسْمُ التَّيْهِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَإِسْمُ التَّيْهِ الثَّلَاثِ حَدَاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالتَّيْهِ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ. وَأَخَذَ الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ وَوَضَعَهُ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَهَا وَيَحْفَظَهَا. وَأَوْصَى الرَّبُّ الْإِلَهَ آدَمَ قَائِلًا: «مِنْ جَمِيعِ شَجَرِ الْجَنَّةِ تَأْكُلُ أَكْلًا، وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ» وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهَ:

«لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَاصْنَعُ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ»، وَجَبَلَ الرَّبُّ الْإِلَهَ مِنَ الْأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلِّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الْإِلَهَ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الْإِلَهَ الضِّلَعُ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الْآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لِأَنَّهَا مِنْ امْرَأَةٍ أُخِذْتُ» لِذَلِكَ يُتْرَكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وَكَانَا كِلَاهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لَا يَخْجَلَانِ.

وَكَانَتِ الْحَيَّةُ أَحْيَلُ جَمِيعِ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ الَّتِي عَمِلَهَا الرَّبُّ الْإِلَهَ، فَقَالَتْ لِلْمَرَاةِ: «أَحَقًّا قَالَ اللهُ لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ الْجَنَّةِ؟» فَقَالَتِ الْمَرَاةُ لِلْحَيَّةِ: «مِنْ ثَمَرِ شَجَرِ الْجَنَّةِ نَأْكُلُ، وَأَمَّا ثَمَرُ الشَّجَرَةِ الَّتِي فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ فَقَالَ اللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْهُ وَلَا تَمَسَّاهُ

لَيْلًا تَمُوتَا». فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ». فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَبِيهَةٌ لِلنَّظْرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ. فَأَنْفَتَحَتْ أَعْيُنُهُمَا وَعَلِمَا أَنَّهُمَا عُرْيَانَانِ. فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِأَنْفُسِهِمَا مَازِرَ. وَسَمِعَا صَوْتَ الرَّبِّ الْإِلَهِ مَاشِيًا فِي الْجَنَّةِ عِنْدَ هُبُوبِ رِيحِ النَّهَارِ، فَأَخْتَبَا أَدَمَ وَامْرَأَتَهُ مِنْ وَجْهِ الرَّبِّ الْإِلَهِ فِي وَسَطِ شَجَرِ الْجَنَّةِ. فَنَادَى الرَّبُّ الْإِلَهِ أَدَمَ وَقَالَ لَهُ: «أَيْنَ أَنْتَ؟». فَقَالَ: «سَمِعْتُ صَوْتَكَ فِي الْجَنَّةِ فَخَشَيْتُ، لِأَنِّي عُرْيَانٌ فَأَخْتَبْتُ». فَقَالَ: «مَنْ أَعْلَمَكَ أَنَّكَ عُرْيَانٌ؟ هَلْ أَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْكُلَ مِنْهَا؟» فَقَالَ أَدَمُ: «الْمَرْأَةُ الَّتِي جَعَلْتَهَا مَعِي هِيَ أَعْطَتْني مِنَ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ لِلْمَرْأَةِ: «مَا هَذَا الَّذِي فَعَلْتِ؟» فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ: «الْحَيَّةُ غَرَّبَتْني فَأَكَلْتُ». فَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ لِلْحَيَّةِ: «لَأَنَّكَ فَعَلْتِ هَذَا، مَلْعُونَةٌ أَنْتِ مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ وَمِنْ جَمِيعِ وُحُوشِ الْبَرِّيَّةِ. عَلَى بَطْنِكَ تَسْعِينَ وَتُرَابًا تَأْكُلِينَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَأَضَعُ عِدَاوَةً بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ وَنَسْلِهَا. هُوَ يَسْحَقُ رَأْسَكَ، وَأَنْتِ تَسْحَقِينَ عَقِبَهُ». وَقَالَ لِلْمَرْأَةِ: «تَكْثِيرًا أَكْثَرَ أَنْعَابِ حَبْلِكَ، بِالْوَجَعِ تَلِدِينَ أَوْلَادًا. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيْقَافُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ». وَقَالَ لِأَدَمَ: «لَأَنَّكَ سَمِعْتَ لِقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلًا: لَا تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةُ الأَرْضِ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَشَوْكًا وَحَسَاكَ تُنْبِتُ لَكَ، وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْرًا حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا. لِأَنَّكَ تُرَابٌ، وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ». وَدَعَا أَدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَاءَ» لِأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ. وَصَنَعَ الرَّبُّ الْإِلَهِ لِأَدَمَ وَامْرَأَتِهِ أَقْمِصَةً مِنْ جِلْدٍ وَأَلْبَسَهُمَا. وَقَالَ الرَّبُّ الْإِلَهِ: «هُوَذَا الْإِنْسَانُ قَدْ صَارَ كَمَا جِئْتُ مِنْهَا عَارِفًا الْخَيْرِ وَالشَّرِّ. وَالآنَ لَعَلَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ وَيَأْخُذُ مِنَ الشَّجَرَةِ الْحَيَاةِ أَيْضًا وَيَأْكُلُ وَيَحْيَا إِلَى الأَبَدِ». فَأَخْرَجَهُ الرَّبُّ الْإِلَهِ مِنَ جَنَّةِ عَدْنٍ لِيَعْمَلَ الأَرْضَ الَّتِي أُخِذَ مِنْهَا. فَطَرَدَ الْإِنْسَانَ، وَأَقَامَ شَرْقِيَّ جَنَّةِ عَدْنٍ الْكُرُوبِيمِ، وَلَهَيْبِ سَيْفٍ مُتَقَلِّبٍ لِحِرَاسَةِ طَرِيقِ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ..

بالإضافة لما طرحناه سابقاً من متوازيات مع الأسطورة البابلية، أريد فيما يلي تحليل عنصريين هامين في الرواية التوراتية، كانا قد ظهرا في ملحمة جلجامش البابلية. العنصر الأول، فكرة الحصول على المعرفة عن طريق الطقس الادخالي (initiation) للفاعل الجنسي. والعنصر الثاني دخول الحية كمسؤولة عن خسارة الخلود.

فيما يتعلق بالعنصر الأول، نتحدثنا ملحمة جلجامش أن أحد الرعاة قد شاهد وهو يسوق قطيعه نحو نبع المياه، رجلاً متوحشاً يُضاهي جلجامش قوة وجبروتاً، وهو أنكيبدو ابن السومرية الذي عاش حياته مع وحوش الفلاة دون أن يعرف له أباً أو أمّاً. فمضى الراعي إلى جلجامش يخبره بأمر ذلك المخلوق الفريد.

تاق جلجامش إلى رؤية ذلك الرجل، وهو الملك الفخور بقوته التي لا يُضاهيها أحد، فتفتق ذهنه عن حيلة يروّض بها أنكيبدو ويأتي به إلى المدينة. أرسل له إحدى البغايا المحنكات بفنون العشق والغرام، فكمنت له عند نبع المياه، وعندما أتى أنكيبدو مع قطع الغزلان لشرب الماء برزت له المرأة كاشفة مفاتها، ترك أنكيبدو قطيعه ولبث مع المرأة أياماً وليالي يُطارحها الغرام، مما كان له كبير الأثر في تحويله عن حياته الوحشية السابقة، فيصف النص البابلي أنكيبدو بعد الفعل الجنسي مع المرأة، بأنه قد صار واسع الفهم والمعرفة :

تعثّر أنكيبدو في جريه، لم يعد كما كان

ولكنه صار ذكياً واسع الفهم والمعرفة^(٦)

كذلك آدم، تحوّل عن حياة البداء التي عاشها في الجنة إلى حياة الأرض، حياة الحضارة التي يتعب فيها الإنسان ويكد، تحول آدم بعد أكل الثمرة المحرّمة، ومباشرة الفعل الجنسي مع حواء، من مغمض العينين، كليل الذهن، مغلقه، إلى كاشف البصيرة، عارف :

« فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرْأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللَّهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللَّهِ». وهكذا بعد مرور آدم بالطقس الإدخالي (أكل الثمرة المحرمة - الجنس) دفع بالعقل الإنساني إلى محنته الكبرى، التساؤل، التفكير، الكشف، تجاوز المعطى، إرتياد الأرض المحرمة. بالطقس الإدخالي، هبط آدم من الحلم إلى الواقع، باع روحه لقاء المعرفة والحقيقة.

أما العنصر الثاني، وهو ظهور الحية كمسؤول عن خسارة الخلود، فإن ملحمة جلجامش تُحدّثنا أن جلجامش العائد من سفره المضني ومعه نبتة الحياة التي تُجدد الشباب قد رأى جلجامش، بركة ماء بارد

نزل فيها وإستحمَّ بمائها

فتشملت الحية رائحة النبتة

تسللت صاعدة من الماء وخطفتها

وفيما هي عائدة، تجدد جلدها.

وهنا جلس جلجامش وبكى^(٧)

فرحلته التي طاف خلالها أصقاع العالم قد إنتهت إلى لا شيء، وسرقت الحية نبتة الخلود. ورغم

أن الرواية التوراتية، تختلف شكلاً عن ملحمة جلجامش، إلا أن الروایتين تتفقان مضموناً على

أن الخلود وقف على الآلهة، وخسارة الإنسان له ليست نتاج غلطة، كما يبدو ظاهراً، بل أمر

مُقدّر منذ البداية. ولم يكن الإنسان ليرتكب غلطته تلك، إلا تنفيذاً لمشيئة إلهية سابقة. وفي كلا

الروایتين تلعب الحية دوراً أساسياً في البناء الدرامي للقصة. أخيراً أريد التوقف قليلاً عند كلمة

(عدن) الواردة في النص التوراتي على أنها المكان الذي زرع فيه يهوه جنته. فالكلمة ربما كانت

تحويلاً بسيطاً لاسم الإله (ادون) السوري، رب النبات والخصب والخضرة. وتعبير جنة عدن،

ربما كان مشتقاً من جنات أدون المعروفة تماماً في طقوس الخصب السورية القديمة.

يحدثنا جيمس فريزر في كتابه «الغصن الذهبي»^(٨) عن ذلك بقوله أن النساء السوريات في أعياد

أدونيس، كُنَّ يصنعن سلالاً عريضة يملأها بتراب ضحل، ويزرعن فيها أنواعاً متعددة من

النباتات والأزهار، ثم يأخذن في العناية بهذه الحقائق الصغيرة مدة ثمانية أيام، حتى تورق

وتُزهَر. إلا أنها لا تلبث أن تموت نظراً لضحالة الطبقة الترابية، وعدم تمكن النبات من مد جذور

في العمق. وهنا تحمل النساء حقائق أدونيس هذه، وقد علقت عليها صورة الإله، نحو البحر أو

الأمهار حيث تُرمى هناك. والمغزى من هذا الطقس واضح. فالنمو السريع للنباتات في السلال هو

رمز القوة الإخصابية الفائقة للإله أدون وموت هذه النباتات السريع، هو رمز لمصرع الإله

الشاب تأثير ذلك على الحياة النباتية التي تتعطل بموته. أما رمي النباتات في الماء مع صورة الإله،

فهو فعل من أفعال السحر التشاكلي، يُقصد به الإحياء للمطر كي يهطل ويروي الطبيعة التي

ماتت، وبعث أدون من مرقدته. هذا ويورد السيد فريزر طقوساً مسيحية مشابهة كانت ما تزال

قائمة في أوروبا، وخصوصاً

7 - ibid

8 - Sir James Frazer, The Golden Bough, Mcmillan, Newyork 1971, p. 396

في حوض البحر المتوسط، حيث كانت تقوم النساء في عيد الفصح ويوم الجمعة الحزينة بزرع حدائق صغيرة في أطباق، توضع عليها صورة السيد المسيح بدلاً من صورة أدونيس. وفي اللغة العربية، نستعمل تعبير جنّات عدن و((جنّات النعيم)) تبادلياً. وهنا نستطيع أن نلمح تشابهاً بين كلمة (النعيم)، وكلمة (النعمان) . والنعمان من أسماء أدونيس وبقي في العربية من أصوله الآرامية وتُسبّي به العرب وما زالوا. وعليه تكون جنّاتُ عدنٍ (أدون) و((جنّات النعيم)، (النعمان) تسميتان لمسى واحد هو جنّات أدونيس.

ولكلمة النعيم والنعمان أصداء في القواميس العربية، حيث نجد كلمة نَعَمَ تعني نضراً وإخضُوضَراً^(٩) وكذلك كلمة (الناعمة)^(١٠) التي تعني الروضة أو الحديقة وكلها ربما اشتقاقاً من النعمان أو أدونيس إله الزراعة والخضرة والخصب. وإلى يومنا هذا نطلق على بعض أنواع الزهور الربيعية الحمراء إسم (شقائق النعمان) أي جراح أدونيس . وذلك بقية من الإعتقادات القديمة التي كانت ترى على هذه الازهار دم الإله القتل الذي إفتسه الخنزير البري.

يفسر فرويد ومدرسة التحليل النفسي أسطورة الجنة على أنها إنعكاس للحالة التي عاشها الفرد في رحم أمه. أن وضع الإنسان الأول في الجنة وعيشه السهل دونما مشقة أو جهد أو قلق، هو صورة لما كان عليه الطفل قبل الولادة ملتصقاً برحم أمه، يأتيه غذاؤه عن طريق الحبل السري، في حالة من الإستقرار والديعة والطمأنينة، حالة سوف يفقد إليها في حياته التالية كلها وحتى مماته . وسوف يبقى في حالة حنين دائم لها .

وقد تجلّى حنينه هذا في كل ما أنتج لا شعوره من أساطير تتعلق بفردوس قادم سيؤوب إليه بعد نهاية عناء هذه الحياة.

وهناك تفسير تاريخي للإسطورة، يقول به آرنولد توينبي: ^(١١) ، فمنذ عهد سحيقة، تحركت جماعات من المتوحشين العراة، من موطنهم الدافيء في المنطقة الحارة، وإندفعت قدماً نحو الشمال، عند بداية الربيع وحتى نهاية الصيف. ولم يفتن هؤلاء إلى أنهم قد خلفوا أرض الدفء الدائم. وعندما إنتهى

(٩) القاموس المحيط صفحة ١٨٣ سطر ١٤ (١٠) القاموس المحيط صفحة ١٨٤ سطر ٢٠

(١١) آرنولد توينبي، دراسة للتاريخ، المجلد الأول، مترجم، القاهرة.

شهر أيلول، بدأوا يشعرون ببرد غير مستحب في الليل، وأستمرت الحالة تسوء يوماً بعد يوم. ولما كانوا لم يُدركوا علّة هذا التغيير، أخذوا يرتحلون في هذا الطريق أو ذاك هرباً من البرد. إتجه بعضهم شطر الجنوب راجعاً إلى موطنه الأصلي؛ ومازال جزء من ذرياتهم على حالتهم القديمة تلك إلى يومنا هذا. أما من بقي هائماً على وجهه في الإتجاهات الأخرى، فقد هلك إلاّ جماعة صغيرة ارتأت ألاّ سبيل إلى الهرب من الهواء القارس، وأنه لا بد من مواجهة الموقف. فإستعان أفرادها بملكة الإبداع، وهي أسى ملكات الإنسانية جمعاء، فحاول بعضهم أن يجد ملاذاً بحفر الأرض، وجمع آخرون أغصاناً وأوراقاً لإقامة أكوخ دافئة، واكتفى آخرون بجلود الحيوانات. وما لبث هوء المتوحشون أن نجحوا في إجتياز بضع خطوات، تعتبر من أكبر الخطوات في سبيل الحضارة. وهكذا نالوا البقاء حيث ظنوا في البداية أنهم هالكون. وفي غضون عملية تكييف أنفسهم للبيئة القاسية، تقدموا للأمام خطوات هائلة مخلفين وراءهم بعيداً الجانب المداري من الانسانية.

أن صورة آدم وحواء في جنة عدن، ما هي إلاّ ترديد للمرحلة الإقتصادية القائمة على إلتقاط الطعام في فترة ما قبل الحضارات. أما. السقوط الناتج عن الأكل من شجرة المعرفة، فيرمز إلى قبول تحدٍ يهدف إلى ترك هذا التكامل التام، والشروع في عملية تفاضل جديدة قد تُسفر عن تكامل جديد. كما أن الطرد من الجنة إلى عالم غير صديق، يفرض على المرأة فيه أن تلد بالحزن، وعلى الرجل أن يأكل بعرق جبينه، هو تجربة ترتبت على قبول تحدي الحياة. وما المعاشرة الجنسية بين آدم وحواء، التي تلت ذلك، إلاّ فعل الخلق الإجتماعي أنثرت ثمرتها في إنجاب ولدين يمثلان حضارتين: هابيل راعي الغنم، وقابيل زارع الأرض.

سفر قاييل وهايل

(وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)

قرآن كريم : المائدة ٢٧

(فَنظَرَ الرَّبُّ بَرَضِي إِلَى هَابِيلَ وَتَقَدَّمَ تِهِ، أَمَا إِلَى قَايِينَ وَتَقَدَّمَ تِهِ فَمَا نَظَرَ بَرَضِي،
وإلى قايين لم ينظر

العهد القديم - سفر التكوين ٤-٥

إلى عهد قريب جداً (أواخر الأربعينات) كانت المجتمعات الزراعية في سورية ما زالت تعاني من غزوات البدو المتكررة وخصوصاً تلك القرى الزراعية الواقعة على حافة الصحراء، في فصول القحط وشح الأمطار، عندما تختفي مراعي بادية الشام، موئل البداوة منذ فجر التاريخ. وما زلتُ شخصياً أذكر كيف كنّا نتحلّق صغاراً حول جدي الذي كان يعود إلى المدينة في نهاية فصل البذار أو انتهاء الحصاد، ليحدثنا عن «الغزو». هكذا كانوا يسمون هجوم البدو السريع والصاعق على شريط الخضرة الممتد على حدود البادية المترامية. ولا شك أن ذلك الغزو لم يكن ليتكرر كل عام، وأن جدي المسكين كان مضطراً لإبتكار قصص جديدة بعضها وقع وبعضها لم يقع.

ولقد طوت سنوات الخمسينات في مجتمعنا السوري فصلاً دامياً، طويً في أوروباً منذ قرون طويلة. فصلاً إبتدأ منذ مطلع التاريخ المكتوب عندما إختارت بعض القبائل البدوية الإستقرار على شطآن الدجلة والفرات والعاصي لتزرع الأرض وتبني المراكز الحضارية، وتوسع بالتدريج مساحات الاراضي المزروعة على حساب براري الرعاة، ولقد ساعد تراكم الثروة لدى المجتمعات الحضارية، نتيجة العمل المثمر في الأرض، على زيادة قوتها، وسيرها قدماً أشواطاً بعيدة في

طريق التقدم التقني، مخلفة وراءها المجتمع البدوي يدور في حلقة المفرغة مع دوران الفصول إلى يومنا هذا. كما ساعدت ثروة وتكنولوجيا المجتمع الزراعي على إخلال توازن القوى لصالحه، فراح يزحف تدريجياً نحو أراضي الرعاة، كلما تناقصت غلة الأحواض الضحلة التي كان يزرعها، وكلما طاقت تلك المساحات القديمة بسكانها. كان التقدم بطيئاً ولكنه ثابت ومستمر، كلما ربح المزارع أرضاً بنى عليها وثبت أقدامه ومواقفه بانتظار وثبة جديدة يقوم بها جيل قادم. عدوان مستمر دام آلاف السنين، تم بهدوء ودون ضجيج، دون أن يسمع التاريخ أو يُسَطَّر صرخات البدو المنعزلة، وهم يُدَبِّحون فرادى أو جماعات، دفاعاً عن أرضهم، أو أثناء طغيانهم على الأراضي المزروعة لإشباع قطعانهم الجائعة. أما صرخات المراكز الحضارية فقد سجلها التاريخ بأحرف من نار ودم. ذلك أن هجوم البدو إتَّسَمَ دوماً بالسرعة والمفاجأة والتدمير السريع ولم يكن هجومهم الدفاعي، لهدف إلى إستعادة ما فقد من أرض، بل كان هجوماً إنتقامياً، يتخذ شكل هجوم الحيوان الجريح المُحاصر. لقد حدثنا التاريخ مطولاً، وأثار إشفاقنا، عن غزوات البدو الكبرى على بابل ونيوى وروما ومصر، وفيما بعد على بغداد ودمشق عندما تدفقت عليهما جموع التتار الجائعة من أعماق الصحاري الآسيوية. ولم يحدثنا عن صراخ البدوي المنعزل وهو يُدَبِّح على يد أخيه المزارع. حدثنا التاريخ عن قابيل وهو يدبِّح أخيه هابيل ولم يحدثنا عما فعله هابيل بأخيه ليستحق منه ذلك. إنَّ أذن التاريخ لا تسمع إلاَّ الأصوات العالية، أما الأصوات الخافتة فلا تصل أسماعه.

وقد أنعكس هذا الصراع الإجماعي بين الثقافين الزراعية والرعية، بين قابيل المزارع وهابيل الراعي، في أسطورة المنطقة. وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص سومرية ونص توراني، وكلها تبحث موضعاً واحداً.

ثلاثتة نصوص سومرية

حلت الثقافة السومرية، كما يمكن أن نتوقع من أول ثقافة زراعية في التاريخ، حلت التناقض بين المزارع والراعي، لصالح المزارع في ثلاثة أساطير معروفة. وفي هذه الأساطير يذهب المزارع والراعي إلى الآلهة يحتكمان فيما شجر بينها من خلاف، حيث تحكم الآلهة للمزارع بالغلبة والتفوق والأفضلية على أخيه الراعي.

١- أيميش وأننين:

وجد هذا النص في عدد من الألواح تحتوي على ٣٠٨ أسطر. ولكن الألواح في حالة سيئة من التلف بشكل يمنع من سرد حوادثه بشكل متسلسل ومتصل. إلا أننا نربط الأجزاء الواضحة مع بعضها نستطيع التوصل إلى الخطوط العامة للأسطورة^(١).
يرغب الإله انليل في غمر الأرض بالخضرة والمزروعات والاشجار، وتربية الحيوان والماشية علمها والإكثار من منتجاتها، فيخلق لهذه الغاية الأخوين

1- S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork. 1961

(إيميش) الراعي و(أنتين) المزارع. يقوم الأول بتكثير المواشي وإنتاج الحليب والسمن والبيض وما إليها. بينما يقوم الثاني بنشر المزارع على الأرض وتنمية الحبوب ورعاية الأشجار. ولكن خصاماً مجهول المصدر والسبب (بنتيجة النقص الحاصل) ينشأ بينها، ويدخلان في مشادات ومناظرات عديدة، تنتهي بأن يتحدى إيميش الراعي أخاه المزارع ويذهب إلى انليل ليعرفا من هو المفضل عنده. فيمضيا إلى نيبور ويعرض كل منهما قضيته على انليل. إلا أن انليل يعلن صراحة أنه يُفضّل المزارع:

لقد أجرى (أنتين) ماء الحياة في كل بقاع الأرض

وأنتج للآلهة كل شيء إنه مزارع الآلهة

فيا إيميش يا بُني كيف تُقارن نفسك بأنتين أخيك

هذه كانت كلمات انليل المقدسة العميقة المعبرة

فإنحنى إيميش ورُكع أنتين

ثم أن الأخوين يتعايشان معاً ويتعاونان، لأن أي خصام بينهما لن يؤدي إلى نتيجة طالما أن انليل

قد اتخذ قراراً، وقراره لا رادّ له. وينتهي النص بمدح للأب انليل.

أي انليل أيها الأب نُسَبِّحُ بحمدك.

لهار و أشنان:

رأينا عندما بحثنا في التكوين السومري كيف أن الآلهة قد خلقت الإله لهار وأخته الآلهة (أشنان)

لتأمين الغذاء والسكاء لهم. ولكن الآلهة لم تستطع الاستفادة بشكل تام من خدماتهما إلا بعد

أن خلقت الإنسان الذي استطاع أن يُدير ما خلفه هذين الإلهين ويستثمره..

كالبشر لما خُلِقوا أول مرة

لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز

لا ولم يعرفوا لبس الثياب

بل كانوا يأكلون النباتات بأفواههم

ويشربون الماء من الينابيع والجداول

في تلك الأيام في حجرة الخلق
في (دولكوج) ؟ بيت الآلهة خلق (لهار) و(أشنان)
ومما أنتج لهار وأشنان
أكل الآلهة الأنوناكي) ولكنهم لم يكتفوا
ومن حضائهم المقدّسة شربوا اللبن
ولكنهم لم يرتووا
لذا، من أجل العناية بطبيبات حظائرها
جرى خلق الإنسان^(٢)

وهكذا فلهار وأشنان هما بطلان حضاريان بعث بهما الآلهة إلى البشر لتعليمهم الزراعة وتربية
الدواجن والماشية، هذه الأشياء وغيرها، كالكتابة والفنون والنار، إعتبرت دوماً أسراراً الهيبة جيء
بها إلى الأرض أما كرمًا من الآلهة، كما هو الحال في أسطورتنا هذه، أو عنوةً وإغتصاباً كما رأينا
في أسطورة بروميثيوس الأغرريقي سارق النار الإلهية.
كان لهار يُكَيِّر المواشي ومنتجاتها على الأرض، أما أشنان فكانت تزيد في غلال الأرض ومنتجاتها
ولكن الخصام وقع بينهما وراحا يتجادلان في أيهما أفضل من الآخر، ويُبدي كل منهما مآثره
وفعاله. وكما هو الأمر في أسطورة ايميش فإن لهار واشنان يحتكمان إلى الآلهة، فيحكم انليل
وانكي لأشنان المزارعة بالغلبة والتفوّق. وتنتصر الزراعة للمرة الثانية.

أنكمدو و دوموزي:

وفي هذه الأسطورة^(٣) نجد (انانا) تبحث عن زوج فيتقدم لطلب يدها دوموزي الراعي وأنكمدو
المزاع. وهي كموقف أولي تُفضّل أنكمدو.
أنا العذراء سأتزوّج المزارع
الفلاح الذي يزرع النباتات ويعطي الغلال الوفيرة
الفلاح الذي ينتج الحبوب الغزيرة

2 - Ibid

3 - John Gray, Near Eastern Mythology. Hamlyn, London 1969

إلا أن أباها (أوتر) إله الشمس يحضّها على الزواج من دوموزي الراعي وتفضيله على الفلاح.
فياخذ بتعداد محاسنه ومفاتمك
أي أختاه عليك بالراعي
الكثير الأنعام
أنا أيتها العذراء لماذا تعرضين عنه؟
أن زبدته لطيفة وحليبه لسائغ
وكل ما يمسه يغدو برّاقاً
أي أنا إن دوموزي الكثير الانعام
مليء بالجواهر والأحجار الكريمة فلماذا عنه تعرضين
ستأكلان معاً من زبدته الطيبة
وهو البطل حامي الملك. فلماذا عنه تعرضين
ويلي ذلك تشوّه في النص ولكننا نعلم من الكلمات المتفرقة الواضحة، أن أنا تتابع إبداء وجهة
نظرها في السبب الذي من أجله تُفضّل المزارع. وبعد ذلك يتغير المشهد فيدخل المسرح دوموزي
نفسه مناقشاً أنا في رأيها ومُعلنناً عن نفسه وما يستطيع تقديمه لها:
أفضل مني؟ أفضل مني؟ ما لدى الفلاح أفضل مني؟
إذا أعطاني نبيذه أعطيته لبني
وإذا أعطاني خبزه أعطيته الجبن اللذيذ
ويتابع دوموزي ذكر ما لديه، وأفضليته على ما يستطيع خصمه تقديمه.
وذلك في حوارية طريفة، تأخذ الطابع المسرحي. ويبدو أن أنا قد إختارت أخيراً الراعي ولا ندري
السبب في ذلك. فهل أقنعتها حججه؟ أم خضعت لمشيئة أخيها أوتو أم لغاية أخرى في نفسها؟
على أن الراعي دوموزي لا يكتفي بهذا الانتصار بل نجده يذهب إلى حقل انكمدو ويستفزه في
عقر داره ساحباً مواشيه وراءه تفتك بالمرزوعات. ولكن أنكمدو يترفع عن الدخول معه في
خصام ويظهر تجاهه تسامحاً ومودة:
أبها الراعي لماذا تريد أن تبدأ خصاماً؟
أي دوموزي لماذا تريد أن تبدأ معي خصاماً؟
ولماذا نعقد بيننا المقارنة؟

ألا فلتدع مواشيك تأكل عشب الأرض
وفي مروجي الخضراء فلتترع قطعانك
وفي سهول (زابالام) فلتأكل الحبوب
ولتشرب من ماء نهري (اونم)

على أن هذا الموقف المتسامح من المزارع لا يقابله من الراعي إلا الإستمرار في العداة والبغضاء:
أنا الراعي لن تحضر حفل زفافي يا أنكمدو كصديق
أيها المزارع كصديق لي أيها المزارع كصديق لي لا تأت
ولكن انكمدو يتابع موقفه فيعرض الهدايا على العروسين:

ما الذي أستطيع تقديمه؟ سأجلب عدساً لك
عدس ال[.....] سأجلب لك
وأنت أيتها العذراء انانا، فكل ما يسرك
أيتها العذراء انانا سأقدمه لك

وهكذا ينتهي النص بانتصار الراعي دوموزي على الفلاح انكمدو وتأخذه انانا زوجاً لها. إلا أن هذا الإنتصار لم يكن إلا بداية الكارثة لدموزي المسكين الذي أرسلت به انانا فيما بعد إلى العالم الأسفل، لينوب عنها هناك، كما سترى في أسطورة هبوط انانا للعالم الأسفل. تغدو التضحية بالراعي شرط إنتصار الزراعة وإستكمال دورة الخصب على الأرض كما سترى في أسطورة هبوط عشتار للعالم الأسفل. وهكذا فإن إنتصار الراعي لم يكن إلا مؤقتاً وزائفاً ومرحلة تحضيرية لخسارته النهائية، بل وللتضحية به لضمان إستمرار الحضارة الزراعية. وفي مرامها الأخيرة فإن هذه الأسطورة تتفق مع بقية أساطير أرض الرافدين المبحوثة سابقاً في سيادة الفلاح وغلبيته على الراعي. ولعل النص التوراتي لا يبتعد كثيراً عن هذه الفكرة عندما يقبل الإله تقديمات هابيل الراعي مفضلاً إياه على قابيل المزارع ولكن قابيل يقوم فيما بعد بقتل أخيه إنتقاماً منه.

٢/ قايين وهايبيل

يسير النص التوراتي على خطى النصوص السومرية القديمة سابقاً. فبعد هبوط آدم وحواء إلى الأرض ليعملا فيها ويحصلوا قوتهما بعرق جبينهما، أنجبت حواء من زوجها آدم ولدين، الأول قايين الذي إشتغل بالزراعة، والثاني هايبيل الذي إشتغل بالرعي وتربية الماشية. وحدث بعد مدة من إشتغال كل منهما بما سُوِّر له، أن قاما بتقديم قربان للرب، حيث قدّم قايين من ثمار الأرض التي يزرعها، وقدم هايبيل ذبائح من قطعانهِ. فتقبّل الرب قربان هايبيل الراعي ولم يتقبّل قربان قايين المزارع. فدفعت الغيرة قايين لقتل هايبيل ودفن جثته في الصحراء.

يجري النص على النحو التالي: (٤)

(وَعَرَفَ آدَمُ حَوَاءَ امْرَأَتِهِ فَحَبَلَتْهُ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتْ: «اقتنيت رجلاً من عند الرب» ثمّ عادت فولدت أخاه هايبيل. وكان هايبيل راعياً للغنم، وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام أنّ قايين قدّم من أثمار الأرض قرباناً للرب، وقدّم هايبيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمائها. فنظر الرب إلى هايبيل وقربانه، ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر. فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه. فقال الرب لقايين:

(٤) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح الرابع: ١-١١

«لِمَاذَا اغْتَطَّتْ؟ وَمِلَاذَا سَقَطَ وَجْهَكَ؟ إِنَّ أَحْسَنْتَ أَفْلاً رَفُوعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنِ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيئَةٌ رَابِضَةٌ، وَالْيَيْكُ اسْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيَّهَا». وَكَلَّمَ قَايِينَ هَابِيلُ أَخَاهُ. وَحَدَّثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: «أَيْنَ هَابِيلُ أَخُوكَ؟» فَقَالَ: «لَا أَعْلَمُ! أَحَارِسُ أَنَا لِأَخِي؟ فَقَالَ: «مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمٍ أَخِيكَ صَارِحٌ إِلَيَّ مِنَ الْأَرْضِ. فَالآنَ مُلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ.

لدى القراءة الأولى لهذه الرواية، تبادر إلى ذهني أن الخطيئة الرابضة التي يتحدث عنها هي جريمة القتل المقبلة: (وَإِنْ لَمْ تُحْسِنِ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيئَةٌ رَابِضَةٌ، وَالْيَيْكُ اسْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيَّهَا). ولكن قصة سمعتها من جدتي في طفولتي ظلت تلح عليّ حتى إستطعت فهم هذه الجملة على وجهها الصحيح. حدثتني جدتي عن قابيل وهابيل فقالت إن قابيل قد قتل أخاه هابيل بسبب نزاعهما على أختهما أيهما يتزوجها، خصوصاً وأنه لم يكن في العالم سواهم، هم الثلاثة، وكان لا بد أن يتزوج أحدهما بأخته ليستمر النسل. والحقيقة أن النص يورد هذه القصة على إستحياء فيُسيى الزواج من الأخت بالخطيئة الرابضة، نظراً للتحريم القاطع لهذا النوع من الزواج في الديانة اليهودية، ونظراً لشيوع هذا النوع من الزواج لدى المصريين القدماء الذين فر منهم بنو إسرائيل. ومما يدعم هذا التفسير أن الفقرة التالية بعد بضعة سطور تقول: (وَعَرَفَا قَايِينَ امْرَأَتَهُ فَحَبَلَتْ وَوَلَدَتْ حَنْوُكَ..)

فمن تكون امرأة قايين هذه أن لم تكن أخته؟. كما أن مقارنة تلك الجملة بجملة أخرى قالها الرب لحواء عندما طردها من الجنة تعطي برهاناً أكيداً على تفسيرنا: (بِالْوَجْعِ تَلِدِينَ أَوْلَاداً. وَإِلَى رَجُلِكَ يَكُونُ اسْتِيَاقُكَ وَهُوَ يَسُودُ عَلَيْكَ). ،

فالخطيئة الرابضة عند الباب لقايين هي أخته إليه يكون إنقياد أشواقها له وهو يسود عليها. وهكذا تعود أسطورة نزاع أنكمدو المزارع ودوموزي الراعي على حب الآلهة عشتار مجدداً إلى الظهور في الرواية التوراتية. فيأخذ قايين دور أنكمدو وهابيل دور دوموزي واختهما التي خطبا ودها بقربانها للرب دور الإلهة عشتار. وهنا أيضاً يلقي هابيل نفس مصير دوموزي حيث تفتح الأرض فمها لتبتلعه كما إبتلع العالم الأسفل دوموزي التعيس.

وفي الحقيقة قد تبدو هذه الرواية التوراتية لأول وهلة وكأنها تعطي الغلبة والتفوق لهابيل الراعي، لأن يهوه قد تقبل قربانه ولم يتقبل من قايين المزارع. ولكن

المرامي النهائية للنص تتفق مع مرامي بقية النصوص ذلك أن مقتل الراعي على يد المزارع إن هو إلا تثبيت لغلبة المزارع وقوته وتفوقه على الراعي. ولم يكن بإمكان النص التوراتي إلا أن يسير على هذا المخطط. ذلك أن اليهود قوم رعاة. ولكنهم إستقروا فيما بعد وزرعوا الأرض وبنوا المدن، وبقوا يكتنون إحتراماً لتاريخهم الرعوي القريب. فجاء قبول يهوه لقربان الراعي تعبيراً عن مرحلتهم الرعوية السابقة وإحترامهم لها بسبب قراءتهم اليومية للتوراة. أما موت الراعي على يد المزارع فجاء نتيجة للأمر الواقع الذي يعيشه اليهود من غلبة الزراعة على البداوة. مات هابيل، تاركاً أحفاده الرعاة في أسر الدورة المناخية السنوية، بعيدين عن أية مساهمة في ثقافة البشر وحضارتهم. بدوي اليوم لا يختلف في شيء عن بدوي فجر التاريخ، أما قابيل فقد إستلم زمام الحضارة ودفع بها أشواطاً إلى الأمام. أنتج المجتمع الزراعي، فالمجتمع الصناعي وإستطاع قابيل الوصول إلى الفضاء الخارجي. فهل يعيش أحفاد هابيل ليروا قابيل وقد قضى عليه تقدمه العلمي والتكنولوجي ذاته.

سِفْرِ الْعَالَمِ الْأَسْفَلِ

{ ... حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحْتَّ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ }

قرآن کریم - الزمر - ۷۱

لم يلهب خيال الإنسان شيء كما ألهبته فكرة الموت. ولم يُثر عقله من أفكار كفكرة إنعدام العقل ذاته. فما الذي ستكون عليه الحال عندما يمضي إلى النوم ولا يفيق أبداً؟ وكيف كانت حاله قبل أن يحل ضيفاً على هذا العالم؟

من هنا كانت دورة الحياة والموت والبعث هي الفكرة المركزية في الدين والأسطورة، والفكرة الأساسية التي يتمركز حولها لا شعور الفرد في الماضي والحاضر. أن دراسة أحلام البشر المعاصرين تكشف عن نماذج من أحلام لا تختلف، في كثير أو قليل، عن أساطير العهود الغابرة التي كانت تعبيراً لا واعياً بشكل ما، عمّا يكنّه الفرد في صميمه نحو فكرة الموت. وقد حاول الإنسان وما زال الأفتتاب من مسألة الموت عن طريق إبتكار مجموعة من الرموز عبرت عنها الأسطورة في القديم، وتعبّر عنها أحلامه في الزمن الحديث. وبدراسة ما أنتجه فكر الإنسان عبر العصور نجد أن الموت لم يكن أبداً مرحلة نهائية من شأنها وضع حد لوجود الفرد بجميع صورته. بل اعتُبر دوماً بمثابة عملية تؤمّن عبور الإنسان لحالة أخرى من الوجود، تختلف في كليتها عن الحالة التي أُلّفها في حياته على الأرض. وسواء كانت هذه الحالة أفضل من سابقتها أم أسوأ فإن وجودها في فكر الإنسان وخيالاته ولا شعوره كان دائماً مترافقاً مع وجود فكرة الموت ولا نجد مطلقاً في أي

نتاج إنساني فكري أن فكرة الموت تقوم وحدها بإعتبارها النقطة التي ينتهي عندها مسار الإنسان. وعلى هذا فإن الخوف من الموت لم يكن أبداً خوفاً من العدم، بل كان خوفاً من المجهول، من مغادرة وضع نعرفه ونألفه إلى آخر نحن به جاهلون.

وفي أساطير المنطقة لعبت فكرة الموت دوراً هاماً. وخصوصاً في ديانات الخصب التي تقوم أساساً على فكرة موت الطبيعة وبعثها المتكرر، الذي هو إنعكاس لموت الإله وإنبعائه من جديد. إلا أن الأمر يتغير إذا إنتقلنا بفكرة الموت من مستواها الكوني إلى مستوى الإنسان الفرد . فالفرد لا يحيا إلا مرة واحدة على هذه الأرض ينتقل بعدها إلى عالم الاموات وهو ليس كالطبيعة المتجددة التي تُكرر حياتها وبعثها كل عام، وليس كآلهة الخصب يموت ويحيا في دورة أزلية. وعلى هذا فليس أمامه إلا نوعان من الحياة:

قبل الموت، وبعد الموت . وحالة بعد الموت هي الحالة الدائمة التي لا أمل معها بالعودة للحالة السابقة، ولا بأي نوع من أنواع التناسخ أو التقمص، كما هو الأمر في أسطورة الشرق الأقصى. فإن كان العالم الآخر هو دار البقاء، فما هو شكله؟ وما هي حالته؟ وما هي أحوال سكانه؟ على هذه الأسئلة الحائرة تصدت أساطير العالم الأسفل للإجابة.

نظر الإنسان في سورية وبلاد الرافدين لعالم الموتى بإعتباره عالماً سفلياً يقوم تحت عالمنا القائم لمسافة ليست بالبعيدة. ويُشكّل طبقة وسطى بين سطح الأرض ومياه الغمر الأولى. أطلق السومريون عليه اسم (كور). وكلمة كور تعني في الأصل الجبل. إلا أنها أُطلقت أيضاً على الوحش السفلي الجبّار الذي إختطفَ الآلهة «أريشكيجال» غنيمته له بعد أكتمال الخلق والتكوين. وقد أعطى هذا الوحش اسمه للعالم الأسفل رغم أنه لم يعد للظهور في الأساطير ولا ورد له ذكر في العبادات. وأريشكيجال الآلهة المخطوفة التي أبحر (انكي) لإنقاذها من براثن (كور) لم توفق في العودة للأرض مرة ثانية، ولا حتى على طريقة (برسيفوني) زميلتها اليونانية التي إختطفها (هاديس)، ولكنها بتوسط الآلهة الكبار كانت تعود للحياة إلى حضن أمها فترة محددة في كل عام، تغفل بإنتهائها راجعة إلى مسكنها السفلي. وأريشكيجال هذه تغدو السيدة المثّلقة لهذا العالم المرعب وتزوج من آلهة آخرين تجعل لهم السيادة معها، أما كور فليس له من هذا العالم إلا الإسم فقط. كما أطلق السومريون على العالم الأسفل اسم (كيجال) أي الأسفل العظيم. ومن هنا جاء اسم (أريشكيجال) أي سيدة الأسفل العظيم التي أُطلق

البابليون عليها فيما بعد أسم (اراتكيجالي) المشتق من الكلمة السومرية كما أطلقوا عليها اسم (ارجالا) واطلقوا على العالم الأسفل أسماء متعددة منها (اريصتاتاري) أي الأرض التي لا عودة منها. نلاحظ أن الشطر الأول من الكلمة وهو «اريص» مثابه للكلمة العربية «أرض».

تمضي إلى هذا العالم أرواح الموتى. جميع الموتى. دون تمييز فيمضي إليه الصالح والطيح، الغني والفقير، العبد والأمير، إلا أن كل إنسان يحتفظ بنفس المكانة التي كانت له في الحياة الأولى.

نستدل على ذلك من أحد الألواح السومرية الذي يُحدِّثنا عن وفاة أحد ملوك سومر وكيف أخذ يقوم هناك بتقديم القرابين إلى آلهة العالم السفلي والهدايا، وكيف أنه أُفتيد إلى مكان هُيء له خصيصاً. ويجري الدخول إلى عالم اللا عودة من فتحات في الأرض كتلك التي تشرق منها الشمس والفتحة التي تغرب منها، والفتحة الي أسقط منها جلجامش آلتيه الموسيقيتين كما سترى في نص لاحق. إلا أن أي قبر يصلح للنزول أيضاً، فأرواح الموتى تُغادر أصحابها عبر القبر نفسه إلى سكنها الأخيرة، وأول ما يهبط الزائر الجديد يصادفه نهر (هابور) وهو نهر العالم الأسفل، ويُحييه ملاح النهر (هامو طابال) ذو الأربعة رؤوس كراس الطير، وينقله في قاربه إلى الطرف الآخر حيث بوابات مدينة الموتى .

ونعثر على أقدم مشاهد العالم الأسفل في أسطورة انليل ونليل، التي أوردناها في فصل التكوين حيث يُنفى انليل إلى العالم الأسفل بسبب إعتدائه على الآلهة فنليل. ولكن هذه تتبعه إلى منفاه فيجامعها ثلاث مرات وفي كل مرة تحمل منه بإله من آلهة العالم الأسفل وهي: «ميسلاميتيا» و«نرجال» و«ننازو» و«أليجيل». ونعرف من الأسطورة شيئاً عن نهر العالم الأسفل ومآله وبواباته. إلا أن الأسطورة السومرية الأخرى:

هبوط (انانا) إلى العالم الأسفل، هي التي تقدم لنا إيضاحات مغمضلة ووصفاً دقيقاً. وفي هذه الأسطورة تترك انانا سيدة السماء وآلهة النور والحب كرسها السماوي لتنزّل إلى عالم الأموات، حيث مملكة أختها الكبرى وغريمها اريشكيجال آلهة الظلام والموت، في زيارة مؤقتة تعود بعدها للحياة ثانية. ورحلة انانا هذه تعطينا معلومات تفصيلية عن عالم اللا عودة. فهو عالم حصين خلف سبعة جدران عالية وسبع بوابات حصينة عليها حراس غلاظ شداد ما أن يقترب القادم من البوابة الأولى حتى يعلن البواب اسمه لتسمعه اريشكيجال، ثم يُقاد عبر

البوابات السبع، وعند كل بوابة يتخلى عن شيء من متاعه وملبسه وزينته وفق القوانين الموضوعية لذلك العالم. إلى أن يمثل عارياً أمام اريشكيجال وبطانتها السبع، وهم كبار آلهة العالم الأسفل لتقرير مصيره ومكانه ووضع العام في عالم الأموات. إلا أن هذه الأسطورة ومتوازياتها البابلية والكنعانية لم تكن أساطير مكرسة أساساً للعالم الأسفل، بل لشرح الفكرة الأساسية في ديانات الخصب والمتعلقة بموت الإله وبعثه من جديد. لذلك فإننا سنبحثها مفصلاً في (سفر الإله الميت) القادم، وسنقتصر في هذا السفر على بحث الأساطير التي وُجِدَتْ أصلاً للتعبير عن عالم الموتى.

١ / الجحيم السومري

تقدم لنا الأسطورة السومرية : (جلجامش وأنكيكو والعالم الأسفل) وصفاً مفصلاً لعالم الموتى. وقد ذكرنا في فصل التكوين مقدمة الأسطورة في معرض حديثنا عن المفاهيم السومرية في الأصول.

وجدت ألواح الأسطورة في مدينتي (نيبور) و(أور) السومريتين وعمل عدد من العلماء في أستنساخ المكتشفة منها ونشرها. إلا أن الترجمة الكاملة للإسطورة لم تتم إلا على يد السيد ن. س. كريمر. الذي عثر في متحف أستانبول على عدد من كسرات الألواح التي تكمل ما أستنسخ ونُشر من الكسرات السابقة، فعمل على ترتيب النص كاملاً بشكل مفهوم وترجمه للمرة الأولى عام ١٩٣٨.

وقد كان لترجمة هذه الأسطورة وفهم محتواها العام قيمة عظيمة، لأنها ألقت الضوء على مسألة لُقها الغموض مدة طويلة، ففي توضيح أن اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش البابلية هو ترجمة شبه حرفية للجزء الثاني من الأسطورة السومرية . وبذلك تحققت توقعات مترجمي ودارسي الملحمة البابلية، عندما إعتقدوا بأن اللوح الثاني عشر ليس إلا قصة غريبة أُدمجت في سياق الملحمة دون أن يكون لها علاقة وثيقة بها. وسأقوم هنا بتقديم نص الأسطورة اعتماداً على

النصين السومري. والبابلي لأن النص البابلي يُكَمَل كثيراً من النواقص والفجوات في النص السومري. تجري القصة على النحو التالي: (١)

بعد المقدمة ينتقل النص للحديث عن شجرة الحلبو (ربما الصفصافة) التي نمت على ضفة نهر الفرات، وعاشت وكبرت بفضل مياهه زمناً. إلا أن ريح الجنوب هبّت يوماً وإقتلعت الشجرة فحملتها مياه الفيضان. وكانت الإلهة انانا تسير على مقربة فمدّت يدها وحملت الشجرة إلى ايريك (الوركاء) مدينتها المفضلة وموضع حرمة المقدس. حيث زرعتها في حديقته وأولتها كل عناية وإهتمام لتصنع من خشبها بعد أن تكبر كرسيّاً وسريراً.

ومرت السنون ، والشجرة تنمو وتكبر. إلا أن أفعى خبيثة إتخذت لنفسها مسكناً عند قاعدتها، وعلى أغصانها الفخمة بنى طائر الزو (الوارد ذكره في فصل التّين) عشّاً لصغاره وفي وسطها اتمخذت «ليليث» ثيطانة القفار مقرأ لها. وبذلك لم تعد انانا المسكينة قادرة على الوصول لشجرتها الحبيبة. فوقعت في غمة وأسى وراحت تبكي وهي الفتاة اللاهية أبداً، الفرحة دائماً. ثم مضت إلى أخيها (أوتو) إله الشمس لدى خروجه الصباحي من غرفة نومه وسردت على مسامعه قصتها مع شجرة الحلبو. ولكن أوتو تلكأ في مساعدتها فهرع إليها جلجامش ملك أوروك. (ايريك) وبطلبها المقدام (الذي رأيناه في أسطورة سومرية أخرى يقتل وحش غابة الأرز لابساً درعه السميك وحاملاً فأسه الجبار.

فقتل الحية عند قاعدة الشجرة. فلما رأى طائر الزو هذا المشهد فرّ هارباً بصغاره إلى الجبال. أما ليليث فقوصت بيتها وعادت إلى القفار حيث أعتادت أن تصيد ، عند ذلك عمد رجال «ايريك» ممن رافقوا جلجامش إلى قطع الشجرة وتقديمها لانانا لتصنع لنفسها منها الكرسي والسرير. ولكن انانا إعتزافاً منها بفضل جلجامش صنعت له من قاعدة الشجرة آلة موسيقية هي «الباكو». ومن قمتها صنعت له آلة أخرى هي «الماكو» -ربما كانت الأولى طبلاً والثانية عصاه - وقدمتها له هدية. ففرح البطل بالهدية وراح مسروراً بها

1 - Alexander Heidel, The Gilgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago 1970

- E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics (in: James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts. Edited, Princeton: New Jersey 1970).

- S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork. 1961 .

يعزف هنا وهناك إلى أن سقطت منه في كوة إلى العالم الأسفل. فمد يده وساقه لإسترجاعها دون
طائل فجلس هناك يندب ما ضاع منه:
إيا (بكي) من سيعيدك إليّ من العالم الأسفل؟
ويا (مكي) من سيرجع بك من العالم الأسفل؟
وهنا يسمعه خادمه أنكيديو الذي رافقه في الأسطورة السابقة إلى أرض الأحياء وقاتل معه
الوحش الرهيب. ويخف إليه ملهوفاً:
لمإذا يا سدي تبكي؟ وعلام ينوح قلبك؟
(يُكك) سأتيك به من العالم الأسفل
و(مُكك) أُرجه إليك من العالم الأسفل
فينصرف جلجاشن إلى تحذيره من مخاطر النزول إلى تلك الأرض شارحاً له قوانين عالم
الأموات، وما يجب عليه أن يفعل وإن لا يفعل هناك:
إذا عزمت على النزول إلى العالم الأسفل،
فإن لدي كلمة أقولها لك فإستمع لها،
ونصيحة أضعها أمامك فخذ بها.
(لا تضع عيك ثياباً نظيفة، وإلا خف إليك الأموات
ولا تضمخ نفسك بالعطور الطيبة،
كي لا تجذبهم الرائحة فيجتمعوا حولك .
ولا ترمي رمحاً (عتد تجوالك) في العالم الأسفل .
لئلا يتكأكأ عليك من أصحابهم رمحك.
ولا تحمل بيدك هراوة كي لا تهيم حولك الأشباح.
لا تضع في قدميك صندلاً.
وفي العالم الأسفل لا يصرخ ولا تبك .
لا تُقبّل زوجتك المحبوبة، ولا تقبل إبنك الحبيب.
ولا تضرب إبتك الذي تكره
حتى لا يمسك بك صراخ العالم الأسفل

(صراخ) تلك المضطجعة (أم ننازو) تلك المضطجعة .

التي لا يغطي جسدها رداء

ولا يستر صدرها الحرام غطاء

فلم يعط أنكيديو أذنأ صاغية لمشورة سيده

وضع عليه [حُلَّةً نظيفة؛

فهجم الأموات عليه وتصايحوا،

ودهن نفسه بالعطور الثمينة،

فتجمعوا لفوحائها حوله.

ورم حريته في العالم الأسفل . فحاق به من [أصابتهم] حرابه.

[وأمسك] بيده هراوة.

فتراقصت أمامه الأشباح.

[وإنتعل] في قدميه صندلاً،

[وأحدث] جلبية [في العالم الأسفل].

قبّل زوجته التي يُحب،

وضرب زوجته التي يكره.

قبّل ابنه الذي يُحب،

وضرب ابنه الذي يكره.

فأمسك به صراخ العالم الأسفل،

(صراخ) تلك المضطجعة وأم ننازو تلك المضطجعة،

التي لا يغطي جسدها رداء،

ولا يستر صدرها الحرام غطاء،

ومنعت عنه الصعود من عالم الأموات**

* «أريشكيجال» نفسها. ويظهر هذا جلياً من متابعة الفقرات التالية في النص البابلي لا السومري. ورغم أن ننازو هو أحد أزواج اريشكيجال فإن الأسطورة دوماً تخضع للتغيير والتبدل. فيصبح زوجاً من كان ابناً وقد يغدو ابناً من كان زوجاً. والأمثلة على ذلك كثيرة ولا مجال هنا للدخول في هذا الموضوع. ** ويظهر هنا بوضوح أن أم ننازو هي اريشكيجال.

ولدى تأخر أنكيديو في العودة، عرف جلجامش ما حدث له، فإضطرب فؤاده، وهرع إلى «نيبور» (ايكور في النص البابلي) مدينة الإله «انليل» فسجد أمامه وبكى طالباً معونته :

[.....] بكى السيد ابن «ننسون» خادمه أنكيديو،

(أيها الأب (انليل) لقد سقطت بكّي للعالم الأسفل

كما سقطت بكّي للعالم الأسفل (أيضاً)

فأرسلت أنكيديو ليرجعها ولكن العالم الأسفل أمسكه.

لم يقبض عليه «نمتار» ولا أمسك به «أشاك»

ولكن العالم الأسفل أمسكه

لم يطبق عليه (نرجال) ناصب الكمانن المحكمة ... ولكن العالم الأسفل أمسكه

لم يسقط في المعركة، في ساح البطولة ... ولكن العالم الأسفل أمسكه.

فلم يجبه انليل بكلمة. فمضى إلى (ايكيشيرجال) موطن (سن).

أيها الأب (سن) لقد سقطت بكّي للعالم الأسفل

كما سقطت بكّي للعالم الأسفل أيضاً

(تكراراً لما سبق أن قاله للإله (انليل)

فلم يجبه (سن) بكلمة فمض إلى (ايابسو) موطن (إيا) **

أيها الأب (إيا) لقد سقطت بكّي للعالم الأسفل

كما سقطت بكّي للعالم الأسفل أيضاً

(يتكرر هنا للمرة الثالثة مقطع إحتجاز أنكيديو)

وعندما [سمع] الأب «إيا» [ذلك]

[قال لرجال] البطل الصنديد ***

رجال يا أيها البطل الصنديد [يا ابن بيليتالي]

فلتفتح الآن ثقباً في العالم الأسفل

* جلجامش. كما هو معروف مولود الآلهة (ننسون) زوجة الإله لوجال بندا أما ابوه فكان بشراً،

** أريدو في النص السومري موطن الإله (أنكي).

*** رجال زوع اريشكيجال وقد أطلق علماء الفضاء اسمه على أحد أودية كوكب المريخ.

تستطيع منه روح أنكيدو الصعود من العالم الأسفل

[فيشرح مسالك العالم الآخر لأخيه]

فإمتثل نرجال البطل الصنديد لطلب (ايا)

وعلى الفور فُتح ثقباً في العالم الأسفل

فإنسلت من خلاله روح أنكيدو وكأنها الهواء

وتعانق (الصديقان) وقَبَّلا بعضهما بعضاً... ثم أخذا يتحدثان ويتحاوران

-أخبرني أيها الصديق، ألا أخبرني أيها الصديق،

حدثني عن مسالك العالم الذي شهدت.

-لن أخبرك أيها الصديق لن أخبرك.

ولكن إذا كان علي أن أخبرك بمسالك العالم الذي رأيت

إجلس (أولاً) وإبك،

- ساجلس وأبك

- [أنه جسي...] الذي لم تلمسه (في العناق) وقبك مبتهج.

تهشه الهوام حتى غدا كالخرقة... (جثة) مليئة بالتراب *

فصرخ يا ويلاه وسقط على وجهه في التراب

صرخ جلعامش يا ويلاه وسقط على وجهه في التراب

-«هل رأيت الذي لم ينجب أولاد؟» نعم لقد رأيت

(سطران مكرران)

-«هل رأيت الذي أنجب ولداً واحداً؟» نعم لقد رأيت أنه ساجد عند الجدار يبكي بحرقه....

-«هل رأيت الذي أنجب ولدان؟» نعم لقد رأيت

أنه يسكن في بيت من الآجر ويأكل الخبز

- «هل رأيت الذي أنجب ثلاثة أولاد؟» نعم لقد رأيت

أنه يشرب الماء من ينابيع الأعماق

- «هل رأيت الذي أنجب أربعة اولاد؟» نعم لقد رأيت

* أي أن جلعامش كان يعانق شبح أنكيدو بينما جسمه في العالم الأسفل.

ففرح قلبه كأنه [.....].

- «هل رأيت الذي أنجب خمسة أولاد؟. نعم لقد رأيت

إن يده مبسوطة كالكتاب الطيب

ويدلف إلى المكان (عالم الموتى) بيسر وسهولة

- «هل رأيت الذي أنجب ستة أولاد؟» نعم لقد رأيت

[.....].

- «هل رأيت الذي أنجب سبعة أولاد؟» نعم لقد رأيت

أنه مُقَرَّبُ الآلهة وهو [.....].

(عدد من الأسئلة غير واضح المضمون بسبب بعض النقص).

- «هل رأيت الذي قُتِلَ في ساح المعركة؟» نعم لقد رأيت

إن أباه وأمه يمسان جسده وزوجه تبكي عند رأسه

- «هل رأيت الميت الذي تركت جثته في العراء؟»

نعم لقد رأيت

إن روحه لا تجد راحة في العالم السفلي.

- هل رأيت الميت الذي لا تجد روحه من يعتني بها؟»

إنه يأكل الأقدار وما يُرمى في الشوارع من فتات

لقد حققت هذه الأسطورة مقاصد شتى. ففي مقدمتها أطلعتنا على آراء السومريين في التكوين،

وعلى سبب وجود اريشكيجال في العالم الأسفل. ومنها عرفنا سبب تسمية عالم الأموات بـ«كور».

وأحوال الموتى فيه. وبالإضافة إلى ذلك يبدو أن للأسطورة أهدافاً تتعلق بإقرار عدد من

الممارسات الدينية والاجتماعية. ففيها حض على الإكثار من الإنجاب لأن الفرد يُعامل وفق عدد

الأولاد الذين أنجبهم في الحياة. وفيها تأكيد على شعائر الدين وعلى ضرورة تقديم القرابين لأرواح

الموتى لتجد ما تأكله في العالم الآخر.

* المقصود هنا ما يقدمه الأحياء من أضحيات وقرابين لأرواح موتاهم >

٢ / الجحيم البابلي

إذا إنتقلنا إلى بابل وأشور وجدنا أن تصور الأكاديين للعالم الآخر وأحوال الموتى فيه هو إستمرار للخيال السومري. ومن الأساطير التي تؤدي الغرض في هذا المجال. أسطورة حلم أمير في العالم الأسفل، وأسطورة نرجال واريشكيجال.

وجدت أسطورة (حلم أمير) في آشور على لوح كبير يرجع عهده للقرن السابع قبل الميلاد. ونص الأسطورة نثري مؤلف من أسطر طويلة. وهو نص ثمين جداً لإكتماله نسبياً ودقة وصفه ووضوح لغته.

تحكي لنا الأسطورة عن أمير آشوري أسمه (كومايا) كان تواقاً لرؤية العالم الأسفل. ولهذه الغاية كان يقدم القرابين لاريشكيجال وزوجها نرجال ويرفع لهما المصلوات لتحقيق مراده. وأخيراً تحققت أمانيه ولكن في الحلم، فرأى فيما يشبه النائم أنه قد هبط إلى الدار الآخرة ورأى معالمها وكاد يغدو سجيناً لها ثم عاد ليقص ما عرض له من رؤى مروعة:
حلم أمير في العالم الأسفل^(٢)

تمدد (كومايا) لينام مساء، فعرضت له رؤيا «عجيبة» (لقد رأيت روعته

2 - E.A. Speiser, Akkadian Myths and Epics, (in: j. Pritchard. Ancient Near Eastern Texts, Edited, Princeton, New Jersey 1969).

المخيفة): رأيت (نمتار) وزير العالم الأسفل وسيد أقداره. كان يمسك بيده اليسرى لبدة رجل جاثٍ أمامه، وبيده اليمنى كان يمسك سيفاً [.....].

(رأيت) «نمتارتو» زوجته. كان لها رأس الـ «كوربيو»، أما يداها وقدماهما فكانت بشرية. أما إله الموت فكان له رأس تتين ويدان بشريتان وقدمان [.....]. (رأيت) «شيدد» * الشرير. كان له رأس رجل ويداه. على رأسه عمامة، وقدماه قدما طائر. أما «اللوجابو» فكان له رأس أسد، بأربع أيدي بشرية وقدمان.

(رأيت) الـ «موكيل ريش ليموتي». كان له رأس طير وجناحان مبسوطتان يطير بهما جيئةً وذهاباً. أما يداها وقدماه فكانت بشرية. ورأيت «حمو طابال» ملاح العالم الأسفل. كان له رأس طائر الزو أما يداها وقدماه فكانت بشرية.

[.....] رأس ثور، ويداه يدا بشر وقدماه. رأيت «أوتوكو» الشرير، كان رأسه لأسد ويداه وقدماه لطائر الزو و«شولاح» الذي يملك رأس أسد أيضاً، ولكنه ينتصب على ساقى أيل.

(رأيت) («ماميتو»). كان لها رأس عنزة ويدان بشريتان وقدمان. و«نيدو» حارس بوابة العالم الأسفل. كان رأسه لأسد وأطرافه لطائر. و«فيمايو»، ذا الرأسين، واحد لأسد والثاني [.....]. [.....] ثلاثة أرجل. أثنان لطائر والثالثة لثور، وعليه مهابة وروعة. ورأيت إلهان لم أعرف أسميهما. أحدهما له رأس وأطراف طائر الزو و[.....].

والآخر له رأس إنسان عليه عمامة بيده اليمين هراوة وباليسرى [.....]. كان مجمل ما رأيت خمسة عشر إلهاً عبدتهم جميعاً.

وبالإضافة إليهم، كان هناك رجل. جسمه أسود كالفار، ووجهه كوجه الزو، وقد توشح بعباءة حمراء. بيده اليسرى قوساً. وباليمنى كان يحمل سيفاً. ورجله اليسرى كأنها أفعى.

رفعتُ بصري وإذ بي في حضرة «نرجال» الصنديد جالساً على عرش جلالته، على رأسه العمة الملكية، وبيديه الأثنين سلاحان رهيبان لكل سلاح رأسان.

[.....] من ذراعيه ينبعث البرق، وعلى يمينه وشماله، جلس الانوناكي الآلهة الكبار في أنحناء.

* الاسماء الغريبة الواردة هنا هي لآلهة وعفاريت من العالم الأسفل.

(نظرت حولي) كان العالم الأسفل مليئاً بالربع والصمت ، فمد (نرجال) يده وأمسك بجزتي
وجزتي إليه. عندما تطلّعت إليه إرتعدت فرائصي ، غمرتني هيبتة فوقعت على قدميه أقبلهما
ساجداً. وعندما إنتصبت تطلّع إليّ وهز رأسه. وصرخ في وجهي صرخة هائلة وزأر زئيراً غاضباً كأنه
العاصفة الهادرة وصولجانة في يده ، لائق بجلاله؛ مرعب كأفعى خبيثة.
إقترب مني قاصداً قتلي. غير أن مشاوره ايشوم الشفيع الذي يحفظ الأرواح ويحب الحقيقة
(والعدالة) قال له :

((أي ملك العالم الأسفل، لا تقتل الرجل.

[أنقذ حياتي] لتصل أخبار عظمتك إلى أنحاء الأرض. وجبروتك على الفسقة الظالمين)) فهدأ
غضب نرجال كبركةً باردة.

ثم قال: لماذا أزعجت زوجتي الحبيبة ملكة هذا العالم الأسفل؟ أن أمرها الذي لا رادّ له سيقضي
بأن يسلمك «بيبلو» سقّاح العالم الأسفل إلى البوّاب «لوجال سولا» فيفودك خارجاً عبر بوابة
عشتار.

ثم يستفيق الأمير من رؤياه مذعوراً، وينطلق كالسهم خارج بيته هائماً في شوارع المدينة صارخاً
أواه. واحسرتاه... وأخذ يحثو التراب على رأسه ويمضغه في فمه قائلاً لاهل آشور الذين تجمعوا
حوله أن يخشوا اريشكيجال ونرجال ويفعلوا وفق أوامرهما.

إدليس البابلي أو «نرجال» و«اريشكيجال»:

أكتشِفَ نص هذه الأسطورة في تل العمارنة بمصر مع أسطورة آديا الواردة الذكر في فصل
الفردوس. وكان هذان النصان يُستعملان في صف لتدريس اللغة الأكادية للطلبة المصريين ،
والكسرات التي تضم الأسطورة موزّعة بين المتحف البريطاني ومتحف برلين، وهذه الكسرات قد
إنفصمت عن لوح واحد.

تحكي الأسطورة عن سبب وجود نرجال في العالم الأسفل وكيف صار ملكاً هناك وزوجاً
لاريشكيجال الرهيبة: (٣)

3 - ibid.

J. Gray. Naar Eastern Mythology, Hamlyn. London 1969.

A. Heidel, Gilgamesh Epic, Phoenix Books, Chicago, 1970.

عندما أقام الآلهة مأدبة (فاخرة)

بعثوا رسولاً عنهم

لأختهم اريشكيجال (يُبلِّغها):

«إذا كنا نستطع الهبوط إليك

فإنك لا تستطيعين الصعود إلينا

فهلأ أرسلت من لدنك رسولاً لنعطيه نصيبك؟)

فبعثت اريشكيجال بوزيرها «نمتار»

فصعد نمتار إلى السماء العليا الاخيرة ودخل المكان على الآلهة المجتمعين فنهضوا جميعاً لتحية

نمتار رسول أختهم العظيمة

أن الاسطر التي تلي حتى نهاية الكسرة مشوّهة تماماً ولكننا من سياق النص فيما بعد نستطيع

أن نستنتج إن جميع الآلهة نهضوا إحتراماً لنمتار إلا واحداً هو «نرجال» فقد بقي جالساً، وقد

نقل المبعوث لسيدته ذلك عندما عاد إليها فثارت للإهانة البالغة وأعادت نمتار على أعقابه إلى

مجمع الآلهة السماوية طالبةً أن يُسَلِّمَ لها «نرجال» أسيراً لتصب عليه لعنة الموت.

قائلة: (أن الإله الذي لم يقف أمام رسولي

يجب أن يُسَلِّمَ إليّ لأقتله)

فمضى نمتار لينقل حديثها للآلهة

فأدخله الآلهة ليستمعوا له:

(أمسكوا الإله الذي لم يقف أمامي

وأبعثوا به إلى سيدتي)

ثم قام نمتار بعدّهم فوجد إلهاً غائباً في المؤخرة:

«أن الإله الذي لم يقم لي ليس هنا»

فعاد(إلى سيدته) وأخبرها

[.....] عددتهم

يلي ذلك بضعة سطور مشوّهة نستنتج منها أن اريشكيجال كررت الضغط على مجمع الآلهة

فزلوا عند رغبتها:

(خذوه إلى اريشكيجال) فبكى وناح
أمام أبيه أيا «إن اريشكيجال في أثري
وهي تأتي عليّ الحياة». «لا بجزع فؤادك *
سأعطيك سبعة عفاريت وسبعة آخر
فيذهبون معك.... موتابريك **»
شارابدو، راييصو، طيريد، ايديتو
اومو، ليبو [هؤلاء العفاريت الأربعة عشر ستمضي معك]
وهكذا عندما وصل نرجال إلى بوابة اريشكيجال
صاح قائلاً: (أفتح بابك أيها البواب،
وأرفع مزلاجي لأستطيع الدخول فأمثل أمام سيدتك
اريشكيجال، فقد أرسلتُ إليها) فمضى البواب
وقال لنمتار: «إن إلهاً يقف عند البوابة
فهلا أتيت لفحصه ليستطيع الدخول» فمضى نمتار
وعندما رآه قال مبتهجاً [.....]
سيدتي إنه الإله الذي أختفى
لشهور خلت من أمامي ولم يعد للظهور.
«أحضره أمامي فياني سأقتله حال مثوله أمامي»
فمضى نمتار وقال لنرجال: أدخل يا مولاي
إلى بيت أختك، ومرحباً بقدمك
(سطور تالفة)

ولكن مخطط نرجال الذي وضعه بمساعدة إيا . كان يقع . ي بانقضاضه مع العفاريت المرافقة
له، في لحظة الدخول على ملك العالم الأسفل وعلها على أمرها :
[.....] يقف على الباب الثالث و«موتابريك» على الرابع
«شارابدو» على الخامس و«راييصو» على السادس .

* الحديث لايا. ** تعداد لأسماء العفاريت الأربعة عشر .

« طيريد »

على السابع، «ايديبتو» على الثامن «بينو»
على التاسع، و«صيدانو» على العاشر «ميكيت»
على الحادي عشر، و«بيلوبري» على الثاني عشر
«اومو» على الثالث عشر، و«ليبو» على الرابع عشر

وهكذا إحتجزها داخل قصرها

المحارب أعطى أمره أن أفتح الأبواب *

وبغمضة عين سأسرع إليك.

وبداخل القصر قبض على اريشكيجال

من شعرها نازلاً بها عن عرشها الى الأرض ليقطع رأسها.

(لا تقتلي يا أخي فلديّ كلمة أقولها لك)

أنصت «رجال» وتراخت قبضتاه، بينما هي تبكي وتنتحب:

(ستكون زوجي وأكون زوجتك. وأجعل لك ملكاً

وسلطاناً على العالم الأسفل الكبير. وسأضع بين يديك

ألواح الحكمة. وتكون سيداً (معظماً)

وأكون امرأةً لك) عندما سمع رجال هذا القول

رفعها إليه وقبلها ومسح دموعها:

(إنّ ما أردت مني القيام به لشهور خَلت

سيتحقق لك الآن)**

وهكذا تنتهي الأسطورة على نحو يُثير الإنتباه لتشابه واضح في الخطوط العريضة بينها وبين

أسطورة «لوسيفر» في التعاليم المسيحية. فكما كان رجال إلهاً سماوياً هبط إلى الأسفل بسبب

رفضه إظهار الإحترام لرسول الإلهة اريشكيجال، وتحول بذلك الى إله في عالم الظلام والموت،

كذلك كان أمر لوسيفر الذي تُحدِثنا عنه تعاليم آباء الكنيسة وكيف تحول من سيد الملائكة إلى

إبليس سيد الشياطين:

* ترجمت هذا السطر والذي يليه بتصريف. ** أي تقديم فروض الإحترام.

(بين الملائكة التي خلقها الله، كان هناك ملاك فائق الجمال اسمه «لوسيفر» أي حامل الضياء وكان من صف الملائكة المقربين الذين يعكسون مجد الله وعظمته، ولما خلق الله آدم، شعر لوسيفر بالمكانة الخاصة التي أفرد بها الله هذا المخلوق الجديد، وأمعن النظر في صميم الثالوث المقدس وعرف أن الله يعد لهذا المخلوق مكانة أعلى فأعلى تُهدد مكانة لوسيفر نفسه الذي يعتقد بأنه الأعلى بين جميع المخلوقات، قطعة فريدة من صنع الخالق. ورأى لوسيفر ببصيرته أكثر من ذلك، فالإله نفسه سوف يتجلى في المستقبل في جسد إنساني من طينة آدم المخلوق. ورغم أن لوسيفر يعرف تماماً اللعنة الأبدية التي ستُحقيق به نتيجة الثور على الإله، فقد فضّل أن يتمرد ويتمرد إلى آخر الزمن على أن يتخلّى عن كبريائه وكرامته الملائكية السامية، وذلك بتأدية فروض الولاء لمن هو أقل منه شأنًا وسموًا.

وقد إستخدم لوسيفر إرادته الحرة التي منحه الله إياها كاملةً غير منقوصة وأظهر العصيان بأن رفض إظهار الإحترام لآدم كما أمر الله جميع الملائكة . وقد عاضده فيما بعد آلاف من الملائكة. فلما أداروا ظهورهم لنور الله العظيم، دفع بهم إلى عالم الظلام الأبدي. فتحول الملائكة إلى شياطين ولوسيفر على رأسهم سيداً مطلقاً لمملكة الشر والظلام، عدواً لله والإنسان^(٤).

ولعل معرفة بعض عادات الدفن لدى سكّان المنطقة القدماء تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة تصورهم للعالم الآخر وطبيعة الإستمرار فيه. ولعل أقدم نص يفيدنا في هذا المجال هو لوح من أيام الملك السومري «اوروكاجينا» ملك «لكش»، يتحدث فيه عن إصلاحاته. وقد خصص بعض هذا النص للعادات التي كانت سائدة في دفن الموتى فنقرأ:

((عندما كان يوضع الميت في قبره، توضع معه سبع جرار من الجعة، وأربعمئة وعشرون رغيفاً من الخبز، ووزنتان من الحنطة، وعباءة، ووسادة))

وقد تطابقت مكتشفات المقابر مع هذا النص إلى حدٍ بعيد. ففي مدينة «اور» و«كيش» كشفت الحفريات عن عدد كبير من المقابر. وفي كل مقبرة كنا نجد أطباق الطعام والملابس والحلي وعدة الحرب مدفونة مع الميت. وتتضاعف الأشياء المدفونة ويزداد عددها بارتفاع مكانة الميت الإجتماعية، حتى

4 - Alan Watts, Myth and Ritual in Christianity. Thames and Hudson, London, 1983 PP41

-45. NEwYork 1954, P41

أن مقابر الملوك كانت تحتوي على جثث عدد من خدمه وحشمه الذين كان عليهم أن يموتوا معه لمرافقته للعالم الأسفل ولم تعرف على وجه الدقة الطريقة التي مات بها هؤلاء الأتباع المخلصون ولكن يُرَجَّح أنهم قد تجرعوا نوعاً من السم الزعاف .

أن وجود مثل هذه الأشياء يدل على أن موتى العالم الآخر إنما يستعملون لمعاشهم نفس ما يستعمله الإنسان في هذه الحياة فهم يأكلون ويشربون ويهجعون بنفس الطريقة. ولكنه طعام لا تصحبه متعة وشراب لا ترافقه بهجة ونوم ثقيل كنوم الكوايبس. ووجودهم بكامله وجود سكوني لا حرارة فيه ولا حركة. وحتى طعامهم وشرابهم متوقف على ما يقدمه لهم سكان العالم الأعلى من قرايين وأضحيات، وإلا أكلوا التراب والغبار. وكذلك الأمر إذا لم تُدَفَّن أجسادهم في قبورها بالوسائل المعروفة وتُركت في العراء فإن أرواحهم لن تعرف الراحة وتظل هائمة إلى أبد الأبدين. وربما تُزَعِّج هذه الأرواح الهائمة حياة الأحياء وتُنغص عليهم عيشتهم. نقرأ على سبيل المثال النص التالي (مترجماً عن King)

((أي شمس با الهي.. أن شبحاً مربعاً يجثم على ظهري. يلاحقني كظلي في الليل وفي النهار، جاعلاً شعر رأسي ينتصب رعباً، ووجهي يلتهب خوفاً.. ففسي جاف كالتراب، وجسدي خدر مشلول.. هل هو روح هائمة لا تجد مستقراً؟ سواء كان هذا أو ذاك أي شمس يا إلهي أتوسَّل إليك : هذه عباءة للملبسه، وهذا حذاء لقدميه، قطعة جلد لمنطقته، وماء قراح لشرابه، وطعام مؤونة لرحلته هذه جميعاً.. فليمضي حيث مغرب الشمس فيسُلم إلى نيدو كبير حراس العالم الأسفل ليدخله ويوصد خلفه)).

من هنا كان لزاماً على أهل الميت دفنه وفق الطقوس المتبعة وتزويده بما يلزم ريثما يصل للعالم الأسفل. ومن ثم الإستمرار في تقديم الطعام والشراب والكساء له بعد دفنه عن طريق التقدّمات المختلفة ، وتقديم القرايين لآلهة العالم الأسفل لتكون رفيقة به. وهذه الطقوس الجنائزية والأضحاحي هي التي تُعين الميت أكثر من أي شيء آخر.

ولكن ما فائدة العمل الصالح والحالة هذه، إذا كان الجميع يهبطون إليها دون إستثناء، فيُعاملون على قدم المساواة بشكل عام مع بعض الإختلافات التي تفرضها المكانة الإجتماعية السابقة للمتوفي؟ في الواقع أن العمل الصالح من شأنه أن يُفيد صاحبه في هذه الحياة. فخشية الآلهة وعبادتها وإقامة المعابد لها وإتباع

أوامرها، كلها أمور من شأنها إطالة حياة صاحبها والمد في عمره. وفي الأقوال الشائعة في هذا المجال قولهم (إن القرابين تمد في العمر.. وخشية الانوناكي تُطيل أيامك على هذه الأرض).. ومن صفات «جولا» آلهة الشفاء أنها تُطيل عمر عبادها. كما نقرأ دعاءً لأحد ملوك بابل: (أدعوك يا إلهي أن احفظني من الخطيئة نحو ذاتك العظيمة، وإمنح لي حياة مديدة وعمراً طويلاً. وأزع في فؤاد إبني وبكري بيلشازار مخافتك وخشيتك، فلا يقترف ذنباً ليُمنَح أياماً كثيرة). وعن تغلات بلاصر الأول نقرأ قوله عن أبيه أن (ما قدمته يداه من أفعال وقرابين قد سرّت فؤاد الآلهة فعاش عمراً طويلاً) وعن صارغون الأشوري نقرأ قوله أنه (لدوام الصحة وطول العمر وإمتداد الحكم والسلطان أسجد إليك أيها الآلهة وأتعبّد). وعلى العكس من ذلك فإن الخطيئة تقصّر العمر وتقطع سلسلة الأيام. وكما يقول أحد النصوص فإن (مَن لا يخشى الآلهة سيُكسر عوده كقضيب من قصب).

٣ / الجحيم النوراتي

كانت نظرة التوراة للموت والعالم الآخر إنعكاساً لنظرة أهل الرافدين. فعالم الموتى هو عالم سفلي تذهب إليه أرواح الموتى جميعاً دون تمييز. فنجد فيه القديسين والناس العاديين معاً. وليست عملية الموت إلا مرحلة تقود الفرد من حالة إلى أخرى من أحوال الوجود، عن طريق مفارقة الروح للجسد. وقد عبر كتاب التوراة عن مفارقة الروح للجسد بقولهم: أضطجع مع آبائه. وربما كانت هذه الجملة تعني في الأصل أن يُدفن الميت في مقبرة آبائه وعشيرته كما نرى في سفر التكوين^(٥):

(وَلَمَّا قَرَبْتُ أَيَّامُ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَمُوتَ دَعَا ابْنَهُ يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَضَعْ يَدَكَ تَحْتِ فَخْذِي وَاصْنَعْ مَعِيَ مَعْرُوفًا وَأَمَانَةً: لَا تَدْفِنِي فِي مِصْرَ، بَلْ أَضْطَجِعْ مَعَ آبَائِي، فَتَحْمِلْنِي مِنْ مِصْرَ وَتَدْفِنْنِي فِي مَقَابِرِهِمْ»)

إلا أن هذا المعنى قد استعمل فيما بعد بمعنى مفارقة الروح للجسد أينما كان وسواء دُفن في مقبرة آبائه أم في أرض غريبة. فنقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني^(٦):

(ثُمَّ اضْطَجَعَ أَحَازُ مَعَ آبَائِهِ فَدَفَنُوهُ فِي الْمَدِينَةِ فِي أُورُشَلِيمَ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِهِ إِلَى قُبُورِ مُلُوكِ إِسْرَائِيلَ). وكذلك الأمر مع ابن أحاز الذي لم يُدفن في مقبرة آبائه بل في

(٥) العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٤٧: ٢٩-٣١

(٦) العهد القديم، أخبار الأيام الثاني، الإصحاح ٢٨: ٢٧

حديقة بيته الملوك الثاني ٢١: ١٨. وفي أماكن كثيرة نقرأ أن فلاناً قد أضطجع مع آبائه ثم دُفِن. كما هو الأمر في الملوك الثاني ٨: ٢٤ والملوك الأول ٤: ٣١ و ١٥: ٨ وأماكن أخرى.

والأرواح متساوية في مصيرها كما هو الأمر في ثقافة أرض الرافدين: فلا بعث هناك ولا حساب ولا ثواب ولا عقاب. بل وجود ثقيل راكد، وإستمرار لا فرح فيه ولا نشوة. نقرأ في سفر الجامعة: { وَأَيْضًا رَأَيْتُ تَحْتَ الشَّمْسِ: مَوْضِعَ الْحَقِّ هُنَاكَ الظُّلْمُ، وَمَوْضِعَ الْعَدْلِ هُنَاكَ الْجَوْرُ! } فَقُلْتُ فِي قَلْبِي: «اللَّهُ يَدِينُ الصِّدِّيقَ وَالشِّرِيرَ، لِأَنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ وَلِكُلِّ عَمَلٍ وَقْتًا هُنَاكَ». قُلْتُ فِي قَلْبِي: «مِنْ جِهَةِ أُمُورِ بَنِي الْبَشَرِ، إِنَّ اللَّهَ يَمْتَحِنُهُمْ لِيُرِيَهُمْ أَنَّهُ كَمَا الْهَيْمَةَ هَكَذَا هُمْ». أَنْ مَا يَحْدُثُ لِبَنِي الْبَشَرِ يَحْدُثُ لِلْهَيْمَةِ، وَحَادِثَةٌ وَاحِدَةٌ لَهُمْ. مَوْتُ هَذَا كَمَوْتِ ذَلِكَ، وَنَسَمَةٌ وَاحِدَةٌ لِكُلِّهِ. فَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مَرْيَةٌ عَلَى الْهَيْمَةِ، لِأَنَّ كِلَيْهِمَا بَاطِلٌ. يَذْهَبُ كِلَاهُمَا إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ. كَانَ كِلَاهُمَا مِنَ التُّرَابِ، وَإِلَى التُّرَابِ يَعُودُ كِلَاهُمَا. مَنْ يَعْلَمُ رُوحَ بَنِي الْبَشَرِ هَلْ هِيَ تَنْزِلُ إِلَى الْأَرْضِ؟ فَرَأَيْتُ أَنَّهُ لَا شَيْءَ خَيْرٍ مِنْ أَنْ يَفْرَحَ الْإِنْسَانُ بِأَعْمَالِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ نَصِيبُهُ. {^(٧)}

كاتب هذا السفر هنا لا يعتقد بأي نوع من أنواع الإستمرار لوجود الإنسان بعد مماته فحياته تنتهي عند لحظة الموت حيث يعود جسده إلى التراب شأنه في ذلك شأن جميع الحيوانات، أما روحه فأمرٌ مشكوكٌ به، هل تصعد للأعلى أو تنزل للأسفل؟.

وعندما نقرأ سفر أشعيا نجد الملك التقي الورع حزقيا ينخلع فؤاده لفكرة الموت ومغادرة عالم الأحياء عندما يُخبره النبي أشعيا بقرّب وفاته. فهو يعرف أن الحياة الآخرة لن تكون أفضل من الأولى حتى للإنسان الذي أمضى حياته في خدمة الإله. وعندما بكى مُدْكَرّاً ربه بكل ما فعله في سبيله طالباً منه أن يمد في عمره كلمه الرب بواسطة أشعيا: {ارْجِعْ وَقُلْ لِحَزَقِيَّا رَيْسَ شَعْبِي: هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ دَاوُدَ أَبِيكَ: قَدْ سَمِعْتُ صَلَاتَكَ. قَدْ رَأَيْتُ دُمُوعَكَ. هَا أَنَا أَشْفِيكَ. وَأَزِيدُ عَلَى أَيَّامِكَ خَمْسِينَ عَشْرَةَ سَنَةً. }^(٨)

وهكذا فجزء الصلاح ليس في الدار الآخرة بل على هذه الأرض وفي هذه الحياة. والرب يمد يده في عمر الصالح ويُزهق روح الطالح، تماماً كما هو الأمر

(٧) العهد القديم: سفر الجامعة، الإصحاح ٣: ١٦-٢٢ (٨) العهد القديم؛ سفر أشعيا، الإصحاح ٣٨: ١

في الفكر الديني البابلي وتتردد هذه الفكرة في مواضع كثيرة في التوراة: { أَكْرِمُ أَبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. }^(٩) { مَخَافَةُ الرَّبِّ تَزِيدُ الْأَيَّامَ، أَمَّا سِنُو الْأَشْرَارِ فَتَقْصُرُ }^(١٠) { يَا ابْنِي، لَا تَنْسَ شَرِيعَتِي، بَلْ لِيَحْفَظْ قَلْبُكَ وَصَايَايَ. فَإِنَّهَا تَزِيدُكَ طُولَ أَيَّامٍ، وَيَسِّنِي حَيَاةً وَسَلَامَةً }^(١١). ولكن لماذا إذن نجد إنساناً صالحاً يموت في زهرة الشباب وآخر شرير يمتد به العمر؟ يجيب التوراة على ذلك بطريقة طريفة فنقرأ في سفر أشعيا^(١٢) { هلك الصديق ولم يكن تأمل في قلبه. وضم اهل التقوى ولم يفتن احد أنه من وجه الشر ضمّ الصديق } أي أن موت الاتقياء المبكر هو تخليص لهم من كوارث وشرور قادمة قد تصيبهم. فموتهم والحالة هذه تخليص لهم كما نقرأ في الملوك الثاني ٢١ : ٢٠. حديث الرب إلى يوشيا الصالح { لِذَلِكَ هُنَذَا أَضْمُكَ إِلَى آبَائِكَ فَتُضَمُّ إِلَى قَبْرِكَ بِسَلَامٍ، وَلَا تَرَى عَيْنَاكَ كُلَّ الشَّرِّ الَّذِي أَنَا جَالِبُهُ عَلَى هَذَا الْمَوْضِعِ ... }

(أما حياة الاشرار وإمتداد أعمارهم فإنّ الحكمة منها مهما كانت بالغة لم تقنع رجالاً صالحاً كأيوب عندما نسمعه يرفع عقيرته بالشكوى صارخاً:

لماذا يحيى المنافقون ويسنون ولماذا يعظم إقتدارهم. ذريتهم قائمة أمامهم، وقومهم وأعقابهم لدى أعينهم، ببيوتهم آمنة من الفزع وقضيب الرب لا يعلوهم)^(١٣). وهؤلاء الأشرار عندما يموتون يمشون مع الأخيار إلى دار واحدة كما يمضي إليها من نعم في هذه الحياة ومن شقى. لأي حكمة من ذلك: (هذا يموت في معظم وفرة وقد عمته الدعة والطمأنينة. وذاك يموت في مرارة نفسه، ولم يذق حليباً. وكلاهما يضحجان في التراب فيكسوهما الدود. أن الشرير يبقى إلى يوم العطب، وإلى يوم النقم يساقون. فمن الذي يبين له طريقه، ومن يكافئه على ما صنع) أيوب ٢١ : ٣١. وفي المزمور ٧٣ نلمح هذا التساؤل. (أما أنا فكادت تزل قدمائي. لأني غرث من المتكبرين، إذ رأيت سلامة الأشرار. لأنه ليست في مؤتمهم شدايد، وجسمهم سمين. ليسوا في تعب الناس، ومع البشر لا يصابون. يستهزئون ويتكلمون بالبشر ظلماً. من الغلاء يتكلمون.. هوذا هؤلاء هم الأشرار، ومُسْتَرِيحِينَ إِلَى الدَّهْرِ يُكْثِرُونَ ثَرْوَةً.)

(٩) العهد القديم: سفر الخروج، الإصحاح ٢٠-١٢ (١٠) العهد القديم: سفر الأمثال، الإصحاح ١٠: ٢٧

(١١) العهد القديم: سفر الأمثال، الإصحاح ٣: ١-٢ (١٢) العهد القديم: أشعيا، الإصحاح ٥٧ : ١

(١٣) العهد القديم: أيوب، الإصحاح ٢١: ٧-٩

وكما قلنا سابقاً فإن التوراة قد تُصوّر الدار الآخرة كما تُصوّرُها أساطير المنطقة فهي عالم أسفل يقع تحت عالمنا هذا. وعُبر عن هذا العالم الأسفل بالأسم العبري «شيثول» الذي تعبر عنه الترجمات العربية بأسم «الهاوية».. فلنسمع إلى أيوب يصف لنا هذا العالم^(١٤):

ولكنك كأني لم أكن قط فأفاد دمن البطن إلى القبر. أليست أيامي إلى حين؟ فليكف ويخفف عني فأبتسم قليلا. قبل أن أنصرف انصراف من لا يأوب إلى أرض ظلمة وظلال موت. أرض دجية حالكة كالديجور وظلال الموت لا نظام فيها ونهارها كالديجور «أيوب ١٠: ١٩-٢٢، ومن أيوب أيضاً نعرف عن هذه الهاوية وبواباتها التي تشبه بوابات العالم الأسفل في بابل^(١٥):

«مرجائي إنما الهاوية بيتي وفي الظلام مهدت مضجعي قلت للفاسد أنت أبي وللديدان أنت أُمي وأختي. إذن أين رجائي. رجائي من يراه . أنه يهبط إلى أبواب الهاوية»

كما نقرأ عن أبواب الهاوية في أشعيا^(١٦): (قلت أني في منتصف أيامي ذاهب الى أبواب الهاوية، وقد حُرمت بقية سني).

وتؤكد لنا النصوص التالية الموقع السفلي للهاوية فنقرأ في عاموس^(١٧): «إِنْ نَقَبُوا إِلَى الْهَائِيَةِ فَمِنْ هُنَاكَ تَأْخُذُهُمْ يَدِي، وَإِنْ صَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ فَمِنْ هُنَاكَ أَنْزَلُهُمْ.» وفي التثنية^(١٨): «إِنَّ النَّارَ تَشْبُ بِغَضَبِي فَتَتَوَقَّدُ إِلَى الْهَائِيَةِ السُّفْلَى.» ونقرأ في أشعيا^(١٩): «لِكَيْتَكَ انْحَدَرْتَ إِلَى الْهَائِيَةِ، إِلَى أَسْفَلِ الْجُبِّ» وفي سفر التكرين^(٢٠) نجد يعقوب الجد الأكبر لإسرائيل يبكي إبنة يوسف الغائب الذي يعتقد أنه قد مات ومضى إلى العالم الأسفل. فيأمل أن يموت ليلحق به «وَقَامَ جَمِيعٌ بَنِيهِ وَجَمِيعُ بَنَاتِهِ يُعْرِزُونَهُ، فَأَبَى أَنْ يَتَعَرَّى وَقَالَ: ((إِنِّي أَنْزَلْتُ إِلَى أَبِي نَائِحاً، إِلَى الْهَائِيَةِ، وَبَكَى عَلَيْهِ أَبُوهُ.» ومن سفر صموئيل الأول نعرف أن هذا النبي قد نزل بعد وفاته إلى شيثول كغيره من

* تستعمل الترجمات العربية تعبيرين لترجمة (شيثول) الأول "الهاوية" والثاني "الجحيم"

(١٤) العهد القديم: أيوب، الإصحاح ٢١-٢٣-٣١ (١٥) العهد القديم: أيوب، الإصحاح ١٠-١٩-٢٢

(١٦) العهد القديم: أشعيا، الإصحاح ١٣٨: ١٠ (١٧) العهد القديم: عاموس، ٩: ٣

(١٨) العهد القديم: التثنية، الإصحاح ٣٢: ٢٢ (١٩) أشعيا ١٤: ١٥

(٢٠) العهد القديم: التكوين، الإصحاح ٣٧: ٣٥

الناس. وعندما يتفق شاول مع إحدى الساحرات على إستحضار شبحه من العالم الآخر نجد أن الشبح يصعد على حد تعبير التوراة إلى الأرض فندمع صموئيل يقول: (فقال صموئيل: لماذا أقلقنتي بإصعادك إياي). وفي سفر حزقيال^(٢١) «هناك عيلام وكل جنودها حول قبرها كلهم صاقطون بالسيف. الذين هبطوا غلغا إلى الأرض السفلى) وفي رؤيا أشعيا يتخيّل ملك بابل وقد هبط إلى العالم الأسفل فمب لإستقباله عظماء الموتى وأكبرهم «الهاوية من أسفل مُهتزة لك، لاستقبال قُدومك، مُهتزة لك الأخيلاء، جميع عظماء الأرض. أقامت كل ملوك الأمم عن كراسيهم. كلهم يجيبون ويقولون لك: أنت أيضاً قد ضعفت نظيرنا وصرت مثلنا؟».

من هذه الفقرة الأخيرة لأشعيا نستنتج إن الموتى في العالم الآخر يحتفظون بمكانتهم التي كانت لهم، كما هو الأمر تماماً في النظرة البابلية. فالملوك قد قاموا عن كراسيهم والعظماء قد خفوا لإستقبال القادم الجديد، وهم عظماء في الآخرة كما كانوا عظماء في الأولى.

ونستشف من نصوص أخرى متفرقة تأكيداً لذلك. فنجد المحاربين يهبطون إلى شيئول بكامل عدتهم وأسلحتهم في سفر حزقيال: «الجبارة الساقطين من الغلف النازلين إلى الهاوية بأدوات حربهم» و صموئيل عندما تستحضر الساحرة شبحه يخرج في نفس الهيئة ونفس الثياب التي إعتاد إستعمالها،

(فقال لها ما صورته فقالت رجل شيخ صاعد وهو مغطى بجبة. فعلم شاول أنه صموئيل فخر على وجهه إلى الأرض وسجد». إلا أن هذه المكانة لا تُفيد صاحبها كثيراً في شيئول لأن هذه تبقى أرض الظلام والسكوت والنسيان. وكما كان العالم الأسفل صامتاً عندما نزل إليه أنكيبدو حاملاً وصية جلجامش بالألّا يُحدث صوتاً هناك، كذلك شيئول. نقرأ في المزمور ٩٤: (لولا أن الرب معيني لسكنت نفسي سريعاً أرض السكوت» والمزمور ١١٥:

(ليس الأموات يسبحون بالرب ولا من ينحدر إلى أرض السكون) وهي أرض خراب يباب «الهاوية عريانة قدامه والهلاك ليس له غطاء» أيوب ٢٦. وهي أرض النسيان: «هل تعرف في الظلمة عجائبك، وبرك في أرض النسيان. مزمور ٨٨.

وكان لأرض العالم السفلي في سومر وبابل آلهتها الخاصة التي تختلف عن

(٢١) العهد القديم: حزقيال، الإصحاح ٣٢: ٣٤

آلهة السماء والأرض ولم يكن هؤلاء الآخرون ليجرؤون على الدنو منها وإلا نالهم ما ينال البشر
الفانين كما حدث لانانا عند هبوطها إليها.

أما التوراة فلا يُحدثنا عن موكلين بتسيير شؤون العالم السفلي ولكننا نعلم مؤكداً أن هذا
العالم لا يقع تحت سيطرة يهوه وإن الأموات هناك لا يعبدونه. ولا يُسبِّحون بحمده ، ففي
المزمور ٦ نجد صاحب المزمور يطلب من الإله أن يخلصه من الموت ليُطيل من حمده له وشُكره
على نِعَمِهِ ويذكره بأن أهل العالم الآخر لا يُسبِّحون له (عد يا رب نج نفسي، خلّصني من أجل
رحمتك لأنه ليس في الموت ذكرك، في الهاوية من يحمذك؟) «هل يحدث في القبر برحمتك أو
بحقك في الهلاك؟ هل تعرف في الظلمة عجائبك وبرّك في أرض النسيان).

ويحدثنا الجامعة عن سيطرة القوى العمياء على شيتول وعن ضرورة تزوّد الإنسان بما يستطيع
من هذه الحياة لأن بعدها يأتي النسيان. فنقرأ في الإصحاح التاسع كلمات تشبه إلى حدٍ بعيد
كلمات فتاة الحانة إلى جلامش؛

«إذهب كُلّ خبزك بفرح وأشرب خمرك بقلب طيب.. لتكن ثيابك في كل حين بيضاء... إلتذ عيشاً
مع المرأة التي أحببتها.. لأن ذلك نصيبك في الحياة وفي تعبك الذي تتعبه تحت الشمس . كل ما
تجده يدك لتفعله فإفعله بقوتك لأنه ليس من عمل ولا اختراع ولا معرفة ولا حكمة في الهاوية
التي أنت ذاهبٌ إليها».

وإستقرار الإنسان في العالم أبدي فلا بعث ولا نشور: (يضجعون معاً لا يقومون قد خمدوا
كفتيلة أنطفأوا)»^(٢٢) «ينامون نوماً أبدياً ولا يستيقظون»^(٢٣). ولعل من أجمل المقاطع التي تُحدثنا
عن ذلك حديث أيوب في الإصحاح ١٤:

«لأن للشجرة رجاء إن قُطعت تخلف أيضاً ولا تعدم ضراعيها. ولو قدم في الأرض أصلها ومات في
التراب جذعها فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس. أما الرجل فيموت ويبلى، الإنسان
يُسَلَّم الروح فأين هو. قد تنفذ المياه من البحيرة والنهر ينشف ويجف، والإنسان يضطجع ولا
يقوم». ويمكن القول أن مسألة الموت والعالم الآخر قد عولجت في التوراة بكثير من الغموض
والتناقض. فما تعطيه النصوص المتأخرة يختلف عما قدمته النصوص

(٢٣) العهد القديم: أرميا، الإصحاح ٥١: ٣٩

(٢٢) العهد القديم: أشعيا، الإصحاح ٤٣: ١٧

السابقة، والمسألة برمتها قد خضعت كغيرها من مسائل التوراة للتطور البطيء والمديد الذي طبع الفكر التوراتي عبر مسيرته الطويلة منذ الخروج وحتى السبي والعودة من بابل. ونستطيع أن نُميز بوجه عام ثلاث مراحل إجتازتها فكرة الموت والعالم الآخر في التوراة. فالرحلة الأولى تميزت بالسكوت المطبق عن عالم ما بعد الموت وبالتلميح البعيد عن عالم الأسفل لا تعرف ماهيته ولا أحوال العيش فيه.

وقد كانت هذه المرحلة ضرورية إذا أخذنا بعين الاعتبار أن دين موسى في بدايته كان أستمراً للتوحيد الأخناتوني وردة فعل على الديانة الأمونية الرسمية التي محت ذكر (أتون) وأضطهدت عابديه وهدمت هياكل عبادته. ولما كانت الحياة الآخرة تلعب دوراً كبيراً في الديانة الأتونية، كان لا بد من إلغاء فكرة هذه الحياة الآخرة في الديانة الجديدة التي تُصارع جاهدة للفوز بقلوب الناس وانتزاعهم من سطوة أوزوريس إله العالم الأسفل، والقاضي الذي يُقرر مصائر الأموات. فلقد كان لهذا الإله المكانة الأثيرة لدى الطبقات الشعبية في مصر القديمة. ولم يكن لإنتراع تأثيره من نفوس الناس من سبيل سوى إلغاء العالم الأسفل من أساسه وإقتلاع فكرته جذرياً. وهكذا كان.

ومع محاولات الإستقرار في الأرض الجديدة كانت الديانة الموسوية التوحيدية الأولى تُنسى مع زوال الجيل الأول الذي عاصر موسى وأخذ عنه قَبَس التوحيد. وتحول «أتون» بالتدرج إلى «مِهوه» إلهاً وثنياً دونما وثن، وتسربت للدين معتقدات الفلستينيين والكنعانيين والآراميين، وبدأت فكرة العالم الأسفل بالتوضّح أكثر فأكثر لأخذ شكلاً قريباً من معتقدات السوريين والبابليين، أما المرحلة الثالثة فكانت السبي الطويل في بابل على يد نبوخذ نصرّ وهناك إحتك المسييون بالديانة الزرادشتية - عند جيرانهم الفرس - التي تؤكد على الحياة الآخرة تأكيداً مطلقاً. يوضح اللاهوت الزرادشتي بكل دقة بتفصيل حياة العالم الآخر.

فبعد الإنتصار النهائي «لأهورا مزدا» الإله الممثل للقوى الخيرة والضياء والنظام على «أهريمان» الإله الممثل لقوى الشر والظلام والفوضى. يُتَوَجَّأهورا مزدا إلهاً واحداً أحداً مطلقاً على الأكوان وتُبْعَث الأموات من مرقدتها إلى يوم الحساب فيوضّح أمام كل إنسان ميزانه الذي يزن حسناته وسيئاته فمن زادت حسناته فإلى نعيم دائم ومن كثرت سيئاته فإلى جحيم مُقيم. وبعد المحاكمة يمشي كل واحد على درب يوصل

للجنان وتحتة تتوقّد ألسنة اللهب. فأما الظالمون فيضيق الدرب بهم حتى يغدو كالشعرة، وأما
المفلحون فيتسع لهم فيسيرون الهونا سالمين.

وهكذا وبدافع التأثيرات الفارسية أخذت فكرة الثواب والعقاب بالظهور ولكن بشكل غامض.

وبقيت هذه الفكر مرضع أخذ ورد ومناقشات بين اللاهوتيين حتى مولد المسيح دون أن يتم

التوصل لرأي قاطع فيها. نقرأ في سفر دانيال^(٢٤). (وَكثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ فِي تُرابِ الأَرْضِ

يَسْتَيْقِظُونَ، هُوَلاءِ إِلَى الحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ وَهُوَلاءِ إِلَى العَارِ لِلأَذْدِرَاءِ الأَبَدِيَّةِ).. وهنا نجد أن النص يأبى

إلا أن يترك مجالاً للغموض والتأويل دون إعطاء رأي قاطع. فكلمة^(٢٥). (وَكثِيرُونَ مِنَ الرَّاقِدِينَ)

تركت فجوة تمنع من تفسير قاطع للنص بأنه دلالة على بعث حقيقي شامل. وذلك الأمر في

نصوص أخرى. نقرأ في أشعيا مثلاً^(٢٥). (تحيا أمواتك، تقوم الجثث. إستيقظوا، ترمموا يا سگان

التراب. هلمّ يا شعبي أدخل مخادعك، وأغلق أبوابك خلفك. إختبئ نحو لحبظة حتى يعبر

الغضب لأنه هوذا الرب يخرج من مكانه ليعاقب إثم سكان الأرض فيهم، فتكشف الأرض دماءها

ولا تغطي قتلها في ما بعد)

وفي مسيرة المسيحية الأولى في القرون الثلاثة بعد الميلاد، حيث إرتبطت بكونها فرقة يهودية

جديدة، تخبّط الفكر اللاهوتي قبل أن يتوصل لقرار حاسم في البعث وخلود الروح وشمولية

الثواب والعقاب، فكانت فكرة خلود الروح تقتصر على المؤمنين الذين إتحدوا بالمسيح فأعطيت

لهم به الحياة، شأنها في ذلك شأن ديانات الأسرار التي كانت شائعة في الإمبراطورية الرومانية في

تلك الأونة كالأورفية وغيرها، حيث كان الإلتصاق بمخلّص هو (ديونيسيوس أو غيره) شرط

للخلاص وللحياة الجديدة.

ولم تكن (جهيننا) أي الجحيم في بداية عهدها سوى أداة تدمير أكثر منها مكان تعذيب سرمدى.

تحدّثنا أسطورة مسيحية مبكرة عن نزول المسيح للعالم الأسفل وتخليصه عدداً كبيراً من

الأنبياء والقديسين وإصطحابهم معه إلى السماء. دُعيت هذه الأسطورة بإنجيل (نيكوديس)

وجرى تداولها كحكاية شعبية فترة طويلة من الزمن^(٢٦): تبدأ القصة في منتصف الليل في العالم

الأسفل حيث بزغ من

(٢٤) العهد القديم: دانيال، الإصحاح ١٢: ٢-٣ (٢٥) العهد القديم: أشعيا، الإصحاح ٢٦: ١٩

26 - George Every. Christian Mythology. Hamlyn. London 1970

غياهب الظلمة شيء أشبه ما يكون بنور الشمس فإبتهح الجميع وخصوصاً إبراهيم الذي قال :
أن هذا الشعاع يصدر عن ضوءٍ عظيم.

أمّا أشعيا ويوحنا المعمدان فقد عادا يُرددان نبؤاتهما، يعقب ذلك حديث بين الموت وبين
الشیطان فيقوم الأخير بتحذير الموت من المسيح ودعواه الباطلة مستغلاً خوف الموت من
فقدان جميع الموتى في عالمه بعد أن أفقده المسيح لعازر الذي أحياه بعد وفاته : «إنني لأشعر
بمن إبتلعتهم منذ الخليقة يضطربون في جوفي فبطني اليوم تؤمّني» وبينما هما في ذلك اذ يُجلجل
صوت كقصف الرعد : (أفتح أبوابك الأبدية ليدخل إليك ملك المجد) ولكن الشيطان وأعوانه
يهرعون إلى الابواب محاولين تدعيمها مهتاجين فزعين متسائلين : مَنْ هو ملك المجد هذا؟
فيُجيبهم الأنبياء وخصوصاً أشعيا والملك داوود: (أنه الرب الجليل في القتال، الذي سيحطم
بوابات النحاس ويكسر قضبان الحديد، فيحرر المأسورين ويُنير شعاب الموت المظلمة) فيرد
الشیطان وأعوانه : (ومَنْ يكون هذا، حتى تكون له مثل هذه القوة على الإحياء والإموات) وقبل
أن يتم كلامه تعالجه يد المسيح فتمسك به ويُسلّمه للملائكة قائلاً لهم أن يطبقوا فمه ويُقيدوا
يديه وقدميه، وعندما ينتهون من ذلك يُسلّمه للموت قائلاً له: (إحتفظ به إلى حين قدومي الثاني)
وبينما يأخذ الموت في صب سخريته وازدرائه على الشيطان، يقوم المسيح بتحرير آدم والأنبياء،
والقديسين فرفعهم معه إلى السماء حيث جنّات عدن، وقبل الصعود يعرج بعضهم إلى نهر
الاردن فيتعمد بمائه.

سِفْرِ الْإِلَهَامِيَّةِ

"لَأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَدَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ،
لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ.
لَأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيُذَيِّبَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ"

إنجيل يوحنا ٣: ١٦-١٧

لما كان الخلق هو الفعل الأساسي الذي يشف عن عظمة الإلوهية وجوهرها، فقد كان على الدوام مهمة يضطلع بها أعظم الآلهة شأنًا فينتشل الكون من لُجّة العَماء، ليصنع النظام من رحم الهيبولي، ويضرب تينّ الفوضى ليصنع من أوصاله عالماً معقولاً ينم كل جزء من أجزائه عن عظمة القدرة التي صاغته. ولما كانت السماء هي أسمى ما في هذا الكون وأكثره تعبيراً عن عظمة الصانع فقد صارت مسكناً له ورمزاً، ومنها أستمد اسمه في معظم أساطير الشعوب فأصبح الإله الأكبر دوماً إلهاً للسماء، وصار اسمه يُستعمل تبادلياً مع أسمها بل ربما أتحد الأسمان في واحد. ولكن قيام الإله الأكبر بسكنى السماء بعد إنهائه فعل الخلق قد جعله بعيداً جداً عما يجري في الأرض وأخذ تدريجياً بالإختفاء، من الطقوس والعبادات مُفسحاً المجال للآلهة أصغر وأقل شأنًا في الأصل، ولكنها أكثر إلتصاقاً بالناس وحياتهم وأمور معاشهم، وأكثر دينامية وفعالية. وقد وصل الأمر في بعض الديانات البدائية لإختفاء إله السماء تماماً من المعابد وزوال عبادته والطقوس المتعلقة بها. فنجد لدى معظم القبائل الأفريقية أن إله السماء هو أكثر بعداً من أن يحتاج لأية عبادة، وأكثر طيبة من أن يحتاج لأي طقوس أو أضحاي وتقدمات. فعند قبائل (اليوربا) قام إله السماء الأكبر بإيكال أحد الآلهة الصغرى بمهمة

إتمام ما قام به من عمل الخلق ثم إنسحب إلى سمائه تاركاً الأرض ومن عليها. ونرى نفس الشيء لدى قبائل (توكومبا) و(تشي) فالإله الأكبر في السماء هو أعظم من التدخل في تفاصيل حياة الإنسان. ولذا فلا نراهم يلجأون إليه إلا في الملمات الكبرى والأخطار العظيمة التي تحل بهم كإنتشار الطاعون والأوبئة وطغيان العواصف والأعاصير.^(١)

وفي ثقافة الشرق الأدنى القديم بدأ التحول عن إله السماء بإكتشاف الزراعة وتزايد دورها والإعتماد عليها في حياة الإنسان ومعاشه، ومعرفته لمدى ما تستطيع الأرض أن تعطيه ولقوى الخصوبة أن تصنعه. وتدرجياً أخذ إله السماء العالية يترك أجزاء هامة من صلاحياته للآلهة الطبيعية تمثل قوى حركية كالأرض والخصوبة والأمطار والعواصف وربما كان أول هذه القوى ظهوراً هي الأرض.

فعند التحوّل نهائياً للحياة الزراعية جر معه هذا التحول الاقتصادي تحولاً فكرياً وإجتماعياً، عندما بدأت الديانة شيئاً فشيئاً تتحول عن الآلهة الذكور المُساة ممن عرفتهم إبّان الفترات الرعوية إلى آلهة رفيقة وآلهات رؤومات. فظهرت الأرض على أنها الأم الأولى التي أنبثق منها كل الأحياء من بشر وحيوان ونبات، وعلى أنها النموذج الأمومي الأول الذي نتج عنه فيما بعد كل تكرار لفعل الأمومة. فإنجاب الأطفال وتوالد النباتات أموري في جوهرها تقليد لفعل الإنجاب الأولي الذي قامت به الأم الكبرى وتكرار له. وخصوبة النساء ليست إلا قبساً من الخصوبة الكونية المتمثلة في الأرض-الأم.

وهذه الآلهة أما أنها مُخَصَّبة إخصاباً ذاتياً دونما حاجة لقوة خارجية كما هو الأمر في الميثولوجيا اليونانية حيث أنجبت الأرض (جيا) إلهاً جديراً بها هو (أورانوس) السماء الذي غطاها تماماً من جميع جهاتها.

أو أنها بحاجة لقرين يُساعدها على الإنجاب. وهذا الدور يلعبه إله السماء نفسه كما بحثنا ذلك سلفاً في فصل التكوين حيث يقوم الإلهان بفعل القران الأول الذي يُقلده الأحياء منذ تلك الأيام : (أنا السماء وأنت الأرض) هذا ما يهمس به العريس الهندوسي ليلة زواجه في أذن عروسه. لهذا السبب فقد رافقت - في أحيان كثيرة - طقوس

1 - Philip Freund. Myths of Creation W. H. Alen - London 1964

وإحتفالات الآلهة الأم ممارسات الجنس الجماعي الذي من شأنه في هذه المناسبة المقدسة نعرض القوى الإخصابية الكامنة في الأرض إعتماً على مبدأ السحر التساكلي حيث الشبيه ينتج الشبيه.

وقد دُعيت الأرض بأسماء متعددة في بلاد النهرين. وأول أسم معروف لها هو (كي) قرينة (آن) إله السماء. وهي فيما بعد (نماخ) و(نخرساج) وهي (مامي) أو (ماما) وهي (نتنو) أو (نيسابا) وقد مرت معنا هذه الأسماء جميعاً في أساطير متعددة الغرض والغاية. فكان الأسم يختلف وفق المهمة التي تقوم بها الآلهة.

فتحت أسم نتنو، كانت آلهة للولادة والمخاض، وتحت أسم ماما أو مامي كانت تقوم بفعل خلق الكائنات البشرية وتحت أسم نماخ أو نخرساج كانت تتبارى مع انكي في صنع مخلوقات ونباتات.. الخ. أما لدى الكنعانيين فهي (عشيرة) زوجة الإله الأكبر «إيل» وأم الجميع وهي في آسيا الصغرى (سبيل) أم آتيس الذي سيلعب دوراً كبيراً في ديانات الأسرار كما سيأتي تفصيل ذلك. إلا أنه بمرور الوقت وتحول الديانة تدريجياً من طابعها، الرعوي الخشن Patrairchal بدخول عناصر أمومية* Matrairchal للمجتمع والدين، علا إلى جانب الأم الكبرى، شأن آلهات أخريات أخذن كثيراً من صلاحياتها. وبشكل أساسي فقد انفصلت عن الأرض «روح الخصوبة» وكان هذا الانفصال تطوراً في المقدر على التجريد لدى العقل الإنساني.

فالخصب ليس خاصة في التربة نفسها ولكنه قوة كونية جرى تجسيدها في آلهة أنثى هي «انانا» السومرية أو عشتار البابلية أو عناة الكنعانية. ولما كانت خصوبة الأرض والمرأة هي محور حياة الإنسان في هذا العالم، فإن عشتار كانت قوة أساسية كبرى في هذا الكون ومحركاً دينامياً فعلاً لأحداثه. والعذراء لقبها، والعذرية جوهرها رغم أنها رمز للجنس والحب والخصب. فهذا الجوهر لا يبدله لقاء عابر ولا حمل ولا ولادة، وتبقى عذريتها رمز

* الترتب الزمني هنا مُفترض ولا أعتد به إلا لإعطاء صورة واضحة. فرغم أن المجتمع الأمومي كما علمنا علماء الأنثروبولوجيا هو سابق في كثير من الأحيان للمجتمع الأبوي، إلا أن البواعث البواعث النفسية الاجتماعية لاتنفي ولا تنزول بل أنها تستمر في المجتمع والأنسان الجديد وتُعبّر عن نفسها بأشكال شتى. لتوضح هذه النقطة، راجع مؤلفي: لغز عشتار.

إخصابها الأبدي الذي لا يمسه عرض زائل**. ولعشتار عشاق أزواج أشهرهم تموز التعيس الذي كان موته الفاجع ثمناً لحيها وعشرتها في الأسطورة السومرية، والذي كانت زيارته للعالم الأسفل جزءاً من السنة، شرطاً ضرورياً لإستمرار الدورة الزراعية في الأسطورة البابلية والكنعانية. وإلى جانب قوى الخصب تأصلت عبادة قوى الطبيعة الجبارة كالعواصف والأعاصير والصواعق، والقوى النافعة كالشمس والماء وغيرهما. فظهر أنليل إله سومر الأكبر الذي إغتصب صلاحيات إله السماء «آن» ظهر «مردوخ» إله بابل الذي حل محل «أنو» إله السماء الأكادي. وفي كنعان كان «بعل» أقوى الآلهة وأكثرهم قرباً لقلوب العباد رغم بقاء «ايل» إله السماء إلهاً أكبر ولكن بالأسم فعز وقوي شأن «انكي» أو «ايا» إله السماء و«شمش» أو «ئبش» إله الشمس وغيرهم.

أما العبرانيون فلم يشدوا بدورهم عن القاعدة فهم حال إستقرارهم في أرض كنعان الخصبة وتخلهم عن الحياة الرعوية القديمة، تركوا يهوه وإتجهوا إلى آلهة الخصب الكنعانية فعبدوا «البعليم» و«العشتاروت» كما حدثنا العهد القديم. في مواضع كثيرة أوردنا بعضاً منها في فصول سابقة. ونجدهم لا يتدكرون إلههم الكبير إلا إبان المحن العظيمة والكوارث الفاجعة التي تحل بهم فنقرأ في سفر صمويل الأول ١٢: ١٠: (فَصَرَّخُوا إِلَى الرَّبِّ وَقَالُوا: أَخْطَأْنَا لِأَنَّنا تَرَكْنَا الرَّبَّ وَعَبَدْنَا الْبَعْلِيمَ وَالْعَشْتَارُوتَ. فَالآنَ نُقْذِنَا مِنْ يَدِ أَعْدَائِنَا فَتَعْبُدْكَ)..

إلا أنه في ضمير الوعي الشعبي كانت الأم الكبرى وإبنها (ونموذجها الأساسي سبيل الحثية وإبنها آتيس) أو القوة الإخصابية وحببها القتل (ونموذجها الأساسي عشتار وتموز) هما ألصق الآلهة جميعاً بقلوب الناس لإلتصاقهما بحياتهم .

* وهناك تفسير مادي للقب العذراء الذي تتمتع به عشتار: يشرحه لنا: John M. Ailegro في كتابه The Sacred M and The Croso فخلق الجنين في الرحم في إعتقاد القدماء على ثلاثة عناصر: ١ - الروح ٢- دم الحيض ٣- مني الرجل. أما الروح فمن عند الله والدم تقدمه المرأة والمني للرجل. ولما كان دم الحوض عند العذراوات هو أغزر منه بكثير لدى المتزوجات وخصوصاً بعد الولد الأول، فقد أعتقد الأقدمون أن مقدرة العذراء الإخصابية أكثر بكثير من غيرها. خصوصاً وأن إنتهاء الحيض يعني إنتهاء القدرة على الإنجاب وذلك عند تجاوز المرأة لسن اليأس. من هنا فإن عشتار وهي رمز الإخصاب لا يمكن أن تكون إلا عذراء بهذا المعنى للكلمة - أي المخصبة أبداً: الغزيرة دم الحيض الخالق للحياة .

ومعاشهم ، فما يجري في الطبيعة من خصب وقحط ، وأمطار وجفاف وخضرة ويّباس ، هو في صميمه إنعكاس لدرام إلهي أبطاله الآلهة أنفسهم. وهذه الطبيعة بما أنها إنعكاس لقوى الآلهة المختلفة وشفافية عن كينونتهم القدسية، فإن كل مظاهرها والتغيرات التي تطرأ عليها والحركات الظاهرة والخافية فيها، إنْ هي إلاّ إنعكاس وترجمة لأحداث ومظاهر وتغيرات تقع فيما وراء الطبيعة، حيث عاش الآلهة بحياتهم وعواطفهم ونزعاتهم..

لقد أثار تفكير الإنسان دوماً التغيير الدوري الذي يطرأ على الطبيعة. فمن فصل بارد وماطر إلى آخر أخضر معتدل فتالث حار وجاف فرباع أصفر ذابل. ولم يكن الفكر الأسطوري ليتوصل إلاّ لتفسير يربط ذلك كله بتحركات معينة للآلهة المعنية. فإذا كانت قوة الإخصاب الكونية مسؤولة بشكل رئيسي عن الإنبات ورعاية الحياة الزراعية، فما الذي يحدوها للتخلي عن مهامها هذه وترك الطبيعة لقوى الجفاف؟ أن أمراً جلاً ما قد حدث ، أي أمر أعظم من مغادرة هذا العالم كله يحدوها للنزول من عرشها، وترك مهامها والتخلي عن شعها الذي تطعمه من ثمار الأرض وخيرات الأنعام؟ لقد غابت قوة الإخصاب الكونية عن هذا العالم كلياً إلى عالم آخر، ولكنها جاهدت من أجل الرجوع مرة أخرى. وعملية الغياب والعودة هذه هي النموذج للمسار الدوري الأزلّي الذي دخلت فيه حياة الطبيعة.

أن الجفاف ضروري للحياة الزراعية كما هي الرطوبة وحرارة الصيف ضرورية كما هي برودة الشتاء. فالمطر يروي الحبة والربيع يجعلها نبتة خضراء. أما حرارة الصيف فتساعد على نضوجها. لذا فالموت هو الوجه الآخر للحياة وهو رغم الفاجعة والألم نقيض لا غنى عنه، وموت الطبيعة إستعداد لإنبعائها، وتجدها لن يحصل إلاّ بموت إله وتضحيته بنفسه من أجل إستمرار حياة الإنسان . ولهذا هبطت انانا من عليائها ونالت طعام الموت. ولما كانت الحياة على هذه الأرض هي أفضل حياة ممكنة كما رأينا في فصل العالم الأسفل، ولما كانت الدار الآخرة هي دار شقاء وأحزان، فإن عمر الإنسان على هذه الأرض أو إمتاعه بها، هو نوع من الخلاص يحمله الإله الميت لبني البشر. وليس موته وآلامه إلاّ ضريبة يدفعها عن الإنسان ونوعاً من الفداء السامي الذي يقدمه لعباده. فاله الخصب الميت هو إله فادي وهو إله مخلص دفع حياته ثمناً لحياة الإنسان، وآلامه ثمناً للمد في عمره وإبعاد شبح مملكة العالم الأسفل عنه بنزوله شخصياً إلى العالم الأسفل.

وهذا المعنى نكون قد أقنمنا جسراً طويلاً مباشراً بين (انا) السومرية والسيد المسيح آخر المختصين. ومن (انا) إلى السيد المسيح، كان على الإله الميت أن يسير طريقاً طويلة شاقة ملأى بالألم والشقاء. ومن مخلص أرضي إلى مخلص لحياة أفضل وأسعد في عالم سماوي، كان عليه أن يقطع مسافات زُرعت بالشوك والصخور. وسنقوم في هذا الفصل بمرافقته ومعايشته في آلامه وموته وصعوده.

وفكرة التضحية الإله من أجل الإنسان لا تظهر فقط مع نماء ديانات الخصب وتطورها بل هي أسبق من ذلك العهد. فالإنسان نفسه لم يُخلَق ويأتي إلى هذه الحياة إلا عن طريق التضحية ببعض الآلهة بقتلها وإستعمال دمها ممزوجاً بالتراب لصنعه. فرأينا في أسطورة التكوين البابلية مثلاً كيف قُتِل الإله «كنغو» زوج تعامة وفُصِد دمه ثم مزجه بالتراب لصنع الإنسان. كما رأينا في أساطير أخرى كيف جرى قتل اثنين من آلهة (اللغما) لنفس الغاية. وإذا أرتفعنا بالفكرة إلى مستوى كوني وجدنا أن تكوين العالم كله كان مشروطاً بقتل إله بدئي وإستعمال أجزائه لغرض التكوين. كما حصل عندما إستلب مردوخ حياة تعامة وصنع من أعضائها عالمنا الذي نعيش فيه.

١ | هبوط أنانا إلى العالم

الأسفل

لعل النص السومري (هبوط أنانا إلى العالم الأسفل) هو أول ملحمة خطتها يد الإنسان في موضوع الإله الفادي، فأنانا في هذه الأسطورة، تقوم بتضحية إختيارية وتنزل إلى عالم الأموات حيث تلبث ثلاثة أيام، يبدأ بعدها تابعها الأمين بالسعي لإستعادتها إلى عالم الأحياء. ولما كانت هذه الألهة تجسيدا لقوة الإخصاب الكونية، فإن غيابها وعودتها يمثلان دورة الطبيعة من إختفاء للحياة النباتية وسيادة الحر والجفاف، ثم الإنتعاش والبعث الجديد.

وفي معرض حديثهم عن الأسطورة ومقارنتهم لها بالأسطورة البابلية اللاحقة (هبوط عشتار إلى العالم الأسفل) تحدّث معظم الكتاب عن سبب غامض دعا الآلهة في النص السومري للهبوط. السيد س.ن. كريمر الذي كان له الفضل الأكبر في جمع الأجزاء المنشورة سابقاً لهذه الأسطورة واكتشاف أجزاء جديدة مُكتملة، لم يستطع أن يقدم تفسيراً للهبوط وسبباً له، كسبب عشتار التي هبطت فيما بعد لتحرير حبيبتها تموز. وجرى على منواله في ذلك كثيرون، رغم أن السبب يبدو واضحاً وجلياً إنْ نحنُ وضعنا نصب أعيننا فكرة التضحية والفداء ودورهما في فكر المنطقة. ولسنوات قليلة خلت كان الجزء المعروف من الأسطورة يقف عند صعود

الآلهة من العالم الأسفل، رغم أن النص ينتهي في موضع حرج يُشير إلى وجود نهاية ليست بالقصيرة. ولكننا مرة أخرى ندين بالشكر للسيد كريم الذي كان له الفضل في إعطاء صيغة نهاية لنص آخر أمكن جمعه ونشره وترجمته، في أواخر الخمسينات يُكَمِّل النص الأول ويضع له نهاية منطقية. النص الأول: (١)

من «الأعلى العظيم» تاقت إلى «الأسفل العظيم»
من «الأعلى العظيم» تاقت الربة إلى «الأسفل العظيم»
من «الأعلى العظيم» تاقت انانا إلى «الأسفل العظيم»
هجرت سيدتي السماء وتركت الأرض
انانا هجرت السماء وتركت الأرض
إلى العالم الأسفل قد هبطت تركت المُلْك والسلطان
إلى العالم الأسفل قد هبطت
شدت إلى وسطها لوحات الأقدار القدس السبع
وبقية الأقدار المقدسة جعلتها إلى يدها
[.....]

وعلى رأسها وضعت الـ«شوغارا» تاج السهول
فمن مُحَيَّاها يشع الألق والهباء
وبيدها قبضت على الصولجان اللازوردي
وجيدها قد زينت بعقد أحجار كريمة
وعلى صدرها ثبتت جواهر متألثة
وكفها قد رصّعت بخاتم ذهبي
وجسدها وشّحت بأثواب السيادة والسطان
ومسحت وجهها بالزيت والطيب.
ثم مشت انانا. في طريقها للعالم الأسفل
وإلى جانبها مشى «ننشوبور» رسولها

2- S.N. Kramer. Sumerian Mythology. Harper and Row. Newyork. 1961

فقالته له انا الممقسة:

أنت يا مصدر عوني الءائم

يا رسولى ءو الكلمات الطيبة

وناقل كلماتي الءقة

إني لهابطة إلى العالم الأسفل

فاذا ما بلغت العالم الأسفل

إملاء السماء صراخاً من أءلى

وفي حرم المجمع إلك على

وفي بيت الالهة أركض هنا وهناك من أءلى

ألا فلتكفره عيناك وبعس فمك من أءلى

[.....] من أءلى

وكفقر شرىء إلس ثوباً واحداً من أءلى..... والى «اىكور» بيت انلىل إتجه وءىءاً

فاذا ءءلت بيت انلىل إنتءب فى ءضرته (ءائلاً) :

(أىها الأب انلىل لا ءءع إبنءك للموت فى العالم الأسفل

لا ءءرك معدنك الثمىن ىلقى على ءءراب فى العالم الأسفل

لا ءءرك لاوزورك العالى ىكسر كءءارة البءائىن

ولا صءءوقك الءشبى ىءطء كءشب النءارىن

لا ءءرك الفءاة انا للموت فى العالم الأسفل)

فاذا ءءلك انلىل فى هذه القضىة إمضى إلى «أور»

وفي أور لءى ءءولك بىء..... البلاد

«اىكىشرءال» بىء «انا»*

إلك أمام «انا» (ءائلاً) :

(أىها الأب نانا لا ءبىع إبنءك للموت فى العالم الأسفل

لا ءءرك معدنك الثمىن ىلقى على ءءراب فى العالم الأسفل

* نانا هو سن إله القمر

لا تترك لازوردك الغالي يُكسر كحجارة البنائين
ولا صندوقك الخشبي يقطع كخشب النجارين
لا تترك الفتاة انانا للموت في العالم الأسفل)
فإذا خذلك نانا في هذه القضية إمضي إلى «اريدو»
وفي اريدو لدى دخولك بيت «انكي»
إبك أمام اذكي (قائلاً):

(أبها الأب انكي لا تدع..... تكرر للمقطع السابق)

أن الأب انكي هو رب الحكمة

الذي يعرف طعام الحياة، والذي يعرف ماء الحياة ولسوف يُعيدني للحياة بكل تأكيد.

ثم سلكت انانا طريقها نحوالعالم الأسفل

وإلى رسولها ننشوبار قالت: إمضي يا ننشوبار لا تنسَ ما أمرتك به ولا تهمله

ولدى وصول انانا لقصر العالم الأسفل اللازوردي

تصرفت عند البوابة بطريقة أوقعها في الأثم

وفي قصر العالم الأسفل تكلمت بشكل أوقعها في الخطيئة:

إفتح يا حارس البوابة. إفتح البيت

إفتح الباب يا «نيتي» إفتح الباب. وحيدة سوف أُلج.

و«نيتي» كبير حُجَاب العالم الأسفل ... أجاب انانا الطاهرة

- مَنْ تكونين يا ترى

- أنا ملكة السماء. ذلك المكان الذي تشرق فيه الشمس

- فما الذي أتى بك إلى الأرض التي لا عودة منها

وإلى الطريق الذي لا يؤوب منه مسافر كيف حفزك قبك؟

فأجابته انانا الطاهرة:

(إن أختي الكبرى اريشكيجال

قد مات زوجها الرب كولاجانا

فجئت أحضر مراسم الجنازة

وصدقاً ما أقول

«نيّتي» كبير حجّاب العالم الأسفل

أجاب انا الطاهرة:

(أي انا ابق حيث أنت

ومليكتي اريشكيجال دعيني أكلم .

«نيّتي» كبير حجّاب العالم الأسفل

دخل بيت مليكته، اريشكيجال وقال لها : (أي مليكتي أن فتاة

كأنها آلهة.....

في الباب.....

.....

فيا أيانا

لقد شدت إلى وسطها لوحات الأقدار المقدس السبع

وبقية الأقدار المقدمة جعلتها إلى يدها

.....

وعلى رأسها وضعت الشوغارا تاج السهول

فمن محيّاها يشع الألق والبهاء

وبيدها قبضت على الصولجان اللازوردي

وجيدها قد زينت بعقد أحجار كريمة

وعلى صدرها ثبتت جواهر متألّنة

وكفها قد رصّعت بخاتم ذهبي .. وصدرها قد أحاطت بدرع.....

ووشحت جسدها بأثواب السيادة والسلطان

ومسحت وجهها بالزيت والطيب)

عند ذلك «اريشكيجال».....

أجابت «نيّتي» كبير حجّابها(قائلة):

«أي نيّتي يا كبير حجّاب العالم الأسفل إقترب مني

وأعط أذنأ صاغية لما أمرك به

ارفع مزالج بوابات العالم الأسفل السبع
وعند بوابة «جانزير» واجهة العالم الأسفل أعلن قوانيننا
ولدى دخول انانا
منحنية حتى الأرض..... دعها.....)
«نيتي» حجّاب العالم الأسفل
أطاع ما تفوهت به مليكته من أوامر
فرفع مزالج بوابات العالم الأسفل السبعة
ولدى بوابة «جانزير» واجهة العالم الأسفل أعلن قوانينه
وقال إلى انانا الطاهرة:
(تعالى فإدخلى يا انانا)
ولدى دخولها من البوابة الأولى
خلع عن رأسها الشوجار تاج السهول
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغّت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من البوابة الثانية
إقتلع من يدها الصولجان اللازوردي
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغّت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من البوابة الثالثة إنترعت عن جيدها الأحجار الكريمة
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغّت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من ابوابة الرابعة
إلتقطت عن صدرها الجواهر المتلألئة

- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغَت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من البوابة الخامسة إستلَّ من يدها الخاتم الذهبي
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغَت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من البوابة السادسة نُزِعَ من صدرها الدرع ال.....
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغَت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل
ولدى دخولها من البوابة السابعة
رُفِعَت عنها جميع أثواب السيادة والسلطان
- ما هذا الذي تفعلون؟
- أي انانا لقد صيغَت قوانين العالم الأسفل بعناية وإكتمال
فلا تناقشي يا انانا شعائر العالم الأسفل

.....

اريشكيجال المقدسة كانت مستوية على عرشها
يحيط بها «الانوناكي» القضاة السبعة الذين يُصدرون الأحكام
ركزوا أنظارهم عليها. أنظار الموت
وبكلمة منهم، الكلمة التي تعذب الروح
تحولت المرأة المتعبة إلى جثة
ثم شُدَّت هذه الجثة إلى وتد مغروس
وبمرور ثلاثة أيام وثلاث ليال رسولها ننشوبور
ذو الكلمات الطيبة وحامل كلماتها الحقّة

أخذ يملأ السماء صراخاً من أجلها
وبكى عليها في حرم المجمع
وفي بيت الآلهة ركض هنا وهناك من أجلها
أكفهرت عيناه وعبس فمه من أجلها
وكفقر شريد لبس ثوباً واحداً من أجلها
وإلى ايكور بيت انليل إتجه وحيداً
ولدى دخوله ايكور بيت انليل
بكى في حضرته قائلاً:

(أيها الأب انليل لا تدع إبنتك للموت في العالم الأسفل
لا تترك معدنك الثمين يُلقى على التراب في العالم الأسفل
لا تترك لازوردك الغالي يُكسر كحجارة البنائين
ولا صندوقك الخشبي يُقطع كخشب النجارين
لا ترك الفتاة انانا للموت في العالم الأسفل)
فأجاب الأب انليل «ننشوبور» قائلاً:

(إبنتي في الأعلى العظيم سارت بقدميها إلى الأسفل العظيم*
انانا في الأعلى العظيم سارت بقدميها إلى الأسفل العظيم
وشرائع العالم الأسفل، أنت تعرف ما شرائع العالم الأسفل
ومن يا ترى قادر على الوصول إلى ذلك المكان؟)
وهكذا لم يقف الأب انليل إلى جانبه بل خذله، فمضى إلى اور
وفي اور لدى دخوله بيت.... البلاد
الـ «ايكيشيرجال» منزل نانا إنتحب أمام نانا قائلاً:
(تكرار نفس الكلام الموجه إلى انليل)

وهكذا لم يقف الأب نانا إلى جابه بل خذله. فمضى إلى أريدو وفي اريدو لدى دخوله بيت انكي
انتحب أمام انكي قائلاً:

* تصرفت قليلاً في ترجمة هذه الأسطر الأربعة:

(تكرار لنفس الكلام)

فأجاب الأب انكي ننشوبور قائلاً:

(إنني قلق على ابنتي فما الذي حدث لها

إنني قلق على انا ما الذي حدث لها

إنني قلق على سيدة جميع البلاد فما الذي حدث لها

إنني قلق على كاهنة السماوات فما الذي حدث لها.

ثم أخرج طيناً من تحت أظفاره * فصنع منه الـ«كوجارو»

أخرج من تحت أظفاره المصبوغ بالأحمر ! طيناً فصنع منه الـ«كالاتورو»

فأعطى الكوجارو طعام الحياة وأعطى الكالاتورو ماء الحياة

وقال الأب انكي «للكوجارو» و «للكالاتورو»:

(تسعة عشر سطرًا تالفة)

على الجثة المشدودة إلى وتدها وجهوا أشعة النار

وأنثروا عليها من ماء الحياة ستين مرة، ومن طعام الحياة ستين

فتنهض انا ما من مرقدتها حقاً وصدقاً

(أربعة وعشرون سطرًا تالفة)

على الجثة المشدودة إلى وتدها وجهوا أشعة النار

وأنثروا عليها من ماء الحياة ستين مرة، ومن طعام الحياة ستين

فنهضت انا ما

وصعدت انا ما من عالم الأموات.

ولما كانت العودة من الموت أمراً جلاً وحادثاً خارقاً، فإنه لم يكن ليتم ببساطة وسهولة. وكان على

الآلهة انا ما لقاء قيامتها من بين الأموات أن ترسل أحد الأحياء بدلاً عنها. ولضمان تنفيذ هذا

الشرط قام جمع من أشباح العالم الأسفل وعفاريته من جند اريشكيجال بمرافقة انا ما ليعودوا

بمن يقع عليها إختياره:

عفاريته صغيرة كأنها [من القصب]

* الطين مادة أليفة لانكي لأنه يسكن الأعماق المائية.

وعفاريت هائلة كأنها [.....]
مشيت معها جميعاً
فالماشون إلى جانبها كانوا بلا [.....] وفي أيديهم العصي
والماشون إلى جانبها كانوا بلا [.....] وفي مناطقهم السلاح
والذين تقدّموها
الذين تقدّموا انانا
كانوا مخلوقات لاتعرف الطعام ولا تعرف الشراب
ولا تأكل خبز القمح المبذور*
ولا تشرب من خمر القرايين
تخطف الزوجة من حضن زوجها
وتنزع الطفل عن صدر أمه الرؤوم
هكذا صعدت انانا من العالم الأسفل
وأول خروجها من عالم الأموات
قام ننشوبور يرمي نفسه على قدميها
واقعاً على التراب كاسياً نفسه بالطين
قالت العفاريت لانانا:
أي انانا، إمضِ إلى مدينتك دعينا نحمله معنا
فأجابت انانا الطاهرة العفاريت قائلة:
«إنه رسولي ذو الكلمات الطيبة وحامل كلماتي الحقّة
لم ينسَ يوماً وصاياي .. لا ولم يخُن يوماً أوامري
لقد ملأ السماوات صراخاً من أجلي
وفي حرم المجمع بكى من أجلي
وفي بيت الآلهة ركض هنا وهناك من أجلي
لقد أكفهرت عيناه وعبس فمه من أجلي

* نوع خاص من التقدّمات .

وكفقر شريد لبس ثوباً واحداً من أجلي
وإلى ايكور بيت انليل وإلى أور بيت نانا
وإلى أريدو بيت انكي مضى ليعيد إليّ الحياة
فلنمضي إذن إلى الـ «سيجورشاكا» «في أوما»
وهناك رمى شاراً نفسه عند قدميها.... واقعاً على التراب كاسياً نفسه بالطين
فقال العفاريث لانا الطاهرة:

أي اانا المقدسة إمضي إلى مدينتك ودعينا نأخذه معنا
فأجابهم اانا الطاهرة قائلة:
(الجواب مكسور)

فلنمضي إذن إلى «ايموشكالاما» في «بادتيبيرا»
وفي «بادتيبيرا» رمى «لتراك» نفسه من الايموشكالاما عند قدميها.
واقعاً في التراب كاسياً نفسه بالطين
قالت العفاريث لانا الطاهرة:

أي اانا امضي إلى مدينتك ودعينا نأخذه معنا
(جواب اانا وبضع أسطر تالية مكسورة)
فلنمضي إذن إلى «كولاب» مدينة «دموزي»*
(وفي كولاب) وضع دموزي عليه ثياباً فاخرة واعتلى عرشه
فإنقضت عليه العفاريث وجروه من ساقيه
إنقضت عليه العفاريث السبعة كما يفعلون مع الرجل العليل
فانقطع الراعي من نفخ نايه ومزماره**.

ثم ركزت (انا) أنظارها عليه. ركزت أنظار الموت
ونطقت ضده بالكلمة نطقت بالكلمة التي تعذب الروح
وصرخت فيه صرخة الإتهام قائلة: أما هذا فخذوه

* هذا السطر إفتراض. وقد إستحدثتة للربط بين الكسرة الأخيرة من النص وما قبلها.

** أي دموزي الذي كان يعزف في ذلك الوقت.

وبذلك أسلمت انانا دموزي الراعي إلى أيديهم.

أن من رافعه أن من رافق دموزي

كانوا مخلوقات لا تأكل الطعام ولا تعرف الشراب

ولا تأكل خبز القمح المبذور

ولا تشرب من خمر القرايين

تخطف الزوجة من حضن زوجها

وتزغ الطفل عن صدر أمه الرؤوم

فبكى دموزي حتى أزرقَّ وجهه

ورفع يديه إلى السماء نحو «أوتو» قائلاً:

أي أوتو، أنت أخو زوجتي وأنا زوج أختك

وأنا من يحمل الزبدة إلى بيت أمك

وانا من يحمل اللبن إلى بت «ننجال»

فحوّل يدي إلى حية وحوّل قدمي إلى حية

أنقذني من العفاريت ولا تدعهم يأخذوني

عند هذه الضرامة تنتهي الكسرة الأخيرة التي تكمل ما نعرفه حتى الآن عن هذا النص. إلا أن

نصاً آخر يحكي لنا مصير الإله دوموزي وُجد موزّعاً على ثمانية وعشرين لوحاً وكسرة، جرى

غكتشافها وتجميعها من متاحف العالم تدريجياً. ورغم أن الكسرة الأولى قد نُشِرت منذ عام

١٩١٥ فإن شكلاً واضحاً وذا معنى للنص لم يمكن الحصول عليه حتى عام ١٩٠٢ عندما

إستطاع عالم السومريات الكبير السيد: «Thorkild Jacobson» نشر الجزء الأعظم من النص

في: The Journal of Cuneiform Studies وبعدئذ قام بإكمال المهمة السيد S.N. Kramer الذي عثر

في متحف أستانبول على باقي القطع فإستنسخها ونشرها. ثم قام بإعطاء لمحة عامة عن النص

كاملاً. يعود النص إلى عام ١٧٥٠ ق. م . ويمكن القول أنه مستلهم من نص هبوط أنانا وذلك

للتشابه الحرفي في بعض المقاطع. ولربما كان نسخة من الجزء الأخير الضائع للنص قامت يد

الناسخ بإجراء بعض التعديلات عليه. وأنا من المرجّحين

لهذا الإحتمال ولذا فإنني أدعو قرّائي لإعتبار هذا النص بمثابة تكملة طبيعية للنص السابق. وهو في رأيي من أجمل ما خطته يد الكاتب السومري.

مصير دموزي^(٣)

لقد إمتلأ قلبه (حزناً) ودموعاً

فمضى إلى السهول (الواسعة)

إمتلأ قلب الراعي (حزناً) ودموعاً

فمضى إلى السهول (الواسعة)

إمتلأ قلب دموزي (حزناً) ودموعاً

فمضى إلى السهول (الواسعة)

علّق نايه حول عنقه

وراح يبكي وينوح:

ردددي بكائي، ردددي بكائي

أيّتها السهول ألا فلتبكي معي

أيّتها السهول ألا فإبكي معي ونوح عليّ

أسمعي بكائي سراطين النهر

وأسمعي نواحي ضفادع الساقية.... دعي أمي تندب فقدي

أمي التي لا تملك خمسة أرغفة فلتبكي عليّ أمي

التي لا تملك عشرة أرغفة فلتبكي عليّ

لأنها لن تلقى من يعتني بها يوم أموت

وأنت يا عيني، تائهة في السهول فلتدمعي كعين أمي

وأنت يا عيني، تائهة في السهول فلتدمعي كعين أختي

بين الأزاهير إستلقى، بين الأزاهير إستلقى

بين الأزاهير إستلقى الراعي دوموزي

3 - S.N. Kramer. Mythology of The Ancient World, Anchor Books, New York (His Chapter on Sumerian Mythology)

وبينما هو نائم بين الأزاهير رأى حلماً
فنهض من نومه مذعوراً مما رأى وعرك عينيه بكفيه ورأسه يدور
ثم يمضي دوموزي المدهول إلى أخته «جشتينانا» الشاعرة والمغنية ومفسرة الأحلام. فيقص
عليها رؤياه:

أختاه. سأقص عليك ما رأيت، سأقص عليك الحلم الذي رأيت.

من حولي كان السمار* ينمو ويندفع بسرعة من باطن التربة.

وسمارة وقفت وحيدة؛ وحتت رأسها أمامي

كل السمار وقفت في أزواج إلا واحدة أزيلت من مكانها

وفي الغيضة أنتصبت حولي أنتصبت من الأرض أشجار طوال مرعبة

وعلى مرقدي المقدس أنسكب ماء بارد

وممخضتي** خاوية قد أزيل ما بها

وكوبي المقدس قد سقط من مشجب تعليقه

وعصا الراعي قد تلاشت وذهبت ريحها

وهناك كانت بومة.....

وصقر يحمل حملاً بين مخالبه

وماعزي الفتية تجرجر لحالها اللازوردية في التراب

أما شياه حظيرتي فقد لمست الأرض قوائمها المنحنية

(نعم) ممخضتي محطمة لا لبن فيها

وكوبي قد أنكسر. فدوموزي لم يعد بين الأحياء

وحظيرته قد راحت نهباً للرياح ... (فتجيبه أخته)

أواه يا أخي. أن الحلم الذي قصصت ليس حملاً طيباً

أواه يا دوموزي. أن الحلم الذي قصصت ليس حملاً طيباً؛

من حولك كان السمار ينمو ويندفع بسرعة من باطن التربة

* السمار: أو الأسل نبات أوراقه أسطوانية تستعمل في صنع بعض أنواع الكراسي أو المكناس.

** الممخضة: ما يستعمله الرعاة لخض اللبن.

(وهذا يعني) أن عصابة من السقّاحين ستنقض عليك
(أمّا عن) السمارة الوحيدة (التي) وقفت وحنّت رأسها أمامك
(فهذا يعني) أن أمك التي ولدتك ستحني رأسها من أجلك
(وعن) كل السمار الذي وقف أزواجاً إلا واحدة أزيلت من مكانها
(فذلك يعني) أنها تقول لك: أهدنا يجب أن يغيب

ثم تمضي جشثنانا في تفسير حلم أخيها فقرة فقرة إلى أن تنتهي بتحذير أخيها من أن الـ«جالا»
وهم عفاريت العالم الأسفل سيطبقون عليه ويحملونه إلى هناك. وإن عليه الإختفاء من وجههم.

فيعمل دموزي بنصيحة أخته ويغادرها موصياً إياها إلا تُبجح بمكان إختبائه

أي صفتي، سأختبئ بين الاعشاب

فلا تخبري أحداً بمكمني

سأختبئ بين الاعشاب القصيرة

فلا تخبري أحداً بمكمني

سأختبئ بين الاعشاب الطويلة

فلا تخبري أحداً بمكمني

سأختبئ بين القنوات والترع

فلا تخبري أحداً بمكمني

فتجيبه أخته:

لتنهشني كلابك الضارية إن بُحْتُ بمكمنك

الكلاب السوداء، كلاب حراسة قطعانك

الكلاب المتوحشة، رمز سلطانتك

نعم فلتنهشني كلابك.

ثم تأتي العفاريت التي :

لاتأكل الطعام ولا تعرف الشراب

ولا تقرب ماء القرابين

لاتقبل الأعطيات التي تهدئ الخواطر

ولا تسكن لحظن زوجة

ولا تُقبّل الطفل الجميل

فيحاولون إستمالة الأخت وحنها بشقى الوسائل على إفساء سر دوموزي، ولكن عبثاً. إلا أن دوموزي الذي يخشى أن ينال أخته شراً على يد الأشباح القساة يعود من تلقاء ذاته ويُسلم نفسه. فينقضون عليه ويوثقونه بيديه وقدميه ثم يوسعونه ضرباً بالعصي والسياط ويهينونه للرحيل معهم. وهنا يتجه بالدعاء إلى «أوتو» * يستغيثه :

أي أوتو أنت أخو زوجتي وأنا زوج أختك

انا الذي يحمل الطعام لـ«ايانا» **

في «ايريك» قد أتممت زواجي

فأنا من قبّل الشفاه الطاهرة

وعانق الجسد المقدس، جسد اانا

فحوّل يديّ إلى يديّ غزال ***

وحوّل قدميّ إلى قدميّ غزال

حتى لا تطالني أيدي عفاريت الجالا

وأنجو بنفسي إلى «شوبيرلا»

فيستجيب له أوتو:

فتلقّى أوتو دَمْعَةً قرباناً

وكأله رحمة واسعة أراه من رحمته

حوّضل يديه إلى يديّ غزال

وحوّل قدميه إلى قدميّ غزال

فلم تطاله أيدي عفاريت الجالا

ونجى بنفسه إلى شوبيرلا

إلا أن الأشباح القاسية تُدرّكه مرة أخرى وتأخذ بضربه وتعذيبه. فيطلب من

* إله الشمس وأخو ااناا ** معبد ااناا. *** في النص السابق يطلب أن تتحول يده إلى حية وقدميه كذلك .

أوتو مجدداً أن يحوّل يديه ورجليه إلى قوائم غزال فيفر هارباً. ومجدداً يستجيب له أوتو فيهرع دوموزي إلى بيت آلهة أسمها «بيليلي» :

أيّتها السيدة العجوز الحكيمة. لست بشراً ولكني زوج آلهة.

فدعيني أشرب من ماء القرابين قليلاً
ومن الطحين المذرور دعيني أكل بعضاً.

ولم يكد دموزي يلتقط أنفاسه ويتناول بعض الطعام والشراب حتى تتسلل الأشباح إلى بيت السيدة العجوز؛ وتبدأ بضرب الإله المنكود للمرة الثالثة ، ولكنه أيضاً بمساعدة أوتو هرب إلى حظيرة أخته، وهناك كانت نهايته حيث :

دخل الحظيرة العفريت الأول

وضرب خدود دوموزي بسمار طويل نفاذ

وتبعه إلى ال حظيرة العفريت الثاني ... فراح يضرب وجه دوموزي بعصا الراعي

ثم دخل إلى الحظيرة العفريت الثالث

وأزال ما ر الممخضة ورمها خاوية ... وتبعه إلى الحظيرة العفريت الرابع

فرمى الكوب المقدس عن مشجب تعليقه

ثم دخل الحظيرة العفريت الخامس

فحطم الممخضة الخاوية لبتها

وكسر الكوب. فدموزي لم يعد بين الأحياء.

وحظيرته قد راحت نهياً للرياح

وعلى هذه الصورة تنتهي أسطورة هبوط انانا بمشهد يخلع الأفئدة حتى وقتنا هذا. لقد تنعم

الإله الراعي بحب انانا فترة طويلة ولكن كان عليه أن يدفع ثمن عدم أكرائه بزوجه والجدا

عليها ، وكان ثمناً فادحاً جداً، فدموزي قد حُمِلَ مرغماً إلى عالم الأموات بديلاً عن الآلهة

الوحيدة التي تغلّبت على الموت وقهرته، وخرجت منه ظافرة منتصرة لحياة جديدة. وهنا تكتمل

أسطورة قابيل وهابيل. فالراعي الذي فضله انانا على الفلاح انكمدو في أسطورة سابقة

وتزوجت منه تعود لتقضي عليه بنفسها. ويصبح موته شرطاً لعودة القوة الإخصابية من عالم

الأموات لتنعش الأرض من جديد وتنتصر الزراعة على الرعوية على أصوات صرخات دموزي

القتيل الذي

تجره عفاريت العالم الأسفل وصرخات قابيل الذي هوت على رأسه ضربات أخيه الفلاح وصوت الرب المدوي يلاحقه أينما ذهب: (أين قابيل أخوك.. صوت دم أخيك صاخ إلى الأرض من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاهها لتقبل دم أخيك من يدك).

وبصعود انانا يكتمل درام الفداء الإلهي. لقد تركت سيدة السموات عرشها ونزلت مختارة درجات الموت السبع مُضحية بكل شيء في مقابل نتائج غير محققة وأمل ضعيف في العودة إلى الحياة. ولكن الحياة تنتصر وتقهّر آلهة الحياة قوى الموت فتنقض من مرقدها حيث علقت جثة هامدة على وتد، وتنبعث في عودة مستحيلة متجددة شابة كأنها الفينيق ذلك الطائر العجائبي الذي يحرق نفسه كلما شاخ لينبعث من رماده مجدداً، فينقى آخر غض وقوي وشاب. هكذا الطبيعة المتجددة التي تموت وتجف ولكنها ما تلبث أن تنبعث بشكل مذهل غير مُفسَّر ولا مُبرر، إلا باعتبارها ظاهراً يشف عن القوى الإلهية الماورائية الفاعلة والدينامية. لقد ظهرت الحياة على الأرض نتيجة لتضحية إله، وهي تستمر نتيجة لتضحية إله آخر وفدائه.

على أن دوموزي الذي كان ذهابه إلى العالم الأسفل ضرورياً للإفراج عن انانا، لم يبق في ضمير العباد مجرد ضحية مسكينة بل تحول إلى بطل. فهو شريك في ملحمة الفداء وطرفاً هاماً لا تكتمل الملحمة دونه. ولذا تراه في نصوص أخرى يمضي إلى الموت ببطولة ليُنجز دوره :

أنهض أيها البطل وأمض في طريق اللارجوع

ها هو يغيب. ها هو يغيب في حظن الأرض

سيغمر أرض الأموات بالخيرات العميمة

أمض أيها البطل إلى الأرض البعيدة خلف مدى الإبصار^(٤)

وموتف انانا من تموز. ذلك الذي يحتوي على تركيب لنقيضين هما الحب والكراهية رغبة الحياة له ورغبة الموت، نجد له متوازيات في ميتولوجيا الشعوب الأخرى. فبعض الآلهات لم يكنن يجدن غضاضة في إهلاك محبيهم ثم إسترداهم للحياة مرة أخرى، وللحب. ففي الأسطورة اليونانية نجد أن أدونيس

4 - J.L.Henderson, The Wisdom of The Serpent, Collier Books, Newyork 1971

يُقتل من قبل الخنزير البري وهو الحيوان المقدس لدى حبيبتة أفروديت وأحد رموزها. وبذلك يكون أدونيس قد قُتل من قبل حبيبتة بصورة غير مباشرة. غير أن الرعب الذي تُلقيه أمثال هذه القصص في قلوب قراء العصر الحديث هو آخر ما كانت الأسطورة تهدف إليه ، فبدون الموت لم تكن هناك حياة جديدة تحل محل الأولى التي غدت بائسة رتيبة وبلا معنى بإعتمادها على الخير وحده.

لقد أوردت انانا بعشيرها موارد التهلكة ولكنها هي بالذات من سيقوم بتخليصه من أسرهِ وإسترجاعه من العالم الأسفل. وسيكون حياً له وإلتصاقه بها العنصرين الأساسيين في عملية الإستعادة. لقد حققت انانا لنفسها عودةً مستحيلة من عالم الأموات وهذه العودة ستصبح نموذجاً بديئاً لكل عودة إلى الحياة، نموذجاً سينظر إليه البشر بأمل طالما بقي هناك حياة وموت. وسيحاولون الإتحاد بذلك الإله الميت الذي بُعث، والإلتصاق به في مجموعة من الطقوس السرية التي من شأنها، في إعتقادهم، جعلهم جزءاً متوحداً معه فيسيرون على طريقه، ويُنشَلون معه من الموت المؤقت إلى حياة جديدة ثانية بعيدة عن العالم الأسفل: {من آمن بي وإن مات فسيحياً} يقول السيد المسيح.

والبعث الجديد مهصح يما بعد ويفا على اتبير الإله الممجت ممن دخلوا في عبادته وأدوا الطقوس الإداخلية المفروضة وإتحدوا به عبر مجموعة من الطقوس والعبادات. وهكذا نجد أن انانا في الأسطورة السومرية ترسل بدموزي إلى الموت ولكنها في الأسطورة البابلية تقوم بتخليصه من الموت. وتشرع برحلتها إلى العالم الأسفل لهذه الغاية. وتحقق لحبيبتها العودة المستحيلة كما حققتها لنفسها قبلاً وكما ستحققها للأتباع المخلصين ممن سلتصقون بها في الفترات المتأخرة لتطوّر الديانات الشرقية.

٢ / هبوط عشتار

إلى العالم الأسفل

تحذو الأسطورة الأكادية حذو نموذجها السومرية ويغدو الهيكل العام للنزول الثاني صورة تكاد تكون طبق الأصل عن النزول الأول ، بحيث يُشكّل النص بمجموعه مثلاً ناطقاً عن التأثير الشديد للفكر والأدب الأكادي بالنماذج السومرية السابقة، وسيطرة الفكر السومري على ثقافة المنطقة. فدموزي في النص البابلي هو «تموز» كما صار يُدعى. أما انا فتبدو بإسمها الأكادي الجديد :

عشتار

إلى الأرض التي لا عودة منها، الى أرض [اريشكيغال]^(٥)

أتجهت عشتار إبنة «سن» بأفكارها

نعم. إبنة سن إتجهت بأفكارها

إلى دار الظلام ومسكن «اركالالا» *

إلى الدار التي لا يرجع منها الداخل.

إلى الدرب الذي لا يقود صاحبه من حيث أتى.

إلى المكان الذي لا يرى سكّانه نوراً ولا ضياءً،

5 - A.Heidel, The Epic of Gilgamesh, Phoenix Books 1970

* اركالا هي اريشكيغال نفسها.

حيث الغبار طعامهم والتراب معاشهم،
يسبحون في الظلام فلا بصيص ولا شعاع.
عليهم أجنحة تقلهم كالطيور،
بين أرجاء مسكنهم الذي علا الغبار أبوابه ومزاليجه
وعندما وصلت عشتار إلى بوابة أرض اللا رجوع
نادت حارس البوابة :
(إفتح بابك يا حارس البوابة ... إفتح بابك ودعني أدخل
فإن لم تفتح بابك لأدخل منه ... سأحطمه وأكسر مزاليجه
سأخلع عوارضه وأرمي مصاريعه
وأطلق الموتى إلى سطح الأرض فيأكلون سكاّنها
ويزداد عدد الأحياء على عدد الأموات
ففتح حارس البوابة فمه وقال :
رويدك سيدتي لا تُلقِي بالباب أرضاً
سأهرع وأعلن قدومك للملكة اريشكيجال
(ثم مضى) ودخل على اريشكيجال قائلاً:
أن أختك عشتار [واقفة بالباب]
(تلك) التي تقود الإحفالات، وتحرك المياه السفلية أمام إيا (!).
فلما سمّت اريشكيجال هذا
شحب لونها حتى غدا كلون شجرة مجتثة
وأسوّدت شفتاها حتى غدتا بلون «الكينينو» المقطوع :
ما الذي حفّزها لتحضر إليّ، ما الذي وجّه أفكارها إليّ؟
إني إذن سأشرب الماء مع بقية الانوناكي
وبدل الطعام سألتهم التراب. وبدل الجعة ماء العكر*
*أعتفت اريشكيجال أن عشتار قد جاءت لتحرر سكان العالم الأسفل. وفي هذا تهديد خطير لمملكها التي ستغدو
خاوية برحيل سكاّنها. وزوال سطاتانها لن يقوم الأحياء بتقديم القرابين.

إني إذا سأبكي الفتيات اللواتي إنتزَعْنَ من أحضان الأُحبة،
وأندب الطفل الضعيف الذي قضى قبل أوانه،
والرجال الذين خَلَّفوا وراءهم زوجاتهم
إمضِ يا حارس البوابة وإفتح لها الأبواب
ثم عاملها وفقاً للشرائع القديمة.

فمضى البواب وفتح لها:

أدخلي سيدتي، فالعالم الأسفل يُحييك بسرور،
وسيبتهج من أمامك قصر اللارجوء.

ولما مر بها عبر البوابة الأولى رفع عن رأسها التاج العظيم

- لماذا يا حارس البوابة أزحت عن رأسي التاج العظيم؟

- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.

ولما مر بها عبر البوابة الثانية أخذ من أذنيها أقراطها.

- لماذا يا حراس البوابة أخذت من أذنيّ الأقراط؟

- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.

ولما مر بها عبر البوابة الثالثة رفع عن جيدها العقود.

- لماذا يا حارس البوابة رفعت من جيدي العقود؟

- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.

ولما مر بها عبر البوابة الرابعة نزع عن صدرها الحر.

- لماذا يا حارس البوابة نزعت عن صدري الحُلي؟

- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.

ولما مر بها عبر البوابة الخامسة إنتزعت عن وركها تعويذة الولادة المرصعة بجواهر الميلاذ*

- لماذا يا حارس البوابة إنتزعت عن وركي تعويذة الولادة المرصعة؟

- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.

ولما مر بها عبر البوابة السادسة نزع الأساور عن يديها وقدميها.

* أعتادت النساء الباليات حمل حجاب من نوع معين مرصع بأحجار كريمة من شأنها تسهيل عملية الولادة.

- لماذا يا حارس البوابة نزعْتَ الأساور من يديّ وقدميّ؟
- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.
ولما مر بها عبر البوابة السابعة نزع عنها ثياب جسدها.
- لماذا يا حارس البوابة نزعْتَ عن جسدي ثيابي؟
- أدخلي سيدتي فهذه شرائع ربة العالم الأسفل.
فلما صارت عشتار في قلب العالم الأسفل.
وقع عليها نظر اريشكيجال فإستعَرَ غضبها.
ولكن عشتار إندفعت دونما تفكُّر نحوها.
فتفتحت اريشكيجال فمها قائلة لوزيرها نمتار:
إمض يا نمتار. أصدع بها قصري وأغلق عليها هناك،
ثم أطلق ضدها. أطلق ضد عشتار ستين عِلَّة.
ضد عينها أطلق عِلل العيون.
ضد أضلاعها أطلق عِلل الأضلاع.
ضد أقدامها أطلق عِلل الأقدام،
ضد أحشائها أطلق عِلل الأحشاء،
ضد رأسها أطلق عِلل الرأس.
ضد كل أجزاءها، ضد كل جسدها (فلتُطْلِق العِلل)
«بعد أن هبطت السيدة عشتار إلى أرض اللا عودة؛

.....
.....

إضطجع الرجل وحيداً في غرفته، ونامت المرأة على جنبها وحيدة *
«بابسوكال» وزير الآلهة العظيمة
إرتدى وشاحاً؛ وشعر أطويلاً

* يُفهم من ذلك أن الرجال والنساء قد تباعدوا جنسياً. فعشتار هي القوة الإخصابية الفاعلة في الإنسان والنبات قد غابت عن الوجود وغابت معها كل مظاهر الاخصاب التي تعكسها في الحياة.

ومضى باكياً إلى أبيه « سن »

وفاضت دموعه أمام « ايا » الملك:

لقد مضت عشتار إلى العالم الأسفل ولم تصعد ثانيةً

ومنذ أن غابت عشتار في العالم الأسفل

[.....]

[.....]

إضطجع الرجل وحيداً في غرفته، ونامت المرأة على جنبها وحيدة

[.....]

قلب إيا الحكيم الأمر على وجوهه فخطر له خاطر.

صنع «اصوشونامير» المخلوق الخَصي (وقال له):

إمض يا اصوشونامير إلى بوابة عالم اللارجوع.

يَمِّم شطرك يا اصوشونامير نحو بوابة عالم اللارجوع.

وستُفتح أمامك بوابات ذلك العالم السبع، وتراك اريشكيجال وتبتهج لحضورك.

فإذا هدأت خواطرها نحوك وإستقرت نفسها لك.

دعها تُقسِم بجميع الآلهة العظيمة،

ثم أرفع رأسك وحول نظرك إلى قرية ماء «الحالزاكو» قائلاً:

سيدتي، هلاً أمرت لي بقرية ماء الحالزاكو لأشرب منها.

فلما سمعت اريشكيجال هذا القول **

ضربت حجرها (بكفذيها) وعضت على أصابعها

لقد أبديت رغبةً ما كان لك أن تُبديها

والآن يا «اصوشونامير» سألعنك لعنة عظيمة

* يبدو أن إيا قد صنع صوشونامير وأرسله ليغوي بجماله اريشكيجال. فإن إستمالها كان عليه أن يجعلها تُقسِم بأن تُبني له أي طلب. وعندما فعلت طلب منها قرية ماء الحياة بحجة الشرب، ولكنه في الواقع كان يريد أن يرش بها عشتار الميتة.

** على غير العادة فقد قام ناسخ النص بالإختصار. وجعلنا ننفذ فوراً من تعليمات إيا إلى تنفيذها من قبل الخَصي.

فيكون طعامك من مجارير المدينة (أبد الدهر) ... وترد بالوعات البلدة لأجل شرابك
من ظلال الحيطان تتخذ لك مسكناً (دون البيوت)
ومن عتبات الأبواب ملجأ (وملاذاً)

عطشان لا تجد ما تتبلل به. فاذا وجدت تتفجّر ولا ترتوي *
ثم إلتفتت إلى وزيرها نمتار قائلةً :

إمضِ يا نمتار واقرع باب ال(ايجالجيينا) **

زَيْن العتبة بحجر ال«ايريتو» (!)

إستدع الانوناكي ودعهم يجلسون على عروشهم الذهبية

ثم إنضح عشتار بماء الحياة وخُذها بعيداً عني ***

فمضى نمتار وقرع باب ال(ايجالجيينا)

وزَيْن العتبة بحجر ال«ايريتو»

إستدعى الانوناكي وجعلهم يجلسون على عروشهم الذهبية

ثم نضح عشتار بماء الحياة وأخذها بعيداً عن اريشكيجال

ولما مر بها عبر البوابة الأولى أعاد إليها ثياب جسدها.

ولما مر بها عبر البوابة الثانية أعاد الأساور إلى يديها وقدمها

ولما مر بها عبر البوابة الثالثة أعاد إلى وركها تعويذة الولادة المرصعة

ولما مر بها عبر البوابة الرابعة أعاد إلى صدرها جميع الحلي.

ولما مر بها عبر البوابة الخامسة أعاد إلى جيدها العقود.

ولما مر بها عبر البوابة السادسة أعاد إلى أذنيها أقراطها.

ولما مر بها عبر البوابة السابعة أعاد إلى رأسها التاج العظيم.

فإن لم تُعطه الفدية المقررة كان عليه إرجاعها من حيث أتت

أما تموز زوجها الشاب، (فخذه)**** وإغسلوه بماء طهور وضّمّخوه بالعطور الطيّبة

* قمت بالتصرف بترجمة هذا السطر . ** قصر العدالة في العالم الأسفل ومسكن الآلهة.

*** كانت اريشكيجال مضطرة لذلك بعد أن أقسمت لاصوشانامير أن تلي له أي رغبة يطلبها

**** الحديث هنا لاريشكيجال.

أَلْبَسُوهُ عِبَاءً حُمْرَاءَ وَدَعُوهُ يَعْرِفُ نَايَهُ اللَّازُورْدِي

وَلْتَحِطْ بِهِ كَاهِنَاتُ عَشْتَارٍ يُهْدَتُنَّ مِنْ خَوَاطِرِهِ

ثم يلتقي الزوجان على سطح الأرض مرةً أخرى في المقطع الأخير لهذه الأسطورة. وهذا المقطع ما زال غامضاً رغم كماله وعدم وجود نقص أو خرم في موضعه باللوح. وهو يشكل الأسطر العشرة الأخيرة من النص الذي ينتهي بالتذييل التالي:

قصر آشور بانيبال، ملك العالم وأشور

الذي وهبه « نابو » و« تاشميتو » فهماً عظيماً

لقد هبطت انا وحيدة درجات الموت السبع ثم عادت وحيدة منتصرة وقد حققت ولادة ذاتية وتجديداً فريداً بقواها الخاصة. مؤكدةً بشكل رمزي طاقتها الإخصابية الكونية وماهيتها الأبدية المتجددة في صراعها مع قوى الفناء والزوال.

فأنا ليست خصيبة ولكنها الخصب.. أنها جوهر هذه القوة الحافظة للحياة التي تقف أبداً في مقابل القوة الهادمة للحياة. أنها الوجود في مقابل العدم، وجود حركي دينامي يثبت نفسه أبداً ويحقق ذاته باستمرار في حركة جدلية دائبة.

ثم هبطت ثانية تحت أسم عشطار لتتقذ تموز القليل وتهبه من لدنها حياة. وصعدت به معها درجات الحياة السبع ليغدو صعودهما معاً نموذجاً يتطلع إليه الإنسان أبداً لما يستطيع إلهه الحامي أن يفعل من أجله، وصورة للخلاص من ريقة الموت بمعونة الفادي الذي يقبل فيما بعد أن يدوق الموت ليهب من يؤمن به الحياة.

وفي كلا الهبوطين كانت عشطار مثلاً منهجياً للآلهة الأم. الأم الكوني المخصبة بذاتها، الغامرة بظلمها الرحب عالم الإنسان بجنسيه.

وفي كلا الهبوطين كانت صورة؛ مستعادة، في الضمير المبدع للأسطورة، لخيال الأم في عهود سحيقة عندما كانت مركز الجماعة ومنبع قيمها وجمالها، وعندما كان الذكر تابعاً في مجتمع تُتخذ فيه الأم لا الأب دور القائد. لقد أرسل تموز في المرة الأولى إلى الموت بناءً على أوامرها، ثم عاد في المرة الثانية بدافع من رغبتها العارمة في إستعادته. وفي كلا الحالين كانت هي المرأة المسيطرة القوية، المكتفية. وكان هو الذكر الضعيف المعتمد عليها اللائد لأحضانها.

إنَّ هبوط عشتار توكيد لحق الأنوثة ودورها في مجتمع يتجه نحو الأبوية المطلقة في كل مظاهره العامة المعلنة، ولكنه مع ذلك يحتوي في صميمه تلك العناصر «الأمومية» التي تؤكد نفسها بشكل لا شعوري في قالب من أكثر القوالب تعبيراً عن لا شعور الفرد والجماعة ألا وهو الأسطورة. أن صراع عنصرَي الأنوثة والذكورة في نفس الإنسان، ذلك الصراع غير المعلن وغير المعترف به، وصراع العناصر الأمومية والعناصر الأبوية في المجتمع ذلك الصراع العفوي والتلقائي والذي يجري بمعزل عن تدخل الذوات الواعية، هما صراعان يُعلنان عن نفسيهما في : هبوط عشتار للعالم الأسفل وجميع التكرارات الموازية في أساطير المنطقة التي سنأتي على دراستها في هذا الفصل.

وأود أن ألفت النظر لخطأ شائع يقع فيه الكثيرون عندما يتحدثون عن الإله تموز،، فيصفونه بأنه الحياة الزراعية المتجددة أو الدورة الطبيعية السنوية. والواقع أن غياب الحياة عن الزراعة وجفاف الأرض هو تعبير عن غياب القوة الإخصابية الواهبة للحياة والمتمثلة بأنانا أو عشتار، عندما بدأت رحلتها بعيداً عن هذا العالم مُسلمةً إياه لقوى الموت والجفاف. وفي اعتقادي أن الإله تموز لا يلعب في هذه المأساة إلا دوراً ثانوياً. فهو على أية حال راعٍ، ونحن لا نستطيع أن نطلب من راعٍ أن يلعب دوراً أكثر أهمية في مأساة محورها الزراعة. وفي الواقع أن الطقوس والعبادات التي سُمِّيت تموزية من قبل الباحثين خطأً هي طقوس وعبادات عشتارية. وليس النواح على تموز في مواسم أعياده إلا مشاركة من العباد لعشتار في أحزانها. ولا نستطيع والحالة هذه أن نطلق على تموز-كما جرى الإصطلاح العام - صفة إله الخصب إلا مجازاً وكنياً، ونوعاً من إيفائه حقّه لمساهمته بنوع ما في إكمال المأساة. إلا أن دور تموز الثانوي هذا لا يتدخل إطلاقاً في التقليل من شأنه في قلوب العباد بل على العكس تماماً. لقد كان تموز من أحب الآلهة لدى الجماهير، فلقد تألم وعانى عذابات الموت كأنه بشر فان، ثم بُعث من بين الأموات وصعد ألى السماء في النهاية، كما نستدل على ذلك من أسطورة آدابا السابق ذكرها في فصل التكوين عندما التقى به هناك آدابا حيث بوابة السماء السابعة. وكان البكاء عليه في الشهر المدعو بإسمه يتخذ شكلاً مأساوياً فاجعاً عندما تنفجر جماهير عبّادَه في موجة هستيرية من التعبير عن الحزن والألم بلطم الخدود وتمزيق الثياب وإيذاء الجسد بشتى الوسائل. والواقع أن هذا التعبير كان

يحمل في طياته نوعاً من إفراغ الشحنات الإنفعالية المكبوتة لجماهير ترزح تحت شتى أنواع الضغوط النفسية . لقد كان تموز مشجباً نُعلّق عليه أحزاننا سنوياً ونستريح.

٣ / هبوط بعل إلى

العالم الأسفل

عندما ننتقل إلى آرام وفينيقية يحصل تبدل طفيف على أدوار الأبطال الرئيسيين في المأساة ولكن جوهرها يبقى واحداً. ففي أوغاريت يتكافأ تماماً في أسطورة الخصب ولدرجة مدهشة دورا الآلهة الأنثى الممثلة للقوة الإخصابية الكونية، والإله الذكر الذي يمثل هنا قوى لا غنى عنها للقوة الأولى، ألا وهي قوى السحاب والمطر والندى مدعومة بقوى البرق والصاعقة والرعد. أنه «بعل» أو «حدد» أو «ادون» وقرينته «عناة» (عستارت فيما بعد). فلأن قوى الخصوبة لا تستطيع أن تكون فاعلة دون مساعدة الأمطار في الشتاء والندى في الصيف. كانت علاقة عناة ببعل علاقة وثقى لا تنفصم، وكان حبهما الأبدي ووثاقهما الجسدي ضرورة لا غنى عنها للحياة الزراعية. ولقد غدّى هذه الفكرة نوعية المناخ والأقليم في سورية حيث لا غنى عن الأمطار للزراعة، وحيث لا تُشكل الأراضي المروية بواسطة الأنهار إلا نسبة ضئيلة. على عكس وادي النيل ووادي الرافدين. وحيث معظم الأراضي هي ملك لبعل يسقيها كيف يشاء وعندما يشاء. ولا تزال الكلمة مستعملة في سورية حتى الآن عندما يُقال (أرض بعل) بمعنى أنها الأرض التي تُسقى بمياه الأمطار. وقد أشارت مقاطع معينة في نصوص أوغاريت دهشة المترجمين وتركتهم حيارى لا يستطيعون لها تفسيراً. فهناك أعمال معينة مرّة يقوم بها بعل ومرّة أخرى نجد عناة

نفسها هي التي تقوم بها في تشابه يكاد يكون حرفياً. ولكن العجب يزول اذا نحن نظرنا للعلاقة الوثقى بين الطرفين، تلك العلاقة الي تجعلني أميل شخصياً لإعتبارهما أقنومين بالمعنى المسيحي للكلمة، وأنهما كانا في الفكر اللاهوتي السري اثنين في واحد. وكيف لا وهما المطر والخصب. وبعل في الأسطورة الأوغاريتية ليس مغلوباً على أمره كما كان تموز ولكنه قوي جبّار تغلب على «يم» المياه الأولى كما رأينا في فصل التكوين ونظم أحوال العالم. وخذلانه أمام إله العالم الأسفل كما سنرى فيما يلي لم يكن إلا خذلاناً مؤقتاً. إلا أن هذه الصورة لبعل تتلاشى فيما بعد، وخصوصاً لدى فينيقي الجنوب، يغدو «ادون» أو «ادوني» نسخة قريبة الشبه جداً من تموز، بينما يحتفظ «حدد» الآرامي برموز سلطة بعل وقوته وهي البرق والصاعقة والرعد. لم يكن «يم» هو العدو الأخير الذي يتصدى لبعل.

فما زال أمامه الكثير من الصعاب قبل أن يُحقق إنتصاراً مطلقاً وعاملاً، وما زالت هناك قوى تُعكس النظام الذي خلقه بعل بإنتصاره على مياه العَماء البدئية، وتقاوم الحياة الإنسانية والنباتية التي ظهرت ببناء مملكته وتشييد بيته. وهذه القوى يمثلها الإله «موت» سيد العالم الأسفل. وإذا كان إنتصار بعل يمثل إنتصار قوى الحضارة والبناء والنظام والخِصب، فإن «موت» ومملكته يمثلان الموت والجفاف والدمار والفضوى. و«موت» ضد الإنسان يتبعه طيلة حياته لإقتناص روحه التي يحاول بعل كل جهده الحفاظ عليها بإغداقه من الخيرات والثمار والأمطار وبث الخِصب في التربة المعطاء.

وموت ضد النبات يرسل عليه الحرارة والجفاف فيذبل ويذوي، بعد أن بذل بعل غاية في حفظه وإنمائه. وهو ضد النور والشمس والوضوح والحركة، ولذا فإن عالمه هو عالم سفلي يسوده الظلام والصمت والسكون، في مقابل عالم بعل المليء بالفعالية والحركة والحياة. وسيكون على هاتين القوين الكبيرتين أن تتصارعا طويلاً قبل أن يُكتَب لإحدهما الإنتصار.

وسيجد بعل نفسه في المعركة مراراً لا حصر لها، ففي كل سبع سنوات سينبزي له «موت» ويتحداه فيسلّم بعل نفسه له، ويمهبط إلى العالم الأسفل. ولكنه يعود منتصراً إلى الحياة بعد معركة عنيفة - بين بعل وعناة من جهة، و«موت» واتباعه من جهة ثانية، - حيث تقوم عناة بقتل «موت» وتقطيعه ونشر جسده في الحقول، ويقوم بعل من جهته بالقضاء على بقية القوى

الموالية لموت. وهذا الانتصار تنبعت الطبيعة من جديد وتعود الأمطار لتروي الأرض المجدبة، وترجع الحياة الزراعية سيرتها الأولى.

وهكذا نجد أن هذه الأسطورة لا تهدف بالدرجة الأولى إلى تفسير الدورة الزراعية السنوية بل إلى تفسير تناوب دوّريّ الخصب والجفاف الذي يميز مناخ المنطقة. والذي ما نزال حتى الوقت الحاضر في سورية نعاني من آثاره. ويبدو أن هذا التناوب كان واضحاً في أرض كنعان قديماً لدرجة كان يمكن معها حصره في سبع سنوات خصيبة تليها فترة من القحط تطول أو تقصر، ثم تعود الحالة سيرتها الأولى وهكذا.

تُحدِّثنا النصوص ٥١ - ٦٧ - ٦٢ - ٤٩ من ألواح أوغاريت عن قصة هذا الصراع التي تُشكل حجر الأساس في اللاهوت الكنعاني. وهذه النصوص إلى جانب ما تعانيه من نقص وتشويه جعل ترجمتها من أشق مهام علماء الأوغاريتية، فإنها لم تصنأ في الأساس وفق تسلسل معين يعطينا صورة عن القصة كما أرادها كُتّابها، كما لم يكن التوصل إلى تسلسل يمكن الركون إليه بإعتباره إستعادة للتسلسل الأصلي كما أرادته كهنة بعل ومدوّني وحيه.

وسأقدم فيما يلي ترجمة لأكثر المقاطع وضوحاً في النص مع إعطاء مُلخّصات لما يجري في المقاطع المشوّهة والناقصة إعتماً على شذرات الأسطر الناقصة، وعلى المحكمة المنطقية لسير الأحداث. بعد أن يستقر بعل فوق عرشه ويشرف على مملكته يبدأ أعداءه بالتآمر ضده ويعلن «موت» بإسمهم جميعاً^(٦):

أنا وحدي مَن سيحكم فوق جميع الآلهة

(أنا وحدي) مَن سيأمر الناس والآلهة

ويُسيطر على جميع مَن في الأرض

فيعبث بعل رسوليّه «جوبارا» و «اوغار» للتفاوض مع «موت»:

قوما برفع الجبل على أيديكم .

والتل على أعالي رؤوس النخيل

وإهابطاً إلى أقاصي الأرض العميقة،

حتى تصبحون مع من غادر هذه الأرض.

ومن هناك يمما وجهيكما شطر (مدينة موت)

توجها إلى مدينته «حمرى»

وأرقبا العرش الذي يجلس عليه

[.....أرض أملائكه]

[.....جنود حراسة الآلهة؛

ولا تقربا كثيراً من «موت» الإله

حتى لا يجعلكما إلى فمه كما الحمل

ويسحقكما بين فكيه كما الولد الصغير

إقطعاً آلاف الأميال وعشرات ألوف الهكتارات

وعلى قدمي «موت» قيفا وأركعا

إسجدا له وعظماًه

وقولا له «موت»

اعلنا للبطل حبيب الإله «ايل»

رسالة عليان بعل*

وكلمة عليّ** المحارب:

لقد بنيت بيتي من [الفضة]

ولا نعرف بقية نص الرسالة، ولكن يمكن الإستنتاج أن الإلهين لم يتفقا على التعايش بسلام،

الأمر الذي حدا بالإله «موت» إلى تحريض بعض القوى الشريرة التي تنتهي إلى عالم العماء

المائي الذي زال وإنقضى بزوال مملكة «يم» فيخرج التنين الهائل «لوتان» ذو الرؤوس السبعة

لصراع بعل. ولكن الإله يقضي عليه ويسحقه بسهولة كما سحقه فيما بعد «يهو» تحت أسم

«لوياتان» في المزمور ٧٤ وأماكن أخرى من العهد القديم. فيثور موت ثورة عظيمة ويُدرك أن لا

خلاص من بعل إلا بالمواجهة الشخصية الحاسمة فيرسل له قائلاً:

* بعل عليّ
** وردت الصفة هنا في النص الأصلي على أنها أسم علم.

لأنك قتلت الحية «لوتان» الشريرة

لأنك سحقت الحية الخبيثة

العظيمة ذات الرؤوس السبعة

فالسماوات [.....]

[.....]

يلي ذلك ثلاثون سطرًا ناقصة نجد بعدها وصفاً سريعاً لموت وفمه الفاعر لأبتلاع بعل:

فشفة في الأرض وشفة في السماء

واللسان بين النجوم .

ليدخل بعل في أعماق جوفه.

هابطاً إليه من فمه.

فتجف أشجار الزيتون،

وكل منتجات الأرض،

وثمار جميع الأشجار.

خاف عليان بعل منه (وإرتجف)

(نعم) لقد فزع منه راكب الغيوم:

إذهباً وقولا للإله موت

أعلنا للبطل حبيب الإله «ايل»

رسالة بعل العليّ وكلمة «عليّ» المحارب.

تحية لك يا موت الإله

عبدك أنا سأكون.

نعم عبداً لك إلى الأبد.

وهكذا يقبل بعل مختاراً المضي إلى عالم اللا رجوع. وقبل أن يُسلم نفسه يولم وليمة لجمع من

الآلهة، ويأكل معهم ويشرب قبل أن يغادر الحياة . ثم تأتيه تعليمات «موت»، لما يجب عليه

القيام به: عليك أن تأخذ معك غيومك

ورياحك وعواصفك وأمطارك
وتأخذ معك أتباعك السبعة،
وخنازيرك الثمانية.

ومعك أيضاً «بدرية» ابنة النور.
ومعك «طلية» ابنة المطر
ثم توجه شطر جبل «كنكيي»

فأرفع الجبل على يدك
والتل على أعالي رؤوس النخيل
وأهبط إلى أقاصي الأرض العميقة
حتى تصبح مع مَنْ غادر هذه الأرض

فيسرع بعلى إلى تنفيذ تعليمات «موت» ولكنه قبل هبوطه يقوم بمضاجعة عجلة سبع وسبعون
مرة متوالية؛ فتحمل منه العجلة. ولا يتضح من النص طبيعة هذه العجلة وحقيقة دورها. فربما
كانت هي الآلهة «عناة» في شكل تحوُّلي من أشكالها، أو ربما نابت الصِّفة عن الأسم في سياق
النص. فنحن نعرف أن من صفات الإله ايل أنه الثور ايل. وعلى هذا ربما كانت العجلة هنا هي
العجلة عناة رغم أننا لا نجد للآلهة صفة بهذا الأسم في نصوص أخرى. وبعد أن يضمن بعلى
لنفسه الأستمرار عن طريق الغلام الذي زرع بزرتة في رحم العجلة ينزل إلى أعماق العالم الأسفل
وهناك يستلب منه «موت» روحه ويرمي بجثته إلى سطح الأرض :

مات بعلى العليّ

هلك الأمير سيد الأرض

فقام «لطبان»* إله الرحمة

وتهاوى على مسند القدمين

ومنه خر واقعاً على الأرض

وأخذ يحثو التراب على رأسه... ويمرغ نفسه في الأديم

صارخاً واحسرتاه، لقد هلك بعلى، لقد مات ابن داغون** هائماً في الغابات

* من أسماء ايل سيد السماء وكبير الآلهة. ** داغون هو الإله والد بعلى.

يلطم وجهه ويخمش وجنتيه بأظافره. فتجزع عناة لصراخ ايل وتعرف أن بعلمها قد قضى نحبه،
فهييم مثله نادية نائحة إلى أن تعثر على الجنة التي لفظها « موت » من أعماقه:
فرفعته على كتفها

وصعدت به أعالي جبل صفون *

وهناك بكت عليه وقامت بدفنه

واضعة إياه في مقبرة آلهة الأرض

ثم ذبحت سبعين رأساً من الجاموس

تقدمة لبعل العليّ

وضحّت بسبعين رأساً من الثيران

تقدمة لبعل العليّ

وبعد أن تنتهي من مراسم الدفن وتقديم الأضاحي، تمضي عناة إلى مقر ايل عند نبع الهرين،
ودخل عليه وهي تعرف أن زوجته « عشيرة » قد فرحت بموت بعل لأن موته سيعطيها الفرصة
لتنصيب أحد أولادها مكانه. وتقول:

فلتفرح « عشيرة » ولتبتهج مع أبناءها.

لأن عليان بعل قد قضى، لأن الأمير سيد الأرض قد هلك.

فصاح ايل إلى « عشيرة » سيدة البحر:

أي « عشيرة » يا سيدة البحر إصغي إليّ،

إدفعي إليّ بأحد أبنائك فأجعل منه ملكاً

فأجابت عشيرة سيدة البحر قائلة:

فلنجعل ملكاً من يعرف كيف يحكم.

لنرفع (إلى العرش) « ائتر » الملك المخيف

فليصعد « ائتر » إلى أعالي جبل الشيخ ويجلس على عرش بعل. ولكنه لم يستطع أن يملأه فرأسه

لم يصل قمة الكرسي، ولم تستند قدماه على مسند القدمين. فإعترف بعجزه عن سد الفراغ

الذي خلفه الإله الكبير، ونزل راجعاً من

* جبل الأقرع.

حيث أتى. وفي هذه الأثناء يتضاعف حزن عناة على بعلمها فتطلب من موت مراراً أن يرده لها
ولكن عبثاً. مما يجعلها تقرر التصدي لموت ومواجهته وجهاً لوجه :
كقلب البقرة على عجلها،
وكقلب الشاة على حملها،
كذلك هو قلب عناة على بعلم.
لقد أمسكت بالإله موت،
بالسيف تقطعه، وبالمذراة تدرية،
وبالنار تشويه وبالطاحون تطحنه
وفي الحقل تدفنه
حتى لا تأكل لحمه الطيور
ولا تمش جسمه الجوارح
بعد ذلك يرى الإله الأكبر ايل في نومه حلماً عجباً، فيستفيق من نومه فرحاً مستبشراً:
في حلم «لطبان» إله الرحمة،
في رؤيا خالق الكائنات الحية:
كانت السماوات تقطر زيتاً،
والوديان تجري بالعتل
فإبتهج لطبان إله الرحمة،
وإستقام على كرسيه ووضعاً قدميه على المسند
ضاحكاً من أعماق قلبه
ورفع صوته صائحاً:
دعوني الآن أستقر وأستريح،
وتهدأ نفسي بين ضلوعي،
لأن عليان بعلم حي
لأن سيد الأرض حي
وعندما تسمع عناة ذلك. تهرع إلى الحقول باحثة مُنقّبة حتى تعثر على بعلم

وهو يثار بنفسه من أعدائه . فيعوداً معاً ويصعد عرشه من جديد وتعود له مملكته رحيبته.
ويحدثنا أحد النصوص من الغرام المستعر الذي عاد فربط بين الإلهين:
[.....] في توقٍ شديد أمسك يفرجها
[.....] في توقٍ شديد أمسكتُ بقضيبه
[.....عليان] بعل قام بفعل الحب آلاف المرات
[.....ال] عذراء عناة
إلا أن الوضع لا يدوم على هذا المنوال
(وهكذا) من أيام إلى شهور، ... ومن شهور إلى سنين.
ولكن في السنة السابعة
نهض الإله موت معلناً نفسه لعيان بعل ... رفع صوته وصاح:
أي بعل. بسببك أنت جللي العار
بسببك أنت قد ذقت السيف
بسببك أنت وردت النار
بسببك أنت عرفت حجر الطاحون
بسببك أنت عرفت [.....]
بسببك أنت عرفت [.....] في الحقول .
من جديد تعود القوتان الكونيتان للتصارع من جديد :
تشابكا كأنهما جاموسان
قوى موت، وقوى بعل
تصارعا كأنهما ثوران
قوى موت، وقوى بعل
تعاضاً كأنهما ثعبانان
قوى موت، وقوى بعل
ترافسا كأنهما حيوانا سباق
قوى موت، وقوى بعل
وقع موت: ووقع بعل(فوقه)

ولكن هل تحسب هذه المعركة نهائياً الخلاف بين القوتين؟ كلا بالطبع فما دام هناك خصب وجفاف، حياة وموت، خير وشر، فإن القوتين ستبقيان في كبر وفر إلى أن تحل المملكة البعلية نهائياً على الأرض. فلا موت ولا مرض ولا قلق.

لقد نافست إذن القوة الفاعلة الحركية القوة المجردة الكونية المتعالية. وظهر الإله الإبن الشاب كغيد للأب الشيخ ساكن السماء وخالق الأكوان. ولكنه يد بمعنى مختلف ومفهوم جديد فعظمته ليست مستمدة من قدرة الخلق، لأنه في معظم الأحيان ليس على مستوى الخلق. بما تتطلبه هذه العملية من قوى جبارة وقدرات. خاصة. كما أنها ليست مستمدة من سلطانه على الناس والطبيعة والآلهة، لا ولا من بعده عن ذلك الإنسان الصغير وهمومه الحياتية، بل أن عين عظمته في ضعفه وقربه لعواطف الإنسان وأحاسيسه وإنفعالاته ومشاركته للبشر آلامهم ومصيرهم المحزن، ومحاولته تقديم الخلاص لهم. خلاصاً حياتياً كما رأينا في الأساطير الثلاثة السابقة وخلاصاً روحياً كما سنرى في أساطير لاحقة، وعظمته ليست في خلود أصيل في طبيعته بل في قهره ولأول مرة سلطان الموت وإنبعائه من جديد قوة شابة مجسداً حلماء من أحلام الإنسان الأولى ورغبة من أكثر الرغبات إلحاحاً عليه في حياته.

ولكن تصاعد قوة الإبن وتزايدها لم يبلغ من قوة الأب ولم يفت في عضده. وبقيت ديانات السماء وديانات الخصب في تصارع لم ينته حتى في الديانة اليهودية التي تعد انتصاراً مؤزراً للأب. فرغم أن المهيبة قد أستبعدت كل الآلهة من أرض العبرانيين، كان الشعب في كل مرة يحن للآلهة الخصب المجاورة فيعبدونها ويُقيم لها الرقص والتمثيل، وذلك إلى أن جاءت المسيحية لتحل الإشكال، وتُدخل الليونة والطرارة على شخصية الإله الأب.

فظهر مجدداً الإله الإبن وهبط إلى البشر فعاش معهم وشاركهم خبزهم وعرقهم وموتهم. وهذا الصراع بين الأب والإبن سيخلق في الديانات الشرقية إتجاهين كبيرين متميزين، سيعتمد الأول إله السماء الأكبر، بينما يلجأ الثاني للإله الإبن وحببته أو أمه الأرض أو القوة الإخصابية الكبرى. وسأدعو الإتجاه الأول بالديانات الإيلية نسبة إلى إيل والإتجاه الثاني بالديانات البعلية نسبة إلى بعل. ومن الغريب أنه في الديانات «الإيلية» أحياناً كانت تظهر بعض الطقوس والعبادات السرية داخل الديانة نفسها تُعطي للإله الأب وجهاً مختلفاً تماماً عما تعطيه له ديانتته الرسمية المعلنة، فهو بموجب هذه الطقوس

ليس إلهاً مطلقاً سامياً متعالياً. بل هو هيبه ذلك الإله الميب الذي يهبط إلى العالم الأسفل ويعود منتصراً على الموت. وهذه في الواقع أولى بوادر جمع وجهين للإله في وجه واحد وصفتين في صفة واحدة وكما سيعبر عنه فيما بعد بـ: أقنومين في واحد أو ثلاثة في واحد. فقد وصلنا من حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد لوح بابلي^(٧) كتبه كُهان عبادة سرية متفرعة عن عبادة الإله الرسي في بابل لمردوخ الذي تابعنا مآثره البطبية في الانيوما ايليش، حيث قضى على تتين العماء البدئي وشكّل من جسده السماء والأرض وتابع بعد ذلك خلق الأكوان وترجع على عرش الآلهة سيداً مطلقاً. ولكنه في هذا اللوح أشبه بالإله تموز لأنه يموت ويندب العباد موته، ثم تذهب حبيبته للبحث عنه في العالم الأسفل. وأخيراً يصعد من مرقداه ظافراً ليحتفل الناس به ويشعّدوا بعودته. وفي الواقع لا أجد ضرورة لترجمة النص لأنه لا يقص الأسطورة ذاتها وإنما يعطي تعليمات لممثلي الأدوار في الطقوس المتعلقة بهذه الأسطورة بتمثيلها في أعياد رأس السنة من قبل أتباع هذه الديانة السرية، ويشرح المعنى السري لكل حركة في التمثيلية. وذلك في نفس الوقت الذي كانت تُمثّل فيه قصة إنتصار مردوخ الإله المطلق وترسيخه دعائم الكون على أنقاض العماء. وفي آخر هذا النص أورد كاتبه التذييل التالي: *أن المعاني الخفية لهذه الأفعال. لا يجوز أن تُقرأ من قبل أولئك الذين لم يدخلوا في هذه العبادة بشكل رسمي ووفق الطقوس المنصوصة. الواقع*

7 - J. L. Henderson, The Wisdom Of The Serpent, Collier Books, Newyork 1971

راجع أيضاً: س- هـ. هوك ديانة بابل وأشور، ترجمة نهاد خياطة، دار العربي دمشق ١٩٨٧ ص ٩٥-٩٦ وص ١٧٣-١٩٠.

٤ / هجرة الإلهاميت

تتنوع الأسطورة الواحدة بتنوع الزمان والمكان والناس. وبانتقالها من مكان إلى مكان ومن زمان إلى زمان، يضيف عليها ناقلوها أو يحذفون منها أو يُغيرون من تسلسل أحداثها. ولكنها من حيث الجوهر تبقى واحدة لأنها في الأصل تعبير من دوافع دفينية واحدة وحاجات نفسية وعقلية واحدة. وهكذا إنتقلت أسطورة الأم الكبرى إلى الروح الإخصابية الكونية وحببها المفقود، في سورية وأرض الرافدين إلى بقية أنحاء العالم المتمدن القديم، ففي مصر نجد أسطورة أيزيس وأوزوريس صورة طبق الأصل على مثلتها في سورية وبابل. وفي آسيا الصغرى وفرجيا نجد سيبييل وأتيس، وفي بلاد الإغريق نجد أفروديت وأدونيس الذي إحتفظ بإسمه السوري «ادون» دون تغيير إلا ما فرضته طبيعة التحوير اللغوي، كما نجد ديونيسوس وسيمييلي، قصة واحدة ولكن الأمكنة متعددة والأزمنة متنوعة.

أدونيس وأفروديت^(٨)

إنتشرت عبادة بعل في جميع أنحاء سورية وآسيا الصغرى وكان أسمه يسبق

8 – James Frazer, The Golden Bough, Macmillan, Lndon 1971 (Ch. XXXI).

بلقب «آدون» وتعني السيد أو الرب. وقد ناب هذا اللقب عن الإسم الأصلي وصار يُعبد تحت اسم «آدون» أو «آدوني» وخصوصاً لدى فينيقي «بيلوس» و«بانو» في قبرص وهما المدينتان الرئيسيتان اللتان ازدهرت فيهما عبادة هذا الإله. إلا أن تحويراً وقع على أسطورة بعل هنا. فالرب لم يُمَت في صراعه مع «موت» وإنما قام خنزير بري بإفتراسه في غابات لبنان أثناء الصيد، أما حبيته والبطله الرئيسية في سير الأحداث، القوة الإخصابية الكونية فلم تعد «عناة» الأوغاريتية بل زميلتها «عستارت» التي ظهرت بدور ثانوي في ملحمة بعل. والواقع أن هاتين الألهتين هما أما أصل أو إنعكاس للألهتين «انانا» و«عشتار» في بلاد الرافدين. وكما كانت انانا وعشتار آلهتان في واحدة، كذلك الأمر فيما يتعلق بعناة وعستارت حيث الشخصية واحدة ولكن التسمية اختلفت تبعاً للمكان والزمان. وكما مضت عناة تبحث عن بعلها كذلك مضت عستارت تبحث عن آدوني إلى أن أثمرت جهودها ونهض من بين الأموات على مرأى من عباده الذين قضوا فترة موته في ندب وعويل. وهكذا يمضي عباد آدون في كل ربيع عند فيضان نهر إبراهيم (نهر آدون سابقاً) بالبكاء ولطم الخدود والصدور على الإله الغائب، ويجري النهر الغاضب بمياه حمراء من جراء الأتربة التي تنجرف مع الثلوج الذائبة من المرتفعات، فيعتقدون أن دماء الإله القتل هي التي أعطت للمياه صبغتها، كما أعطت لشقائق النعمان المتفتحة لونها. وفي اليوم التالي كانت تعم الإحتفالات بقيامه آدوني فيرفع الناس الحداد ويأخذون بالرقص والشراب والممارسات الجنسية التي من شأنها تقليد لقاء الإله والآلهة والإيحاء للتربة بالخصب والعطاء.

ولقد حمل الكنعانيون (الفينيقيون) في ترحالهم معهم آلهتهم، وكان آدوني من أشهر الآلهة المرتحلة. وصل إلى اليونان حيث أُغرم به الناس هناك وزوجوه «أفروديت» آلهة الحياة والجمال، والنسخة اليونانية عن انانا أو عشتار*. وأضافوا لأسمه حرف الـ (س) وفق ما هو معمول به في معظم الأسماء اليونانية فصار «آدونيس». وتحكي الأسطورة اليونانية قصة آدونيس السوري مع بعض التحوير في

* يتابع عالم السومريات السيد M. Allegro أسم (أفرودايتي) اليوناني حتى أصوله السومرية. فكلمة Aphrodite في رأيه ليست إلا اشتقاقاً من المقطع السومري A-Buru- Da- ti الذي يدل على بعض صفات الرحم وبالتالي على الرحم نفسه⁽⁹⁾

9 - J. Allegro. The Sacred Mushroom and The Cross. Abacus, Newyork 1974

التفاصيل فشرة المر كانت في الماضي. آلهة شابة أُغرِمت بأبيها وتاقت إلى وصاله جنسياً مدفوعه إلى ذلك بعاطفة جارفة زرعها فيها الآلهة أفروديت إنتفاماً لآساءة سابقة. وقد إستطاعت بحيلة ما أن تُشبع رغبتها من أبيها دون معرفته بمساعدة وصيفة لها. ولكن الأب ما لبث أن أدرك الخدعة وعرف ما فعلت به إبنته فإستلَّ سيفه وجاء إليها ليغسل ذنبها بدمها. ولكن الفتاة صلّت للآلهة وتضرعت إليهم بحرارة لإنقاذها فأستجيب لها وأخفيت عن أنظار الأب بتحويلها إلى شجرة.

وبعد عشرة أشهر إنفتحت شجرة المر ليخرج منها أدونيس الشاب الذي حملت به من أبيها، فلمّا وقع عليه بصر أفروديت بهرها جماله الأخاذ وهامت به حباً فأودعته في صندوق حديدي وسلمته إلى برسيفوني آلهة العالم الأسفل لتُخفيه عن أنظار الآلهة. ولكن رسيفوني بدورها تُغرّم به وترفض إرجاعه إلى أفروديت، وترفع الألهتان القضية إلى كبير الآلهة «زوس» الذي قضى بأن يُقسّم أدونيس وقته في السنة إلى ثلاثة أجزاء، فواحد لنفسه وآخر لبرسيفوني ثالث لأفروديت ، وبذلك كان أدونيس يهبط مدة أربعة أشهر في كل سنة إلى العالم الأسفل ليعيش مع آلهته، ثم يغادر صاعداً إلى الحياة ثمانية أشهر أخرى وهكذا دواليك. إلى أن أساء في إحدى المرات للآلهة (ارتميس) ربة الغابات والصيد فأرسلت إليه خنزيراً برياً صرعه، ففاض دمه مُضرباً للورود بحمرة ازلية باقية .

«آتيس» و «سيبيل»:

من الآلهة الميتة التي وُلدت في آسيا الغربية بتأثير تموز وبعث ثم إرتحلت غرباً، الإله آتيس الذي نشأت عبادته في فرجيا بآسيا الصغرى وكان موته وبعثه موضع احتفالات ربعية سنوية. ولهذا بلغ من تشابه هذا الإله مع أدونيس أن القدماء كانوا في كثير من الأحيان يُطلقون عليهما الأسمين تبادلياً. كان آتيس راعياً شاباً غض الإهاب، وكان محبوباً للأُم الكبرى سيبيل أحياناً وإبناً لها أحياناً أخرى. ويُحكى عن مولده^(١٠) أن أمه «نانا» (وأسمها يُدكرنا بأنانا السومرية) **قد حملت به** وهي عذراء. وذلك عن طريق إحتضان غصن من شجرة اللوز (أو الرمان). ولكن عذرة

10 - J. Frazer. The Golden Bough, Macmillan, London 1971 Ch. XXXIX

أرضعته حتى شب وكبر. ومن هنا جاء. الأسم آتيس أي التيس.. وتحكى عن وفاته روايتان. فتراه في الأولى ضحية لغدر خنزير بري تماماً كأدونيس، وفي الثانية ضحية لعمل عنيف قام به هو نحو ذاته. فتراه يخصي نفسه تحت شجرة صنوبر وينزف حتى يموت. وقد حذا حذوه في ذلك جميع كُهَّان أمه سيبييل الذين كانوا يفقدون ذكورهم قبل الإلتحاق بخدمة هذه الآلهة.

وصل آتيس إلى رومة حوالي سنة ٢٠٠ قبل الميلاد بعد دخول عبادة الآلهة الأم إليها. وقد مضى إلى مدينة «بيسينوس» في فرجيا - وهي المقر الرسمي لعبادة سيبييل - سفراء دينيون وأحضروا إلى رومة الحجر الأسود المقدس الذي يرمز للآلهة العظيمة.

وبذلك تكون عبادتها قد إنتقلت رسمياً إلى الغرب حيث إستقبلت بحماس منقطع النظير، مبرهنَةً على أن الشرق الذي فشل في غزوه العسكري حوالي ذلك التاريخ عقب تراجع جيوش «هانيبعل» القرطاجني، لم تعوزه الحيلة لغزو من نوع آخر وأدهى ألا وهو الغزو الروحي. وقد وصلت إلينا صورة حية عن إحتفالات الربيع الخاصة بسيبييل وآتيس كما كانت تجري في رومة. ولا شك أن هذه الإحتفالات هي صورة عن الإحتفالات والطقوس التي كانت تُقام في آسيا الغربية.

ففي اليوم الثاني من آذار تبدأ الطقوس بإقتطاع غصن كبير من شجرة الصنوبر، ثم يُغَطَّى بأزهار البنفسج التي يُقال بأن دماء الإله الميت هي التي أعطتها لونها، ويُحَمَل من قبل ثلَّة من الكُهَّان وقد ربطت إليه صورة لرجل شاب هو آتيس، ويسرون به طوافاً في الشوارع. إلا أن الإحتفالات لسوء الحظ لا تُحافظ على هذا الطابع الهاديء .

ففي اليوم الثالث - ويدعى يوم الدم يبدأ كبير الكهنة بالطقوس الدامية فيجرح ذراعه ويخرج منها الدم كالنافورة قُرباناً للآلهة ويأخذ العازفون بعزف الموسيقى المجنونة بواسطة الأبواق والمزامير والصنوج والطبول، ويروح بقية الكهنة في رقص عنيف وحركات هائجة على إيقاع الموسيقى إلى أن تستبد بهم النشوة الدينية الجامحة فيأخذون بتجريح أنفسهم بالآلات الحادة فتنبعث منها الدماء وتُغطي المذبح والغصن المقدس. وهنا يقوم

* كان التيس من أولى الحيوانات المقدسة لدى الإنسان. ونظر إليه في أحيان كثيرة على أنه روح النبات وذلك ربما للدور الذي لعبه في الماضي البعيد عندما كان المزارع ينثر حبات القمح في الأرض ثم يتحرك قطع الماعز لينع الحقل جيئةً وذهاباً فوق الحبوب المنثورة مما يدفعها إلى أسفل التربة.

الكهنة المبتدئون بإخصاء أنفسهم ورمي قضبانهم المفصولة تحت قدمي تمثال الإله المنتصب. وربما قام آخرون من المتعبدين المشاركين بالأحتفالات بنفس الفعل في نوبة هستيرية من الوجد والإنجذاب فيقوم الواحد منهم بإخصاء نفسه ويركض في شوارع المدينة نازفاً متألماً لا يلوي على شيء. كل هذه الأفعال تهدف إلى إظهار الحزن على الإله الغائب وحث له على الرجوع من العالم الأسفل. وما أن يحل المساء حتى ينقلب جميع المتعبدين فرحاً وحزنهم بشراً. فلقد فُتح باب القبر ونهض الإله من بين الأموات. وفي صباح يوم ٢٢ آذار تنفجر الجموع في فرح جنوني في شوارع رومة في كرنفال صاخب، حيث يفعل كل إمرياً ما يحلو له في يوم سنوي مشهود. ومن الجدير بالملاحظة أن توقيت هذه الإحتفالات بقيامة آتيس يُقارب توقيت الإحتفالات المسيحية بالجمعة الحزينة يوم موت السيد المسيح ويوم الفصح حيث قام من بين الأموات. وسنعود إلى هذه القصة في مكان آخر من هذا الفصل.

ديونيسيوس^(١١)

إذا كان آتيس وأدونيس قد جاءا إلى العالم الهيليني من الشرق فإن آلهة أخرى قد وُلدت غربية هيلينية ولكن بروح شرقية وبتأثيرات سورية وبابلية. من هذه الآلهة ديونيسيوس. وهو إله ابن يهبط إلى الأرض ليموت ميتة شنيعة ثم يُبعث من جديد ويصعد إلى السماء ليحكّم في مملكة أبيه. قام زوس كبير آلهة الأوليمب بزيارة الآلهة بيرسفوني وهو في هيئة الأفعى فضاجعها وإنسحب فحملت منه وولدت الإله «زاغروس» أو «ديونيسيوس» الذي إعتلى عرش أبيه وهو طفل صغير.

وكانت الولادة في كهف صغير كانت ديمتر قد خبأت فيها إبنتها بيرسيفوني . ويُظهر لنا نحت بارز من العصر المتأخر شكلاً واضحاً للكهف حيث وُلد الإله الطفل وصورة للمهد الذي وضعته فيه أمه. وهذه الولادة تُحضر في أذهاننا صورة لادة المسيح في المغارة الصغيرة. غير أن «هيرا» زوجة زوس قد أكلتها الغيرة لإعتلاء أحد أبناء زوس لإمرأةٍ أخرى عرش أبيه فقامت بتحريض التيتان، وهم قوم متوحشون من آلهة الدرجة

11 - F. Guirand. Greek Mythology Hamlyn London 1963

الثانية كانوا في خصام مع زوس، على قتل الطفل. فهاجموه محاولين تمزيقه. ولكن الإله كان يُعَبِّرُ من شكله هرباً بنفسه منهم. فصار أسداً فحساناً فأفعى ولكن دون جدوى لأن التيتان قد نالوا منه أخيراً وهو في صورة الثور. فقتلوه وقطعوا جسده سبع قطع أكلوها جميعاً. ولم تُجَدِ محاولة زوس لإنقاذ ابنه لأن التيتان كانوا قد أتوا عليه قبل أن يصلهم برق كبير الآلهة ويحيلهم إلى رماد. وكانت الآلهة «أثينا» حاضرة على مقربة من المأدبة فقامت بإنقاذ قلب ديونيسوس وأسلمته لأبيه.

وكان زوس في تلك الأثناء على علاقة بـ «سيميلي» يزورها هيئته عادية وينام معها تاركاً وراءه البرق والصواعق وكل رموز سلطته وجبروته. فصنع من قلب ابنه شراباً دفع به إلى سيميلي لتشربه فحملت بديونيسوس مرة أخرى. ولكن هيرا لم تكن لتترك الإله الطفل يُلد مرة أخرى، فتنكرت في زي وصيفة وحرّضت سيميلي على أن تطلب من زوس أن يتجلى أمامها على صورته الحقيقية كما يفعل أمام زوجة هيرا. فلما إستجاب لها صعقها البرق وهبطت إلى العالم الأسفل ولكن زوس إستطاع أن ينقذ من بطنها الطفل الذي لم يصل بعد مرحلة النمو الكامل. ثم قام بشق فخذه وزرعه فيه وخاط عليه تاركاً إياه ليستكمل نموه. وعندما أن أوان ولادته فتح ساقه وإستخرجه طفلاً تاماً مكتملاً. ولكن الإله الذي لم يرَ أمه سيميلي هبط إلى العالم الأسفل باحثاً عنها وكان بحاجة إلى مرشد ودليل. غير أن المساعدة لم تُقدَّم له إلا بشرط واحد، وهو أن يخضع لفعل جنسي خضوعاً أنثوياً كاملاً. فقام ديونيسوس بصنع قضيب من غصن شجر التين وأولجه في إستيه. وقد عبّر هذا الفعل رمزاً للخضوع المطلوب قُدِّمَت على إثره له المعلومة المطلوبة وعاد بأمه من العالم الأسفل وأصعدَها إلى السماء^(١٢) بقي أن نقول أن التيتان بعد أن صعقهم زوس ببرقه وتحولوا إلى رماد، قد قام من رمادهم الجنس البشري.

وفي الإحتفالات الدينية الربيعية بديونيسوس، كان يجري تمثيل عذابات الإله الميت في لحظاته الأخيرة بدقائقها مصحوباً بالأناشيد الحزينة والموسيقى. ثم يؤتى بثور يُمَثِّلُ الإله القاتل الذي إلتهمه التيتان وهو على هذه الصورة فيمزقونه ويلتهمون لحمه ويشربون دمه على أصوات الموسيقى المجنونة، مُعَبِّرِينَ بذلك رمزياً عن رغبتهم في الإتحاد بالإله القاتل بواسطة أكل جسده وشرب دمه. تماماً

كما علمنا السيد المسيح، فيما بعد نقرأ في العهد الجديد، من الإصحاح ٣٦ :
 { وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ أَحَدٌ يَسُوعَ الْخُبْزِ ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ وَأَعْطَى التَّلَامِيذَ وَقَالَ: «خُذُوا كُلُّوا. هَذَا هُوَ
 جَسَدِي وَأَحَدَ الْكَأْسِ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ قَائِلًا: «اشْرَبُوا مِنْهَا كُلُّكُمْ، لِأَنَّ هَذَا هُوَ دَمِي الَّذِي لِلْعَهْدِ
 الْجَدِيدِ الَّذِي يُسْفِكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ لِمَغْفَرَةِ الْخَطَايَا. } . وبعد تناول القربان كانت الطقوس
 تستمر فيجري تمثيل ولادة ديونيسيوس الثانية وبعثه من بين الأموات. وبالإضافة إلى الثور فإن
 ديونيسيوس كان يمثل شكل التيس أو الجدي تماماً كالإله آتيس. ولذا فإن الجدي كان في أحيان
 أخرى هو الضحية التي تؤكل ويُشرب دمها كرمز للإله القاتل، وكان الراقصون يرتدون ثياباً من
 جلد الماعز في إحتفالاتهم تلك.

وتدعى الديونوسيسية أحياناً بالأورفية نسبةً إلى أورفيسوس وهو الرجل الذي أوجدها. ولا
 نستطيع البت في حقيقة وجود هذا الشخص لأن الأساطير والخوارق قد غللت حياته وسيرته
 شأنه في ذلك شأن بوذا وآخرين من مؤسسي الديانات الكبرى.

ديمتر و بيرسيفوني: (١٣)

من الأساطير اليونانية الأخرى ذات المادة الشرقية والحياسة الهيلينية،
 أسطورة «ديمتر» الأم اليونانية الكبرى وربة القمح والمحاصيل وإبنتها بيرسيفوني. فبينما كانت
 بيرسيفوني تجمع الأزهار من الحقول إنشقت الأرض فجأة وظهر من باطنها «هاديس» إله العالم
 الأسفل في عربته الذهبية فإختطفها وأخذها معه إلى مملكته السفلى زوجةً له ومملكة. ولما طال
 غيابها إرتاعت الأم ديمتر وراحت تذرع الأرض بحثاً عن إبنتها المفقودة ولكن دون جدوى. وما
 لبثت أن علمت أن زوس قد أعطى بيرسيفوني لأخيه هاديس هدية. فراحت تهيم على وجهها دونما
 هدف ولا غاية إلى أن تعاظم حقدتها وغمها الحنين لإبنتها، فراحت في عمل إستفزازي لآلهة
 الأوليمب ترسل الامراض والأوبئة على بني البشر، ومنعت عن الأرض شجرها ومحاصيلها. فجزع
 زوس لعملها هذا . وأرسل الآلهة واحداص بعد الآخر لإقناعها بالتوقف عن فعلها ورد غضبها
 ولكن عبثاً . فما كان منه سوى أن اقنع هاديس بأن يحرج بيرسيفوني ولكن بعد فوات الأوان
 وبعد أن جعلوها تأكل من نبات معين يجعل

صاحبه يعود إلى العالم الأسفل إن هو خرج منه ثلاثة أشهر كل عام. فراحت ديمتر بلقاء ابنتها وكفت بلواها عن البشر وأفرجت عن روح الخصوبة المحتجزة، فعادت الأرض سيرتها الأولى ولكن إلى حين، لأن بيرسفوني ستعود ثانيةً إلى العالم الأسفل. وفي كل سنة ستحزن الأم على فقد ابنتها وستجف لحزنها المزروعات وتحجب الأرض لغالها.

وقد عاشت ديمتر حية في قلوب عبّادها فترة طويلة جداً بعد تحول أوروبا إلى المسيحية فإتخذت في مدينة إيلوسيس موطن عبادتها الأساسي أسم القديسة ديمترا وبقي تمثالها هناك معزراً مكرماً حتى عام ١٨١٠ عندما حمّله إلى لندن رجلان إنكليزيان وقدماه للمتحف البريطاني. ومنذ ذلك الحين وأهل أيلوسيس يعزون جذب الأرض وشح المحاصيل إلى غياب تمثال القديسة عن المنطقة.

إيزيس و أوزوريس: (١٤)

وفي إتجاه آخر إرتحل الإله الميت نحو الجنوب إلى مصر فتحدثنا أسطورة إيزيس وأوزوريس عن ولادة أوزوريس وموته وبعثه. ووفق هذه الأسطورة نجد الإله أوزوريس بطلاً حضرياً يُعلّم المصريين الزراعة والحصاد والأعمال اليدوية النافعة، تساعد في ذلك أخته وزوجته إيزيس. وفي إحدى المرات قام أخوه الإله «سيت» أو «طيفون» بحيلة خبيثة جعلته سجين صندوق خشبي. فسمرّ عليه وقذفه في مياه النيل فطاف الصندوق حتى صب مع مياه النهر في البحر المتوسط وهناك تدافعت الأمواج حتى وصل إلى مدينة بيبلوس الكنعانية حيث علّق بإحدى أشجار الشاطئ الوارفة. وقد راحت إيزيس تبحث في جميع الأنحاء عن حبيبها الضائع إلى أن وجدته فعادت بالصندوق والجثة إلى بلدها لتعيد له الحياة. ولكن «سيت» عثر على الصندوق فقام بتقطيع جسد أوزوريس، ووزّع القطع في جميع أنحاء البلاد حتى يصبح من المستحيل إعادة الحياة لها مرة ثانية. ولكن إيزيس بدون يأس تابعت البحث مرةً أخرى إلى أن وجدت الأجزاء جميعاً عدا عضو الذكورة الذي بقي مفقوداً. ثم أعادت له الحياة بمعونة أختها الآلهة «نفتيس» ونُشابه طقوس أوزوريس طقوس الآلهة الميتة الأخرى من بكاء على الإله وتمثيل لعذباته ومن ثم الفرح ببعثه وإنتصاره على الموت. وقد رحل أوزوريس إلى رومة تحت أسم «سارابيس» وشاعت عبادته هناك شيوعاً عظيماً.

٥ / الإله المخلص

أن تاريخ الدين والأسطورة هو تاريخ صراع الذات مع الموت، ففي المراحل الأولى كانت الذات مسحوقة تجاه الموت، والعالم الأسفل مسيطراً جباراً لا مهرب منه ولا فكاك من أسرهِ الأبدى. وكان هم الإله الميت أن يحفظ البشر أحياء طيلة الفترة المقررة لهم في العالم الفاني. لذلك كان هذا الإله في مراحلهِ الأولى إله خصب وقوى طبيعية، تنحصر جهوده في دعم الإنسان في صراعه مع الجوع والفناء، دون أن يكون قادراً على تحريره من ربة الموت ومنحه خلوداً أبدياً حقيقياً. إلا أن حياته وموته وبعثه كانت أموراً موحية بأمل غامض وبعيد بإمكانية الخلاص من سيطرة الموت كما تخلّص منها إله الخصب. فكان تعلق قلوب العباد بهذا المخلص الحياتي، تعبيراً عن النزوع الإنساني الأبدى نحو الخلود. ولم يكن ظهوره في ضمير البشر إلا مظهراً من مظاهر صراع الظاهرتين الكونيتين في داخل الإنسان وخارجه، صراع الموت والحياة. ونستطيع القول أن نمو الديانات البعلية (ديانات الخصب) وإكتسابها غلبة شعبية على الديانات الإيلية (ديانات الآلهة السماوية البعيدة) هو حالة تالية في تطور الدين والإسطورة، وحالة وسط تحتوي على شيء من التوازن بين الحياة والموت.

أما المرحلة الثالثة فتتمثل عن حق مرحلة إنتصار الحياة على الموت في الدين والأسطورة، فما حصل لإله الخصب مرة سيحصل لكل عباده المخلصين ممن سيدخلون في ديانتهم، ويلتحقون به من دون بقية الآلهة. قال السيد المسيح « مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا ». وتحولت ديانة الخصب إلى ديانة سرية وتحول مخلصها الأرضي الحياتي إلى مخلص روجي، باسطاً سيطرته من عالم الحياة إلى عالم الموت أيضاً. مقدماً لعباده خلاصاً لروحهم من سطوة العالم الأسفل. وبعد أن كان الفرد حراً في الماضي في إختيار الآلهة التي يعبدها ويكرس لها طاعته، وحرراً في التنقل من إله لآخر كلما خلا له ذلك، فقد أصبحت الآن الجماهير المسحوقة التي ضاقت ذرعاً بالهتاج الزائفة للتطور المادي، تنزولاً للإلتصاق بإله أقرب إلى طينة البشر وألصق بعواطفهم وأعلم ببواطن أمورهم، إله لا يعيش في السماء ويرنو من عليّ ممثلاً كمال الأشياء، بل يعيش بين الناس ويُعاني مثل ما يعانون، ثم أنه يموت كما يموتون، ولكنه يصعد من عالم الموتى ويُصعد معه عباده المُتحدّين الملتصقين به، المتحدّين معه، واهباً الخلاص الروحي لأولئك الذين إختاروه عن قصد ورغبة ومروراً عبر جميع الطقوس السرية الإداخلية اللازمة للإنتماء للجماعة والإتحاد بالإله ولقد بلغ الإنتصار على الموت قيمته في المسيحية التي أعطت الإنسان بعثاً كاملاً غير منقوص، حيث يعود الجسد سيرته الأولى بكل تفاصيله وأجزائه .

شاعت ديانات الأسرار شيوعاً عظيماً عقب فتح الأسنكدر الكبير للشرق وتأسيس الدولة العالمية التي ضمت معظم الحضارات القديمة.

وبلغت أوجها في عهد الإمبراطورية الرومانية التي كانت تمثيلاً وتجسيداً لإنتصار الحضارة المادية التي لا تُبنى إلا على أشلاء الحرية الفردية، وسيطرة الدولة بكافة أجهزتها القمعية. وقد تماثلت هذه الديانات وتشابهت لدرجة أصبح معها من الصعب تفريق واحدة من الأخرى وإرجاع العناصر الخاصة بكل منها إلى أصولها. وأهم ما يميز الديانة السرية كونها تضم مجتمعاً مغلقاً على ذاته لا يدخله إلا الأفراد الراغبون عن حق في الإنخراط بهذه العبادة. عند ذلك سيمر المنتسب الجديد عبر مجموعة من الطقوس الإداخلية من شأنها تهيئته جسدياً وروحياً وتطهيره من أدران حياته السابقة وخلقه من جديد. من جملة هذه الطقوس الإعتراف بين يدي كاهن الديانة بالخطايا الماضية، والتعميد بالماء، والصيام. وفي بعض الأحيان كان يوضع المنتسب

الجديد في حفرة ثم يُدبج عند فوهتها ثور ينسال دمه مدراراً إلى داخل الحفرة حيث يغتسل به ويأخذ بعضه في فمه ثم يخرج وقد غسل ماضيه.

وفي ديانة «ميثرا» وهو الإله الذي جلبه معهم جنود رومة من فارس وشاعت عبادته شيوعاً عظيماً في أرجاء الإمبراطورية، نجد مجموعة من الإختبارات التي يتعرض لها المنتسب الجديد. منها المرور عبر نار متأججة والسباحة في تيارات مائية والقفز من أعلى جرف خطر.. وما إلى ذلك. ونستطيع أن نتخيل أن مثل هذه الإختبارات كانت حقيقية ولكنهم استبدلت تدريجياً بأفعال رمزية تدل عليها. وبعد اجتياز هذه الإختبارات بنجاح لا يصبح العضر الجديد ضمن الجماعة مباشرة بل لا بد له من المرور بثلاث مراحل تستغرق فترة من الزمن يُمتحن خلالها تطوره الروحي.

والواقع لقد بقيت عبادات وطقوس الديانات السرية خفية، وبإسثناء الأعياد الربيعية السنوية التي سبق تفصيلها، لا نكاد نعرف إلا القليل عما كان يجري بالفعل. من هذا القليل الذي نعرفه أن معظم هذه الديانات كانت تُمارس نوعاً من العشاء السري حيث يؤتى بحيوان هو رمز الإله الميت فيقتل ويؤكل لحمه ويشرب دمه كفعل رمزي للإتحاد الحقيقي بالإله. وفي غير هذه المناسبة فإن قتل هذا الحيوان وأكله يُحرّم تحريماً باتاً. كما هو شأن حيوان الخنزير المحرّم أكله لدى السوريين من عبّاد أدونيس إلا في طقس العشاء السري. ولدى المصريين أيضاً إلا خلال الطقوس المشابهة الخاصة بأوزوريس. وقد تبني اليهود هذا التحريم إقتداءً بأسيادهم المصريين وجيرانهم السوريين دونما سبب واضح.

٦ / السيد المسيح

« آخر المخلصين »

في هذا الجو الثقافي المشبع بديانات الأسرار وجيش الآلهة المخلصين ظهرت المسيحية إلى الوجود. وكان الأتباع الأول للسيد المسيح هم قلة من اليهود المشبَّعين بالأفكار المهدية التي كانت من القوة في تلك الآونة بين جماعة اليهود لدرجة كان معها ظهور المهدي المنتظر أو المسيح المُرتقب متوقعاً في أي لحظة وساعة، لينقذ الشعب من إضطهاد الرومان ويبيني ملكوت الرب في الأرض. ولم يعتقد هؤلاء في البداية بأنهم إنما ينتسبون لدين جديد بل نظروا لأنفسهم دوماً على أنهم فرقة متميزة في الدين اليهودي القديم. ورغم أن المسيح قد خيب آمال الكثيرين في ذلك الوقت عندما ترك نفسه للصلب والموت، فإن من بقوا على إيمانهم، رأوا أن المسيح قد غادرهم لأن الناس ليسوا بعد على مرحلة تؤهلهم للدخول في ملكوت الرب وأن عليهم أن يتطهروا قبل أن يعود المسيح إليهم مرة ثانية.

إلا أن المسيحية لم تحافظ على وضعها هذا بإعتبارها فرقة يهودية صغيرة لأسباب متعددة : فأولاً: لم يتحوّل للإيمان الجديد سوى قلة من اليهود. وثانياً: تأخرت عودة المسيح إلى درجة كبيرة: ثالثاً: تدمير مدينة أورشليم أثر ثورة مسلحة قام بها اليهود

على الرومان وتم بذلك توجيه ضربة قاضية لأمالهم القومية.

أخيراً: فقد أثبتت تعاليم السيد المسيح أنها أشمل وأوسع من التفسيرات اليهودية الضيقة . فبدأت بالانتشار في الأصقاع المجاورة والبعيدة. وقد إنتشرت المسيحية أولاً لدى بعض أفراد الجاليات اليهودية في اصقاع الإمبراطورية الرومانية، ولكنها ما لبثت أن إنتقلت إلى أفراد من غير اليهود وأخذت تُشكل تدريجياً ديناً قائماً بذاته منفصلاً عن اليهودية. وقد ساعدت تعاليم بولص الرسول إلى حد كبير في تدعيم هذا الانفصال فكان يؤكد دوماً على أن الخلاص يأتي عن طريق الإيمان بالسيد المسيح بالدرجة الأولى لا عن إتباع ما تقول به الشريعة اليهودية. وهكذا، وبدخول الغرباء إلى المسيحية أخذت المسيحية تغدو غريبة عن اليهودية. ولما كان هؤلاء الغرباء بعيدين كل البعد عن فكرة المهدي أو المسيح المنتظر الذي يُنقذ شعبه من الإضطهاد ويُعيد بناء أمجاده، فقد قاموا بصياغة فكرتهم الخاصة عن المسيح وطبيعته ودوره. ولأن معظم من دخلوا في الدين الجديد كانوا أتباعاً لديانات سرّية، ولأن الجوهر العام لهذه الديانات هو المسيطر على أفئدة الناس في تلك الأونة. ولأن الرسل الأوائل أرادوا إجتذاب الجماهير بإسلوب يألفونه وصيغ إعتادوا عليها. لهذا كله فقد نَحَت المسيحية منى الديانات السريّة وتبنّت كل ما إستطاعت أن تتبناه وما يتلائم معها من طقوسها ومعتقداتها. فتحول المسيح من مُبشّر يهودي إلى إله ميت. وهو كَمَن سبقه من الآلهة المخلّصة -إله ابن- يولّد من عذراء ويُبشّر برسالة جديدة ثم يُعاني ويتألم ويموت. ولكنه يتغلب على الموت ويصعد منتصراً من عالم الأموات حاملاً الخلاص والحياة الأبدية لمن آمن به. ولكن خلاص المسيحي لا يعتمد على الإتحاد الجسدي بالإله عبر مجموعة من الطقوس، كما هو الأمر في الديانات السرية، بمقدار ما يعتمد على الحياة الأخلاقية القومية. وقد كافح الدين الجديد كفاحاً مريباً ضد الديانات الرسمية للإمبراطورية ولكن كفاحه الأقوى والأمر كان كفاحاً صامتاً لا عراك فيه ولا دماء ضد الديانات السرية. ولعل أقوى تلك الديانات التي نازعت المسيحية فترة طويلة من الزمن على الفوز بقلوب الناس كانت ديانة «ميثرا». الشديدة الشبه بالمسيحية والواسعة الإنتشار في شتى أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وهذا التشابه القريب بين الديانتين أذهل المسيحيين أنفسهم فإعتبروه من صنع شيطان رجيم. وكان الميثريون يهتمون بالمسيحيين بإقتفاء أثرهم وإقتباس معتقداتهم، والمسيحيون بدورهم يردون الإتهام

بمثله. ولعل أثراً من آثار ذلك العراك الطويل ما زال ماثلاً حتى أيامنا هذه. فالعالم المسيحي ومن ورائه العالم الحديث الذي يتبع في تاريخه التقويم المسيحي، يحتفل بميلاد المسيح يوم ٢٥ كانون الأول وهو يوم الانقلاب الشتوي حيث تمصل الشمس إلى آخر مدى لها في الميلاّن عن كبد السماء، وحيث يصل النهار آخر أشواطه في القصر ويبدأ بعد ذلك بالإمتداد على حساب الليل. فهذا اليوم بالذات أُعْتُبرَ دوماً في الديانات الشمسية عيد ميلاد للشمس فيه تتجدد قوتها وتستعيد عزمها لمقارعة قوى الظلام.

وقد أقرنت عبادة أدونيس في سورية وأوزوريس في مصر في فترات متأخرة بالشمس. فيحدثنا السيد J. Frazer في كتابه *The golden Bough* ^(١٥) أن السوريين ليلة ٢٥ كانون الأول يحتفلون بمولد أدونيس فيجتمعون في المعابد ويصرخون عند منتصف الليل: «لقد أنجبت العذراء إبناً. والنور ينتشر». والمقصود بالعذراء طبعاً هو آلهة الشرق الكبرى عشتار أو عستارت التي يدعوها الساميون بالسيدة السماوية أو ملكة السماوات، فالعذراء لقبها والعذرية جوهرها رغم كونها آلهة الحب. لأنها معطاء دون أن تنقص.

ويوم ٢٥ كانون أول هو بالذات عيد ميلاد «مثيراً» فهو إله الضوء والخير والشمس رمزه، الشمس التي لا تقهر والتي تبدأ في هذا اليوم بالصعود إلى كبد السماء دافعة قوى الشر والظلام أمامها.

أما فيما يتعلق بميلاد المسيح فإن الأناجيل لم تذكر تاريخاً محدداً له، ولذلك فإن الكنيسة الأولى لم تحتفل بميلاده. ولكن لسبب ما بدأ مسيحيو مصر يحتفلون بميلاد المسيح يوم ٦ كانون الثاني. وانتشرت هذه العادة حتى عمّت في إبان القرن الثالث للميلاد كافة الأصقاع الشرقية للأمبراطورية الرومانية.

ولكن مع نهاية القرن الثالث قامت الكنيسة الغربية التي لم تحتفل حتى ذلك التاريخ بميلاد المسيح، بتبني يوم ٢٥ كانون الأول تاريخاً رسمياً لعيد الميلاد وتبعتها في ذلك الكنيسة الشرقية وجرى الاحتفاظ بيوم السادس من كانون الثاني على أنه «عيد الغطاس». أن بني الكنيسة لهذا التاريخ بالذات لا يمكن تفسيره إلا على ضوء صراعها مع الديانة الميثورية، والتكتيك الذي إتبعته في صراعها مع الديانات القائمة في ذلك الوقت.

ولعل عيد الفصح يعطينا مثلاً آخر على تبني المسيحية للمناسبات والأعياد الخاصة بديانات الأسرار. فعيد الفصح هو عيد قيامة المسيح من بين الأموات بعد أن عاش ما عاناه في يوم الجمعة الحزينة على درب الآلام. وقد تبنت الكنيسة يوم ٢٥ آذار عيداً للفصح، وبذلك يكون بعث السيد المسيح هو بعث ربيعي، شأنه في ذلك شأن آلهة الخصب القديمة والمخلصين الأوائل وخصوصاً أدونيس وأليس الذي كان يحتفل عبّاده بقيامته فيما بين يوم ٢٤ و ٢٥ آذار. وبعيداً عن هذين العيدين الرئيسيين فإننا نجد أعياداً وثنية أخرى قد حُوِّرت وأسبغت عليها الصفة المسيحية، فعيد الآلهة ديانا قد أصبح عيد صعود السيدة العذراء. وعيد الأموات قد

أصبح عيد جميع القديسين، والأمثلة على ذلك كثيرة

أما الأم الكبرى أو القوة الإخصابية الكونية المتمثلة بآلهة الحب العذراء فقد حلّت محلها السيدة مريم العذراء التي دُعيت بسيدة السماوات وهو اللقب الرئيسي للآلهة عشتار. وحتى وقت قريب كانت السيدة مريم تُدعى في بعض المناطق الريفية في إيطاليا الجنوبية: «افروديتسا» نسبة إلى افروديت كما كانت تماثيل الآلهة ديمتر الباقية في بعض الخرائب العتيقة تُعبّد على أنها السيدة مريم ذاتها.

وليس الصليب نفسه كرمز للسيد المسيح بالرمز الجديد في عالم الديانات القديمة. فقد أقرن الصليب بعدد من آلهة الخصب الشرقية القديمة. فهو رمز الإله « اندارا» أحد أشكال الإله بعل أو حدد^(١٦) والذي تُصوره الأعمال الفنية السومرية جالساً على عرشه وبين يديه وتحت قدميه جِراراً يتفجر منها ماء الحياة. والصليب أيضاً رمز الآلهة الفينيقية «بارات» آلهة مدينة بيروت، وأحد أشكال آلهة الخصب عشتار أو عشتروت، نراه في كل منحوتة أو صورة لها، ممسكة به بيدها أو منقوشاً على عرشها. وشكل الصليب هو الإصطلاح الدال على الخصب في اللغة السومرية، ويُرسَم هذا الاصطلاح على الشكل التالي^(١٧):

والواقع أن الذي أعطى للمسيحية هذا الطابع الجديد المنفصل عن اليهودية والقريب من الديانات الشرقية السريّة. كان القديس بولص الذي كان كلما تعمّق بالتفكير وكلما إزداد بالتبشير والإحتكاك بجماهير الناس في الإمبراطورية الرومانية

16 - Joseph Shaban. Following The Gods. Philosophical Library. New York 1963

17 - J. Allegro, The Sacred Mushroom and The Cross, Abacus, New York 1974



بارات



«بارات» كما يُصورها
عمل فني مصري بيدها
اليسرى صليب صغير

كلما إتجه في تفسيراته للمسيحية نحو الأفكار التي تعرفنا عليها سابقا في الديانات الشرقية البعلية والمتعلقة بالخلاص والفداء والدرام الإلهي. إلا أن هذا لم يمنع مطلقاً من أن بولص كان ناقداً واعياً لديانات الأسرار السائدة في ذلك الحين، وعلى وجه الخصوص تلك الديانات التي كانت تضع أمور الطقوس والقواعد الشكلية قبل قضايا الحياة الأخلاقية القويمة، وكان يقول دوماً: أنه من غير المعقول أن ينال الخلاص إنسان دون آخر لمجرد مروره عبر مجموعة من الطقوس الإدخالية. ولقد أخبرنا بولص القليل جداً عن المسيح بإعتباره مسيحاً يهودياً منتظراً لتحرير شعبه، بينما أخبرنا الكثير عن المسيح بإعتباره مُخلصاً للإنسان أينما وُجد ومن أي عرق كان. نقرأ في رسالته إلى أهل غلاطية ٣: ٢٦-٢٢ { لَأَنَّكُمْ جَمِيعاً أُنْبَاءُ اللَّهِ بِالإِيمَانِ بِالمَسِيحِ يَسُوعَ. لِأَنَّ كُلَّكُمْ الَّذِينَ اعْتَمَدْتُمْ بِالمَسِيحِ قَدْ لَبِسْتُمْ المَسِيحَ. لَيْسَ يَهُودِيٌّ وَلَا يُونَانِيٌّ. لَيْسَ عَبْدٌ وَلَا حُرٌّ. لَيْسَ ذَكَرٌ وَأُنْثَى، لَأَنَّكُمْ جَمِيعاً وَاحِدٌ فِي المَسِيحِ يَسُوعَ }. وقد ركز كثيراً في تبشيره على حادث الصلب والقيامة من بين الأموات. لقد كان المسيح مخلصاً هبط إلى الحياة وتألّم ثم مات من أجل خطايا الإنسان. ولكنه بُعث من جديد وصعد إلى السماء. وهنا البعث هو النقطة المحورية في كل الديانة المسيحية. نقرأ في رسالة بولص إلى أهل كورنثة ١٥: ١٤ « وَإِنْ لَمْ يَكُنِ المَسِيحُ قَدْ قَامَ، فَبَاطِلَةٌ كِرَاثَتُنَا وَبَاطِلٌ أَيْضاً إِيمَانُكُمْ، » وأهمية هذه القيامة لا تكمن في أن المسيح قد حقق الآمال المهدية للشعب اليهودي بمقدار ما تكمن في أنه قد ضمن الخلود لأتباعه المتحدّين معه وخلصاً من رقبة الموت لمن آمن به.

ولعل أقرب الناس إلى القديس بولص كان القديس يوحنا الذي إلتقى في كثير من أفكاره مع بولص الرسول. نظر يوحنا إلى المسيح أيضاً بإعتباره مخلصاً

وفادياً أكثر منه محققاً للآمال المُهَيَّدة لدى الشعب اليهودي. ولكنه على خلاف بولص كان أقل تركيزاً على الإتحاد الطقسي بالإله المعبود وأكثر تركيزاً على أن الإتحاد إنما هو نتيجة المعرفة بالمسيح واتباع تعاليمه. فتكرار كلمة «أنا أوْمَن» وحده لن يكفي لتحقيق الخلاص، بل لابد من العمل بما يُملِّيه هذا الإيمان. نقرأ في الإصحاح ١٣ : ٢٤ « الْحَقُّ الْحَقُّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَالْأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا يَعْمَلُهَا هُوَ أَيْضًا، وَيَعْمَلُ أَعْظَمَ مِنْهَا، لِأَنِّي مَاضٍ إِلَى أَبِي.» «إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ،»

هذا وقد إلتقت المسيحية أيضاً في كثير من طقوسها بطقوس الديانات البعلية السابقة عليها كطقس المعمودية بالماء الشائع لدى معظم ديانات الأسرار والذي كان يقصد إلى تجديد الفرد وغسل ماضيه لإدخاله في النحلة الجديدة، وطقس القربان المقدس الذي كان يقصد إلى الإتحاد بالإله عن طريق أكل جسده وشرب دمه رمزياً كما رأينا بوضوح في طقوس الديانة الديونوسيسية. يقول السيد المسيح: « أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ، مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ.» كما تعطينا بعض العبارات الطقسية المسيحية دليلاً حياً على إنبثاق المسيحية من ديانات الخصب القديمة في الشرق الأوسط. فصِيحة «هيلولويا» المستعملة في الاناشيد الطقسية، ليست إلا الصيحة التي كانت رمزاً لعبادة الإله «ديونيسيوس»، والتي كانت على فهم دائم: إيلوليو ELELEU حتى لقد دعاها الناس في أحيان كثيرة بـ «الإيلوليين» نسبة لصيحتهم المتعبدة هذه. وفيما يتعلق بهذه الكلمة نستطيع أن نلاحظ أن الجزء الأول منها مُشتق من الكلمة السومرية IA - U والتي تعني السائل المخصَّب. (١٨) وعليه فإن هذه الكلمة قد تعني «إله السائل المخصَّب» الذي هو حدد في ديانات الشرق الأوسط القديمة، والذي إرتحل فيما بعد نحو الغرب ليلتقي بعد فترة بإله آخر قادم من نفس المنطقة فيتحدان معاً ليعطيا العالم الحديث إحدى أكبر وأهم دياناته.

تعريف بأهم الآلهة

« وفق تسلسل أنجدي »

آبسو:

أحد ثلاثة آلهة بدئية، تحدّر منها فيما بعد جميع الآلهة في الإسطورة البابلية. كما تشكلت منها المادة الأساسية للكون. فأبسو هو الماء العذب البدئي -و«تعامّة» زوجته الماء الملح البدئي. يمزجان أمواهما معاً في دِعَة وإطمئنان وسكون أزلي، وفوقهما ينتشر الضباب المنبعث منهما، وهو الإله البدئي الثالث «ممو» وقد قُتل أبسو فيما بعد على يد الإله «انكي» أو «إيا» في ثورة قام بها الآلهة الشابة.

أدونيس:

أسم آخر للإله السوري «بعل» إله المطر والسحاب والبرق والرعد وكل مظاهر الخصب الأخرى. والكلمة آرامية، وأصلها «آدون» أي الرب أو السيد. أو «آدوني» بمعنى ربي أو سيدي. وهي من الصفات التي كانت تسبق أسم الإله «بعل». أما حرف الـ «س» فهو إضافة من اللغة اليونانية لأسم الإله بعد أن وصلت عبادته إلى بلاد الإغريق. وقد عُبدَ بعل تحت هذا الأسم لدى فينيقي الجنوب في

مدينة «بيلوس» وغيرها. إلا أن تحويراً قد وقع هنا على الأسطورة. فأدونيس لم يمُت كبعل في صراعه مع الإله «موت» كما تحدثنا ألواح رأس شمرا، وإنما قام خنزير بري بقتله في غابات لبنان. أما حبيبته والبطلة الرئيسية في هذه المأساة فلم تُعد «عناة» الأوغاريتية بل زميلتها «عستارت» التي ظهرت بدور ثانوي في ملحمة بعل. وكما كانت «انانا» السومرية و«عشتار» البابلية، آلهتان في واحدة، كذلك الأمر فيما يتعلق بعناة وعستارت، حيث الشخصية واحدة، والتسمية اختلفت تبعاً للزمان والمكان، وكما مضت عناء تبحث عن بعل، كذلك تمضي (عستارت أو «عشتاروت» كما صارت تُدعى أيضاً) تبحث عن أدوني إلى أن أثمرت جهودها ونهض من بين الأموات. ويترافق رجوع الإله من عالم الأموات بإحتفالات عظيمة، حيث يأخذ الناس بالرقص والشراب، بعد أن قضا فترة غيابه في ندب وعويل. كما تتخلل هذه الإحتفالات الممارسات الجنسية التي من شأنها تقليد لقاء أدوني وعستارت، والإحياء للتربة والزرع بالخصب والنماء، بعد أن عاد إله الخصب من موته ليُعيد للطبيعة التي غابت بإحتجاجه (راجع بعل).

أقتر:

أحد أولاد «عشيرة» زوجة «أيل» كبير آلهة الكنعانيين. رُفِع إلى عرش بعل بعد وفاته، ولكنه لم يقدر على ملئه فنزل خائباً، وبقي العرش شاغراً إلى أن بُعث بعل من بين الأموات.

اريشكيجال:

آلهة العالم الأسفل في بلاد الرافدين. كانت من قبل فتاة عذبة وآلهة سماوية. ولكن الإله «كور» وحش العالم الأسفل إختطفها غنيمَةً لتعيش معه هناك، كما إختطف «هادس» إله عالم الموتى اليوناني الفتاة بيرسفوني من أمها «ديمتر» ويبدو أن «كور» قُتِل في إحدى معاركه الكثيرة، لأننا لا نعثر له على ذكر فيما تبقى من الأساطير والعبادات، وتبقى اريشكيجال سيدة مطلقة للعالم الأسفل. لاريشكيجال أسماء أخرى منها «ارجالا» و «كيجال».

آشور:

كبير آلهة الآشوريين، وهو صورة طبق الأصل عن الإله البابلي «مردوخ» وقد قام الآشوريون بتبديل أسم مردوخ إلى آشور في معظم الأساطير التي ورثوها.

انكي - إيا :

«انكي» إله المياه العذبة الباطنية عند البابليين. وأسمه عند السومريين «إيا». تحكي لنا ملحمة التكوين البابلية كيف تغلب على «آبسو» المياه العذبة البدئية والتي كانت تُشكل مع «تعامة» المياه الملحة البدئية، هيولي الكون، والوجود البدئي اللامتشكل. وبعد أن قهره، حبسه في مسكن سفلي وبني فوقه مسكنه. وعند ذلك الوقت، والمياه العذبة خاضعة للإله انكي، يفجرها أنهاراً أو ينابيع في نظام محكم بديع.

وأذكي إلى جانب ذلك إله للمكر والدهاء والحيلة، تماماً كالماء الذي يعرف طرقه وقنواته متحايلاً على الحواجز والعوائق. كما أنه إله الحكمة والمعرفة العميقة، تماماً كالماء الساكن. حين تنظر إليه لا تُدرك له قرار. وإلى جانب هذا وذاك. فانكي إله السحر والقوى الغامضة، وإليه تُعزى معظم أساطير خلق الإنسان، أو الدور الرئيسي المباشر في خلقه.

انانا:

آلهة الحب والخصب عند السومريين. وبها إرتبطت مظاهر تبدل الطبيعة لأنها رضيت مختارة أن تهبط درجات الموت السبع إلى العالم السفلي لتضمن للطبيعة نظاماً تتعاقب فيه الفصول، تعاقباً يحفظ إستمرار الحياة النباتية على الأرض. أن الطقس الحار والجاف الذي يُنضج القمح والفاكهة ليس بأقل أهمية من الشتاء البارد والماطر. وموت الخريف ليس إلا مرحلة تحضيرية للبعث في الربيع. ففي نزول انانا لعالم الموتى غياب لمظاهر الخصوبة في التربة، وعُري للأشجار وموت للنبات. وفي صعودها من العالم الأسفل، بعد أن قهرت الموت، إنتعاش لقوى الخصوبة الممثلة فيها وانبثاق للخضرة والحياة في مملكة الزرع والنبات.

وعند البابليين تتخذ «انانا» أسم «عشتار» وتهبط للعالم الأسفل من أجل تحرير زوجها «تموز» الأسير هناك. وذلك بعكس انانا التي أرسلت زوجها «دوموزي» للموت مكانها بعد أن صعدت، وذلك كشرط أساسي لتحريرها. ولما كان الإنسان القديم ينظر لخصب الأرض وخصب الإنسان على أنهما مظهران لجوهر واحدة، فقد كانت انانا – عشتار آلهة للحب أيضاً. وأرتبطت بعبادتها كثير من الطقوس الجنسية والإحتفالات الإباحية. وخصوصاً عندما كان عبّادها يحتفلون بعودتها من العالم الأسفل في أعياد الربيع المشهورة، بعد أن أمضوا أياماً في البكاء والعيول مشاركةً لها في أحزانها على تموز الغائب وخوفاً من ألا تعود من عالم الموتى حيث مضت. أسمها لدى الكنعانيين «عناة» في أوغاريت و«عسارت» أو «عشتروت» في بيبلوس وصيدون وغيرهما من مدن الشاطئ الجنوبي. ولها أشكال كثيرة فنراها تحت أسم «اتارغاتيس» أو «بارات» وغيرهما وذلك في الفترات المتأخرة.

وعشتار هي كوكب «الزهرة» إبنة الإله القمر «سن» و يعادلها عند الإغريق «أفروديت» وعند الرومان «فينوس». وهي إلى جانب كونها آلهة للحب والخصب فأنها إلهة للحرب والمعارك، شجاعة تغشى الوغى مع عبادها لتنصرهم على أعدائهم، تمثلها بعض الأعمال الفنية مدججة بالسلاح على أسد متوتّب. وهي رغم كل غرامياتها وممارساتها الجنسية فإن لقب العذراء لم يفارقها أبداً.

وما زال حتى الآن بعض الكلمات الدالة على الفعل الجنسي في اللغات السامية تجد أصولها في أسم «عشتار» كقولنا باللغة العربية «عاشرها» بمعنى ضاجعها.

اقليل:

إله الهواء والعاصفة عند السومريين. يأتي في المرتبة الثانية رسمياً بعد «آن» إله السماء ورئيس مجمع الآلهة. إلا أن قيام اقليل بتنظيم الكون وإخراجه من لجة العماء والهبويoli الأولى، قد أعطاه الأهمية الكبرى في مجمع الآلهة، فحاز لنفسه معظم ما كان لـ«آن» من هيبة وسلطة، وكذلك بعد أن قام بفعل فصل السماء عن الأرض بعد أن كانا ملتصقين في جبل واحد في قلب المحيط الأول البدئي. أستمر اقليل فيما بعد عضواً في مجمع الآلهة البابلية، ولكن في مركز ثانوي لأن «مردوخ» قد أستولى على المركز الأول في ذلك المجمع.

إيرا: إله الطاعون والأوبئة الفتاكة والدمار لدى البابليين. همّة الدائم إشاعة الخراب والفوضى في العالم.

إيل:

إله السماء لدى السوريين، ورئيس مجمع الآلهة. ويُعادل «آنو» لدى أهل الرافدين. عبده العبرانيون في مطلع عهدهم، ولذا فقد ورد اسمه تبادلياً مع أسم إلههم «يهوه» في أكثر من موضع في العهد القديم، وهو أصل أسم «إيلوهيم» الذي يستعمله العبرانيون أيضاً تبادلياً مع «يهوه» و«إيل» هو الأسم الذي نطق به المسيح قبل أن يسلم الروح عندما صرخ باللغة الآرامية: (ايلو ايلو.. لما شبتني) أي الهي إلهي لماذا تركتني.

أوتو:

إله الشمس عند السومريين. وهو ابن القمر «سن» وحفيد «انليل» الهواء الذي أنجب القمر من حبيبته «ننليل»، والقمر بدوره أنجب الشمس من زوجته «ننجال» وأوتو أسمه عند البابليين «شمش» وعند الكنعانيين «شيش»

بامرات:



آلهة مدينة بيروت الفينيقية. وهي أحد أشكال الآلهة عشتاروت. حملها الفينيقيون معهم عبر مضيق جبل طارق فأعطت أسمها للجزيرة البريطانية. كان الصليب رمزها الأساسي. نراها مُمسكة بيدها أحياناً. وأحياناً أخرى نراه محفوراً على كرسيها.

بعل: إله المطر والسحاب والصواعق وكل مظاهر الخصب عند السوريين. وأسمه

أيضاً «حدد». وتحت هذا الأسم الأخير دخل مجمع الآلهة البابلية. ورغم أنه بقي من الناحية الرسمية الآلهة الثاني بعد «ايل» رئيس مجمع الآلهة الكنعانية، إلا أنه كان الإله المفضل والمحبوب لدى عامة الناس. فهو الذي نظّم الكون بعد تغلبه على المياه الأولى المُمثّلة بالآلهة «يم» المحيط البدئي والهيولي والعماء. وهو الذي دخل بعد ذلك في صراع كوني آخر مع «موت» إله مملكة الظلام والموت والعالم الأسفل، إنتهى بخسارته المبدئية وبتسليم نفسه «لموت». ولكنه ما لبث بمعونة حبيبته «عناة» أن بُعث من بين الأموات وقهر الإله موت. إلا أن عودته هذه ليست عودة أبدية، لأنه سيعود بعد سبع سنوات للصراع مع موت من جديد. وهذا الصراع سيتكرر للأبد مُمثّلاً تعاقب سنوات الخصب وسنوات القحط، هذا التعاقب المميز للمناخ السوري. ولبعل أيضاً أسماء أخرى غير حدد. منها «آدون» الذي إرتحل إلى بلاد الإغريق فأسموه «أدونيس» وزوجوه من أفروديت آلهة الحب والجمال. ومنها أيضاً «النعمان».



حدد:

إله المطر والصواعق والسحاب
والرعد وكل مظاهر الخصب عند
السوريين (راجع بعل).

داجون:

والد الإله بعل. وهو في أصله إله زراعي ذو علاقة بالقمح والحبوب بمورة رئيسية. ولكننا نجده فيما بعد وقد تحول إلى إله بحري لدى الفلطينيين. فيصوّره لنا كتاب التوراة على هيئة إله له ذيل سمكة.

وربما كان تحول زارع القمح إلى ملاحين، قد جلب معه تحول في إله القمح وهو الغذاء الرئيسي للمزارع، إلى إله بحري ذو علاقة بالأسماك وهي الغذاء الرئيسي لدى البحّارة والصيادين من سكان الشواطئ.

دوموزي - تموز:

دوموزي إله راعي، تقدم لخطبة «انانا» آلهة الحب والخصب لدى السومريين ونافسه في ذلك الإله المزارع «انكمدو» حيث تقدم كل منهما بقران للآلهة انانا من منتجاته. فقبلت نانا تقديمه دوموزي الراعي وتزوجته ولم تنظر إلى تقديمه انكمدو المزارع.

ولما كانت انانا آلهة للخصب، فقد إقترن اسم زوجها أيضاً بقضية الخصب والزراعة دون أن يكون هو نفسه إلهاً زراعياً. وأعتبره كثيرون خطأ إلهاً للخصب. والحقيقة فإن السبب في هذا الألتباس راجع إلى الخطأ في فهم الطقوس الخاصة بدرام هبوط انانا ومن بعدها عشتار للعالم الأسفل. فأنانا تهبط للعالم الأسفل في الأسطورة السومرية، وهناك تقبض عليها اريشكيجال آلهة ذلك العالم وتسلبها روحها. وبموت انانا تغيب مظاهر الإخصاب عن الطبيعة وتجف المزروعات وتزول الخضرة عن وجه الأرض. فيمضي عبادها في حزن وندب وعويل حتى تقهر الموت وتصعد إلى عالم الحياة مرة ثانية. ولكن هذه العودة مرهونة بشرط واحد هو أن ترسل بدلاً عنها للعالم الأسفل، فتقرر انانا إرسال زوجها دوموزي الذي تخطفه الأشباح التي رافقت انانا في صعودها وتمضي به إلى مملكة الموتى .

ولكن «عشتار» وهي التسمية البابلية لأنانا هي التي تمضي لفك أسر دوموزي من العالم الأسفل وقد أصبح اسمه البابلي (تموز)، ولدى غيابها تغيب مظاهر الإخصاب من الطبيعة؛ وترجع برجعها ظافرة من الموت مصطحبة معها حبيبها تموز القتل إلى الحياة. فينقلب حزن العباد فرحاً واحتفالاً بعودتها وعودة زوجها.

من هنا نلاحظ أن دور تموز الراعي هو دور ثانوي في ديانة الخصب السومرية والبابلية، وإن الضحية الرئيسية هي عشتار التي يقوم تموز إلى جانبها بدور المساعد على تحريك الأحداث. وفي الحقيقة فإن بكاء الناس على تموز ليس مقصوداً لشخص تموز بالذات بمقدار ما هو مشاركة للآلهة عشتار في حزنها على الإله الغائب.

تعامر:

المياه الأولى، والمحيط البدئي، تتين العماء والهيولي الأصلية لدى البابليين. كانت منذ الازل مع زوجها «آبسو» المياه العذبة البدئية بدعةً وطمأنينة يمزجان أمواهما معاً، وفوقهما ينتشر الضباب «ممو» الإله البدئي الثالث.

ولكن الحال لا يدوم على هذا المنوال. فهذه الآلهة البدئية تبدأ في التناسل وتنجب عدداً كبيراً من الآلهة الشابة التي تتناسل بدورها ليأتي جيل من الآلهة يقوم بالثورة على هذه الآلهة البدئية، حيث يموت أبسر في الثورة على يد «انكي» (إله الماء فيما بعد) وتموت تعامة في الثورة الثانية على يد مردوخ الذي يغدو سيد الآلهه جميعاً.

يقوم مردوخ بشطر تعامة إلى شطرين يرفع الأول سماءً ويجعل الثاني أرضاً ويلتفت بعد ذلك لخلق بقية الكون وتنظيمه .

شمش:

إله الشمس عند البابليين. (راجع اوتو) وقد أُعْتَبِرَ إلهاً للعدالة وهو الذي أوحى لحمورابي بشريعته الشهيرة.

شباش:

آلهة الشمس عند الكنعانيين. وهي أنثى على عكس «شمش» البابلي و«تو» السومري.

سن:

إله القمر لدى أهل الرافدين. وهو ابن الإله «انليل» الهواء من حبيبته «نليل». ولـ«سن» اسم آخر هو «نانا».

عشتار:

آلهة الحب والخصب لدى البابليين (راجع انانا).

عشيرة:

زوجة « إيل » إله السماء ورئيس مجمع آلهة الكنعانيين. وهي شكل من أشكال الآلهة الأم - الأرض. ولا علاقة لها بتاتاً بالآلهة عشتار.

عشتارت - عشتاروت:

كانت عشتارت آلهة ثانوية في أوغاريت ولكنها تغدو رئيسية لدى فينيقي الجنوب وتأخذ سلطات وصلاحيات الآلهة عناة الأوغاريتية. من أسمائها أيضاً عشتاروت (راجع عناة).



عناة:

مردوخ:



الإله الثاني بعد «أنو» إله الماء لدى البابليين. ولكنه السيد الفعلي لمجمع الآلهة والأعلى بينهم جميعاً. ذلك إنه الوحيد الذي تجرأ على التصدي « لتعامه » الآلهة البدئية الأولى وأم جميع الآلهة، عندما شنت على ذريتها من الآلهة الفتية حرباً شعواء لإبادتهم، فتعامه التي تمثل الماء الملح الأول، والعماء والهيولي، والسكون. قد ساءها وأقلق راحتها صخب الآلهة الشابة التي تروح وتجيء في داخلها، فقررت إفناءهم لتستطيع الركون ثانية، والعودة إلى سلام الأيام السالفة حيث كانت تعيش في سكون تام مع زوجها «أبسو» الماء الحلو

و«ممو» السحب المنخفضة المنبعثة عن هذا المزيج ولكن مردوخ تصدى لها وشتت شمل جيشها ثم شقها نصفين، صنع من النصف الأول السماء ومن النصف الثاني صنع الأرض. وتابع بعد ذلك عمليات الخلق الأخرى، فخلق الكون من بين يديه بالصورة التي نراه عليها الآن. ومردوخ هو سيد إحتفالات رأس السنة البابلية (الايكيتو)، حيث يقوم الكهنة بتمثيل قصة انتصاره على العماء وإحلال النظام وخلق الإكوان كل عام، في أعياد مشهورة لم يحدث التاريخ بمثلها. وكوكب مردوخ هو «المشتري» أما ابنه «نبو» فهو كوكب «المريخ».

موت :

إله الحرارة والجفاف والعالم الأسفل عند الكنعانيين. يدخل في صراع دائم مع بعل إله المطر والسحاب ومظاهر الخصب الأخرى. فيغلب موت بعل أنأ ويغلبه بعل أنأ آخر. وغلبة إحداهما هي التي تقرر سيادة الخصب أو سيادة الجفاف. فكان بعل يموت كل سبع سنوات، ولكنه ما يلبث أن يتغلب على خصمه.

دنخساح؛

الأرض الأم، لدى البابليين، ينبثق عنها كل الأحياء من بشر ونبات وحيوان. وهي النموذج الأمومي الأول الذي نتج عنه فيما بعد كل تكرار لفعل الأمومة. فإنجاب الأطفال وتوالد البنات، أمور هي في جوهرها تقليد لفعل الإنجاب الأولي الذي قامت به الأم الكبرى. أسمها السومري «كي». ولها أسماء أخرى منها «نماخ» و «ننتو» و «مامي» و «ماما». وهي لدى الكنعانيين «عشيرة» زوجة إيل إله السماء، ولدى الحثيين «سيبيل» ورغم أن الأرض في البداية هي زوجة للسماء، إلا أنها تغدو فيما بعد زوجة للماء «انكي» وعن إتحادها يحيا النبات والإنسان.

نيسابا:

آلهة المحاصيل عند البابليين. فيقال (لقد أدارت نيسابا صدرها الخصب) أي أن الأرض لم تعد تُعطي محمولاً وفيراً. وهي أحد أشكال الأرض الأم.

نرجال:

زوج آلهة العالم الأسفل «اريشكيجال» يحكم معها مملكة الموتى. كان إلهاً سماوياً، ولكنه هبط إلى العالم الأسفل بأمر من ملكته، عقوبةً له لرفضه إظهار الاحترام والتبجيل لرسلمها الذين ارسلتهم إلى مجمع آلهة السماء، حيث وقف لهم الجميع إحتراماً إلا هو. ولكنها أحبته وتزوجته نظراً للشجاعة التي أظهرها عند نزوله فغدا سيداً لمملكة الظلام.

نمو:

المياه الأولى التي إنبتق عنها كل شيء عند السومريين.

ننورتا:

إبن الإله انليل. وإله الرياح الجنوبية العاصفة وهذا أيضاً رب القنوات والسدود والري.

مراجع الكتاب

- Allegro John. The sacred Mushroom And the Cross, Abacus, N.Y 1974.
- Delaport, L. Phoenician Mythology (in Larousse Encyclopedia of Mythology).
- Eliade, M. The sacred And the profanc. Harvest Book, N.Y .
- Every, G. Christian Mythology, Hamlyn, London, 1970.
- Frazer, James. The Golden Bough, Macmillan, Newyork 1971.
- Freund, philip. Myths of creation, W.H.Allen, London 1964.
- Fromm, Erich. The forgotten Language, New York 1970. .
- FrankFort, Henri. Befor philosophy, Pelican. London 1964. .
- Guirand, F. Greek Mythology, Hamlyn. London 1963.
- Gray, John. Near Eastern Mythology. Hamlyn. London 1969.
- Gordon, C. H. Ugarit, Norton Library, Newyork 1967.
- Graves, Robert. Greek Myths. Penguin, London 1974.
- Hiedel, Alexander, The Babylonian Genesis, phoenix, Chigaco 1969.
- Hook, S. H. Middle Eastern Mythology, , Pelican. London 1969
- Harding, M.E. woma.s Mysteries, Harper, Newyork 1970
- Henderson, J. L. The wisdom of the Serpent, collier, N.Y. 1970.
- Jung. C.G. Man and His symbois. Newyork 1964
- Kramer. S.N. Mythology of the Ancient world. Anchor, N.Y
- Kramer. S.N. Sumerian Mythology. Harper and Row. N. y. 1961
- Kramer. S.N. Sumerian Myths and Epic Tales (In Ancient Near Eastern Texts).
- Kirk, G.S. Greek Myths, Pelican Book, London 1977
- Malinowsk: Magic, science and Religion, Graden City, N.Y. 1954.
- McNeill. The Ancient Near East, Oxford, London 1968
- Neumann, Erich. The Great Mother, Princeton. N.Y. 1974.
- Pritchard, James. Ancient Near Eastern Texts, Princeton New jersy 1969
- Speiser. E.A. Akkadian Myths (In Ancient Near Easter Texs).
- Sheban, Joseph. Following the Gods, philosophical Libraty N. Y. 1963.
- Vlaud. j. Egypton Mythology (In Larousse Encyclopedia of Mhology).
- Watts, Allen. Mrth and Ritual in Christianity, Thames and Hudson, London 1954.

المراجع العربية:

- سيجموند فرويد - تفسير الأحلام. مكتبة التحليل النفسي، القاهرة ١٩٧٠.
- سجموند فرويد، موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت
- مُسنَد ابن حنبل، المطبعة الميمنية، القاهرة.
- الثعالبي، عرائس المجالس
- الطبري، تاريخ الرسل والملوك.
- ابن عربي، الفتوحات المكية
- يوسف اليوسف، قراءة في ملحمة التكوين البابلية، مجلة المعرفة العدد ١٩٧-١٩٧٨.
- نسيب وهيبه الخازن، أوغاريت.
- توينبي، مختصر دراسة للتاريخ - الجامعة العربية، القاهرة ١٩٦٢.

فهرس الأسماء والمواقع والمدن

أوديب: ٣٨	أريشكيجال: ٣٤ - ٥٠ - ٢١٥	[أ] آيسو: ٥٢ - ٥٣ - ٧٦
أور: ٤٤	٢٧٦ - ٢٨٢ - ٢٩١	آتيس: ٣٦١
أورفيوس: ٣٦٥	إسرائيل: ١٢٩	آدابا: ٢٤١ - ٢٤٣
أورانوس: ٣٦ - ٣٨	إسحق: ١٢٩	آدم: ٣٦ - ٤٧ - ١٠٠ - ١٠٢
أوزوريس: ١٣٢ - ٣٦٦	أشكور: ٤٤	١٤٢ - ١٤٧ - ٢٥١
أوغاريت: ١١٠	أشنان: ٤٦ - ٤٧ - ٢٦٤	أدونيس: ٢٣١ - ٢٥٥ - ٣٥٩
أوقيانوس: ٣٥٠	أفروديت: ٣٨ - ٣٥٩	آدون: ٢٣١ - ٢٥٥ - ٣٥٩
أوليغار و أنجار: ١٠٤	أقهاث: ١١١	آرورو: ١٠٤
أهورامزدا: ٣٠٥	الأم الكبرى: ٤٢ - ١٠١ - ٣١٣	آساج: ٢١٧
[س] سوموقان: ٤٥ - ٩٩	أليجيبييل: ٤٢	آن: ٣٢ - ٣٤ - ٥٠
سيبار: ٩٩	أنانا: ١٩٨ - ٢٦٥ - ٢٦٨ -	أنو: ٥٠ - ٥٢
سيبيل: ١٠١ - ٣٦١	٣١٧ - ٢٨٠	أنوناكي: ٣٤
سيرارا: ٤٤	أنبيلولو: ٤٤	أبرام: ١٢٩
سيرين: ٤٤	إنشار: ٥٢	ابراهيم: ١٣٠
سيميلي: ٣٦٤	انليل: ٣٢ - ٣٤ - ٣٩ - ٤٩ - ١٩٩ -	إبليس: ٢٩١
[ش] شبيش: ١١١	٢٧٧ - ٢٨٨	أتراحيسس: ١٧١
شمش: ١١١	أنكي: ٤٣ - ٤٤ - ٤٥ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠	إثر: ٣٥٣
شو: ٣٦	٢٧٧ - ١٥٨ - ٥٢	أختاتون: ١٣١ - ١٣٣
شيئول: ٣٠٢	أنكيدو: ١٦٢ - ١٢٠ - ٢٨١	أرارات: ١٩١
[ص] صفون: ١١٧ - ١٢٣	أنكمدو: ٤٤ - ٢٥٦	أركالا: ٣٧٧
[ع] عدن: ٢٥٥	أنول و نيلول: ١٠٤	أريديو: ٤٩٠
العذراء: ٣١٣	أوتنابشتيم: ١٦٢ - ٢٥١	أريك فروم: ٨٧
عستارت: ١١١	أوتو: ٣٣ - ٢٢٠	

يشوع: ١٣٠	محي الدين بن عربي: ٣٧	عشتار: ١٠١-٣٣٧
يعقوب: ١٢٩-١٣٦-١٣٨	مردوخ: ٣٦-٤٢-٤٩-٥٣	عشيرة: ١٠١-١١١-٣٥٣
يهوه: ٢٠٩-٢٣١	ممو: ٥٢	علي: ١٢٠-١٢٢-٣٥٠
يم: ٤٩-٥٠	موت: ١١١-٥٠	عناة: ١١١-٣٤٧
١١١-١١٢-٣٤٨	موسى: ١٣٠-١٣١-٢٠٩	العصن الذهبي: ١٥
يوروبا: ١٠٩	ميثرا: ٣٦٩	[ف] فرويد: ١٦-٣٨-٢٥٦
يونغ: ١٧	ميسلاميتا: ٢٧٧	فييلو الجبيلي: ١١٠-١٢٤
	[ن] نانا: ٣٣-٤١	[ق] قرص: ٣٨
	نرجال: ٢٧٧-٢٨٢-٢٨٣-	[ك] كرت: ١١٠-١١١
	٢٩١	كرونوس: ٣٨
	نسكو: ٣٩	كنعان: ١٩٤
	نعمان: ٢٠٦	كوثرو حاسيس: ١١٥
	نمو: ٣٢-٣٤-٣٥-٤٥-٥٠	كور: ٣٤-٣٥-٢١٥-٢١٨-
	نتتو: ٥٠-١٠١	٢٧٦
	ننخرساج: ١٠١-١٠١-٢٣٩	كي: ٣٢
	ننماخ: ١٠١	كيشار: ٥٢
	ننورتا: ٢١٧	كينغو: ٥٣-٥٤
	نهر: ١١٣	[ل] لابلاس: ١٠
	نوت: ٣٦	لابو: ٢٥٥
	ننسو: ٣٩	لالو: ٨٢
	نيسابا: ١٧٢	لخمو: ٥٢
	[ه] هادس: ٣٥-٣٦٥	لطببان: ٣٥٢
	الهاوية: ٣٠٢	لوتان: ١٣٧
	هوميروس: ٤٤-٥١	لوسيفر: ٢٩٤
	هيرا: ٣٦٣	[م] مالينوفسكي: ١٥
	[ي] ياهو: ١٣٦	مامي: ١٠١

المحتويات

٥	- مخاطبة.....
٩	- فاتحة.....
٢٥	- سفر البداية.....
٣١	التكوين السومري.....
٥١	التكوين البابلي.....
١١٩	التكوين الكنعاني.....
١٢٩	التكوين التوراتي.....
١٤٥	ألواح التكوين السبعة وأيام التكوين السبعة.....
١٥١	- سفر الطوفان.....
١٥٧	الطوفان السومري.....
١٦١	الطوفان البابلي.....
١٨١	الطوفان التوراتي.....
١٩٧	أساطير الدمار.....
٢١١	- سفر التينين.....
٢١٥	التينين السومري.....
٢٢٥	التينين البابلي.....
٢٣١	التينين التوراتي.....
٢٣٥	- سفر الفردوس المفقود.....
٢٣٧	الجنة السومرية.....
٢٤١	الجنة البابلية.....
٢٥١	الجنة التوراتية.....
٢٥٩	- سفر قابيل وهابيل.....
٢٦٣	ثلاثة نصوص سومرية.....

٢٦٩	قايين وهابيل.....
٢٧٣	- سفر العالم الأسفل.....
٢٧٩	الجحيم السومري.....
٢٨٧	الجحيم البابلي.....
٢٩٧	الجحيم التوراتي.....
٣٠٧	- سفر الإله الميت.....
٣١٥	هبوط أناثا إلى العالم الأسفل.....
٣٣٥	هبوط عشتار إلى العالم الأسفل.....
٣٤٥	هبوط بعل إلى العالم الأسفل.....
٣٥٧	هجرة الإله الميت.....
٣٦٥	الإله المخلص.....
٣٦٩	السيد المسيح آخر المخلصين.....
٣٧٥	تعريف بأهم الآلهة.....

المؤلف في سطور

- * فراس السواح، مفكر سوري يبحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البُعد الروحي عند الإنسان.
- * من مواليد حمص/ سورية ١٩٤١
- * صدرت له الأعمال المطبوعة التالية :
- * مغامرة العقل الأولى: دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين
الطبعة الأولى، دمشق ١٩٧٦. الطبعة الحادية عشر - دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٦
- * لغز عشتار: الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة.
الطبعة الأولى، دمشق ١٩٨٥. الطبعة السادسة - دمشق دار علاء الدين ١٩٩٦
- * جلعاشم - ملحمة الرافدين الخالدة - الطبعة الأولى. دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٦
- * الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم - الطبعة الأولى دمشق ١٩٨٩ ، الطبعة الثانية دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٣
- * دين الإنسان: بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني - الطبعة الأولى، دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٤ - الطبعة الثانية، دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٥
- * آرام دمشق وإسرائيل - في التاريخ والتاريخ التوراتي - الطبعة الأولى، دمشق، دار علاء الدين ١٩٩٥